بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

أيها الإخوة الأعزاء:

بحول الله تعالى وقوَّته نبدأ كلامنا عن معاني الصلاة وحكمتها وغاياتها وخشوعها، وفلاح الذين أقاموها وأتوا بها قائمة، تامَّةَ الخشوعِ والركوعِ والسجودِ والقيامِ بفهمِ الأذكارِ.

فإننا نجد أن الأجيال الأولى التي نصرها الله ﷻ - وكانت لها الريادة والقيادة في الأرض ومُكِّنَ لهم - أقاموا الصلاةَ فعلًا، والفرق بيننا وبينهم كما قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩].

فالأجيال الأولى التي مَكَّنَ الله لها إنما أقاموا الصلاة، أما نحن فأضعنا إقامة الصلاة إلا من رحم ربي، فالمصلُّون قليلٌ، والمقيمون الصلاةَ أقلُّ القليل.

ولذلك عقدنا العزم - بحول الله تعالى وقوته - على أن نحاول مساعدةَ أنفسنا لكي نُحْسِنَ الصلاةَ؛ وأن نساعد الكلَّ - بإذن الله تعالى - على إقامة الصلاة، فإقام الصلاة هو الهدف، فصلاتنا تقترب من الصِّفْر، وهذا هو المُشاهَد إلا من رحم الله، فعلًا صلاتنا تقترب من الصفر،

وسأبدأ - إن شاء الله - بفكرة عامة عن أركان الصلاة.

قد تكون هذه البداية غير مرتَّبة، ولكنَّا سنعاود الكلام في كل جزء - بإذن الله تعالى؛ أي: ستتكلمُ عن القيام والركوع والسجود إجمالًا، ثم نعودُ للقيام الثاني، ثم فاتحة الكتاب، ثم نعود للقيام والركوع، ونفصِّلُ معانيَ التسبيح والتعظيم، ونعودُ إلى السجود، ونفصلُ معانِيَ التسبيح والعُلُوِّ لله سبحانه وتعالى وعز وجل، ونعودُ إلى جِلسة العبيد ونفصلُ فيها الدعاء بطلب خَيْرَيِ الدنيا والآخرة والتعوُّذِ من شَرَّي الدنيا والآخرة؛ أي: سنأخذ المسألة واحدةً واحدةً دون ترتيب، لأن الهدف ألا نُحَصِّلَهُ كلامًا علميًّا؛ فالهدف - بحول الله تعالى وقوته - أن نأخذ كلامًا نحاول ونجتهد أن ننفذه في صلواتنا، فهذا هو المطلوب. أي: ليس المطلوب؛ الآن كلامًا منمقًا بالألفاظ والمحسنات البديعية، بل المطلوب الآن بيان معانٍ تستقرُّ فعلًا في القلوب، وسنكررها مراتٍ ومراتٍ - بإذن الله - حتى يستطيع كلٌّ منا أن يصليَ فعلًا صلاةً حقيقية وأن يجرب ذلك. فهل كل القارئين سيخشعون في صلاتهم إذا انتهينا من هذا الكتاب؟

هل كل القارئين سيفعلون ما وعدناهم به؟ كلَّا وألف كلَّا، ولا أطمعُ في ذلك أبدًا، ولكن هو جهاد؛ أي: سنبقى في صلاة وجهاد.

ما هذا الجهاد؟ مجاهدةُ النفس في ذات الله - تعالى - أثناء الصلاة، مجاهدة شرسة بينك وبين عدوِّ الله، منازلةٌ، هل تحصل من صلاتك على تسعة أعشارها؟ أم على ثمانية أعشارها؟ أم على سبعة أعشارها؟ وهكذا؛ فهي معركة بينك وبين الشيطان. قد يستمرُّ هذا الجهاد بينك وبين نفسك وشيطانك وهواك في الصلاة سنة أو سنتين أو عشر سنوات. المهم قبل أن تموت أن تعرف كيف تُصلي، وكيف تُحضر قلبك، وكيف

تخشع لله، هذا هو هدفي، ليس مسألة كلامٍ فحسب!!

الكتب موجودة ونستطيع أن نقرأ منها والعبارات منمقة، ولكن نحن نريد معانيَ تستقر في الداخل، وسأكثر من ضرب الأمثلة -إن شاء الله- حتى تستعين بها على إقامة الصلاة.

فلا أحد يستعجل أو يستطيل الكلام في جزئية معينة، فعليك أن تتشرب ما يُلقَى عليك، وأن تحاول قيام الليل من الآن كي تجرِّب جهادك لنفسك ولهواك ولشيطانك في الصلاة.

۞ هل تريد أن تكون من المفلحين؟

هل تفلح أم لا؟ هل تريد أن تكون من المفلحين أم لا؟ من أراد أن يكون مفلحًا، فلا بد عليه أن يكون من الخاشعين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ [المؤمنون: ١، ٢]؛ فلا يمكن أن تُفلح أبدًا إلا إذا كنت من الخاشعين.

كيف تخشع؟ هل إذا قرأت الكتاب -القرآن- وفهمته كنت من الخاشعين؟ أبدًا، وقد تمر عليك عشر سنوات وأنت تفهم هذا الكتاب ولا تخشع ولا تفلح! لأن المطلوب أن تأخذ المعاني وتتشربها وتعمل بها، فمتى تصل إلى ذلك؟ لن أقول لك: إنك تستطيع ملاحقة المعاني واستحضارها مثلًا في صلاة المغرب اليوم أو صلاة العشاء إلا أن يشاء الله، ولكن لديك متسع في القيام تصلي ركعتين في القيام تأخذ فيهما نصف ساعة مثلًا، وتعيد الآية مرة ومرتين وعشرًا، وكذلك الفاتحة، وتعيد التسبيحة مرة وثلاثين وخمسين حتى تستقر المعاني في داخلك، هذا هو الجهاد، وإلا فلن تتغير مهما اطلعت على هذا الكتاب، وتقوى الله بوجه عامٍّ تُحَصِّلَ لك كل الخير.

معنى إقامة الصلاة، وما الصلاة المكفِّرة؟

لا أظنني بحاجةٍ إلى ذِكْر تعظيم قدر الصلاة، والكتاب المصنَّف اسمه: «تعظيم قدر الصلاة» لمحمد بن نصر المَرْوَزِيِّ، وهو من سلف الأمة الكرام، والكتاب يذكر كثيرًا جدًّا عن تعظيم الصلاة ولا أظنني بحاجة إلى ذكر هذا؛ لأنكم تعلمون قدر الصلاة. مثال: تعلمون أن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر(١)، فهل كلٌّ منَّا خرج من المسجد وقد كفَّرت صلاتُه سيئاتِهِ؟ كلا؛ لو كان ذلك كذلك ما كان هذا حالَنَا؛ لأن الصلاة المكفِّرة هذه لها شروط؛ وهي الصلاة التي تصليها بخشوع والتي أقمتها؛ أي: أتيت بها قائمة، كمن يقول: زِنِ الذبيحة قائمة أي شاملة كل شيءٍ لا ينقصها شيءٌ، فهي بشعرها وجلدها؛ كذلك الصلاة، أتيت بالصلاة قائمةً تامةَ الركوع والسجود والقيام والقراءة والخشوع؛ فهذه هي الصلاة المكفِّرة.

فالصلاة المكفرة ليست أيَّ صلاة، وبالطبع ليست صلاتنا التي نراها الآن؛ إنما الصلاةُ التي كصلاة الأصحاب هذه هي الصلاة التي تُكفر الخطايا والذنوب، وهي التي تجعل الإنسان يرتقي ويفلح وينجح، ويخرج من الصلاة كأن أحمالًا ثقيلةً جدًّا أُلقيت من على عاتقه، ويشعر بأنه أصبح خفيفًا نشيطًا للعبادة. ليس كمن يخرج من الصلاة متعبًا قد ضاقت نفسه ويقول: هيا نذهب لنستريح.

هناك فرقٌ كبير بين: «**أرحنا بها يا بلال**»(٢) وبين الذين يقولون:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) من حديث رجل من خزاعة.

(أرحنا منها)!! فالمحبُّون يقولون: هيا بنا نصلِّ لنستريح بها؛ أي: من المصائب والهموم والغمِّ والكرب، هيا نصلِّ لنستريح ولنرفع الهموم والغموم والكروب. فالصلاة المكفرة هي الصلاة الثانية، وتكفير الصلاة للسيئات بحسب تمامها، فالذي يخرج من الصلاة وقد استراحت نفسه؛ فهذا قد مُحِيَت عنه السيئات، وانتزعت منه ومُحِيَتِ البُؤَرُ الصَّدِيدِيَّةُ التي هي المعاصي والذنوب، فالذي صلى هو المستعدُّ الآن للانطلاق بخفة ونشاط إلى الصالحات وإلى الطاعات. في المقابل الشخص الآخر كأنه يحمل (١٠٠ كجم) من الحديد إذا قلت له: تحرك بالخُطوة السريعة، فكيف يتحرك؟ وكيف يكون نشيطًا؟

فالإنسان الذي دخل الصلاة - وهي من المكفرات - هل تُكفر بمجرد الإتيان بها؟ لا؛ ولكن تكفير الصلاة للسيئات بحسب تمامها وقيامها وخشوعها..... إلى آخره.

وليس هنالك حاجة للتذكير بأن الصلاة من أفضل الأعمال: سُئل النبي ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قال: «**الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا**»(١)، وكل ما ورد عن تعظيم قدر الصلاة، وعن فوائد الصلاة، وعن أفضلية الصلاة مشروط ومقيد بإقام الصلاة، أي: يُراد به الصلاة التي أقيمت، أي: أتينا بها قائمةً تامةَ الركوع والخشوع والخضوع والسجود والقراءة. هل تجد موضعًا في كتاب الله فيه ذِكْرُ الصلاة بغير إقام الصلاة؟ لا تكاد تجد موضعًا فيه الأمر بالصلاة إلا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

فهذا الكتاب محاولة نستعين بها - بعد حول الله تعالى وقوته - كي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٤)، ومسلم (٨٥) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

نُحْسِن الصلاة، وكي نقيم الصلاة. كم سنة مضت ندرس فيها فقه الصلاة وكيف نصلي بالهيئات ونختلف: هل الإصبع يتحرك أم لا؟ وكيف تكون اليد اليمنى على اليسرى؟ فالهيئات مجرد عامل مساعد للقلب الذي هو مَلِكُ الأعضاء وهذا هو المطلوب.

ولذلك أردنا أن نبين المعانيَ والحِكَمَ، وكما يقول ابن القيم: والأسرارَ.

النداء:

نحن نعلم أن الصلاة تبدأ بالنداء، إن سمعت النداء، فاذكر نداء يوم القيامة، عليك أن تتخيَّل: أليس هناك منادٍ من قريب ينادي يوم القيامة: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: ٤١]؟ والثانية: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

عليك بالتفكُّر ساعة الأذان بأن تغمض عينيك وتقول: أنا الآن أُدْعى إلى الله وسوف يسألني؟ فماذا أفعل؟ وماذا يفعل الله بي؟ هل يفضحني؟ عن ماذا يسألني؟ وبماذا أرد عليه؟ فتقول في نفسك: الحمد لله أَنْ لم يأتِ يوم الحساب بعدُ، فتستعدّ للصلاة. وهذه هي معركتك أنت.

(هذا كلام ليس مثل أي كلامٍ آخرَ يُسْمَعُ الآن ثم تنساه، الأهمُّ من ذلك أن تُطَبِّقَ تطبيقًا عمليًّا كيف تصلي، فهذا ليس كلامًا لبيان الهيئات، لكنه بيانٌ لك أنت، وكيف تبدأ وبماذا تبدأ).

النداء أول ما تسمعه يَرِد في ذهنك نداء يوم القيامة، وانظر إلى نفسك هل أنت مستعد أم لا؟ وكيف تكون فقيرًا إلى الطاعات وإلى تقوى الله. كاستعدادٍ لهذا النداء يوم القيامة.

۞ الخشوع وكيف نحصل عليه:

كونك تخشع في الصلاة ذلك من فضل الله عليك: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩]، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]؛ أي: أن تقواك في الصلاة وخشوعَك في الصلاة ليست منك أنت، إنما هي منَّةٌ من الله ﷻ، ربنا يمنُّ على فلان فيرزقه الخشوع في الصلاة، فهو يبكي ويتضرع وقلبه حاضر، والذي بجانبه يقول:

ماذا به هذا الرجل؟ ماذا حصل له؟ هل ضاع منه شيءٌ؟ وما هذا الشيءُ؟ هل سُرِق منه شيء؟ هل أصابته مصيبة؟ بالتأكيد ليس شيئًا من هذا، فهذا هو الوضع الطبيعي، الوضع الذي يجب أن نكون عليه في الصلاة، فهذا الرجل مَنَّ الله عليه بالخشوع. فهل جاء الخشوع من المصيبة؟ ما أفضل هذه المصيبة! نِعْمَ المصيبةُ في هذه الحالة: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ أليس الله سبحانه وتعالى يبتلينا بالحسنات والسيئات - التي هي المصائب - حتى نتضرع ونرجع إليه سبحانه وتعالى وعز وجل، فمنَّ الله على رجل فخشع في الصلاة؛ فالخشوع في الصلاة مِنَّةٌ ونعمةٌ.

۞ طلب الخشوع من الله تعالى:

فلماذا لا نحصل عليه من الله؟ لم لا نسأل الله الخشوع في الصلاة؟ هل هنالك أحد يطلب الخشوع قبل الصلاة؟ لا؛ لأنك واثق من أنك تخشع في الصلاة، وهذه هي مصيبتنا.

۞ كيفية الحصول على الخشوع من الله تعالى:

أولًا: الدعاء: لكن كيف يقبل الله دعاءك وأنت تحارب الله ورسوله وتشاقق الله ورسوله؟! كيف يُقْبَلُ دعاؤك؟! لا بد لك من الاستعداد، وكيف يكون الاستعداد؟ يكون الاستعداد بالاستغفار إذا توضأت، إذا نويت الصلاة، إذا نويت الذَّهاب إلى الصلاة، والاستغفارُ لا يغادر لسانك، ولكنَّ الاستغفارَ يحتاج إلى استغفارٍ؛ أي: أنَّ استغفارنا الآن يحتاج إلى استغفارٍ؛ لأنك إنما تحفظ صيغ الاستغفار وقلبك مشغول غيرُ حاضرٍ في الاستغفار، فما فائدته؟! فعليك أن تتذكر كل وقت كأنك جئت ليوم القيامة بكل صلاة عليك، وإذا نسيت هذا الكلام في صلاة العصر فماذا تفعل؟ تذكره في المغرب، نسيته في المغرب؟ تذكره في العشاء، نسيته اليوم؟ تذكره غدًا، نسيته هذا الشهر؟ تذكره الشهر المقبل، إلى أن تلقى الله ﷻ.

فالاستعداد للصلاة يكون دائمًا بالاستغفار؛ لأن الاستغفار يُزيل الأحمال، ويُزيل الحُجُبَ التي بينك وبين الله، ويُزيل آثار ذنوبك ومعاصيك.

۞ معنى الذنب ومصائبه الثلاث على العبد:

نحن نعلم أن الذنب مأخوذٌ من الذَّنَب، وهو الذيل، فهل الإنسان له ذيل؟! نعم؛ المعصية تجعل للإنسان ذيلًا. الإنسان قد كرمه الله بغير ذيل ولكن المعصية هي التي تجعل له ذيلًا، ولكن أين هذا الذيل؟ أنت لا تراه، ولكن هذا الذيل يجر ثلاث مصائبَ: مصيبةً في الدنيا، ومصيبةً في الدين، ومصيبةً في الآخرة، أو مصيبةً في القدري الكوني، ومصيبةً

في التشريعي، ومصيبةً في الجزائي؛ أي: في الجزاء الأخروي يوم القيامة.

إما مصيبة في الدنيا: مثلًا مال يضيع أو يحترق، أو امرأة تتعبك، أو زملاء في العمل يهينونك، أو تعرضت لأذًى وأنت تسير في الطريق؛ هذه هي المصيبة في الدنيا، والتي سببها الذنوب والمعاصي.

والمصيبة الثانية: المصيبة في الدين: مثلًا أنك تقرأ الفاتحة وأنت لا تفهم فيها شيئًا، وأي مصيبة أكبر من ذلك؟! تستمع إلى القرآن فلا تخشع فهذه مصيبة، تسجد لله فلا تخشع فهذه أيضًا مصيبة، تحاول أن تخشع فلا تخشع، مصيبةٌ أخرى، ونحن نعلم أن مصيبة الدين أشدّ مرات ومرات من مصيبة الدنيا؛ لأن مصيبة الدنيا قد تجرُّ الإنسان إلى الله ﷻ وهو المطلوب، وتكفر السيئات وتحطُّ الخطايا، أما مصيبة الدين فيترتب عليها مصيبة ثانية وثالثة ورابعة؛ وهذا اسمه: (تسلسل مصائب الدين).

۞ قاعدة هامة: (تسلسل مصائب الدين)؛ اقطعها بالاستغفار والصلاة:

انتبه! ماذا نقصد بالتسلسل؟ نحن نعرف قاعدة في الشرع تقول: إن السيئة تجرُّ السيئة والحسنة تتبعها الحسنة؛ اعرفها هكذا؛ فهذه قاعدة عريضة في الدين. السيئة يترتب عليها سيئة؛ أي: كونك تعصي الله يترتب عليه أن يُمَهِّدَ لك السبيل لمعصية أخرى، والمعصيتان تمهدان لمعصية ثالثة. إذًا: ما الذي يقطع هذا التسلسل؟ الذي يقطع هذا التسلسل: ذكر الله ﷻ، والتوبة، والاستغفار، والندم، ولكن إذا غفلت وسهوت - وهذا الذي يحصل دائمًا - فنجد أنه برحمة الله ﷻ يُقطع هذا التسلسل بالصلاة، وهذه من نعمة الله علينا. الصلاة تقطع هذا

التسلسل؛ لأنها تمنحك حسنات تكفِّر السيئات، ولكن الصلاة التي تكفر السيئات مشروطة ونحن لا نعرف كيف نصليها! انتبه إلى الكلام وستعلم في آخره وتقرر: هل كنت تصلي أم لا؟

۞ الأسباب التي تؤدي إلى عدم الخشوع، وكيفية معالجتها:

(نعلم أن الذنب مأخوذٌ من الذَّنَب، وهو الذيل، وأن المصائب ثلاث؛ مصيبة في الدنيا، ومصيبة في الدين، ومصيبة في الجزاء؛ إما في الدنيا أو القبر أو يوم القيامة).

فأنت لا تخشع في الصلاة مصيبة في الدين، بأي شيء؟ بالمعاصي والذنوب. أنا أريد ألا تحصل لي مصيبة في الدين وأريد أن أخشع في الصلاة، فكيف ذلك؟ نحن نعرف أن السبب المعاصي والذنوب، فلماذا لا أزيل المعاصي والذنوب وأقصُّ هذا الذيل بمقص، لئلا تصيبني تلك المصيبة في الدين، ومِنْ ثَمَّ أستطيع أن أصلي وأقيم الصلاة؛ فأنَّى لي بقصِّ هذا الذيل الذي جرَّ لي ثلاث قنابل: قنبلة ستنفجر في دنياي، وقنبلة ستنفجر في ديني، وقنبلة ستنفجر في الجزاء في القبر ويوم القيامة، وأيضًا بعض الجزاء في الدنيا، فما العمل؟

۞ معنى الاستغفار وأثره في الخشوع:

ما معنى الاستغفار أو طلب المغفرة؟ طلب قصِّ الذيل، طلب قص الذَّنَب، وهو الذَنَب الذي جر وراءه ثلاث مصائب لك، لكنك لا تراها، فلو ترى الغيبَ كيف يسير لعرفت المصائب والمعاصي التي تقوم بها كيف تجر إليك الذيول الثلاثة أو القنابل الثلاث التي هي من نفسك أنت: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن

كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]؛ وربنا يعفو عن كثير ويتجاوز عنه سبحانه وتعالى وعز وجل.

فيكون المطلوب منك وأنت مُقدم على الصلاة الاستغفار، الاستغفار، الاستغفار، لماذا؟ لتذهبَ عنك تلك الذنوب وتحصلَ على نعمة الله بالخشوع في الصلاة، وهذا أولًا. فهل الاستغفار وحده له تأثير في الخشوع؟ لا؛ الصدقة أيضًا لها تأثير في الخشوع.

الصدقة وأثرها في الخشوع:

تصدَّق ما استطعت إلى ذلك سبيلًا قبل الصلاة. ولماذا الصدقة؟ هل تعلم ماذا تفعل الصدقات؟ تمحو الخطايا والذنوب، وتوفِّق من أراد أن يخشع في الصلاة وأن يُفتح عليه بالمعاني وأن يَعِيَ معنى: (سبحان ربيَ الأعلى)، وأن يَعِيَ معنى: (سبحان ربيَ العظيم)، وأن يَعِيَ معنى الأكبر والعظيم والأعلى والسلام، والقرآن وما معناه، ويَعِيَ معنى الثناء والمجد والحمد.

ولكن هل سَيَمَلُّ هذا عند الصلاة بعد صلاة بعد صلاة؟ يمل؛ أي ينشط يومًا أو يومين أو عشرة وبعدها ينسى المعاني. فكيف السبيل إلى قطع هذا النسيان لئلا ترجع المصيبة في الدين؟ عليك بالاستمرار في الاستغفار وإخراج الصدقات قبل الصلاة بنية أن تُرزق الخشوع في الصلاة ولو بقليل جدًّا من المال.

والذي يقول لك: ليس لدي مال، فقل له: «**الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَة**»[1]

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فإنْ أحدٌ من المسلمين اعتدى عليك كأن سكب عليك الماء مثلًا وأنت تعرف أنه رجل مسلم فهنا تعفو عنه، فقد تبرعت بذلك وتطوعت بذلك، وتتصدق بذلك على هذا المسلم فهذه صدقة، وكذلك: «**إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(١)، وسنعود إلى الكلام في هذا الموضوع ولكن بتفصيل أكبر بإذن الله.

تلخيص ما سبق:

مسألة الاستعداد للصلاة في البداية هي رزق من الله، فكيف تحصل على هذا الرزق، وهنالك أمور تحجب عنك هذا الرزق؟ فأنت عليك أن تجاهد وتجاهد، ولكن قلبك كما هو غافل؛ لأن المعاصي والذنوب تَحُولُ بينك وبين الخشوع، فما الحل؟ وكيف تستعد؟ تفكر في الاستعداد لهذه الحرب كيف تكون؛ ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦]؛ الخروج للقتال تمامًا هو كالخروج للصلاة وهو شيء واحد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، شيخ الإسلام يشرح يقول: تثبيتًا من أنفسهم في إخراج المال كالتثبيت عند القتال بالضبط؛ فهو تثبيت القوة والمُكْنة(٢)، فالذي يقاتل مطلوب منه أن يتثبت ويثبت وأن تثبت قدماه وألا يولي العدو دبره وألا يفر وينهزم، فيقف ثابتًا مهما كانت الكاسحة التي تأتيه، ومهما كانت بارقة السيوف من فوق رأسه فهو ثابت، فالقوي يتقدم بقوة

(١) انظر التخريج السابق.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٩٥).

وإلى الأمام في جيش المسلمين إلى جيش الكافرين ليقاتلهم بشجاعة، فهذه العملية ليست سهلة، فيجب أن نثبت أقدامنا، وألَّا نَفِرَّ حتى لا نتعرضُ لغضب الله ﷻ.

كذلك الصلاة بالضبط وكذلك الصدقات كل هذا تثبيت للإنسان، فإذا أراد أن يُخرج صدقة قليلة من ماله، رآها كثيرة، فيعدل بها إلى نصفها ثم إلى ربعها، ثم يقول لنفسه: لا داعي للصدقة على هذا الرجل فلربما وجدت من هو أفقر منه، وكل هذا تهربٌ وليس بتثبيتٍ. فهذه زحزحة وزلزلة - والعياذ بالله - عن مقام التثبيت، فأنا إذا أخرجت رجوت بذلك تثبيت الله، فهو تثبيت من نفسي لنفسي.

فأنت تريد أن تحصل على الخشوع في الصلاة، وأن تحصل على التثبيت والقوة والمُكْنة في الصلاة، فتستعد للصلاة، فما الاستعداد؟ وكيف الاستعداد؟

كيف الاستعداد؟

أول شيء: أن تذكر النداء يوم القيامة وتغمض عينيك وتستشعر أنك سَتُعْرض على الله ﷻ ولكن أنت لا تراه، فهل المشكلة أنك لا ترى الله؟ هل تريد أن ترى الله في الدنيا؟! هل تريد أن تكون مثل اليهود؟! فعليك أن تُحَدِّث نفسك بهذا وأنت ذاهب إلى الصلاة.

ولا تكن كبعض الناس الذين ينظرون هنا وهنا، ثم يقول لك: انظر إلى تلك الفتاة ماذا تفعل وكيف تمشي! فهي إن استمرت على ذلك فهي في النار إن ماتت عليه، أما أنت فإلى ماذا تؤول؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ وإلى من؟

فتذكر النداء يوم القيامة، واذكر موقف الصراط، هل يا ترى تعبر على الصراط تجر يدًا وتعلق أخرى، وتجر رِجْلًا وتعلّق أخرى، وتنكفئ بوجهك على الصراط؟ وكم سنة تمر عليك وأنت في هذه المعافرة؟ فعليك أن تذكر النداء، وهل يا تُرَى ماذا يفعل الله ﷻ بي؟ فعليك أن تقول: اغفر لي يا رب، اغفر لي.

التوبة والاستغفار قبل الصلاة:

إذا كانت الصيغ تؤدي إلى الرَّتابة والرُّوتين، فبعض الناس مثلًا يحفظ (سيد الاستغفار) يقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ**...»(١) يقوله وعينه تتحرك يمينًا وشمالًا ولم يحضر قلبه! هذا لا ينفع، زِدْ على هذه الصيغة صيغةً أخرى من عندك أنت، فمثلًا تقول: يا رب، يا رب أنا متعب؛ فهل تعذبني عذابًا شديدًا؟ أي: أَخرِج ما بداخلك وقل كلماتٍ تنبع من داخلك من تأليفك أنت؛ فهذه الكلمات لها عليك تأثير بالغ جدًّا. لا أقول لك: لا تقل الصيغ، فمستوانا أسفل من الصفر نفسه، أليس هذا هو الحق؟ فنحن نريد أن نرتفع إلى ما هو أعلى الصفر، وَقِفْ دومًا عند الأسلوب الذي يؤثر عليك في البداية، قل: (يا رب اغفر لي المصائب التي ارتكبتُها والتي أجرُّها ورائي فأنا لا أستطيع تحملها)، وتشعر أنك تريد البكاء وتقول: (يا رب ذنوبي كثيرة جدًّا فإن لم تغفر ذنوبي هذه فإني ضائعٌ، يا رب لا أحد في هذا العالم يحتاج للمغفرة مثلي). تخرج منك هذه الكلمات وأنت تفهم ما تقول وتعي ما يخرج من قلبك؛ هذا هو الكلام العادي، هذا أهم ما يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

للمستوى الذي تحت الصفر الذي هو مستوانا، فكما قلت لك بأن المسألة ليست مسألة كلام وعبارات، بل نحن نريد شيئًا عمليًّا يستقر في القلوب.

وإن شاء الله عَوَامُّ الناس الذين لم يذهبوا إلى المدارس، أو الذي لا يستطيع المتابعة، إن شاء الله سيفهم أكثر من صاحب الجامعة؛ لأن المسألة مسألة وجدانيات وشعور أشياء تطبقها أنت بينك وبين ربك، فأنت ذاهب إلى الصلاة قل: (يا رب أنا ذاهب إلى الصلاة فأكرمني ولا تُهِنِّي وافتح عليَّ واغفر لي).

أما صيغة سيد الاستغفار - وهي سهلة الحفظ - تقولها وقلبك يركن إلى أن لسانك الذي يجيد الصيغة تمامًا ويضبط النحو العربي، فقلبك يركن إلى هذا ولا يحضرك، ويترك للسان مهمة القيام بسيد الاستغفار! والقلب مشغول في دنياه يقول: والبضاعة كيف أصنعها وكيف أعرضها؟ وعلى من؟ ومن أين أحضرها؟ وفي الوقت نفسه تقول بلسانك: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، أي: تعتمد على أن اللسان يجيد العبارة ويحفظها، فهذا كلام فارغ وليس إلا إزعاجَ أعضاء.

ولذلك أقول لك وأنت ذاهب إلى الصلاة: اذكر هذا المعنى واجعل قلبك حاضرًا.

وأنت ذاهب حاول أن تغضَّ بصرك ولا تنظر إلا أمامك، وتمشي على الرصيف بجانب الحائط وتقول: (يا رب إني ذاهب إلى المسجد، كم مرة ذهبتُ للمسجد وخرجتُ منه ولم يتغير حالي فهل يرضيك حالي؟) كل وقت تحاول فيه تجد بأن عينيك وقلبك وكل جوارحك في الصلاة،

ونتيجةً لهذا ستشعر بالحب لله بمجرد أنك فعلت هذا.

وبرغم أن الصيغ التي ستأتي بها بهذه المناجاة الطبيعية، فرقٌ بينها وبين صيغ النبي ﷺ كما بين السماء والأرض، لكن صيغ النبي عليه الصلاة والسلام للأناس الذين هم تحت الصفر ما عادت تؤثر، ونحن نريد أن نصل للمستوى الذي نتأثر فيه بصيغ النبي ﷺ فتبدأ بمثل ما قلت لك، والله المستعان.

غض البصر وأثره في الحصول على الخشوع:

يا لِحَظِّهِ الذي عنده قوة قلبية، وقلبه ليس فيه مرض الشهوة؛ يعنى قلبه سليم، فالمرض يكون في القلب، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ فالذي قلبه مريض كالمريض الذي يتأثر بأدنى شيء من أسباب المرض، فالذي عنده حساسية لِلإنْفِلْوَنْزَا يتأثر أكثر، لكن الذي ليس لديه حساسية فاتحٌ صدرَهُ أمام المروحة وفي عزِّ الشتاء، أما الذي عنده حساسية فالمروحة بينه وبينها عشرون مترًا، ومع ذلك بسبب الإِنْفِلْوَنْزَا يعطس بين الفَيْنة والأخرى.

فالذي في قلبه مرض تعرض له المرأة يريد أن ينظر إليها ويبرر لك يقول لك: يا أخي الناس ليس لديها دين صحيح، وينظر إليها ويقول: اللهم العن الكاسيات العاريات، ولا يلعن الكاسيات العاريات إلا إذا نظر لأنه ضعيفٌ قلبُه به مرض.

أما صاحب الإيمان الذي قلبه سليم لو عرضت له نساء العالمين فقلبه ليس به مرض. تأتيه المرأة الجميلة فيغض بصره عنها ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى؛ فيبدله الله عن ذلك إيمانًا يجد حلاوته في قلبه؛ فيمشي في الطريق

وهو يستغفر ويميط الأذى عن الطريق ويغض بصره فيصبح ذلك سببًا في زيادة إيمانه، فيزداد خشوعه في الصلاة.

ليس معنى هذا أن تسير في شوارع الكاسيات العاريات لتختبر قلبك! وإنما نتكلم عن تعظيم الأمر والنهي، والذي هو مترتب على (سبحان ربي العظيم)، إذا وصلنا إلى الركوع وتكلمنا عن تفسير العظمة والعلوِّ؛ عرفت عندها أن تعظيم الأمر والنهي نابع من تعظيم الآمر الناهي. ومن تعظيم النهي مثلًا: أن تبتعد عن مظانِّه؛ فالشارع الذي تعلم أنه مزدحم بالكاسيات العاريات والمتبرجات لا تدخل منه، وإنما تبحث عن شارع آخر، وهذا من تعظيم نهي الله ﷻ.

أما إن كانت الشوارع لا تخلو في مجملها من هذه الأصناف فهنا يظهر صاحب القلب السليم ليغض بصره، وتكون النتيجة أن يكون هذا سببًا لَأَنْ يخشع في صلاته. وليس هذا سبب الخشوع وحده، **بل هناك أسباب كثيرة، منها:**

الاستغفار، وإماطة الأذى عن الطريق، وأنواع الصدقات، وذِكْر الله سبحانه وتعالى وعز وجل، وغض البصر، والتصدُّق على من آذاك من المسلمين، ودعوة الناس وأنت ذاهب للمسجد، تقول: السلام عليكم هيا إلى النداء ربنا ينادي عليك، يقول لك: هل ربنا ينادي؟! إنما المؤذن هو الذي ينادي، تقول: يا أخي ربنا هو الذي ينادي قم: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ [ق:٤١]؛ ربنا ينادي عليك قم، فيقول لك: ربنا ينادي عليَّ! فيستحضر المسألة، ويقوم للصلاة. كل هذه صدقات.

ومن الصدقات أيضًا أن تتذكر: أن مسلمًا آذاك في كذا، وأن فلانًا

أكل عليك مالًا في كذا، وأن فلانًا قذفك في عِرْضك، وهم من الموحِّدين؟! فتقول: يا رب عفوت عنهم ابتغاء وجهك، فيعفو الله عنك أنت أيضًا؟ فكل هذه أسباب لتحصل على رزق الله تعالى في الخشوع وهي من أعظم ما يكون.

۞ الاستعداد للفريضة بالنافلة:

ذكرتُ النداء، وذكرتُ بذلك نداء يوم القيامة، وبعد تلبية النداء نستعد قبل إقام الصلاة المكتوبة بصلاة أخرى كأنها استعداد للمكتوبة؟ طبعًا الصلاة هذه مثل تلك ولكن هذه سنة وهذه فرض، وحتى في نفس الفرض تكون الركعة الأولى استعدادًا للثانية، والثانية استعدادًا للثالثة، والثانية تجبر كسر الأولى، والثالثة تجبر كسر الثانية، والرابعة تجبر كسر الثالثة. أي: تستعد بالأولى للثانية، وتجبر بالثانية كسر الأولى، ومِنْ ثَمَّ تستعد بالظهر للعصر، وتستعد بالعصر للمغرب، وتستعد باليوم للغد، وهكذا إلى أن تلقى الله.

نحن لسنا بحاجة إلى بيان فضل الصلاة وأهمية الصلاة، فالقرآن مليء بذلك، وأنتم تعلمون والحمد لله رب العالمين، ولكن قلت: ندخل في صُلْب الموضوع بدايةً للجدية، وإنما سنعود إلى كل ذلك - بإذن الله تعالى - بالتفصيل مرة أخرى.

۞ بين التكبير والتسليم:

لقد ذكرنا من قبلُ أننا نريد الدخول في الصلاة المكتوبة، فماذا تفعل عند الصلاة المكتوبة؟ أول شيء هو شعار الأذان الذي هو التكبير والتوحيد والشهادتان وغير ذلك، وسندخل من باب تحريم الصلاة، فنحن نعلم أن

للصلاة بابين: بابًا للدخول منه وبابًا للخروج منه، فالباب الأول هو: التكبير، والباب الثاني: هو التسليم. وبين التكبير والتسليم سرٌّ، ولا بد أن يفهم، نريد أن نعرف ماذا يعني الأكبر؟ وماذا يعني السلام؟

الحق الذي خلقنا به (لماذا خُلقنا؟):

المسألة يا إخواننا أن نذكر الحق الذي خلقنا به. وماذا تعني (به)؟ الباء اسمها باء الملابسة والمصاحبة، فما معنى الملابسة؟ أي خلقنا بالحق، أي: مصاحبين له، وهذا الحق ثلاثة أقسام: حقٌّ صدرنا عنه؛ أي الذي خَلَقَنَا ليس علمه أو حكمته نَاقِصَيْنِ، فلم يفطن إلى هذه النقطة أو تلك، أو لم يُلِمَّ بالموضوع من جميع جوانبه وكان بحاجة إلى ضبط، أو لم ينتبه إلى القلب أن الضغط يزيد قليلًا أو يقل قليلًا، أو الكُلْيَةِ، أو فات عليه ضبط المخ، فإن كانت هذه الأمور تحتاج إلى ضبط، فهذا ليس بالحق بل هو فيه جزء من الباطل، وليس بالحق، إنما (بالحق) معناه أنه صدر عن عليمٍ حكيمٍ، معناه أن خَلْقَكَ صدر عن ربٍّ ليس عنده جهل قَطُّ، وليس عنده نقص في العلم قطُّ، ولا في الحكمة؛ فكل شيء بمقدار وبهدف ولحكمة، فلا شيءَ يفوته فيه حُسن الصنعة قَطُّ حاشاه سبحانه وتعالى وعز وجل. فهو عليم حكيم فهذا هو الحق.

وحقٌّ آخر هو مقترن بخلقك الآن: انظر إليك وأنت تعيش اليوم وربنا قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبت، فكيف ذلك؟ انظر للكهرباء والمراوح والميكانيكا والسيارات والطائرات والزراعة والأرض كلها والعالم كله، فكيف يعمل؟ هذا هو الحق المقترن. وبعد ذلك الحق الثالث الذي هو الغاية: فما الغاية؟ وهذا محل الشاهد.

الغاية من الخلق:

ما الغاية؟ حقٌّ خُلقنا من أجله، أي: غاية تُراد منا وغاية تراد بنا، فأما الغاية التي تراد منا: أن نعرف الله فنعبدَه ونوحدَه، فهذا هو الحق المطلوب منك لأنك لم تخلق إلا لهذا؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، بالله أتعبد من غير أن تحب؟! هل تكون هذه عبادة؟! لأن العبادة خضوع كامل، يعني حبًّا رهيبًا وحبًّا مطلقًا مع ذل مطلق، فكيف تحب دون أن تعرف من تحب؟ هل أنت تحب رئيس عصابة - حاشا لله -؟ هل تحب أحدًا وأنت تعرف أنه أكَّال للحقوق؟ كيف تحبه؟! فلا بد أن يكون له صفات كمال ويكون الشر والنقص كله منتفيًا عنه.

وما الصلاة إلا هاتان المعلومتان، ولذلك الصلاة من أعظم نعم الله على الإنسان، ومن أكبر أدلة نبوة محمد ﷺ.

ففكِّر في الغاية التي خلقت من أجلها، أنها غاية تراد منك وغاية تراد بك، فالتي تراد منك: أن تعرف الله فتعبده وتحبه؛ فكيف تعبده وتحبه؟ الإجابة: تجدها من خلال الصلاة من أولها لآخرها، وستتعلم كيف تعرف الله إذا صليت، وستعرف أن المسألة ليست مجرد هيئات، إنما هي ارتباط الهيئات بالأذكار التي معها، وستعرف أن الصلاة هذه هي كل شيء؛ ولذلك الذين أقاموا الصلاة هم الذين أفلحوا وجاهدوا وانتصروا وقادوا الأرض، وحكموا الأرض بشريعة الله ومنهج الله؛ ذلك لأنهم صَلَّوْا، لأن الصلاة - كما بينت - هي ملحمة الأسماء والصفات، فأنت خُلقت لتعرف الأسماء والصفات.

الصلاة مملكة الأسماء والصفات:

فنقول: إن الصلاة هي مملكة وملحمة في أسماء الله تعالى وصفاته، فنحن خلقنا للغاية التي تراد منا أن نعرف الله وما يترتب على ذلك، والغاية التي تراد بنا هي الجنة والنار، والحكم بيننا فيما كنا نختلف فيه.

فما الهدف؟ وما الغاية التي تراد بنا؟ محكمة العدل والفضل والرحمة يوم القيامة. الصلاة مملكة الأسماء والصفات، وكذلك يوم القيامة مملكة واسعة للأسماء والصفات؛ ولذلك: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. بعض الناس يقول لك: كيف أدعو الله بأسمائه الحسنى وأنا لا أعرف من الأسماء الحسنى إلا قليلًا، والتي أعرفها من ألفاظها لا أعرف معانِيَها! فكيف أدعوه بها؟ أنت تُصَعِّب العمل علينا وتُيَئِّسُنَا، نحن الحمد لله أفضل من غيرنا. تقول: يا أخي لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا كان يفعل الرسول عليه الصلاة والسلام؟ وماذا كانت مهمته؟ وما رسالة الرسول؟ رسالة الرسول تعلمك كيف تتعلم أن تدعوَ الله بأسمائه وصفاته، مثالٌ: الصلاةُ مملكةُ الأسماء والصفات؛ فلا يوجد اسم من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا وتجد له موضعًا وأثرًا من آثاره وحُكمًا من أحكامه ومقتضًى من مقتضياته في الصلاة، وهذا هو الذي يستشعره الإنسان العارف بربه، لأننا المفروض أننا خُلقنا لنعرف الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فنعبده ونوحده.

الله أكبر:

فالصلاة أولها (الله أكبر) وآخرها (السلام). و(الله أكبر) اسم جامع لكل معاني العبودية. فكلُّ شيء في الصلاة ما هو إلا تفصيلٌ لقولك:

(الله أكبر)، ولكن هذه ليست مسائل عاطفية إنما هي مسائل عملية ونحن نريد ذلك، وليس كلامًا إنشائيًّا، فالكلام الإنشائي في الكتب كثير ولكن نحن نريد معانيَ تستقر، فأنا أعطيك المجمل من هذه العبارة: (التكبير معناه أنه ينتظم في سِلْكِهِ كل معاني العبودية، وكل شيء في الصلاة إنما هو جزء من (الله أكبر) ولكن الكلام هذا كلامُ إجمالٍ فأين الدليل؟ وأين التفاصيل؟ سيأتي إن شاء الله.

(الله أكبر) في البداية هي التحريم وفي النهاية السلام. (الله أكبر) سينتظم في سلكها (العظيم) و (الأعلى) و (المجيد) أيضًا، فنحن لدينا (أكبر): الذي هو: (الكبرياء والعظمة والعلو) ثلاث صفات تحتها أسماء كثيرة لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

أكبر: كبرياء فـ(الكبرياء) تقوله وأنت واقف وفى الانتقال من ركن إلى ركن، و(العظمة) في الركوع، ولماذا العظمة في الركوع؟ سيأتي إن شاء الله.

وبعد ذلك (العلو) في السجود، ولماذا في السجود؟ سيأتي إن شاء الله.

إذًا: التكبير أقرب ما يكون له العظمة والعلو، وهي معانٍ متقاربة بل متلازمة، ولكنَّ بينها فروقًا لطيفةً جدًّا ينبغي أن نتفطن إليها.

مثلًا: شيخ الإسلام يذكر الحديث القدسي الذي يقول فيه الله ﷻ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي**»[1] طبعًا هذا على وجه التقريب

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه بنحوه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

للمعاني، يعنى مثلًا - ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض: إذا قلت لك: إن إنسانًا له رداء وإزار فهل الرداء أشرف أم الإزار؟ الإزار عندك الذي يغطي العورة والأجزاء السفلى، أما الرداء فيغطي الصدر الذي فيه القلب والوجاهة والعظمة، فيكون بذلك الرداء أعلى من الإزار، فهل العظمة أكبر أم الكبرياء؟ الكبرياء طبعًا، فحين يُرفع الأذان يقول لك: (الله أكبر)، يقوم شخص يقول لك: الله أعظم الله أعظم، يا أخي قُل: (الله أكبر) كما يقول المؤذن، فهل تكون أنت أفضل من النبي - عليه الصلاة والسلام -؟! فالكبرياء أعلى، فهنالك فرق بين الكبرياء والعظمة وهي متقاربة بل متلازمة، هل من كبرياء بلا عظمة؟ وهل من عظمة بلا كبرياء؟ والاثنان من غير علو؟! وبذلك يكون نقصٌ، فلا يكون هذا كبرياءً إذا كان فيه نقص في العلو. فبالطبع فيه فروق ويجب عليك أن تستشعرَ هذه الفروق وتعرفَهَا حتى تستحضرَها في الركوع، وعند قولك: (الله أكبر)، وفى السجود.

بعد أن قلت أولَ شيءٍ: (الله أكبر)؛ هل قلت: (الله أكبر) هكذا بعد أن توجهت إلى كل جهة؟ أم إلى جهة القبلة؟ نَعَم القبلةُ، فيكون عندنا بذلك التكبيرُ أولًا، ثم التوجهُ إلى القبلة ثانيًا، أما ثالثًا فستر العورة قبل التكبير، والاستغفار أيضًا، وكل أمر إن شاء الله له معانيه - وهم خمسة أمور - إنما أنا أُقرب إليكم؛ لأني أُريد أن أُعين نفسي وإياك على الصلاة؛ لأنك ستحارب، فأنت الذي ستقف في الميدان، وأنت الذي في الصلاة بينك وبين الشيطان معركة رهيبة، فالشيطان يغير غَيْرة شديدة - لا يمكن أن تتصورها - من المصلين، فهو يحاول أن يمنعك عن الصلاة، فإذا لم يستطع أن يمنعك فإنه يحضرك في الصلاة ليقطعك

عنها، ولذلك يُسمع له ضراط ساعة الأذان والإقامة، فهي حرب شرسة وأنت العسكري الذي ستحارب، لا أحد سيحارب لك بل أنت تحارب عن نفسك، وأنت الذي تعرف ماذا قال لك هذا الشيطان، وما الذي لم يقله لك، وأخرجك أم لا؟ وقلبك حاضر أم غير حاضر، فهذا أمرٌ بينك وبين الله ﷻ، فكيف أساعدك أنا؟! فانتبه معي لتتذكرَ هذه المعانيَ وتستغلَّ كلَّ نقطة.

خمسة أمور عند بداية الصلاة:

خمسة أمور سنتناولها عند بداية الصلاة: النداء وهذا تناولناه، والعورة، والقبلة، والتكبير، والاستعاذة.

العورة الباطنة والظاهرة:

فما العورة؟ وما ستر العورة؟ وعمن تستر هذه العورة؟ أَعَنِ الناسِ؟ بَلَى، ولكني أسألك بالله: أليس ستر العورة الباطنة أَوْلَى من ستر العورة الظاهرة؟! هل يعقل أن تقول: (الله أكبر) وقلبك منشغلٌ بغيره؟ أليست هذه عورةً؟!

أَلَا تقول هذا الكلام لنفسك وأنت داخل في الصلاة: عيب عليَّ يجب أن أستر العورة، وإذا انكشفت عورتي، احمَّر وجهي وحضرني الحياء والخجل وأقول: وا مصيبتاه! وأبكي ولا أستطيع أن آتي هذا المسجد مرة ثانية، وأذهب إلى مساجد أخرى، لماذا؟ لأن العورة انكشفت!

هذه العورة الظاهرة فماذا عن عورة القلب، ومن المطلع عليها؟ الله من فوق عرشه سبحانه وتعالى وعز وجل، وليس الإنسان الذي هو عبدٌ مثلك.

تذكر هذه العورة وتذكر أن ستر العورة شرط في الصلاة، وعورة القلب هي العورة الباطنة، وهي أنك تقف بين يدي ملك الملوك وتنشغل بالعبيد، تنشغل بالنَّتْنِ، تنشغل بالجيف والرمم وأنت بين يدي الملك القدوس، أليست هذه بعورة؟ فهذا عيبٌ عليك، حَدِّثْ نفسك بهذا، أغمض عينك وأنت في الصلاة وقل: أنا أستر جسمي، وربي مطلعٌ على قلبي الآن! وهو ينظر إليَّ الآن! فلو كنت مع وزير ولك مصلحة عنده وأنت تعلم أنه ينظر إليك، وجدت نفسك تكرمش في قسمات وجهك وتتلعثم في الكلام وتكسر مفاصل الأصابع مع بعضها وتتودد إليه بالكلام الجميل والمجاملة الحلوة، ولا يمكن أن تَغفُلَ عنه لحظة واحدة، وهو قد يكون من أصحاب النار وقد يكون في الدرك الأسفل في جهنم - والعياذ بالله تعالى.

فأنت إذا كان لك مصلحة عند شخص وتعرف أنه بجَرَّة قلمٍ يقضي مصلحتك وقفت أمامه يملؤك الرغَب والرهَب، أما في الصلاة فبين يدي من الآن تقف؟ إذًا فهذه عورة كبيرة جدًّا أن يبقى القلب هكذا!

تناولنا أول أمر ألا وهو النداء، وسنتذكر أنه نداء يوم القيامة، وثاني أمرٍ العورةُ وفهمنا معناها، فلا يصح أن تكون عورتك الجسدية مستورةً وعورتك القلبية مكشوفةً، بالله عليك لو انكشفت عورتك الجسدية في الصلاة فماذا أنت فاعل؟ ألا تغطيها بسرعة؟ لكن عورة القلب ستنكشف كثيرًا جدًّا - وانتبه أن هذا شيء مسموح به - ولكن لا تكن كل الصلاة هكذا عورتك مكشوفة؛ فلا تكن في الصلاة وقلبك عريان؛ فإنك قد دخلت في التحريم، فأنت تقول لنفسك: عيبٌ عليكِ، وأنا أيضًا أقول لنفسي وأستعدُّ.

التدريب:

هذه المسائل رزق من الله ﷻ، وإذا حُرِمْتَه فلا بد أنك قد قصَّرت في الاستغفار أو الذنوب أكثر، فكل واحد ينشغل بنفسه وينظر إلى نفسه كيف يصلي؟ والتدريب ليس في الصلاة العادية، إنما التدريب في صلاة القيام في غرفة مغلقة، وتحاول استحضار هذه المعاني، ولا تلتزم بالنصوص في البداية حتى تتعود أن تكون مؤدبًا في حضرة ملك الملوك الملك القدوس.

تأمل في «سورة ق»: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، إذا تخيل المرء منا هذا، أصابته رجفة في جسده كله، إذا أغمضت عينيك وتخيلت وأعدتها في نفسك، تقول: هَبِ الوزيرَ الفلانيَّ ينظر إِلَيَّ نظرة فإنه سيصيبني عرق شديد وأرق، ولن أستطيع النوم - ولله المثل الأعلى - فكيف برب العالمين وملك الملوك؟! تستمع إليه وهو يقول لك: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، فكيف تكون في هذه الغفلة؟!

حرب مع الشيطان:

فهي حرب، الشيطان يقول لك: سأتغاضى عن تفكيرك في هذه الآية إلى أن يشغلك بتفكيرك هذا عن التفكر في الآيات الأخرى وأنت مستمر تقرأ الفاتحة فاسترسلت مع هذه الفكرة وتركت الآيات التي تقرؤها؛ فذلك لا يصح، انظر من أي زاوية ومن أي باب جاءك الشيطان! أنت تفكر في الخير والخشوع! ولكن لماذا تُقرأ الفاتحة؟

فلا يصح أن تقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤] وأنت تفكر في ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]، لا يصح - لا إله إلا الله - تقول: فماذا

نفعل؟ هذه مسألة من أصعب ما يكون! لكنها سهلة ويسيرة على من يسَّرها الله له.

قلنا في النداء: ستتذكر النداء يوم القيامة، والعورة هي عورة البدن وتتذكر أن عورة القلب أولى، وهي أن يكون الله مطلعًا على القلب وينظر إليه وأنت مشغولٌ بغير الله! وفى الأثر يقول الله تعالى: إِلَى خَيْرٍ مِنِّي؟! إِلَى خَيْرٍ مِنِّي؟!، كأن الله ﷻ يقول لقلبك: إلى خيرٍ مني؟ بمن أنت مشغول؟ هل هنالك من هو أحسن مني؟ فهو تعالى ينظر إلى قلبك، وإذا أعرضت عنه أعرض عنك ولا يُقبل بوجهه سبحانه وتعالى وعز وجل، وهذا في الحديث.

۞ الثالثة: القبلة:

فتجد شخصًا ذكيًّا جدًّا يسألك عن اتجاه القبلة، فتقول: إلى اليسار قليلًا أو إلى اليمين قليلًا، أهذا كل ما اهتممت به؟! أن تكون عضلاتك وعروقك والكُلْيتان والأمعاء ما يتوجه إلى القبلة؟ ولكن أليس القلب أهمَّ من البدن؟ والوجه الذي هو البدن متوجه إلى الكعبة، أما القلب فإلى أين وجهته؟ إلى ربِّ الكعبة، فانظر إلى نفسك هل تستشعر ذلك؟ الله المستعان.

قلنا: أولًا النداء، ثم العورة، ثم القبلة، فلا بد أن تذكر أنَّ القلب يكون متجهًا إلى الله ﷻ. إذًا: البدن فيه أمران: الأول: العورة الجسدية وعورة القلب، والثاني: اتجاه القبلة واتجاه القلب.

أدعية الاستفتاح:

نرجع قليلًا إلى الوراء إلى ما بعد التكبير تقول: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**»(١)، تقول لنفسك: أنا كذاب! هل أنا وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض فعلًا؟ أم أنني لمَّا دخلت في الصلاة تذكرت ماذا فعل ذلك الولد؟ وماذا حدث في هذا الموضوع؟ أنا سأقوم بكذا؟ وتقول نصوص القرآن والذِّكْر، والقلب منشغل في أمر بعيد تمامًا! أليس هذا الإنسان كذَّابًا؟ فكيف يكون الإنسان كاذبًا بين يدي الله ﷻ؟! تقول: (وجهت وجهي) وقلبك منشغل بغير الله فكيف هذا؟!

أسباب انشغال الإنسان أثناء الصلاة:

ما الذي يجعلك منشغلًا بالأشياء؟ إما أنه شيء تحبه، أو شيء تكرهه وتريد أن تدفعه، أو شيء يسبب لك همًّا وغمًّا وأنت خائف أنه سيؤدي إلى شيء سيئ في المستقبل أو الحاضر أو الماضي.

فالذي انشغلت به وأنت داخلٌ في الصلاة؛ انشغلت به لأن محبةً كبيرةً بينك وبينه، سواء كان هذا الشيء إنسانًا أو غير ذلك؛ فأسألك بالله من الأحق بالحب الأكبر من هذا؟!

---

(١) أخرجه مسلم [٢٠٢- (٧٧١)] من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كن صادقًا عند قولك: (الله أكبر):

فإذا قلت: (الله أكبر) فعيبٌ عليك أن تنشغل بأمر ثانٍ تحبه أكثر من الله، فماذا صرفك عن الله ﷻ؟ هل هنالك شيء تحبه أكثر من الله؟! أو انشغلت به هل سيصيبك أذًى بعد الصلاة، أو هذه الليلة، أو كذا أو كذا، بالله يا أخي الكريم هذا الذي يؤرقك ويشغل بالك ويجعل حالك متدهورًا هل هو أكبر من الله ﷻ؟! فربما يذهبه الله قبل أن يأتِيَك، فكيف تنشغل به؟ إذًا هذا الذي شُغلت به أكبر من الله، لسان حالك يقول هذا! أما لسان بدنك فيقول الكلام الذي تقوله وأنت أبعد ما تكون عنه.

وهذا الكلام تقوله لنفسك، لست أنا الذي يقوله لك، أنت تقوله لنفسك في الصلاة لتفلح، وإلا فما فائدة هذا الكلام؟! أنا عن نفسي لست بمتعجلٍ، المهم العمل؛ لأن علمًا بلا عملٍ سيُرفع، ولن يُفتح عليَّ ولن أستطيع أن أوصل شيئًا للناس، إلا أن يقترن العلم بالعمل.

وهذا الشيء الذي تنشغل به؛ لأنك تحبه أكبر من حبك لله؟! يا أخي قل لنفسك: عيبٌ عليكِ يا نفس ماذا جرى لك؟ ولكن لا تقف تحدث نفسك بهذا وتقول لنفسك ماذا جرى والإمام يقرأ الفاتحة، إذًا ماذا أفعل؟ هذا يحتاج جهادًا كبيرًا جدًّا، ويحتاج سنتين أو ثلاثًا في صلاة القيام حتى تتعود، والصحابة كانوا كذلك.

ذُكر عن علي بن الحسين زين العابدين أنه اشتعلت نارٌ في بيته فانشغل عنها ولم ينشغل بها، فلما قضى صلاته قالوا له: لِمَ لَمْ تنصرف وتنشغل بالنار لئلا تصيبك؟! قال: شغلتني نار الآخرة[1]، أي قال: انظروا إلى

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٢٢ - ١٢٣).

هذه النار أحدثت رعبًا وأخافتني، فكيف بتلك النار الثانية التي تضاعفها سبعين مرة، وهو لا يقول هذا الكلام هكذا دون أن يزنه حاشاه الله؛ فجهنم تكون أمام العبد وعن يمينه وعن شماله سيقذف فيها، وسيمشي على الصراط وهو يرتعش؛ فشغلتني نار الآخرة يعني: هذه النار ذكَّرته بنار الآخرة، هذا هو الكلام.

فـ(الله أكبر) إذًا: لا شيء يُحَبُّ أكبر من محبة الله قطُّ، ولا شيءَ يُخاف منه قدرَ الخوف من الله قطُّ، ولا شيءَ يُرجَى خيرُهُ وبرُّهُ كرجاءِ خيرِ الله قطُّ.

فالله أكبر: يعني كل سبب سيكون شاغلًا لك عن الله؛ فالله أكبر، هل فهمت هذه المعاني؟

فكلمة (الله أكبر) أحاطت بك، يعني: احذر أن تنشغل عنها، ولذلك اسمه تحريم الصلاة، تحريمها التكبير؛ فلماذا تحريمها التكبير؟ لهذه المعاني. إنك لا ترى الله، هذه هي مشكلتك أنك لا ترى. أما إذا كنت أنت رجلًا ناصحًا وتريد أن تكون من المحسنين فَلْتَعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وهذا مطلوب؛ أَنْ يدخل الإنسان في الصلاة كأنه يرى الله ﷻ.

ثم تستحضر أنك ستدخل على رئيس مجلس إدارة أو على وزير له سطوة أو يملك لك وظيفة بمرتب عالٍ جدًّا، فانظر كيف تدخل عليه، وتثني عليه، وتقول له أنت وأنت، وتريد إرضاءه، وربما تتصنع الابتسام رغم وجود المصائب عندك، لكنك تريد أن ترضيه، وربما وددت أن تعطيه هدية يفرح بها، لأنك تريد منه وتخاف منه!! كل هذا وأنت

ستدخل على ملك ملوك الدنيا فتخيل نفسك ماذا تفعل؟ وما قد يحدث لك؟ فاذكر ذلك، ثم اذكر مثولك الآن بين يدي الملك الأكبر!! (الله أكبر).

عليك أن تذكر أنك الآن فتح لك الباب لتدخل على ملك من ملوك الأرض وهو بيده أن يفعل بك أي شيء، بيده أن يقتلك أو يرفعك، وأنت تخافه وترجوه وتريده أن يعفُوَ عنك، تخيل، فمن الأَوْلَى بكل ذلك؟ فمن الأكبر منه؟ الله سبحانه وتعالى.

أنت تُذكِّر نفسك بهذا الكلام وتستعد، وتقول لنفسك: كيف أقف بين يدي الله، فإذا قلت: الله أكبر وبدأت الفاتحة تثاءبت، وإذا وصلت إلى نهاية الفاتحة قلت: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وتثاءبت.

هذا حَالُ أَغْلَبِ الأمة، حالُ قَطِرَانٍ، فالتكبير يُذَكِّر الإنسان بهذه المعاني.

۞ الاستعاذة:

ما الاستعاذة؟ سنعرض لها سريعًا ثم نعود إلى تفاصيلها.

أضرب مثالًا: الطفل الصغير الذي وجد ثعبانًا فجأةً أكبرَ منه فخافَ فالتصق بوالده من شدة الخوف ليستعيذ به، وفي اللغة: خير اللحم عُوَّذُهُ: أي الذي يجاور العظم - يلاصقه - وهو أفضله طعمًا وغذاءً وكلَّ شيءٍ، فالمعنى هو الالتصاق، ففي الصلاة أنت ستدخل معركة رهيبة لكنك لا ترى عدوك فيها، مثل الذي سيدخل قتالًا فماذا يفعل؟ يحتاج إلى إعداد العُدَّة والتثبيت وذكر الله وغيره.

وأنت في الصلاة ستدخل على عدو أيضًا، يريد أن يضيع صلاتك وأن يقطعك عن الصلاة وعن ذكر الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] الشيطان يريد فعل ذلك كله.

فأنت مقبل على معركة ضروس، وعدوك شرس، لا تعلم من أين يأتيك؟ وهو يعلم نقاط ضعفك كلها، ويعلم ما تضعف به نفسك، ويعرف من اعتدى عليك اليوم، ومن ضربك، ويعلم المصيبة التي عندك، ومن فعل بك كذا، وماذا تنتظر غدًا؟ يعلم كل شيء عنك، فهو يعيش معك ويعلم عنك!! ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إذا علمت في البداية خطر العدو قلت: (أعوذ بالله)، وليس أستعيذ، أو يا رب أعذني (التي توحي بالطلب وعدم الخوف والمبالاة)؛ مثلًا: الطفل لا يقول لأبيه تعالَ إليَّ أنقذني!! سيبتلعني الثعبان، لا؛ بل يركض ويلتصق ويحتمي بأبيه، فهذا هو معنى الاستعاذة.

تقول: (أعوذ بالله): أعوذ معناها: أنني أركض إلى الله وألجأ إلى الله ﷻ، وألوذ بكنفه وبحمايته، وأستغيث به من هذا العدو الذي سيضيع صلاتي، وأنا لست في قوته، ولا أرى أين هو، ولا من أين يأتي، ولا كيف يترصد لي، وأنا ضعيف بمقتضى ضعف النفس، خلقت من ضعف، وأنا أخشى أن تضيع صلاتي، فأستعد وأتجهز لها كي أنجح فيها وأفلح لأني لو أفلحت في صلاتي أفلحتُ إذًا في كل شيء.

فالشيطان يريد ضياعك، فهي معركة شرسة حامية الوطيس بينك وبين الشيطان، فكيف تغلبه؟ لا يمكن لك أن تغلبه إلا أن تلوذ بجناب الله

العظيم بقولك: (أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، فتتخيل أنك انتقلت من عالم الدنيا هنا إلى الله ﷻ فوق عرشه ولجأت إليه واحتميت بحماه.

ربما أنت لا تشعر بخطورة المعركة، وتستهزئ بالكلام، ولسان حالك يقول: عن أي معركة تتحدث، فأنا أصلي والأمر على ما يرام، فليس هناك معركة؛ فهذا معناه أنه انهزم، هذا منهزم لا يرى شيئًا.

أما من يعلم أن صلاته قد تضيع، وأن الشيطان سيجعله يسيء الأدب مع الله. بأن يقفَ بين يدي ملك الملوك وينشغلَ بغيره، وملك الملوك يرى ما بداخله؛ هذا سوء أدب مع الحق رب العالمين، ومن جعلك تسيء الأدب عدوك وهو الشيطان. فتقول: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»، وتحاول أن تتعلم المعانيَ، وفعلًا تقطع مسافاتٍ، هذه هي الصلاة.

۞ افتتاحية من كتاب ابن القيم (الصلاة وحكم تاركها):

سنذكر هذه السطور حول هذه المعاني التي تتصل بالمصلي قبل الدخول في الصلاة، وحال دخوله في الصلاة، قبل أن نسترسل في باقي الأذكار وباقي الهيئات ونفصل معانيَ وحِكَمَ الصلاة.

قال ابن القيم رحمه الله:

قال تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]؛ فأمرنا بإقامتها وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، وقد علق الله سبحانه الفلاحَ بخشوع المصلي في صلاته فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعًا - هو هنا يرد على من يخففون الصلاة ويحولونها إلى نقر وإلى استعجال - بل لا

يحصل الخشوع قطُّ إلا مع الطمأنينة وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعًا، وكلما قلَّ خشوعه اشتدت عَجَلَته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا إقبال على العبودية، ولا معرفة حقيقة العبودية، والله سبحانه قد قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: ٥٥]. وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [هود: ١١٤]. وقال: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الحج: ٣٥]، وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال لموسى: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] فلن تكاد تجدُ ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقرونًا بإقامتها فالمصلون في الناس قليل ومقيم الصلاة منهم أقل القليل.

كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الحَاجُّ قَلِيلٌ وَالرَّكْبُ كَثِيرٌ»، فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها على الترويح تَحِلَّة القسم، ويقولون: يكفينا أدنى ما يقعُ عليه الاسم - يريد أن يصليَ المرء ولو خمس ثوانٍ، ويقولَ لك: أليست هذه تسمى صلاةً - وليتنا نأتي به!

ولو علم هؤلاء أن الملائكة تصعدُ بصلاتهم فتعرضها على الرب جلَّ جلاله، بمنزلة الهدايا التي يتقرب بها الناس إلى ملوكهم وكبرائهم - كل واحد يذكر هذا المعنى، فمثلًا صلاة المغرب كأنك أتيت بهدية وغلفتها بسلوفان وأرسلتها لربك، تأمل ماذا أرسلت له؟! لو أن قلبك حاضر لتأملت هذا المثل!! فكل صلاة هدية تُهدَى لله ويعرضها عليه الملائكةُ - فليسَ من عَمَدَ إلى أفضل ما يقدرُ عليه فيزينه ويحسِّنه ما استطاع ثم يتقرب به إلى من يرجوه ويخافه كمن يعمد إلى أَسْقَطِ ما عنده وأهونِه عليه فيستريح منه ويبعثه إلى من لا يقع عنده بموقع، هل يستويان؟ لا

يستويان - الكلام واضح، إنسان عنده ملك يحبه حبًّا جمًّا، ويرجوه ويخافه ويريد منه أشياءَ كثيرةً، فيأتي له بهدية على أعظم ما تكون الهدايا، وأفضل ما يملك وربما يستدين ويزين، فيغلفها بأفضل شيء ويزينها بالورود ويكتب عليها بأجمل خطٍّ، لأنه سيبعث بها لملك يحبه، هل يستوي هذا، بمن أتى بأَرْدَأِ ما يملك ثم غلفها بورق رديء ثم يلقيها له كالكاره له؛ هل يستوي هذا وذاك؟! - وليس من كانت الصلاة ربيعًا لقلبه، وحياةً له وراحةً وقرةً لعينه، وجلاءً لحزنه وذَهَابًا لهمِّه وغمِّه، ومَفْزَعًا له إليه في نوائبه ونوازله، كمن هي سُحْتٌ لقلبه، وقيدٌ لجوارحه، وتكليفٌ له وثِقَلٌ عليه، فهي كبيرة على هذا - الأخير - وقرة عين وراحة لذلك - الأول.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلوِّ قلوبهم من محبة الله تعالى، وتكبيرِه، وتعظيمِه، والخشوعِ له وقلةِ رغبتهم فيه، فإن حضورَ العبد في الصلاة وخشوعَه فيها وتكميلَه لها واستفراغَه وُسْعَهُ في إقامتِها، وإتمامِها على قدر رغبته في الله تعالى.

(أي: من صلى وأقام الصلاة، وزينها وأحسنها وكمَّلها، وملأها بالبكاء والدموع، وحاول أن يناجِيَ ربه، وحاول أن يعتذرَ إلى الله، وحاول أن يستغفرَ وأن يندمَ وحاول أن يفعل كذا وكذا ويزين ويزين؛ فليعرف هذا أن رغبته في الله كبيرة، أما من صلى بغير حضور قلب - وأنت أدرى بنفسك - فهذا رغبته في الله شبه منعدمة؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكما قلت لك في المثال الذي ذكرته - ولله المثل الأعلى - لو أني سأذهب إلى رئيس شركة تعطي بالدينار أو بالدولار مرتباتٍ عاليةً جدًّا ووجاهةً وسياراتٍ وميزاتٍ ويعطيك شقةً - وهو عمل حلال - ومن سيقبلني أو يرفضني هذا الرئيس؛ تخيل كيف تكون رغبتك في إرضائه؛ لأن رغبتك في العمل كبيرة وأنت تحتاج إليه، فستدخل عليه - والعياذ بالله - إن استطعت أن تسجد له بغير فضيحة لفعلت. لماذا؟ لأن رغبتك فيه كبيرة، فالرغبة إذا كبرت، كانت الصلاة بحضور قلب، وبخشوع لله ﷻ).

قال الإمام أحمد في رواية مُهَنَّا بن يحيى (في رسالة الصلاة): «إنما حظُّهُم من الإسلام على قدر حظِّهِم من الصلاة، ورغبتُهُم في الإسلام على قدر رغبَتِهِم في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبد الله واحذر أن تلقى الله ﷻ ولا قدر للإسلام عندك فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك».

(تأمل كلام الإمام أحمد، وعملقة الإمام، وكيف أن السلف في كلامهم نورٌ؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

أرأيت مملكة الصلاة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ مملكة الأسماء والصفات وملحمتها، والجامعة لكل آثار الأسماء والصفات، ولكل مقتضيات الأسماء والصفات، ولكل أحكام الأسماء والصفات، ولكل موجبات الأسماء والصفات، كل ذلك في الصلاة، فالصلاة على قدر معرفة الله، وعلى قدر محبة الله، وعلى قدر الرغبة في الله، فانظر لعملقة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

وليس حظ القلبِ العامرِ بمحبةِ الله وخشيتِه والرغبةِ فيه وإجلالِهِ وتعظيمِهِ من الصلاة كحظ القلب الخالي الخَرَابِ من ذلك، فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة، وقف هذا بقلب مخبتٍ خاشعٍ لله قريبٍ منه سليمٍ من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة وسطع فيه نور الإيمان، وكُشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبَهُ بشاشةُ الإيمان بحقائقِ الأسماء والصفات وعلوها وجمالها وكمالها الأعظم، وتفرُّد الرب سبحانه بنعوت جلاله وصفات كماله، فاجتمع همُّه على الله وقرَّت عينه به وأحسَّ بقربه من الله قربًا لا نظير له ففرغ قلبه له وأقبل عليه بِكُلِّيَّتِهِ، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه فإنه سبحانه أقبل عليه أولًا - أنت لِتَأْتِيَ للصلاة لم تأتِ وحدك، إنما جئت هنا لأن الله أقبل عليك أولًا، فعليك أن تحترم هذا الإقبال الأول؛ لأن الله أقبل عليك أولًا - فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلما أقبل هو على ربه حظي منه بإقبال آخرَ أتمَّ من الأول.

وهاهنا عجيبة من عجائب الأسماء والصفات تحصل لمن تفقه قلبه في معاني القرآن وخالط بشاشةُ الإيمان بها قلبَه بحيث يرى لكل اسمٍ وصفةٍ موضعًا من صلاته ومحلًّا منها فإنه إذا انتصب قائمًا بين يدي الرب تبارك وتعالى شاهد بقلبه قَيُّومِيَّةَ الله، وإذا قال: «الله أكبر» شاهد كبرياء الله، وإذا قال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»... [1].

سيبدأ يذكر هنا تفاصيل الأذكار في الافتتاح، ثم يذكر معانيَ فاتحة

---

(١) «الصلاة وأحكام تاركها» (ص١٤٠ - ١٤١).

الكتاب، ثم بعضًا من المعاني العامة المجملة لقراءة القرآن، ثم يذكر المعاني تِلْو المعاني عن الهيئات ومعاني الهيئات وحكمة الهيئات.

إنما ذكرت هذه الكلمات التي تحدثنا عنها لأنها بداية الصلاة ومقدمة الصلاة.

فيجب أن تقف بين يدي الله ﷻ ولك رغبة شديدة جدًّا، فالإنسان إذا كان مبتلًى بالشدائد فعليه أن يفزع إلى الله أكثر وأكثر: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ ماذا يحدث منهم؟ ﴿تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٤٣] فالبأس والشدة تؤدي بالإنسان إلى الضراعة لله ﷻ.

نحن ما زلنا في الحديث عن الصلاة، والحديث عن الصلاة سيطول وكلامه كثير، وكلها معانٍ لا غنى عنها لمسلم مهما كان؛ لأنه لا أحد رُفِعَ عنه التكليف (أي تكليف الصلاة) إلا فئة الضالين وهم الصوفية الذين يقولون إن التكليف رفع، وهذا كلام فارغ وهؤلاء ضَالُّونَ وَمُضِلُّونَ أيضًا، فكلٌّ منا لا يُرْفَعُ عنه تكليف الصلاة ولو كان في القتال؛ فالصلاةَ الصلاةَ.

❍ بعد أن تناولنا المقدمة، إليكم بعض آيات القرآن الكريم:

١- ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]. إذًا فالغرض من إقامة الصلاة ذكر الله بأسمائه، ولذلك فالصلاة هي مملكة الأسماء والصفات.

ولكن ذكر الله باللسان دون القلب ليس ذكرًا بل استهزاءٌ وسوءُ أدبٍ، أن يقف المرء في الصلاة يذكر ربه باللسان وقلبه منشغل.

ولا حول ولا قوة إلا بالله، قد يكون لشخص حاجة، يحتاج مالًا أو

سلطةً أو مواساةً، فتجده يصلي ورغبته فيمن يصلي بجواره، بحيث يكون عند من يصلي بجواره حل المسألة، فتجد أن رغبته في الصلاة قد تحولت إلى من بجواره، رغم أنه في الصلاة يلهج: يا رب يا رب، أما قلبه فمنشغل كيف يلحق بمن بجواره ويكلمه؛ فصلاتنا ليست إلا شكلًا ومظهرًا، والله المستعان.

فانظر إلى الآيات وتأمل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ فهذا هو الهدف من الصلاة: ذِكْرُ الله بأسمائه وصفاته.

٢- ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وذكر الله يترتب عليه معرفة الله، ومعرفة الله يترتب عليها أن نحب الله الحبَّ المطلقَ الذي يترتب عليه أن نعبد الله.

ففاتحة الكتاب من أولها إلى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ هذا تعرُّف على الله، ينتج عن ذلك أن تقول ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ولن تستطيع أن تؤدي لله حقه في العبادة فتقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

٣- ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى: ١٥]؛ انظر إلى العلاقة بين أسماء الله وبين الصلاة.

٤- ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]. وإنها لكبيرة: لسان حاله (أرحنا منها)!! كمن يقول: (هيا بنا لنصلِّ الظهر لأنها ثقيلة على قلبي)، ربما يقصد بكلامه هذا أنه لو ضاع وقت الصلاة فاته الكثير، ولكنَّ ذلك معناه أنه لو صلى أن يصليَ بخشوع؟!، ولكنه لا يصلي بخشوع، بل يقول: (المسألة ليست إلا ثواني)، فهذا حاله (أرحنا منها) فعلًا، أما الآخر فأرحنا بها.

وقد ذكر الله قبل الصلاة ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾؛ **لأن الصبر ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: صبر على الطاعة، **والثاني**: صبر عن المعصية، **والثالث**: صبر على البلاء. هذه أنواع الصبر.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فالصلاة ذكرُ الله، بل هي أعلى ذكرِ الله، فأي بلاء يقع للإنسان والإنسان ضعيف، قد يذهب مذاهبَ شَتَّى ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ فما الحل؟ أن نستعين (بالصبر والصلاة).

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ فتكون الصلاة راحةً له، على قلبه أحلى من العسل، لا يريد الخروج منها، وتكون قرةُ عينه في الصلاة، فما معنى قرة عينه؟ أي: إذا نظر إلى شيء تجد أساريرَ وجهه قد انفرجت، ويتبسم، ويشرق وجهه وتعلوه البشاشة، هذه هي قرة العين؛ لأنَّ عينيه قرَّتَا به.

فهو في الصلاة في منتهى الاطمئنان والسعادة وانشراح الصدر، هل تتخيل أن مَنْ ذلك حَالُهُ يريد أن يخرج من صلاته؟ بالعكس، فذلك حاله أن تعاوده الأحزان والهموم إذا ما خرج من صلاته، لذلك قال النبي ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١). هذا هو معنى الصلاة الذي نجاهد ونحارب حتى نصل إلى شيء منه. فالمرء منا يرمي كلَّ الهموم وكلَّ الأحمال لأنه يقف مع الله ﷻ، أما نحن بصلاتنا هذه فإننا نخرج من الصلاة بلا تكفير سيئاتٍ فلا نحن ألقينا أحمالًا ولا نحن ألقينا همومًا ولا نحن ألقينا شيئًا، فالله المستعان.

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٣٩).

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٦] وكما بيَّنّا من قبل أن أصل كل صلاح الإيمان بالآخرة.

ويروى عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه قال: «أَصْبَحْتُ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَأَسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي قَدْ أُبْرِزَ لِلْحِسَابِ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنَّةِ، وَكَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النَّارِ»(١).

فذلك حال الصحابي، الآخرة نُصب عينيه منشغل بها، ولا يصلي وينظر في الساعة وإلى عقرب الثواني

منشغل متى يفرغ من الصلاة؟ إنما هو منشغل بالآخرة.

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾؛ من علم أنه سيلقى الله صَلُحَتْ صلاته، لذلك أكرر عليك أنك بالنداء (الأذان) تذكر النداء يوم القيامة.

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: عن القتال، وماذا نفعل إلى أن يأتي القتال؟ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فنحن الآن بغير قتال، لذلك علينا بإقامة الصلاة.

فماذا تعني إقامة الصلاة؟ نحن نؤدي الصلاة، أما لكي نقيم الصلاة فذلكم الكلام الذي سنشرع به هو خطوة خطوة لكي نستعين به على إحسان الصلاة وعلى إقامة الصلاة.

٦- ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

لأن الإنسان يضعف، (مقتضى النفس: ضعف النفس) لو أن المرء

---

(١) أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة (٣٠٤٢٥).

مثلًا قد صلَّى الصبح ولم يصلِّ الضحى، فحين يأتي وقت صلاة الظهر تجد قلبه قد قسا بعض الشيء، وتجده وقد طال عليه الأمد فكم ساعة من الفجر حتى الظهر؟! فتجده قد يعصي ويطمع في الدنيا وتكون همته للدنيا، فالصلاة كتاب موقوت كي تعيد شحن قلبك.

فلا شاحنَ غيرُ ذكرِ الله، ولكن على ألا يكون القلب غافلًا ساهيًا لاهيًا وأنت في حضرة ملك الملوك.

والشيطان هدفه: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فهذا هدفه؛ لأن أعلى الذكر في الصلاة.

٧- ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. انظر وتأمل هنا أن التمسك بالكتاب اقترن به إقام الصلاة.

٨- ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم ٣٧].

أراد أن يدعوَ ربه، وأن يسأل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم كيلا تكون امرأته وابنها وحدهما، فيقع لهم خوفٌ أو شرٌّ، لكن حينما يكون معهم أناس آخرون، فعندئذٍ يحدث اطمئنان ومؤانسة، فيتوسل إلى الله ﷻ بإقامة الصلاة؛ فالهدف هو إقامة الصلاة.

٩- وهو أيضًا قد قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [ابراهيم: ٤٠]. أمرنا أن نقيم الصلاة، لكن كيف تقيم الصلاة؟ هل تستطيع أن تقيم الصلاة بنفسك؟ لا يمكنك أن تقيم الصلاة إلا بسؤال الله ﷻ فتقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبراهيم: ٤٠] رغم أننا أمرنا بإقامة الصلاة، ولكن أنَّى لك ذلك وقد علمت حالك واستمعت

لبعض الأمور التي تَعْجَبُ منها من نفسك، ولكن يزول عجبك حين تَذْكُرُ أن خليل الله إبراهيمَ قد قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

١٠- ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

١١- ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢] وإسماعيل عليه السلام كان يأمر أهله بالصلاة: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي: اصطَبِرْ على الأمر بالصلاة، وعلى الصبر على الصلاة؛ لأن الصلاة بداية كل خير، فالجيل الذي ساد وقاد الأرض، قادها لأنه صلَّى ولأنه أقام الصلاة.

وهذا ليس بكلام إنشائي فالله عز وجل يقول: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧] مَن هم هؤلاء؟

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٦] من هم؟ ﴿رِجَالٌ﴾، فما الذي يحدث في هذه البيوت - المساجد؟

انظر في أي سورة هذه الآية أو عَمَّ تتكلم؛ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾ [النور: ٣٥].

(المشكاة): هي تجويف في الحائط يمكن إنارته بعود الثقاب، لكن المشكاة هذه فيها مصباح؛ أي: أنها ستكون منيرة؛ هكذا نور الله، نور على نور ومغفرة على مغفرة، وعظمة على عظمة، وخير على خير، لذلك إذا قال أحد: يكفي الاستغفار، فقل: (لا) نور على نور واستغفار مع استحضار القلب في التكبير مع ستر العورة مع استقبال القبلة

والاستعاذة والصدقات فكل هذا نور على نور.

﴿فِى بُيُوتٍ﴾: نور على نور في المساجد بداية في الصلاة، والصلاة ستخرج منها لتحمل الدين كله.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾: وليس اللمبة التي تُخْرج دُخَانًا، هذا المصباح في زجاجة تجعل الأكسجين يخرج من تحتٍ ويختلط باللهب فلا يُخْرج دخانًا أبدًا، ويكون الاشتعال عظيمًا ورائقًا وصافيًا فإذا كسرت هذه الزجاجة صار هناك دخانٌ.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾: فالماس بمقارنتها عفن، فذلك هو نور الله، وذلك مثال يضرب بنور الله، هي كوكب دري لا يمكنك تخيله، انظر إلى الوصف العظيم لنور الله، الأصل أن عود الثقاب يكفي المشكاة لكنَّ بها مصباحًا لكي يصير النور صافيًا وشديدًا والمصباح في زجاجة لا يمكن تخيلها كأنها كوكب دري يتلألأ، وبعدها: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

أي: أن الوقود ليس جازًا أو سولارًا كريهَ الرائحةِ، بل إن الوقود من هذه الشجرة، فمن الممكن أن يضيء وحده من غير أن ينيره أحد، فهل هذا عندنا؟ لا ليس عندنا، وإنما هو كذلك لأن نور الله أعلى وأعلى؛ فالله أعلى وأعلى لأنه له المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] ما هذا المثل؟ هذا مثل نور الله في قلب المؤمن.

وهذا النور في قلب العبد هو الذي يجعله يخشع في الصلاة، ويجعله واقفًا بين يدي الله يبكي، ويشعر أنه تحت الصفر ويريد الهرب أو أن تنشق الأرض وتبتلعه كي يبتعد عن التقصير الذي يراه من نفسه في حق ملك الملوك، لأن عنده نورًا يرى به.

أما الآخر فلا نور له، لا يرى إلا الدنيا، وحُجُبَ الشهوات، وحُجُبَ الأهواء والمعاصي.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

فالمسألة هي ذكر الله ﷻ، وشحن القلوب بذكر الله، فالصلاة هي مملكة الأسماء، ولكننا لا نعرف الأسماء ولا الخشوع، ولا معنى النور، ولا نحسن الصلاة وحالنا كما قد علمتم. فأنت الآن مُطَالب أن تنفذ هذا الكلام حرفيًّا، ولكن كيف تنفذه وقد نَسِيتَهُ؟!

فاعلم أن مسألة الصلاة رهيبة جدًّا، وأنها هديةٌ لملك الملوك مرتبةٌ ترتيبًا عجيبًا، وكيف أنها دَنْدَنَةٌ بأسماء الله تعالى وصفاته، وكيف أنك حين تقوم بتحية ملك من ملوك الأرض فماذا تفعل له؟ وستجد أن أعظَمَ نوعٍ من التحيات مَرْتَبَةً لملك الملوك في الصلاة.

ولذلك في آخرها نقول: (التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ) وليس التحيات لملوك الأرض، فكل تحية لملوك الأرض مَنِ الأحق بها؟ الله تعالى، ربما تُحَيِّي أحد ملوك الأرض وتقولُ له: (تَعِيشُ ألفَ سنةٍ) وهو أوشك على الوفاة، أما الله فهو الحي. أولى بالحياة كلها؟ ليس أحدٌ أولى من الله، فالتحيات هي تفعلةٌ من الحياة، لأنهُ هو الحيُّ القيوم.

معاني وحِكَم الوضوء والصلاة

أيها الإخوة الأعزاء:

هذا الباب حول معاني وحِكم الوضوء والصلاة، والهدف: تحصيل الخشوع، وتحصيل الخشوع أردناه أن يكون على عِلمٍ، فإن لم يُوفَّقِ الإنسان للخشوع في صلاةٍ وُفِّقَ في صلاةٍ بعدها.

ولقد ذكرنا من قبلُ أن ذلك الأمر إنما يقع عبؤه عليك وعلى كلٍّ منا، وأنت مكلفٌ بالخشوع في الصلاة وأمرت بإقام الصلاة، ولن تُقام الصلاة أبدًا إلا بالخشوع: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، فالخشوع سبب الفلاح وبلا خشوعٍ لا فلاحَ ولا أيَّ شيءٍ تنتظره.

قيام الليل بداية الطريق العملي للخشوع في الصلاة:

فالخشوع نريد أن نحصِّله، وكما ذكرت من قبلُ فإن عليك بالتمرينات والإعدادات والاستعدادات والمحاولات المضنية التي تحاولها وإلا فلن تفلح إذًا أبدًا؛ وهذه المحاولات إنما تكون في صلاة الليل - قيام الليل - إن أردت الفلاح، وبغير ذلك فلا فلاح أبدًا - هذا الذي أراه والله أعلم - لأن صلاتنا ليست صلاةً! إنما هي صلاة في الظاهر، أما خشوعها وحقائقها فلقد قلَّت بشكلٍ مخيف وبشكلٍ مرعب، والخروج من ذلك أن

نحاول أن نُحَصِّل الخشوع فيها؛ فكيف ذلك؟ بالتدريب والاستعداد، أو كما يقال: (البروقات) إنما تكون في قيام الليل؛ لأن هذه المعاني أنت مكلفٌ أن تعلمها، ثم أن تكررها، ثم أن تستحضرها في كل صلاة، ثم أن تتعود عليها، ثم أن تتعود على التأثر بها كلما ذكرتها، وهذه المعاني كثيرة؛ فالخشوعَ الخشوعَ في الصلاة. وإنما أنا عامل مساعد لنفسي ولكم، فالإنسان يحاول أن يوفر بعض الأسباب للناس: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

أما أن يكون كلامًا ترفًا علميًّا مجرد أن قرأت موعظة؛ كلا هذا الكلام ليس مجرد موعظة قرأتها واستمتعت بها وبعد ذلك تنساها تمامًا فذلك لا يكون ولا يفيد، وإنما هذا الكلام نريد به أن تعمل به تمام العمل مع العلم، وكلُّ إنسانٍ مسؤول أمام الله يوم القيامة عن هذا الأمر العظيم الخطير الشأن.

ملخص ما سبق:

فبدأنا ببيان النداء الذي هو الأذان وكيف يذكرنا بالنداء للحساب أمام الله يوم القيامة، وهذا وحده كفيل بأن تصاب بحالة نشاط وحضور للهمة في الصلاة ودفع الخواطر الشاغلة التي يترتب عليها الإرادات الرديئة (الشرور)؛ والعياذ بالله تعالى من شواغل الدنيا.

فذكرنا النداء، وذكرنا أيضًا التكبير، وذكرنا استقبال القبلة، وذكرنا الاستعاذة، وذكرنا بعضًا من الأسباب التي تعيننا على الخشوع.

والوضوء أيضًا سببٌ عظيم من أسباب الخشوع، وذكرنا الاستغفار الذي هو قبل الصلاة، وفي افتتاحية الصلاة وفي تضاعيف الصلاة وفي

نهاية الصلاة وبعد الصلاة، والاستغفار بالأسحار، فالاستغفار عامل هامٌّ جدًّا؛ بل من أهم العوامل نظرًا لكثرة ذنوبنا وأخطائنا، وذكرنا أن الخشوع رزقٌ، فكيف تخشع إذا كان الخشوع رزقًا من الله؟ مثل المال، فكيف تُحَصِّل المال إلا برزق الله ﷻ، فالخشوع كذلك رزق فكيف تحصله وأنت أغضبت ربك بالخطايا والذنوب؟! إذًا لا بد من الاستغفار والصدقة قبل الصلاة، فهي أسباب؛ فمثلًا: إنسان لا تُيَسَّر له الصدقة إنما يُيَسَّر له الاستغفار، والاستغفار له شروط: (معه الندم، والإصرار على إرضاء الله ﷻ بهذا الاستغفار، والإلحاح في الطلب من الله أن يغفر)؛ أي: أن يكون استغفارًا حقيقيًّا وليس مجرد كلام باللسان.

وفي الوضوء تتقاطر الذنوب مع قطرات الماء[1]، إذًا الوضوء مثل الاستغفار مهم جدًّا ومهم أن تُؤَدِّيَهُ كما أمرنا وكما علمنا رسول الله ﷺ.

حكمة الوضوء:

أما أن تعلم شيئًا عن حكمة الوضوء فذلك أمرٌ جَلَلٌ وأمرٌ عظيمٌ، فما الوضوء؟ وماذا نفعل في الوضوء؟ هل أمرنا بغسل البطن مثلًا في الوضوء؟ أو بغسل الظهر مثلًا؟ أو بخلع الملابس أو بأمور تَشُقُّ علينا؟ كلا؛ وإنما أُمرنا بغسل هذه الأعضاء الظاهرة التي ترتكب المعاصيَ والذنوبَ؛ فالوجه فيه العين والنظر المحرم، وباللسان اللغو والغيبة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ**».

والنميمة، والأسنان إن أكلت حرامًا، والأنف إن اشتمت مثلًا ريحًا لامرأةٍ فتسببت له في إثارة، وكذلك المرأة أيضًا، فالوجه يجمع المصائب كلها، واليدان وبطشهما إذا امتدتا إلى كذا، أو إلى كذا، أو ضرب بهما فقيرًا أو يتيمًا أو ضعيفًا أو لم يُعِن بهما مغلوبًا على أمره مثلًا، فبطش اليدين كأن فيه إنتاجًا مستمرًّا للخطايا والذنوب، والرِّجْلان تسعيان؛ فالإنسان يسعى بهما إلى المعصية وإلى الذنوب الكثيرة.

إذًا: هذه الأعضاء هي التي ترتكب الذنوب.

ثانيًا: هذه الأعضاء سهلة ميسورة فلا تخلع القميص أو الثوب لتتوضأ، إذًا فالوضوء مسألة ميسورة أم لا؟ سهلة أم لا؟ هو مسألة سهلة، فذات الأعضاء التي هي سهلة في إجراء الوضوء عليها هي نفسها الأعضاء التي ترتكب الذنوب والخطايا؛ فهذا من حكمة الوضوء، فهذه الأعضاء سهلة لا تكلفك كثيرًا، وهي نفسها مظنة أسباب العطب والهلكة، وفي الوقت نفسه هي المعرضة للدنس - والدنس هو القذر والوسخ والتراب والشحم والعرق - ومعرضة لأسباب الرجس الذي هو الخطايا والذنوب.

الفرق بين الدنس والرجس:

هنالك دنسٌ ورجسٌ: فأما **الدنس** فهو أقذار وأوساخ، **وأما الرجس** فهو نواتج الذنوب، فالرجس على القلب - والعياذ بالله تعالى - وهو أربعة وثلاثون نوعًا موجودة في كتاب الله ﷻ: منها الطَّبْعُ، والغُلُّ، والخَتْمُ، والقَفْلُ، وجَعْلُ القلوب قاسيةً، وإضلالُ القلوب، وإزاغةُ القلوب.

فهذه الأعضاء هي البارزة وهي التي ترتكب الذنوب والخطايا، وسهلٌ

إجراء الوضوء عليها، فهذا من حكمة الوضوء، فالإنسان وهو يتوضأ فهذه الأعضاء التي عصى الإنسان ربه بها، ها هو الآن يمسح عنها خطاياها، فالوضوء مهم جدًّا في الصلاة؛ فهو شرطٌ في الصلاة وبغيره لا تصح الصلاة.

الحكمة من الوضوء (نظافة القلب من آثار الذنوب):

فما الحكمة من الوضوء؟ أقول لك: حكمة الوضوء تعرفها من قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾ إلى أن قال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] هذه هي الحكمة، ولكن انتبه وانظر يا من تسأل عن الوضوء هذه آية التيمم! نعم؛ إن لم نَجِدْ ماءً تَيَمَّمْنَا بالتراب، سيقول قائل: النظافة بالماء والصابون! فأيُّ نظافةٍ؟ التراب ليس نظافةً؟! إذًا إنما المقصودُ بالوضوءِ التطهيرُ ونظافةُ القلب من آثار الذنوب - من الرجس - فليس المقصود هنا الدنس، إنما المقصود التنظيف من الرجس، لأن ذات الأعضاء - وخصوصًا اليَدَينِ والوجه ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۚ﴾ - الأصل في الذنوب والخطايا. ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ - بالتيممِ هذا - ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ليس تعنتًا من الله، تقول: أَخْبِطُ على التراب وأَنفُخُ وأَمسَحُ فما هذا الكلام؟ وما هذا التعنت؟ إن لم أجد الماء ما توضأت وربنا يعفو عنا وينتهي الأمر، هل هذا هو الحرج؟ لا؛ الذي ظن هذا أو الذي قذف الشيطان في قلبه بهذه الوساوس عليه أن يذكر قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ إذًا فما هو؟ ﴿وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وما هذا التطهير؟ هل هو من الدنس؟ هل إذا ضربت على التراب تطهرت من

الدنس؟ بالطبع لا؛ إنما هو تطهير من الرجس الذي هو آثار الذنوب: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦] لتفعلوا ماذا؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، إذًا: فالتيمم هدفه التطهير من الذنوب والخطايا. فالوضوء هذا استعداد للصلاة؛ لأن الذنوب هي التي تمنع الخير عنك وتجعلك غير فاهم للقرآن، وتجعلك غير قادرٍ على استحضار قلبك، ومهما حاولت أن تطرد الخواطر والشواغل القذرة عن قلبك فإنك لا تستطيع؛ لأن الذنوب تمنعك.

لا بد أن تفهم أسرار الوضوء:

للوضوء شروط؟ فكيف تبدؤه؟ وكيف علمنا الرسول ﷺ الوضوء؟ فلا تُسِئْ وَلا تَتَعَدَّ وَلَا تَظْلِمْ، وتبدؤه بالبسملة (بِاسْمِ اللهِ)[١] وبعد الانتهاء من الوضوء تقول: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**»[٢]. أَمِنَ الدنس مُتَطَهِّرُونَ؟! الدنس قليلُ صابونٍ ينظِّفُهُ؛ إنما من الأرجاس - من الرجس - ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١]، وكلنا عائمون في الرجس إلا من رحم ربي، وسبب حالِنا القَطِرَانِ الذي نحياه: الرجسُ الذي نعيش فيه، نَعُومُ في الرجس،

---

(١) استدلالًا بالحديث الذي روي عن سعيد بن زيد رضي الله عنه الذي أخرجه الترمذي (٢٥)، وابن ماجه (٣٩٨): «**لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُر اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ**».

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (٢٣٤) بلفظ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**».

تمامًا كالطفل يغرق في رحم - مَبَاءَةِ الرحم - الأم، مثل: (وَأَبُوءُ بِذَنْبِي) فهذه معناها: (إن ذنبي يغرقني)، فنحن نعوم في الرجس والعياذ بالله. والمَخرج من هذا هو الصلاة، ولكن الصلاة لها استعداد كما ذكرنا قبل.

الوضوء عبادة لله تعالى باسمه القدوس:

ثم فصَّلنا بعض القول عن حكمة الوضوء؛ آية التيمم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وهي عبادة الله ﷻ باسمه القدوس، فما معنى القدوس؟ القدوس: هو الطاهر الذي له الكمال في الطهارة، فالذي يليق بالقرب منه أن تتطهرَ طهارةً فوق طهارةٍ فوق طهارةٍ، وتظلَّ تتطهر وكلما اقتربت من الله أحسست أنك لم تتطهر بالقدر الذي ينبغي وهكذا؛ لأن الذي يليق بمقام القدوس أعلى وأعلى، وحظيرة القدس - الجنة - بجوار ربِّ العالمين ﷻ: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٥]؛ فمسألة الطهارة هذه أينما ذكرت فاذكر اسمه تعالى القدوس.

فالوضوء تقديس وتطهير، والاستغفار تطهير بشروطه كما سبق؛ فتستغفر وتحاول أن تبكي، كل هذا وأنت تمشي في الشارع في طريقك إلى المسجد، وتغض البصر وهذا الغض يزيل الذنوب ويعطي في القلب حلاوةَ الإيمان؛ فتجد حلاوة الإيمان في قلبك، وحين تتوضأ تقول: «**بِاسْمِ اللهِ**» - الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ - وعليك فعلًا أن تستحضر عظمة الله وأنت تقول: (بِاسْمِ اللهِ)، وفي الاستفتاح تقول: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه (٨٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

طبعًا سنرجع للصيغ هذه كلِّها - إن شاء الله - بالشرح، ونشرح «الفاتحة» و«الإخلاص» و«الكافرون» و(سبحان ربي الأعلى) و(سبحان ربي العظيم)، سنشرح المعاني لئلا يكون لك عذر ولا حجة بعد ذلك.

فإذا فهمت المعاني بقي عليك الخروج من المجاري التي غرقت فيها من شهوات الدنيا والتي تمنعك من أن تخشع وأنت تصلي، وهذه مسألتك، أنا سأشخِّص لك الدَّاءَ وعلاجُهُ عليك أنت، وليس عليَّ أنا ولا على الوُعَّاظِ أبدًا.

۞ لا بد من قيام الليل:

لا بد من قيام الليل من غير كلام، فلن تخرج من ذلك الوحل الذي تعيش فيه إلا بقيام الليل وهذه هي البداية، وتحاول أن تقرأ هذا الكلام وتعيد قراءته وتحاول أن تستحضره، وتحاول أن تعمل به؛ فلن تتغلب على شهواتك أبدًا إلا بهذه الصلاة. فعلًا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]؛ فأول شيء الخشوع في الصلاة، وحظ الإنسان من الإسلام على قدْرِ حظه من الصلاة، ورغبة الإنسان في الإسلام على قدْرِ رغبته في الصلاة؛ فالصلاة هي البداية.

۞ انظر إلى الوضوء وما حكمته؟

حكمته التطهير، ولكن من أي شيء التطهيرُ؟ هو تطهير من الدنس. والوضوء فيه أيضًا نشاط للبدن وإفاقة، وهذا مطلوب ومهم جدًّا للبدن أن تريحَهُ، فأنت تعمل بهذا - أي: من أجل راحة البدن وهو مطلوب - إنما الأصل طهارته من الرجس - من الذنوب - لأن الذنوب تمنعك التركيز في الصلاة، فتجد نفسك تقول باللسان: (اللهُ أَكْبَرُ)، ثم تستحضر كلَّ

شيءٍ غيرَ الله! أليس هذا ما يحدث؟ فليسترجعْ كلُّ إنسان ما الذي يدور في ذهنِه؟ وما الذي يَحْضُر قلبَه؟ يقول: (الله أكبر) باللسان ثم يستحضر كلَّ شيءٍ إلا اللهَ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فما سبب ذلك؟ سببه الرجسُ الذي على القلوب، والرَّانُ؛ وهو نوع من أنواع الرجس الذي هو عقوبات الذنوب، ولذلك نركِّز عليه؛ لأن الله ﷻ لمَّا شرع الوضوء شرعه لهدف، فماذا نفعل إن لم نجد ماءً؟ نتيمم، ولماذا نتيمم؟ نعمة من الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

إذًا: من تمام النعمة أن يُقدِّر لك الله سببًا تتطهر به من الذنوب.

۞ بعض أذكار الوضوء:

وما ذُكِرَ اسم الله على شيء إلا كثَّره، إن كان قليلًا كثَّره وإن كان خيرًا أَنْمَاه وزَادَه، وإن كان شرًّا دفعَه وهكذا: «**بِاسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**»؛ فاسم الله تبدأ به وضوءك، وعليك أن تعرف مَنْ تذكر ولماذا تذكره، ولماذا باسم الله؟ ولماذا تتوضأ باسم الله؟ فأنت ستدخل في مملكة الأسماء والصفات، أنت ستدخل في مقابلة مع ملك الملوك! أم أنه لا بد لك من أن تراه لتصدق أنك في مقابلة معه! تستحضر ذلك وأنت تتوضأ؛ فأول الطريق أن تتوضأ باسم الله؛ لأنك داخل على عمل عظيم لو أفلحت فيه فقد أفلحت في كل شيء، ولو سقطت فيه، فقد سقطت في كل شيء، فتقول: باسم الله، لأن الوضوء ما تترتب عليه الصلاة حتى نهايتها، وفي آخر الذكرِ الشهادتان، وبعدها: «**اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ**». انظر فهذا أيضًا

استغفار ولكن بطريقة ثانية، «**وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**» وتجد كلَّ إنسان لا يستحضر التطهر إلا من الدنس!! فالكافر يستحم بالماء والصابون! لكن المهم الطهارة من الذنوب؛ فـ«**اجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ**» أيِ: الطهارة من الذنوب أساسًا، فهذه هي حكمة الوضوء.

التقرب لله بالأعمال الصالحة ليرزقك الخشوع:

ثم بعد ذلك الاستغفار والصدقات وأي عمل من أعمال الطاعات، وتنوي بذلك أن يرزقك الله تعالى الخشوع في الصلاة.

وقلنا النداء وقلنا المسائل الخمسة، وسنبدأ في التكبير وبعدها صلاة السنة، ولا فرق بين صلاة السُّنة وصلاة الفرض، فصلاة السنة استعداد للفرض، والركعة الأولى في المكتوبة استعداد للثانية، والثانية تجبر كسر الأولى، والثانية استعداد للثالثة، والثالثة تجبر كسر الثانية، والثالثة استعداد للرابعة، والمفروض أنك في كل ركعة تزداد تقربًا من الله وتزداد خشوعًا، أليس كذلك؟ وبعد ذلك تصل إلى التشهد الأخير وأنت فاهم المعاني، وتخرج باسمه تعالى (السلام) رجاء أن يُسَلِّمَكَ وأن يكون عليك من الله حافظ إلى أن تأتيه في الصلاة التالية، بذلك تخرج سليمًا.

يا إخواننا: نحن داخلون في متاهات الذنوب والمعاصي، فاعمل مثلًا زيارةً لأقسام الحريق في المستشفيات، أو زيارةً لمعهد السرطان وانظر إلى الأطفال والنساء والرجال الذين يعانون من السرطان، انظر إلى الناس وماذا فعلت بهم الذنوب؛ مناظر رهيبة مرعبة مُفْزِعة والله، وكل هذا من غضب الله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١]، فما المخرج؟ المخرج هو الذي نتكلم عنه الآن.

بدأنا بالتكبير وما هو؟ هو الباب الذي تدخل منه إلى الصلاة، وما الصلاة؟ الصلاة هي مقابلة مع ملك الملوك.

الصلاة مقابلة مع ملك الملوك:

لا بد أن تذكر مقابلتك مع الوزير، فسيقول قائلٌ: أنا لم أقابل في حياتي وزيرًا! فعليك إذًا أن تذكر مقابلَتك مع رئيس مجلس الإدارة أو مقابلَتك مع كل شخص فيه رغبة ورهبة منه، مثلًا يملك لك وظيفة، أو يملك أن يَسْجُنَكَ، أو يملك أن يفترِيَ عليك في قضية، أو يملك كلَّ أمرٍ له علاقة بك، فانظر إلى نفسك إذا قابلته كيف تقابله؟! فأنت حين تقابله تحاول أن تظهر له أنك مُحِبٌّ له وخاضعٌ له وتحت أمره، فكلٌّ منَّا يحاول أن يستحضر المقابلات التي تتم بين عامة الناس وبين ملوك الأرض، فتجده حين يدخل يرفع يديه إلى الجبهة، ويبسط يديه ويرفعهما مرة أخرى وبعد ذلك يتطامن؛ يعني رأسه يطمئن للأسفل ويُطَأْطِئُ رأسه وينحني قليلًا إلى أسفل.

أُنظر إلى ذلك الفنان الذي يغني وماذا يفعل للناس على المسرح؟ تجده يركع نصف ركوع؛ فهذا خضوع للناس معناه أنه يقول للناس أنا تحت أمركم. وهذا ليس سجودًا.

۞ تأمل من هذا المثال الفرق بين الركوع والسجود فـ(الركوع تعظيم، والسجود ذُلٌّ):

فهنالك فرق بين الركوع والسجود، فأنت الآن تستطيع أن تُفرق بين الركوع والسجود. تذكر هذا الفنان هل يمكن أن يسجدَ ويضعَ وجهه على التراب لهم؟ بالطبع لا؛ لأن هذا سيكون فيه امتهان شديد له، ويكون بذلك أفسد أمره عليه، فالأول يسمى خضوعًا أما الآخر فيسمى سفولًا وفيه ذلٌّ والأول فيه تواضعٌ، أيِ: الركوع فيه تواضع أما السجود ففيه ذلٌّ، وهناك فرق بين هذا وذاك، فالركوع توطئة وتمهيد للسجود كما سنرى في التفاصيل.

۞ الخطوط الثلاثة (حركات البدن وأقوال اللسان وأقوال القلب الذي هو أهم شيء):

يجب أن تكون الخطوط الثلاثة هذه متوازية؛ فالأذكار التي على اللسان خط، وحركات البدن خط آخر، والقلب وما هو منشغل به خط ثالث.

فلا بد أن تكون هذه الخطوط الثلاثة مع بعضها البعض، ولكن الذي يحدث اليوم أنك ترى اللسان يأخذ خط الأذكار تمامًا، ويحفظ الفاتحة جيدًا ويحفظ (سبحان ربي العظيم) و(سبحان ربي الأعلى) ولكن القلب يأخذ خطًّا بعيدًا (١٨٠) درجةً عن خط اللسان، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وكذلك الهيئات، تجد هيئة الإنسان من السهولة بمكان أن يضبطها، فاللسان والبدن منضبطان، أما القلب فليس حاضرًا، ولكنه مهم جدًّا ولا بد أن يكون حاضرًا، انظر إلى الذي يركع للناس ويخضع

هل يمكن أن يسجد؟ لا يسجد فهنالك فرق بين الركوع والسجود، فهنا تَذْكُر مقابلة ملوك الأرض.

بالله لو أن عندك لقاءً مثلًا مع رئيس دولة ما فماذا تفعل؟ سيكون هناك تدريب، وتمر على أشخاص كثيرين يحددون لك ماذا تفعل أمامه وماذا تقول له وكيف تتصرف؟ وكيف تمشي في حضوره؟ وكيف تنصرف من أمامه وحين تجلس وكيف تكون شكل جِلستك؟ هل تكون مرتاحًا؟ وهل تتودد إليه وبأي العبارات تناديه؟ هل تقول له سيادتك وسعادتك ومعاليك؟ وقد يكون هذا التدريب لمدة شهر حتى يحين اللقاء.

فما بالك وأنت في لقاءٍ مع ملك الملوك؛ ألا يستحق أن تتجهز له؟ ألا يستحق التفكيرَ كيف تقابله؟! وماذا يكون شعورك؟ وكيف تُرضِيهِ؟ وكيف تخاف منه؟ وهل تعطيه حقه في التبجيل والاحترام؟ فلا بد أن تذكر لقاءات الناس بملوكهم، فهذا أمر ضروريٌّ جدًّا لتستوعب الصلاةَ وحكمة الصلاةِ.

۞ المعنى الهام لكلمة (الله أكبر):

سنبدأ بعد التكبير: تقول: (الله أكبر) وعليك أن تذكر الآتي: ولكن هذا ليس في الصلاة المكتوبة، إنما قلنا: ستستعد في صلاة القيام براحتك - تقول: (الله أكبر) وتنتظر قليلًا وتفكر؛ فأنت تصلي، وأيضًا التحيات تقرؤها على تمهل، ولا تتعجل، وهذا الكلام سنفهمه ثم نطبقه عمليًّا في صلاة القيام وتكرر ذلك حتى يكون سهلًا أن تستعيده في الصلاة المكتوبة التي تصليها بسرعة وتحاول أن تلاحق المعاني والآيات والأذكار وهذا هو المطلوب.

وسأعطيك مثالًا في أمر أنك تقول: (الله أكبر) باللسان، أما القلب فليس حاضرًا والبدن أيضًا ليس مهيَّأً: الصحيح بعد العشاء أن نتسامر أم أن ننام؟ ألم نُنهَ عن السمر والتسامر بعد العشاء[1]، فالصحيح بعد العشاء أن ننام، إلا أن تُضطر، وطبعًا أنت ستجعل حياتك كلها اضطرارًا، إذًا سيضطرك الله إلى عدم الخشوع؟ فلا تظن أن الله غافل عمَّا تعملون، لا عمل تعمله إلا ويَعْلَمه الله، فأنت تقول: (الله أكبر)، فهل أنت تقوم لتصلي الفجر أم أنك لا تقوم لصلاة الفجر؟

إذًا: الله ليس أكبر عندك، إنما هو أكبر من الأشياء التي تستطيع أن تستغنيَ عنها، فالسمر ومتعة السمر وجلوسك هنا أو هناك لا يجوز؛ فالله أكبر من ذلك؛ لأن رسوله ﷺ نهاك عن ذلك، ولماذا؟ لتستطيع أن تصلي القيام، فنم مبكرًا لِتَصْحُوَ قبل صلاة الفجر مثلًا، فتصلّي منَ الليل ما شاء الله لك أن تقوم وبعد ذلك تصلي الفجر، وصلاة الفجر هذه فرض وأكثر الناس الآن أهملوا هذه الصلاة، فأين قولك: (الله أكبر)؟!

أولًا: عليك أن تستحيي وتستحضرَ الحياءَ من الله ﷻ، فكيف وأنا أقول بلساني الله أكبر، ثم جعلتُ التسامرَ ولَذَّتَه بعد صلاة العشاء أكبرَ من الله ﷻ؟ وبالطبع ليس المقصود أنه أكبر من الله يعني أكبر من ذات الله، ولكن المقصودَ هو أكبر من إرادة الله منك؛ لأن الله أراد منك شرعًا أن تنام بعد العشاء لكي تصحوَ وتُفيقَ قبل صلاة الفجر - صلاة

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٨)، ومسلم (٦٤٧) من حديث أبي برزة رضي الله عنه؛ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العِشَاءِ وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا».
وأخرجه أبو داود (٤٨٤٩) بلفظ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنِ النَّوْمِ قَبْلَهَا وَالْحَدِيثِ بَعْدَهَا».

القيام؛ ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وبعدها صلاة الفجر، فمن الأكبر عندك؟! أثبت لنفسك من الأكبر. فباللسان الله أكبر؛ هذه سهلة جدًّا، فالقول باللسان سهل والهذيان باللسان ما أسهله، أما أنت فعليك أن تستحيي وتستحضرَ الحياءَ؛ فكيف بي أقول: (الله أكبر) وأترك صلاة الفجر.

فما معنى (الله أكبر)؟ يعني حب الله أكبر من كل حب أم لا؟ ذَكِّر نفسك: يا نفس هل تحبين المال؟ وإلى أي حدٍّ هذا الحب؟ حين تُعطى مكافأة فإنك تفكر كيف أتمتع بهذه الأموال. وكذا إذا حققت مكسبًا في التجارة أكثر من السابق، تنشئ تفكر بمشاريع وأحلام اليقظة، بدلًا من أن تذكر الله تعالى. فهل (الله أكبر) يعني: هل حبي لله أكبر أم حبي للشهوات والدنيا وما إلى ذلك؟ عليك أن تقول ذلك، فـ(الله أكبر) يعني: محبة الله أكبر من محبة غيره، والخوف من الله أكبر من الخوف من غيره.

فكيف تنشغل بغير الله بمحبة المال وتذكر المال والجاه والرئاسة والحظوظ! وأول ما تدخل في الصلاة تتذكر مواقف يهيئها لك الشيطان، بالرغم من أنك لا زلت تقول: (الله أكبر)، أي محبته أكبر والخوف منه أكبر والحياء منه أكبر فكيف اللسان يقول هذا! وأول ما تدخل في الصلاة تستحضر كل شيء ويَحْضُر قلبك كل شيء إلا الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أول ما يدخل المرء في الصلاة يقول له الشيطان: تذكر ذلك الرجل وتلك الكلمات السيئة التي قالها لك. وتقول لنفسك: ولكن كيف لم أرد عليه وآخذ بثأري منه؟! فتجد نفسك تقول هذا وأنت ما زلت تقول:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، فأنت منشغل تتكلم مع نفسك وتقول: كان ينبغي أن أقولَ له كذا لأُسكته، فكل هذا سُمٌّ سُمٌّ، وتجد نفسك وقد قرأت الفاتحة وقرأت القرآن وركعت وقلت: الله أكبر، سمع الله لمن حمده، وبصوت جهوري وكأنك متفهم للمعاني، بالرغم من أنك تذهب كل مذهب إلى غير الله، فأين قولك: (الله أكبر)؟!

فذَكِّر نفسك وقل لنفسك: أليس عندي حياء! كيف أفعل هذا! تقول لنفسك ذلك وتحاول أن تبكي؛ لأن كل شيء يصدر منك الله يراه ويسمعه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وتحاول أن تستغل هذا الموقف، «رُبَّ حَسَنَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا فَأَدْخَلَتِ النَّارَ، وَرُبَّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَانْكِسَارًا فَأَدْخَلَت الجَنَّةَ»، فالذل والانكسار بأي طريقة تُحصله في بداية الصلاة؟ تحصله بهذه الطريقة التي شرحناها الآن وهي معاتبة النفس على السَّرَحَانِ والذهاب فيها كل مذهب، والتفكير في كذا وفي الجيران فعلوا كذا، وولدي فعل كذا وزوجتي قالت كذا، والمقابلة مع المسؤول الفلاني، ومع صاحب المصلحة أو الذي سيقوم بالطلب أو الذي سيقوم بالوساطة لي، لا حول ولا قوة إلا بالله، ما هذه المصائب قل لنفسك: هذا لا يصح؛ هذا سوء أدبٍ مع الله، ربِّ اغفر لي يا رب، فتنكسر لله ﷻ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٢٧].

هذه المشاعر أذكرها على سبيل المثال لا الحصر؛ فكل واحد منَّا يعرف كيف يؤثر على نفسه، أنا أقدم لك مثالًا على نفسي، أما أنت فعليك أن تبحث عن الذي يؤثر عليك ويؤثر على قلبك؟

○ **فالمسألة تنحصر في أمرين:**

أولًا: أن تعرف الله، **والأمر الثاني**: أن تعرف نفسك، ومعنى ذلك أن تعرف عظمة الله وأن تعرف صِغَر نفسك، فلو تحقق فيك ذلك لخشعت في الصلاة قولًا واحدًا، ولكن هذا لا يحدث.

أن تعرف عظمة الله وأن تعرف حقارة وصغر نفسك، وأن تعرف نعمة الله وأن تعرف ذنوب نفسك التي هي «**أَبُوءُ لَكَ**» بماذا؟ «**بِنِعْمَتِك عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي**»[(١)]؛ فهذان خطان متوازيان هامان جدًّا.

ثم أن تذكر عظمة الآخرة وحقارة الدنيا، فهما أمران اثنان تفرعا إلى ثلاثة فروع، وعليك أن تذكر كيف يقابل الناسُ ملوكَهم وكبراءَهم وعظماءَهم.

وأنت تقول: (الله أكبر) إذًا كل احترام، وكل خشوع، وكل محبة، وكل خوف، وكل رهبة، وكل هيبة، وكل حياء، (الله أكبر)؛ أي: هو أكبر من كل ذلك، وهذا يذكرك بالمثول بين يدي الله ﷻ يوم القيامة؛ لأن الصلاة صورة مصغرة ليوم القيامة.

يوم القيامة مملكة الأسماء والصفات، وكذلك الصلاة - كما سنرى إن شاء الله - هي أيضًا مملكة الأسماء والصفات، وهذا سيتم شرحه فيما بعد: سنذكر الدعاء الذي هو في افتتاح الصلاة وسنشرحه، وسنشرح فاتحة الكتاب أيضًا مختصرة، وبعد ذلك حكمة تلاوة شيء من القرآن بعد فاتحة الكتاب؟ ماذا يفعل في القلوب؟ وكيف يُغَذِّيها؟ وكيف يُخرِجُ لنا القلبَ المريضَ قلبًا قد شُفِيَ - بإذن الله - بعد الصلاة ولم يزدد

---

(١) حديث سيد الاستغفار: أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

مرضًا، ثم بعد ذلك القيام، وأفضل الأذكار القرآن ويكون في أشرف حالات الإنسان الذي هو القيام، ألم نقل: خطوط متوازية؟ الفاتحة والقرآن أشرف الأذكار، فأشرف الأذكار - القرآن - في أشرف أحوال الإنسان وهو أن يكون قائمًا، إذًا أشرف الأحوال - القيام - يكون معه أشرف وأعلى الأذكار، وبعد ذلك لا بد أن يكون القلب مع الاثنين؛ مع الكلام الذي يقال مع القرآن ومع القيام ولكن تكون مطأطئ الرأس.

وبعد أن ذَكرتَ اللهَ ﷻ وحَمِدت اللهَ وأثنيت عليه ومجّدته تركع لتعظِّم فيه الرب، وسنرى ما هذه العظمة بإذن الله؛ «**أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ**»[1]: هذا خضوع من البدن ومعه كلام باللسان ومعه حضور القلب؟ فالبدن واللسان يحركان القلب، فالحساب كله على القلب أساسًا، فهيئات البدن وقول اللسان هي فرصة لجعل القلب يعظم الرب، وماذا يعني تعظيم الرب؟ هذا هو الموضوع الذي سنتطرق إليه؛ لأن العظيم من أسماء الله الجامعة لعدد من الأسماء والصفات، وكذلك المجيد اسمٌ يجمع عددًا من الصفات، وكذلك الصمد؛ الصمد هو اسم يجمع مجموعة من الصفات وهي قسم من أسماء الله تعالى، ثم الأكبر والكبير والعظيم والعلي والأعلى؛ فكل هذه في اتجاه واحد متلازمة وبينها فروق طفيفة، انظر إلى الركوع ترى الخضوع والتواضع، كم أنت صغير وكم أن الله عظيم، لذلك أقول لك: عليك بالأمرين واحرص على تحصيلهما؛ فأن تعرف عظمة الله يقابله أن تعرف صغر نفسك، فأنت خاضع راكع فتذكر عظمة ربك في الحال الذي أنت فيه؛ فهذا منتهى التواضعِ. تواضعٌ وخضوعٌ شديد مقابل العظمةِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قبل هذا الركن - الركوع - قيام وبعده أيضًا قيام، والقيام الذي بعد الركوع عبارة عن اختصار لمعاني القرآن؛ لأنك تقول: «**أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ**»(١).

معنى: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ):

وسيأتي الكلام بالتفصيل فيما بعد، ثم تقول: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) ولا تنسَ أمر هذه الواو: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) فالواو مهمة جدًّا، (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ) بلا واو مذكورة، لكن الأكثرية على: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ)، أنا عن نفسي أقول: (رَبَّنَا...) وأنتظر قليلًا، ثم أقول: (..وَلَكَ الْحَمْدُ)، فأُجبر قلبي بذلك على التفكر وعلى الخشوع؛ فهي محاولة ومعركة بيننا وبين الشيطان.

ما معنى: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ)؟ أيضًا مثل قولنا: (لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ) فلماذا لا نقول: (لَهُ الْمُلْكُ وَالْحَمْدُ)؟ لأن هنالك فرقًا كبيرًا بينهما، وأيضًا: (ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)، (الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)، (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ)، وكل هذا الكلام مقصود، وسنتعرض - إن شاء الله - لهذه المعاني.

ولكن انظر الآن، نحن نقول: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) فماذا تعني كلمة (رَبَّنَا)؟ ما معنى كلمة (رَبّ)؟ **نحن نعرف أن هنالك ثلاثة أصول**

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: «**رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ: اللهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**».

لكلمة الرب:

■ **الأصل الأول**: هو القيام على الشيء؛ مثلًا: إنسان يقوم على عائلة ويصرف عليها ويرعاها، يقدم لها في المدارس، يأتي لهم بشيخ يحفظهم.

■ **الأصل الثاني**: ملازمته؛ يعنى يتابعه فلو أخطأ قَوَّمَهُ، ولو سقط أعانه وساعده، فهذه هي الإقامة على الأمر؛ لأنه من الممكن أن يسافر ويأتي بالأموال ويصرف عليه، ولكن هذا يصرف عليه وفي الوقت نفسه حاضر وملازم له ليراقبه.

■ **الأصل الثالث**: ضم الشيء للشيء وهذه هي التربية، يكبره تدريجيًّا ويرفعه خطوة بعد خطوة.

فهذه هي الأصول الثلاثة للربوبية، فهؤلاء الثلاثة يحدثون في القدري الكوني، والثلاثة يحدثون في الشرعي، والثلاثة يحدثون في الجزائي.

ما القدري الكوني؟ القدري الكوني هو: صحتك وملابسك وأموالك وزوجتك وأولادك وبيتك فهذا هو القدري الكوني.

وما التشريعي؟ التشريعي الرسالة والقرآن والسنة والوحي. فهذا هو التشريعي. ولكن هل سيقبل منك أم لا؟ هذا هو الجزائي في الدنيا والآخرة؛ فكلما قلت: (رَبَّنَا) ذكرت كل ذلك.

رَبَّنَا أنت الحي القيوم، أنت القائم على كل نفس بما كسبت، أنت تقوم عليَّ، رَبَّنَا أنت أحييتني برحمتك (القدري الكوني)، وهديتني برحمتك (التشريعي).

ففي كل لحظة تقول: (رَبَّنَا) تستحضر الصحة، والأكسجين الذي تتنفسه وأنت تقف بين يدي الله تعالى، والملابس التي تلبسها، أليست هذه كلها نِعَمًا (كوني) فأنت الآن تقف بصحتك وغيرك مثلًا يتأوه من شدة الألم، فأنت في نعمة لأنك في عافية (جزائي)، فأول شيء تذكره إذا قلت: (رَبَّنَا) هذه النعم التي تعيش فيها.

وبعد ذلك (رَبَّنَا) لقد جعلتني أُصلي الآن وأركع لك وكنت في الركوع في هذه النعمة التي هي من أعظم هدايا الرحمن للإنسان أن يكون في الركوع، فهذا هو (التشريعي)؛ كل هذه المعاني في كلمة (رَبَّنَا).

الجزائي: أي يا رب أنت الذي تملك أن تدخلني الجنة، وأنت الذي تملك أن تعيذني من النار، (رَبَّنَا) أنت الذي تملك أن ترزقني العافية (رَبَّنَا. . . .)، اُنظر إلى كلمة (رَبَّنَا) قد أهاجت فيك كلَّ هذه المعاني.

أنا أقولُ لك هذا الكلام لتعملَ به، وأعيدُه وأكرِّرُه لتنفذَه، وأتأنَّى فيه ليفهمَ الجميعُ؛ فالله مَعَنا الآن يسمع ويرى وأنت حر.

فحين تقول: (ربنا) تنتظر قليلًا حتى تستشعر معنى كلمة (رَبَّنَا)، وهل تفعل ذلك دائمًا؟ بالطبع لا، إنما تفعل ذلك حتى يتعود قلبك على استحضار المعاني في كل مرة، وأنا أقف وأحاول أن أستشعر فأقول: (رَبَّنَا) ثم أنتظر قليلًا ثم أقول: (وَلَكَ الْحَمْدُ)، وكأني أقول: إي والله لك الحمد؛ لأنك لست ربنا الذي رزقتنا فحسب، إنما لك الحمد حتى ولو لم نكن قد خُلقنا، فلك الحمد كله؛ الجمال والكمال كله لله ﷻ، (رَبَّنَا) فأنت قيوم وأنت ملك وأيضًا لك الحمد كله.

معنى الحمد:

وسيأتي شرحه بالتفصيل: مثلًا أبٌ - ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض - زعيم عصابة ومجرم لكنه مع ابنه طيب وحنون و ينفق عليه ويعطيه كل ما يحتاجه، ويهيئُ له كل أسباب الشر التي يعتقد ابنه أنها خير، ويقول: أبي يفعل لي كذا ويقوم بكذا وفي الحقيقة هو مجرم، وهذا يختلف عن أبٍ آخرَ يعمل لك الخير وهو مع ذلك على صراطٍ مستقيم، فتقول عنه: وَنِعْمَ الأبُ - ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض؛ فتقول: (رَبَّنَا) وتقف تنتظر قليلًا لتهيج هذه المعاني التي قلتها لك في القلب، وبعد أن تهيج المعاني تقول: ليست نعمتك عليَّ فحسب - لأن الربوبية هي النعمة - إنما أيضًا ولك الحمد كله؛ الكمالات والجمالات والإحسان، كل الجمال وكل الكمال في قولك: «**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»، وبعدها تقول: «**أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ**»، فتعيد مختصرًا فاتحة الكتاب، أليس حمدني عبدي وأثنى علي عبدي ومجدني عبدي أم لا؟ فهذا اختصار وقيام بعد القيام، فالركوع خضوع كذلك وهذا مقصود قيامٌ قبله وقيامٌ بعده.

الاستعداد لسر الركعة:

ولأي شيء كل هذا الاستعداد؟ لسر الركعة كلِّها الذي هو السجود، بعد ذلك ستنزل إلى السجود، فكل عضو من أعضاء جسد الإنسان - الذي هو الهيئة - يأخذ حظه من العبودية.

ولذلك يقول ابن القيم: (إن السجود هو سر الصلاة وركنها الأعظم)(١)

(١) «الصلاة وأحكام تاركها» (ص١٤٧).

مع أن القيام هو أشرف حال الإنسان وهو الذي يليق بالقرآن، وسنقول الهيئة مع اللسان مع القلب، اُنظر أول سورة أنزلت على الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما هي؟ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١، ٢] إلى آخر السورة، أي أول السورة اقرأ القرآن وآخر السورة: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ۝١٩﴾ [العلق: ١٩](١)، أول سورة في كتاب الله أولها: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وآخرها: ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ أم لا؟ فالركعة أولها قراءة وآخرها سجود، انظر إلى السجود هنا.

ولا بد أن تستشعر المعاني وسنقولها واحدةً واحدةً ويمكن أن تأتي غير مرتَّبة لكن حاول أن تتشربها وتمثلها عمليًّا. وكيف بالخضوع والتواضع في الركوع، وبين القيام والقيام، وكل هذا توطئة، لو أنك تفهم المعاني واختصرت القيام الأول في قيام كأنه يقول لك استعد الآن للضربة الكبرى التي هي السجدة لله ﷻ، فهذا هو الاستعداد. ماذا يعني الحمد؟ والثناء والتمجيد؟ سنفهم هذا في الفاتحة ونرجع نختصره مرة أخرى في الركن الذي بعد الركوع، ومعه أذكار عجب في الرفع من الركوع، وهنالك من المسلمين هذه الأيام من يرفع من الركوع فيقول وهو يتثاءب: (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَه، اللهُ أَكْبَر) وهو يظن أنه بذلك قد صلى!!

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ.

الغاية من الخلق:

لماذا خلقت؟ سنقول للمرة العشرين والمليون وحتى نموت: لماذا خلقت؟ لغاية تراد منك وغاية تراد بك؛ فأما الغاية التي تراد منك - المفروض أنك الآن تعرفها - أن نعرف الله فنعبدَه ونوحدَه، ليس هنالك غاية غيرها، وإذا قلت لأحدهم: هل تعرف الله؟ يقول لك: أعرفه، وماذا تعرف عنه؟ ماذا تعرف عن رَبِّنَا؟ ماذا تعرف عن اسمه تعالى (المؤمن)؟ المفروض أن كلَّ اسم من أسماء الله يجعل القلب متعلقًا أكثر بالله، ويزداد محبةً لله، وخوفًا من الله، وهيبةً من الله، وذلك لكل اسم من أسماء الله، فمطلوب منا أن نجتهد في التعرف على الله لأننا خُلقنا من أجل هذا، من أجل أن نتعرف على الله.

يقول قائل: يا شيخ أنا أعرف الله؛ مثل الشيخ الذي يقول: الإيمان بالله أي: الإيمان به وجودًا، إذًا أبو جهل مؤمن؟! فنحن خُلقنا لنعرف الله ومن يعرف الله سيعبده ويوحده وسيبكي له دائمًا، ويخضع له، ويعظمه ويعظم أمره ونهيه، وكلام كثير، ولكن انظر هنا إلى الركوع: تواضع في القلب مع تواضع الجسد، مع قولك: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيم)؛ فكلمة (سُبْحَانَ) لها معنًى وكلمة (رَبِّيَ) لها معنًى و(العَظِيم) لها معنًى، وكل هذا كلام رهيب، فاللسان يعمل، والبدن أيضًا يعمل، ولا بد أن يكون القلب مستحضِرًا المعاني. نحن لم ندخل في هذه التفاصيل إلى الآن، ولكن هذا مُجْمَلٌ.

ثم بعد ذلك القيام اختصار للثناء والحمد والمجد لله، واستغفار أيضًا، وانقطاع بخضوع أكبر بالذل والاستكانة لله الذي هو السجود، وفعلًا كأنه توطئة للسجود، سبحان الله العظيم يا أخي، يقول لك:

الركوع توطئة للسجود ولكن بين الركوع والسجود ركن آخر، يراد لذاته هذا الركن، فالقيام الأول والقيام الثاني والركوع بينهما؛ هؤلاء الثلاثة كلهم توطئة للسجود، لماذا؟ لأن السجود هو سر الصلاة وركنها الأعظم.

الأعضاء الظاهرة وحظها من العبودية:

وفيها اليدان تأخذان حظَّهما من العبودية، فتفْرِدهما هكذا ناحية القبلة والأصابع مضمومة وتجافي بين الذراعين والعضدين وبين الجنب لو كنت تصلي صلاة منفردة مثلًا، وتجتهد في ذلك فهذه هي العبودية، وتجعل اليدين تأخذان حظَّهما من العبودية، فهذا هو السجود، ثم انظر إلى الركبتين فيجب أن يأخذا حظَّهما من العبودية، فتجافي بين بطنك وفخذيك، وبين فخذيك وساقيك، تجد بعضًا من المسلمين هذه الأيام بطنه ملتصقة بالفخذين والفخذان ملتصقان بالساقين وأصابعه للخلف وليست ناحية القبلة، فهو يتحرك ويُقَلِّد وهو لا يعرف شيئًا، وكما يُقال: (إيمان المرضَى والمَنْشَأ والعادَة) فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فلتنظر إلى الأعضاء وانظر إلى الجبهة، فالإنسان يُمَرِّغُ وجهَهُ بالتراب ويجد عظمةً في ذلك ومحبةً في ذلك، فإن سجدت لغير الله لتمنيت أن تقطعه إرْبًا إربًا ولتمنيت أن تمسك بعروق رقبته كما يقال، ولتمنيت أن تتحكم فيه يومًا، أتسجد له!! وتضع وجهك على التراب!! هذا إن كان لمخلوق، ولكن إذا كان لله، فهذا قمة السعادة، والنبي ﷺ قال: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[1] فالسجود هو القمة، ولماذا؟

(١) تقدم (ص٤٤).

لأن الوجه يَحُكُّ في التراب ويقول: سبحان ربي الأعلى، لم يقل هنا: العظيم، بل يقول: (سبحان ربِّي الأعلَى) ولكن ما الفرق بين العظيم والأعلى؟ وهذا هو المطلوب.

الفرق بين العظيم والأعلى:

هنا تواضع، وهناك ذل وسفول، هنا فرق بين الركوع وبين السجود؛ فماذا يفعل الوجه؟ وماذا يقول اللسان؟ ويلزم أن يكون القلب حاضرًا، ولكن نحن إنما ننشغل باللسان والهيئة بينما القلوب غيرُ حاضرةٍ، فهي تحتاج إلى تدريب وتمارين وبروفات في قيام الليل عليها وتسجد بالعشر دقائق والربُع ساعة، وتحاول أن تستحضر هذه المعاني وتكون على علم بأن ركبتيك تعبدان الله وتأخذان حظهما من العبودية وكذلك فخذاك وساقاك وقدماك، سبعة آراب وهي التي لا تحرقها النار[1]، فليس الوجه وحده الذي لا تحرقه النار، الآراب السبعة في هذه اللحظة كلها تلمِس الأرض علاوة على أن أعلى شيءٍ فيك - الذي هو الوجه - صار أسفل شيءٍ فيك وفي التراب، ثم تذكر الأصل فما التراب؟ وجهُك، وعينك الخضراءُ أو الزرقاءُ أو ذات اللونِ العسليِّ أو السوداءُ، ومن عينُه كعين البقر في اتساعها وجَمَالِهَا، وذو الوجه الجميل، أو الذي لحيته كذا، والذي وجهه جذاب، وهذا خمريٌّ وهذا عسليٌّ؛ فكل هذا كان ترابًا وطينًا تدوس أنت عليه بالنِّعال، فوجهك مخلوق من الطين الذي تدوس عليه، فأنت حين تعود للأصل تتذلل وتشعر بمعاني الذل، فهو ذل رهيب، ولكنه حلو جدًّا؛ لأنه من حق الله ﷻ ولأنه الأعلى وأنت الأسفل.

---

(١) أخرج البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ؓ: **«تَأْكُلُ النَّارُ مِنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ»**.

فالهيئة مع اللسان مع قلب حاضر، كل هذا لا بد أن تستحضره، والأعضاء كلُّها تأخذ حظَّها من العبودية والخضوع الكامل الذي هو أتم أنواع الخضوع مع الذل وانكسار القلب، وتحاول أن تجتهد في الدعاء وفي العبادة، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول: «**اِجْتَهِدُوا**»(١)، فما معنى أن تجتهد؟ وأنت تقول: (الله أكبر) وتسجد، ثم تقول: (سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى)، ثم ترفع رأسك!! فأين الدعاء؟! وأين الاجتهاد الذي تجتهده؟! أنت لم تفعل شيئًا مما أمرك به الرسول ﷺ، يقول لكم: «**اِجْتَهِدُوا**»؛ فعليك أن تمرغ التراب بوجهك، وتضغط، ودع ثقل رأسك يهبط بها على الأرض، لا أن تحمل رأسك عن الأرض بكفيك بحيث يكون رأسك يحتك قليلًا بالأرض خوفًا من أن يتلطخ أنفك بالتراب من اليمين أو الشمال، أو تخاف أن تشم رائحة التراب ولا حول ولا قوة إلا بالله، فاترك ثقل رأسك ينزل إلى الأرض فهذه هي العبودية، بل الثياب أيضًا لا تكفتها(٢)، ولكن اتركها تفترش الأرض، هكذا السجود عظمة، وهو سرُّ الصلاة ورُكنها الأعظم.

فإن شاء الله سيكون لنا عَوْدٌ في الخطوط الثلاثة المتوازية: الهيئة، مع اللسان وماذا يقول؟ مع القلب أفاهم أم لا؟ وإن كان فاهمًا أحاضرٌ أم لا؟ أخاشعٌ أم لا؟ أيعمل في الخط نفسه أم لا؟

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «**وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ**».

(٢) أخرجه البخاري (٨١٢)، ومسلم (٤٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ الْجَبْهَةِ** - وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ وَالْيَدَيْنِ، وَالرِّجْلَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ - **وَلَا نَكْفِتَ الثِّيَابَ، وَلَا الشَّعْرَ**».

جِلسة العبيد:

قلنا: إن السجدة أعظم ركن وسر الصلاة، وكم مرة نقوم بهذا الركن؟ مرتين، إذًا: لا بد من الفصل بينهما ولكن بماذا نفصل بينهما؟ سجدة وسجدة ذل وانكسار وذل وانكسار، انحطاط وسفول، وانحطاط وسفول - لأنه الأعلى - فهل بينهما جلسة لتأخذ فيها نَفَسَك وترفع رقبتك؟ لا؛ فاسمها جِلسة العبيد، فهل هنالك من يجلس هذه الجلسة؟ هنالك من يجلسها منظرًا أو هيئةً فحسب؛ أما قلبك فلا بد أن يعرف أنك عبد وأن ربنا يراك ولكن أنت لا تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فهذه هي جلسة العبيد.

استشعرها يا أخي الكريم، استشعر جِلسة العبيد، أنت قاعد ورأسك مطأطئ وماذا تطلب؟ كلَّ الخير وتستدفع به كلَّ الشر، تقول له: اغفر لي وارحمني وعافني واجبرني واهدني وارزقني، فهذا كل شيء، لا ينقُصُك شيء آخرُ، ولكن المهم أن تكون فاهمًا لما تقوله، وسنشرحها فيما بعد حتى تصبح المعاني واضحة، وهذه اسمها جلسة العبيد، فأنت قاعد مثل الهيئة المشروحة في الأحكام، ولا نقول أحكامًا على مزاجنا، ولكن أنا أقول لك: استحضر الأحكام التي تُشرح في الصلاة ثم استحضرها في المعاني، لتصبح الهيئة في خط متوازٍ مع اللسان ومع القلب، انظر إلى جلسة العبيد بين السجدتين؛ والسجود هو أعظم ركن وأشرف ركن وسر الصلاة، فربنا يمن علينا فجعل السجود مرتين، بينما الركوع مرة، فالسجود مرتان ثم بينهما جلسة العبيد وتقول فيها هذا الدعاء النافع وبعد ذلك تنتهي الركعة.

فإن قصَّرتَ في هذه الركعة فعليك أن تحاول أن تجتهد في الركعة

الثانية وتقول لنفسك: عيبٌ عليَّ ماذا حصل؟ غيري حصَّل عشر زكائب من الألماس والذهب، أيُّ ألماس وذهب ومتاع الدنيا العفن هذا، لقد حصَّلَ أجرًا في الجنة رهيبًا وواسعًا بالصلاة، ولكن أنا أُضَيِّعُهُ فأنا في الصلاة أتذكر جاري الذي أساء أدبَهُ عليَّ، وكيف يقول لي هذا الكلام وفي المقابل أنا أسكت له، لم لا أشكوه في مركز الشرطة؟ أو أقول: إن أحد الإخوة له معي ميعاد، وكل هذا وأنت تصلي. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

۞ كلام للإمام الجليل الحافظ ابن رجب الحنبلي (كتاب الذل والانكسار):

الإمام الجليل الحافظ ابن رجب الحنبلي ذكر كلامًا قيمًا عن الخشوع في الصلاة، حتى في مقدمة الرسالة ذُكِرَ شيءٌ عن ابن قدامة وهو مختصر لما ذُكر في كتاب (الإحياء) للإمام الغزالي لكنَّا سنتعرض إلى بيان شيء عن هذه الرسالة وبيان ما ورد فيها من الأحاديث والآثار على وجه السرعة.

خرَّج الإمام أحمد والنَّسائي والترمذي من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الصَّلَاةُ مَثْنَى مَثْنَى تَشَهَّد فِي كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَتَخَشَّع وَتَضَرَّع وَتَمَسْكَن وَتُقْنِعُ يَدَيْكَ**»، يَقُولُ: «**تَرْفَعُهُمَا إِلَى رَبِّكَ** عز وجل **وتَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهِيَ خِدَاجٌ**»(١)، هذا الحديث ذكره التبريزي في «مشكاة المصابيح» وعَزَاه للترمذي، وقال محققه - الذي هو الشيخ الألباني: وبَيَّن - يعنى الترمذي - أنه مضطرب الإسناد ولكنه رَجَّح أحد الوجهين المختلفين، وفيه عبد الله بن نافع بن العمياء ولا

(١) أخرجه أحمد (١٧٩٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦١٨)، والترمذي (٣٨٥).

تعرف عدالته وقد فصلت القول على الحديث في «نقد التاج» (رقم ١٢٣)، وخِدَاج؛ أي: نقصان[(١)].

وفي «صحيح مسلم» عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»**[(٢)].

طبعًا هذا حديث يعرفه كل الناس إن شاء الله، ومسألة أن الصلاة كفارة فهي كفارة لما قبلها من الذنوب، ولكن انظر ما لم تُؤْتَ كبيرة، فالصلاة فعلًا لو أحسنت وضوءها وخشوعها وركوعها - الثلاثة - كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، يعني نفس الصلاة التي أستعد لها بالاستغفار والوضوء والتطهير وغيره، هي نفسها عبارة عن تطهير وهي نفسها دعاء لله باسمه القدوس، ونحن قلنا بأن كل دعاء لله عَزَّ وَجَلَّ سواء دعاء عبادة أو دعاء مسألة بهدف التطهر - باعتبار التطهر - فهذا يكون دعاءً باسمه القدوس، وباعتبار أنه دعاء عبادة فهذا دعاء باسمه الملك؛ لأن الملك يستلزم كلَّ الأسماء والصفات، فأيما عبادة لله تعالى بكل اسمٍ من أسمائه إنما هي داخلةٌ في عبادته باسمه الملك.

ومما يظهر فيه الخضوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة: وضع اليدين إحداهما على الأخرى في حال القيام، وقد رُوِيَ عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سُئل عن المراد بذلك فقال: هو ذلٌّ بين يَدَيْ عزيزٍ، (فهذه هي حكمة وضع اليد على اليد، نعم نختلف كثيرًا ويقول المحققون: كيف

---

(١) «مشكاة المصابيح» (١/ ٢٥٣ رقم ٨٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨) من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

توضع اليد على اليد، فهذه مسائل أخرى ولكن ما المعنى؟ وما الحكمة؟ انظر إلى الإمام أحمدَ وإلى فِقْهِ الإمام أحمدَ يقول لك: ذلٌّ بين يَدَيْ عزيزٍ)، قال عليُّ بن محمدٍ المصريُّ الواعظُ رحمه الله تعالى: ما سمعت في العلم بأحسن من هذا[١]، (الإمام أحمدُ يقول: ذلٌّ بين يدي عزيز. أي أنك تضع يديك على بعضهما وهذه هي الهيئة فكيف يكون القلب؟ يكون في خطٍّ مُوَازٍ لهذا تمامًا، فلا تضع يديك عند خاصرتيك فأنت تقف بين يدي الله وليس مع أحدٍ من أصحابك، فتضع اليمنى على اليسرى وهذا ذلٌّ بين يدي عزيز فلتستشعر هذا المعنى).

وفي «صحيح مسلم» عن عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«فَإِنْ هُوَ قَامَ وَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»**[٢]، (وتحقيق الحديث: روى الشيخان من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أحاديث فضل الوضوء وفيه: **«مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي، هَذَا ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**[٣]. واللفظ لمسلم.

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: **«هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ»**[٤].

---

(١) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٨٤) بلفظ: قال: «ذل بين يدي عز». قَالَ أبو الحسن المصري: لم يصح عندي في العلم أحسن من هذا.

(٢) أخرجه مسلم (٨٣٢) من حديث عمرو بن عَبَسَة السُّلَمي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥١).

وخرَّج الإمام أحمد والترمذي من حديث الحارث الأشعري، عن النبي ﷺ أن الله أمر يحيى بنَ زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، فذكر منها: «**وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا**»(١).

وشرح ابن القيم رحمه الله في كتابه «الوابل الصيب» هذا الحديث شرحًا طويلًا وأفاض فيه القول والكلام(٢).

وروى محمدُ بنُ نصرٍ المَرْوَزِيُّ بإسناده عن عثمانَ بنِ أبي دَهْرَشٍ قال: بلغني أن رسول الله ﷺ صلَّى صلاةً جَهَرَ فيها بالقراءة، فلما فرغ قال: «**هَلْ أَسْقَطْتُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ شَيْئًا؟**» قَالُوا: لَا نَدْرِي. فَقَالَ أُبَيُّ بنُ كعبٍ: نَعَمْ آيَةَ كَذَا وَكَذَا، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُتْلَى عَلَيْهِمْ كِتَابُ اللهِ فَمَا يَدْرُونَ مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ مِمَّا يُتْرَكُ؟!**» (أي: أنتم تصلون خلفي وتحفظون السورة وقد قرأتها ونُسِّيتُ آية كذا وكذا ولم تذكروني ما نسيت! فهل أنتم مشغولون بشيءٍ غير القرآن؟) «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُتْلَى عَلَيْهِمْ كِتَابُ اللهِ فَمَا يَدْرُونَ مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ مِمَّا يُتْرَكُ؟! هَكَذَا خَرَجَتْ عَظَمَةُ اللَّهِ مِنْ قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَشَهِدَتْ أَبْدَانُهُمْ وَغَابَتْ قُلُوبُهُمْ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ عَبْدٍ عَمَلًا حَتَّى يَشْهَدَ بِقَلْبِهِ مَعَ بَدَنِهِ**»(٣).

هذا الأثر يقول فيه المحقق: رَوَى أبو داودَ كما في «المنتقى» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى صَلَاةً فَقَرَأَ فِيهَا فَلُبِّسَ عَلَيْهِ فَلَمَّا

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٧٠)، والترمذي (٢٨٦٣).

(٢) «الوابل الصيب» (ص٢٠)

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥٧)

انْصَرَفَ قَالَ لِأُبَيٍّ: «**أَصَلَّيْتَ مَعَنَا؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَمَا مَنَعَكَ؟**»(١).

أي: منعك أن تفتح عليَّ: أن تذكِّرني بآية كذا وآية كذا.

وخرَّج ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ**»(٢).

وقول النبي ﷺ قال: «**إِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي**»(٣)(٤).

ما التي ألهته عن صلاته؟ الأَنْبِجَانِيَّةُ التي أخذها هدية من صاحبها ولكنها كانت ذات أعلام فنظر إليها في صلاته فنزعها بعد الصلاة وقال: «**إِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي**».

وهذا معظم ما ورد في رسالة الخشوع لابن رجب الحنبلي من الأحاديث وأكثر ما انتقيته منها أخرجه الشيخان البخاري ومسلم؛ لأن فيها أحاديث أخرى ضعيفة.

قال ابن رجب في رسالة الخشوع يذكر بعض الآيات:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، ووصف الذين أوتوا العلم بالخشوع

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) «الذل والانكسار» (ص٦٣ -٩٧).

حيث يكون كلامهم مسموعًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

فيقول: أصل الخشوع هو لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تَبِعَهُ خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له كما قال ﷺ: «**أَلَا وإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١)(٢).

۞ الفرق بين القلب والمضغة:

الناس يتصورون أن القلب المذكور في كتاب الله تعالى هو المضغة، والمضغة ليست إلا مثالًا، فكيف ذلك؟ لأحسم لك القضية سنأتي بمثال: امرؤٌ مؤمنٌ موحدٌ وصادقٌ ورجلٌ طيبٌ جدًّا وبكَّاءٌ وعالمٌ من علماء الإسلام ولكن مضغته مريضة فيقال عنه: مريض بالقلب، وليس المقصود هنا القلب الذي هو الدين، بل مريض بالقلب الذي هو المضغة، فهل هذا مريض؟ هل هذا ذو قلب مريض؟! هذا رجل مخلصٌ جدًّا وموحدٌ وعالمٌ، ولكن إنما قلبه المضغة هذا - الذي هو الأذين والبطين والشرايين - فيه انسداد وإلى آخره، فهل هو مريض القلب؟ لا طبعًا.

إنما هذا الحديث وهو حديث النعمان بن بشير كله ضربٌ للأمثلة،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) «الذل والانكسار» (ص٢٩-٣٠).

فالرسول قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ**» صلح الإنسان أم الجسد؟ أهنالك فرق بين الإنسان والجسد؟ ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨] إذًا: ليس بعجل صحيح له روح وحياة، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء:٨]، فالجسد معناه هنا: لا روح فيه، فهذا الجسد الذي هو البدن شيء، والروح والقلب المتعلق بها شيء آخر، هما في المكان نفسه في الصدور، ولكن هذه المضغة عليها صلاح البدن، كذلك القلب هو الذي عليه صلاح الإنسان، وهذا هو المثال.

(إِذَا صَلَحَتْ) ضربت لك مثالًا وقلت لك: عالمٌ وصاحبُ علمٍ وصاحبُ إخلاصٍ ولكنَّ مضغته مريضة وشرايينه منسدة: فهل هذا مريض القلب؟ ليس ممكنًا أن يكون كذلك، والثاني: المصارع والملاكم قلبه كقلب البغل، انظر إليه وكيف حجم قلبه، وقلبه - المضغة - مضخة وزنه كيلوان؛ أيكون هذا قلبه سليمًا، بالطبع لا، ولكنه إنما صحيحٌ ومعافًى فهو كافر ومشرك، فذاك مضغته سليمة، أما القلب فهذا أمر آخر، فالذي يقول لك لا فرق بين الاثنين قل له: أنت جاهل أو أنت صاحب هوًى.

معنى الخشوع:

وفي حديث: «**خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي**...»[١] الآن سيشرح معنى الخشوع يقول: وقد وصف الله تعالى في كتابه الأرض بالخشوع فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩][٢]، فيتبين من ذلك أن ضد الخشوع أمران: الاهتزاز - ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ - والارتفاع - ﴿وَرَبَتْ﴾ - فما الخشوع إذا كان ضده الاهتزاز (أي: الحركة والارتفاع؟) ضد الحركة: السكون، وضد الارتفاع: الانخفاض، (الخشوع: السكون والانخفاض)، وما السكون؟ أي: أن يسكن القلب من شواغل الدنيا، أول ما يدخل الصلاة يسكُنُ، وما معنى يسكن؟ يعني: أن يسكن من الشيء الذي كان يهيجه ويستفزه من مالٍ احترق أو سُرق، أو من زوجة سيئة الأدب مثلًا، أو من ولد فعل به كذا أو أهانه في كذا، أو من جار سوء يقول كذا أو ينوي على كذا، أو كل شهوة من شهوات الدنيا، فهذه اسمها شواغل تجعل القلب مهتزًّا يتحرك؛ فالمفروض أن القلب يسكن تمامًا ويستعد ولا يكون به حركة، ثم ينخفض، وما الذي ينخفض؟

معروف أن الإنسان فيه ترفُّع وتعاظم وتكبر، كل فرد منا لو بحث في نفسه فماذا يلاقي في نفسه؟ مثلًا إذا أردت أن تنظر إلى شخص باحتقار فماذا تفعل؟ ترفع عينيك إلى أعلى وتحركهما من فوق إلى تحت، وأنت تعرف كيف تفعلها وكذلك الطفل الصغير يعرف كيف يفعلها دون أن يعلمه أحد، فهذا هو التعاظم والتكبر والترفع، فيرفع بصره إلى أعلى ثم

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) «الذل والانكسار» (ص٣٥).

يخفضه وهذا دليل على الاحتقار. والأبصار تخشع يوم القيامة: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات: ٩]. فالخشوع: هو سكون القلب من شواغل الدنيا، سكونه مما يهيجه ثم انخفاضه من أي تعاظم وتكبر وترفع، فتقف في الصلاة وأنت مفلس منخفض، وليس لك من قيمة، وإن لم يتداركك الله برحمته؛ خسرت وخبت وخاب سعيُك، فهذا هو الخشوع، فلا شيء يشغلك مهما كان، دخلت في الصلاة فسكنت واطمأننت: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. والاطمئنان معناه الانخفاض كذلك، فهذا يعني التطامن وهو الانخفاض، المعنى نفسه في اللغة، الإنسان يسكن ثم ينخفض.

كل هذه المعاني واردة في الخشوع وكل هذا الكلام استنبطناه من: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

قال ابن رجب: فاهتزازها وربوها - وهو ارتفاعها - مزيلٌ لخشوعها فدل على أن الخشوع الذي كانت عليه هو سكونها وانخفاضها. وكذلك القلب إذا خشع فإنه تسكن خواطره وإراداته الرديئة التي تنشأ من اتباع الهوى وينكسر ويختضع لله فيزول بذلك ما كان فيه من التعاظم والتكبر والترفع، ومتى سكن ذلك القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها حتى الصوت(١).

فهل الصوت يخشع؟ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، يعني: سكنت الأصوات: هو انخفاض، فلا تسمع إلا همسًا

(١) «الذل والانكسار» (ص٣٥).

فهذا هو الخشوع.

فالأصوات نفسها تخشع. والوجوه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ [الغاشية: ٢]، كل هذا أنواع من الخشوع، أنت حين تذكر خشوع الوجه وخشوع البصر وخشوع القلب وخشوع الأرض، فإن عليك أن تحاول أن تعرف ما الخشوع؟ فيا إخواني علينا أن نستشعر؛ فأنت تقرأ معنى الخشوع بعينك ثم تنسى وتترك الأمر فهذا لا ينفع، فالكلام في الصلاة لا ينفع وحده، فليس المطلوب منك أن تقرأ الآيات والأحاديث وينتهي الأمر، بل المطلوب منك أن تعمل بها؛ فهذا ليس كلامَ علمٍ في أمر من أمور العقيدة مثلًا، أو كلامًا عن أمراض القلوب، إنما الكلام في الصلاة عمليٌّ وهو عبارة عن: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فتقديم المساعدة؛ لكي تحسن الصلاة.

قال: ومتى تَكَلَّفَ الإنسانُ تَعَاطِيَ الخشوع بجوارحِه وأطرافِه مع فراغِ قلبِه من الخشوعِ وخُلُوِّهِ منه؛ كان ذلك خشوعَ نفاقٍ -والعياذ بالله تعالى- أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع.

يقول: وأصل الخشوعِ الحاصل في القلب هو من معرفة الله ومن معرفة عظمة الله وجلال الله وكمال الله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع. ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع.

أنواع العباد في استحضار الخشوع في الصلاة:

- فَمِنْ خاشعٍ لقوة مطالعته لقرب الله من عبده واطلاعه على سرِّه وضميره المقتضي للاستحياء من الله تعالى. فأول ما يذكر الإنسان ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] يصاب بالحياء والخوف والرعب، أنا أحيانًا منذ عدة سنوات كنت أذكر هذا فأُصاب بالحياء والخوف والرعب، فإن رَبَّنَا ﷻ أقرب إلينا من حبل الوريد ويسمع ويرى ويعلم كل شيء حدث عندي، فهذا يكفي، فهنالك من يطالع هذه الآية ويطالع هذا المعنى، على حين تجد من يقف بجانبه في الصلاة في الصف نفسه يطالع معنًى آخر - فهذا مقتضٍ للاستحياء من الله تعالى ومراقبته في الحركات والسكنات.

- وَمِنْ خاشعٍ لمطالعته لكمال الله وجمال الله ﷻ - ليس لقربه ودنوه إنما لكمال الله وجمال الله - المقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته -وآخر يقول: ربنا كريم وجميل وهو خالق الجمال ورحيم وحنَّان، ويطالع بقلبه جمال الله وكمال الله وإحسان الله، ويقول لك: متى أنظر إلى الله في الجنة؟ ومتى ألقى ربي؟

- وَمِنْ خاشعٍ لمطالعته شدةَ بطشِه وانتقامِه وعقابِه المقتضي للخوف منه.

(أنا عن نفسي مثلًا وأنا أصلي ماذا أتصوَّر حين أقوم بالليل أو حتى حين أصلي سنة العشاء أو الوتر؟ أقوم ولأكبح جماح النفس والشرود أتصور كم إبرة طويلة دخلت في أنفي وأنا واقف مطأطئ الرأس وأحاول أن أغمض البصر وأرى رؤية خفيفة جدًّا لئلَّا أنشغل بلون السجادة أو

الإضاءة أو الحوائط التي فيها ديكورات، فهذه من الأشياء الظاهرة في باب الخشوع، أما أن أتصور كم إبرة طويلة تدخل في أنفي ثم تخرج من الأنف على العين أو على الجبهة فأقول: أعوذ بالله، أليس الله بقادرٍ على هذا؟ أو أتصور أن هنالك أسدًا يسن أسنانه ويقف أمامي وسيهجم عليَّ وسوف يقطعني وينهشني بأنيابه، فتتصور الخوف والرعب، أو ثعبانًا شرسًا ألوانه مثل ألوان السيراميك، فشكله مرعب، ويعمي العين من بعيد فالعين تعمى، وينفث السموم عن بعد، هنالك من الثعابين من يقوم بذلك فتخيل أنها تزحف ناحيتك بهذا الشكل.

ولكن ماذا عمَّن خلق هذه الأشياء؟ وما قوته وما جبروته؟! وكم مقدار الخوف الذي نخافه منه؟ أتخاف مما خلق ولا تخاف منه؟ فحين أتصور هذا أتعلَّم الأدب وأخشع وأقول: يا رب أنا ضعيف، وكلٌّ منَّا يعرف نفسه، فأحدهم يطالع الجمال والكمال لله، والآخر يطالع الرعب والبطش وشدة الانتقام مثلما قلت لكم.

هنالك مادة على الجسد تحمي الإنسان من الشعور بالعذاب عند المس، فإذا أمسك يديْكَ أحد عند المصافحة فإنك لا تشعر بألم ولا تصرخ ولا شيء من ذلك، ولكن انظر إلى الحريق كيف يتأثر به الإنسان؛ لأن الطبقة التي اسمها الكرياتين التي على الجلد إذا انسلخت بالحريق لصرخ المرء من شدة الألم إن مسَّه أحد، فلو جربت ومسست حريقًا فانظر ماذا يحصل لك؛ لأن الطبقة التي تحمي جلدك قد احترقت، فهنا تتفكر في بطش الله وعذاب الله فتخاف وتصاب بالرعب. وأما عن شخص آخر فإنه لا يؤثر عليه الرعب، إنما يؤثر عليه الجمال، وحنان الله ﷻ وعطف الله ورحمة الله وجمال الله، ويتوق إلى النظر إلى الله ﷻ

ويطمع ويرجو من الله هذا، وآخر يتذكر هذه الآية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ويقول لك: لو أنَّ الوزير الفلاني ينظر إليَّ لارتعشت خوفًا، والله تعالى مطلع عليّ الآن، فكل واحدٍ منا يرى نفسه بماذا يتأثر ولا يبقى على طريقة واحدة بل يغير من حين إلى آخر، انظر إلى العالِم من أين عرف هذا الكلام؟ هو مرة طالع كذا ومرة طالع كذا ومرة طالع كذا).

ومن خاشعٍ لمطالعته شدةَ بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جابرُ المنكسرةِ قلوبهم من أجله، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتقرب ممن يناجيه في الصلاة ويعفر وجهه في التراب بالسجود، كما يتقرب من عباده الداعين له السائلين له المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار، ويجيب دعاءهم ويعطيهم سُؤْلهم، ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والإجابة.

روى الإمام أحمد في «الزهد» بإسناده عن عمرانَ بنِ موسى القصيرِ قال: «قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِلَهِي أَيْنَ أَبْغِيكَ؟ قَالَ: اِبْغِنِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي - وانكسار القلب هو أنك تتخشع وتتباكى لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهذا هو انكسار القلب - فَإِنِّي أَدْنُو مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ بَاعًا فَلَوْلَا ذَلِكَ لَانْهَدَمُوا»[1].

(وكيف نعرف معنى هذا الكلام؟ نعرف معناه في الحديث الصحيح: **«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ»**[2]، لماذا؟ لأن قلب المريض والمبتلى قد انكسر بالبلاء

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والله ﷻ قريب من المنكسرة قلوبهم من أجل الله «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**» فهل تريد أن تكون قريبًا من الله؟ إذًا عليك أن تكسر قلبك له، كسر القلب سنعرفه في تضاعيف الصلاة بإذن الله).

وقد جاء في السنة الصحيحة ما يشهد على قرب الله من القلب المنكسرِ ببلائِه، الصابرِ على قضائِه والراضي بذلك، لما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**يقول الله** ﷻ: **يَا بْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**...» الحديث.

وكذلك أخرج النَّسائي من حديث جبير بن نفير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يومًا فقال: «**هَذَا أَوَانٌ يُرْفَعُ فِيهِ الْعِلْمُ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: زِيَادُ بْنُ لَبِيد: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ يُرْفَعُ الْعِلْمُ وَقَدْ أُثْبِتَ وَوَعَتْهُ الْقُلُوبُ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**إِنْ كُنْتُ لَأَحْسَبُكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ**» وذكر ضلال اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله ﷻ فقال: لقيت شداد بن أوسٍ فحدثته بحديث عوف بن مالك، فقال: صدق عوف، ثم قال: ألا أخبرك بأول ذلك يرفع؟ قلت: بلى، قال: الخشوع حتى لا تكاد ترى خاشعًا[١].

والخشوع رفع أم لا؟ فنحن نحاول أن نسترجعه مرة أخرى.

قال المحقق: رواه الترمذي والحاكم عن أبي الدرداء، وأحمد، وابن ماجه، والحاكم، عن زياد بن لبيد وهو حديث صحيح كما في «صحيح الجامع الصغير» ما عدا قوله: فقال: لقيت شداد بن أوسٍ فحدثته...

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥٨٧٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٠٢٠).

إلى آخره، رواه الدَّارِمِيُّ في «سننه» عن أبي الدرداء، ثم وجدت الحديث بتمامه كما قرأناه يعني في «جامع بيان العلم وفضله» للحافظ ابن عبد البر(١).

طول الأمد:

وقد قبَّح الله من لا يخشع قلبه عند سماع كتاب الله وتدبُّره قال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] (فنحن كذلك طال علينا الأمد في الصلاة، يقول قائل: أنا أصلي من عشر سنين وعشرين سنة، أي: طال علي الأمد في الصلاة، نعم، ولكن أصبحت صلاتك روتينًا لا تتأثر بها - إنا لله وإنا إليه راجعون -؛ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، هل تريد أن تصبح مثل هؤلاء فيطول عليك الأمد فيقسو قلبك ولا حول ولا قوة إلا بالله، المفروض أنه إذا طال عليك الأمد ازددت تقديسًا لله، لا أن يطول عليك الأمد فيقسو قلبك).

ولذلك قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين»، خرَّجه مسلم(٢).

(أسلم ابن مسعود وبعد أربع سنين عوتبوا بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣)، والدارمي (٢٩٦)، والحاكم (٣٣٨) عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
أوردها ابن رجب، ثم قال: وقد قيل: إن رواية النسائي أرجح.
وأخرجه أحمد (١٧٤٧٣)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، والحاكم (٣٣٩) عن زياد بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٧٦، ٦٩٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).

ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فالمسألة ليست خشوع الأيدي والوجه والهيئات واللسان، إنما الخشوع خشوع القلوب: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]؛ ولذلك: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**» وَمِن هؤلاء السبعة: «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(١)، سبحان الله العظيم، فهذا الرجل لم يَقُمْ ولم يَقعُدْ ولم يفعلْ شيئًا، وإنما بمجرد أن تَفَكَّرَ بَكَى من خشية الله، وقال: ربنا ذو العظمة والجبروت، وقال في نفسه: إني أسيء الأدب مع الله، لماذا أفعل ذلك؟! ثم يبكي، فهذا في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله؛ فالمسألة إنما هي قلبية مُعَوَّلُها على القلب؛ فلتعرف قيمة القلب).

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر: ٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، (فويلٌ لمن؟ للقاسية ماذا؟ قلوبهم، إذًا: قلوبهم مسألة مهمة أم لا؟ لا شيءَ أهم منها، فكل هذه الأشياء وسائل ووسائط إلى القلوب).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣][(١)]، ومعنى: (ثم) إنه فيه مراحل، يعني: الجلود، ثم القلوب، والرسول - عليه الصلاة والسلام - كما ورد في «صحيح مسلم» كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ**»[(٢)]، أي أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يتعوذ بالله من قلبٍ لا يخشع.

والله المستعان ونسأل الله ﷻ أن يوفِّقنا إلى ما يحبه ويرضاه، كما نسأله تعالى أن يرزقنا فقه القرآن والعمل به وأن يرزقنا العلم والعمل والخشوع في الصلاة والتضرع له والإلحاح في الدعاء. اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة، اللهم اغفر لنا ذنوبنا كلها دِقَّها وجِلَّها صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) «الذل والانكسار» (ص٣٦-٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

معاني أدعية الاستفتاح

أيها الإخوة الأعزاء:

في هذا الباب نشرع في الحديث عن معاني أذكار الصلاة، وهيئات الصلاة، والتذكير بخطورة هذا الأمر، فنحن دائمًا نهتمُّ بتعلُّم فقه الصلاةِ، وأحكامِهَا، وما يتعلَّقُ بها - وهي تأخذ وقتًا طويلًا جدًّا - وإن بعض النَّاس قد حفظ هذه الأحكام، وقد حفظ النصوص، ومع ذلك فإنه لا يحسن الصلاة، أو أن صلاته بغير روح، أو بغير أجرٍ - اللَّهُمَّ إلَّا قليلًا.

فإن روحَ الصلاة وقلبَها وأجرَها العظيمَ إنَّما هو الخشوع: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١، ٢] فالخشوع في الصلاة هو أمرٌ جَلَلٌ وأمرٌ خطيرٌ، وكما قلت في البداية بأن المعاني قد تأتي غير مرتَّبة؛ لأنه بداية طريق خطر، حتى أنا لم أستطع أو لم أُحْسِن الصلاة حتى الآن، نحاول ونجاهد، وكيف أعلم النَّاس الخشوع وأنا لم أرزق الخشوع إلا قليلًا وهو حال أكثر الأمة الآن!! فالخطر كل الخطر في أن النَّاس فعلًا يصلون بغير خشوع.

والخشوع ليس مسألة سهلة هينة تتلقاها في درس، أو درسين، أو دروس، أو في الكتب، أو على أيدي الشيوخ، كلَّا؛ وإنما الخشوع أمر

فوق ذلك، فهو رزق من الله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٩].

ولقد ذكرنا شيئًا كثيرًا من قبل، وإن شاء الله نبدأ في ذكر معاني أذكار الصلاة على تنوُّعها؛ لكي تكون وسيلةً من وسائلك في مجاهدة نفسك في ذات الله ﷻ حتى تحسن تحية الملك.

حال الإنسان قبل الصلاة وأثناء الصلاة وبعد الصلاة:

والله لقد رأيت كثيرًا من النَّاس وهم يُحَيُّونَ ملوكَهم ورؤساءَهم وأصحابَ مكافآتِهم ومِنَحِهِم، يُحَيُّونَهُم بتحياتٍ وانخفاضاتٍ، وخُضُعٍ، وتعظيماتٍ، وكلماتٍ وهو شيءٌ عَجَبٌ، أما إذا جاء نفس هذا الإنسان ليُحَيِّيَ ملك الملوك فمنهم من تراه يتثاءب وينصرف عن الصلاة إلا باللسان والجوارح، فهي خطوط متوازيةٌ: الهيئاتُ مع اللسان مع القلب في كل حركة في الصلاة، في كل ركن، في كل واجب، في كل سنة، في كل ذِكْر من أذكار الصلاة.

وقبل أن أبدأ في شرح هذه المعاني أقول لك: إنك مطالب في كل صلاة أن تسأل نفسك ما التغيُّر الذي أصابك بالصلاة؟ ما الذي حصَّلْتَهُ من هذه الصلاة؟ دخلت المسجد وحالك كذا وكذا وخرجت منه بالحال نفسه؛ إذًا: فتأكَّد أنك لم تُصَلِّ، وافترض أنك أَسْقَطْتَ الفرضَ مثلًا؛ لأنك دخلت المسجد وخرجت منه على ذات الحال.

○ لا بد أن تسأل نفسك:

كم عَظَّمْتَ أمر الله بعد الصلاة؟ وكم عظمتَ نهي الله بعد الصلاة؟ وكم تنوِي فعل الخير بعد الصلاة؟ وكم تنوي أن تأتمرَ بما أمر الله به،

وتنتهيَ عمَّا نهى الله عنه؟ وكم بكيتَ في الصلاة؟ وكم عزمتَ على التوبة بهذه الصلاة؟ إنما خرجت من المسجد كما دخلت فيه، يعني: كنت في معصية تنظر إلى النساء مثلًا لضعفٍ ومرضٍ في القلب - مرض الشهوة - ثم جئت المسجدَ وخرجت منه بالضعف نفسه فأنت لم تُصَلِّ وتأكد من هذا، في كل وقت أنت مطالبٌ بسؤال نفسك: بأي حال دخلت المسجد؟ وبأي حال خرجت؟ هذه مسؤوليتك أنت في كل وقت، فإذا لم تجد تغييرًا في قلبك فتأكد أنك لم تُصَلِّ، وأليس هذا هو الحال؟ هذا هو حال النَّاس فنحن في أسوأِ جيل أو في أسوأِ الأجيال كما أقول، ليس بتشاؤم وإنما وصفُ واقعٍ.

محادثتُكَ أخَاك بالهاتف هل هي أهم عندك من محادثة الله ﷻ؟!

كل إنسان أو كلُّ مَنْ تحدّث بالهاتف عليه أن يتذكر أنه حين يحادث أخاه في الهاتف، ثم يأتي طفلٌ مثلًا يُشَوِّشُ عليه وهو يتحدث في حديث مهمٍّ فماذا هو فاعل معه؟ يريد أن يسمع أخاه ويريد من أخيه أن يسمعه، فكل أحد يشوش عليه أو يدخل على الخط فإنه يقول له: اخرج من الخط وتسمع الشتائم والسِّباب.

انظر إلى اهتمامه بمناجاة أخيه أو بحديثه لأخيه وهو في الهاتف، ثم انظر إلى مناجاته لملك الملوك ولربه كما يقول المصنِّف لهذا الكتاب - (أين الخاشعون في الصلاة) - وهو كتاب عظيم وسهل جدًّا لكن لم يتعرض للمعاني التي سنتكلم عنها الآن ولكنه سينفعنا، فيا للعجب إذا قارنت بين الحالتين!

ما في نيتي أن أقدمه للناس مختلف تمامًا عمَّا في هذا الكتاب،

ولست أدري كيف أقدمه، إنما هو فتح من الله ﷻ ومِنَّة، فالخشوع وإحسان الصلاة مسألةٌ كبيرةٌ وهي مسألةُ رزقٍ من الله، فحين يريد الله يأتي هذا الفتح.

بعض أدعية الاستفتاح من كتاب (صفة صلاة النَّبي):

نبدأ إن شاء الله تعالى بذكر معاني الأذكار التي قالها النَّبي ﷺ في الاستفتاح، واسمها أدعية الاستفتاح، وسنأخذ هذه الأدعية من كتاب الشيخ الألباني: «صفة صلاة النَّبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراه».

ذكرنا التكبير ومعناه، ولكنا على عَوْدٍ إن شاء الله، فماذا يعني أكبر؟ وماذا يعني عظيم؟ وماذا يعني أعلى؟ ومجيد وحميد؟ كيف تصلي بغير فهمٍ لمعاني هذه الأسماء؟ فعليك أن تسأل نفسك عن معانيها.

الغاية من الخلق:

أُذَكِّرُكُمْ بهذا المعنى كما أُذَكِّرُ الناس دائمًا في كل مكان بأنكم ما خُلقتم إلا لغاية تُراد منكم ولغاية تُراد بكم، كما قال العملاق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإنابة إليه والتوكل عليه وإخلاص العمل له ومحبته والرضا به والقيام في خدمته هو الغاية التي خلق لها الخلق(١)، إذًا: فالغاية من وجودك في الدنيا: أن تعرف الله فكيف تعرف الله؟ بصفاته وأسمائِهِ وأن تثنيَ عليه بذلك.

---

(١) «عدة الصابرين» (ص٣٨).

عبادة الله تعالى بأسمائه الحسنى:

ما معنى أن تثني؟ أي: أن تكرر؛ ففي حياتك عليك أن تتعرف على الله وتكرر وتحاول أن تتشرب المعاني وأن يستشعرها قلبك، وأن تبكي بها، وأن تخشع لله، وأن تَذِلَّ لله ﷻ، وأن تحب الله، فكل صفة لله وكل اسم من أسماء الله يؤثر أولَ ما يؤثر في محبة القلب؛ لأنه صفة كمال، والكمال يُحَبُّ فنحن خُلِقْنَا نُحِبُّ الكمالَ، فكل صفةِ كمالٍ لله تؤثر في محبة القلب، ثم هذه الصفة تؤثر بحسب معناها، فالعزيز تؤثر في القلب ليس المحبة فحسب إنما الذل أيضًا، فالمعنى: أن كلَّ صفةٍ تؤثر في محبة القلب، ثم في معناها الخاص بها.

فالغاية المطلوبة منك أن تعرف الله، وما الصلاة إلا ملحمة ومملكة لهذا المعنى، وللتعرُّف على الله ﷻ فهي فعلًا - باللسان والجوارح والقلب - عبادات لكل أسماء الله تعالى وصفاته.

انظر إلى الأهداف التي خُلقت من أجلها، وجُمع كل ذلك في الصلاة غير أننا لا نصلي إلا شكلًا، وستعرف خطورة الأمر -إن شاء الله- بعدما تتعرف على معاني الأذكار، و«الفاتحة»، و«سورة الإخلاص»، و«سورة الكافرون»، و«سبحان ربي العظيم»، و«سبحان ربي الأعلى».

الغاية التي تراد منك أن تعرف ربك، والصلاة ملحمة الأسماء لتعرف بها ربك:

أنا أريدك أن تعرف ما الغاية التي تراد منك: أن تعرف ربك، وماذا تعرف عن ربك؟ الصلاة هي الملحمة وتخرج منها للفروع، فما بعدها كله فروع عن الصلاة؛ لأنها هي الملحمة والمملكة في الأسماء

والصفات، أو هي يوم القيامة المصغر؛ كما هو لقاء الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]، فهي أيضًا لقاء هنا مع الرب في الدنيا، وكما قلت سابقًا: الأذان يذكرك بلقاء الله ﷻ، والقيام يذكرك بقيام الله ﷻ على كل شيء، وعلى كل نفس بما كسبت، ويذكرك بالقيام يوم القيامة، يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة.

أقول لك: مملكة الأسماء والصفات - يوم القيامة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] مجَّدني عبدي، ومملكة الأسماء والصفات أيضًا في الدنيا - الصلاة - كقيامة مصغرة فأهملناها وصِرنا لا نؤديها إلا أداءً، أما الإقامة - إقام الصلاة - فذلك أمر بعيد، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

۞ حديث ذهاب العلم:

نبدأ كما قلنا في مسألة أدعية الاستفتاح، ولكني أُذكِّر نفسي وإياكم بهذا الحديث - وهو حديث عظيم فيه الموضوع الذي نحن بصدده.

عن زياد بن لَبِيد قال: ذكر النَّبي ﷺ شيئًا فقال: «**ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ**»، فقلت: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَكَيْفَ يُرْفَعُ الْعِلْمُ؟ (يقول: نحن نتعلم الكتابَ والقرآنُ يُقَرَّأُ - وهم عرب طبعًا وكانوا فِهَامًا - فكيف يذهب العلم مع وجود القرآن؟!). فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ - أَوْ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ - أَوَ لَيْسَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا**»[١].

---

(١) تقدم (ص٩١).

[انظر «**لا يعملون بشيءٍ مما فيهما**»! ويقرؤون التوراة والإنجيل، لأنهم أولًا لم يفهموا، ولو فهموا ما عملوا، إذًا: ذهب العلم بعدم العمل مع أن بينهم التوراة والإنجيل! فالمسألة ليست بأن تقرأ القرآن، بل بأن تعمل به].

انظر إلى صدق كلام الرسول - عليه الصلاة والسلام - فيما يسمى الآن بالفُقهاء؛ وهم حفاظ القرآن الذين يقرؤون القرآن ويستعملون آلة الدين للدنيا، وتجده في سُرَادِقِ العَزَاءِ يَزِنُّ ويَنُوحُ ويُمَطِّطُ، وإذا سألته عن المعاني قال: لا أعرف، وقد يكون أيضًا لا يصلي وهو يقرأ القرآن، فهل المسألة أنه حافظٌ للقرآن؟! أضاف مصحفًا جديدًا؟! فالمسألة: أين العلم؟ وأين العمل بهذا العلم؟!

الخشوع هو أول ما يرفع من العلم:

وفي رواية أخرى قال جُبير: فلقيت عبادة بن الصامت قلت: ألا تسمع إلى ما يقوله أخوك أبو الدرداء، فأخبرته بالذي قاله أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بأولِ علمٍ يرفع من النَّاس: الخشوع[1]، فالخشوع علم، ولا بد أن تعلم وتتعلم وتجاهد نفسك في الله حتى تخشع لله ﷻ.

وكيف تخشع وأنت لا تعلم عظمة الله؟! ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣، ١٤]، فالخشوع ليس مجرد علمٍ، إنما هو أعظم العلم، فأصل العلم الخشوع.

ولذلك كلام النَّبي عليه الصلاة والسلام: «**يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ**

(١) تقدم (ص٩٢).

جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا» أخرجه الترمذي بإسنادٍ صحيح، وصححه الشيخ الألباني(١).

فانظر إلى هذا الكلام وأهمية العلم، وأهمية الخشوع، وأهمية معرفة الأذكار، ذلك شيءٌ عظيم.

أدعية الاستفتاح:

الدعاء يقال بعد التكبير، وطبعًا هي صِيَغ وأنت تتخير منها ما شئت، ولا تَثْبُتْ على صيغة واحدة لئلَّا تكون عندك بمنزلة الرَّتابة وإلف العادة؛ فالإنسان يتعوَّد، مثل الذي تعوَّد على قراءة الفاتحة؛ فهو خُلِقَ ونشأ ودرج على هذا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢...﴾ [سورة الفاتحة]، ويتثاءب وهو لا يتبين حتى حروفها ولا يعرف عن معانيها شيئًا، ويعد نفسه هكذا قرأ الفاتحة، وهو لا يعرف عنها شيئًا، فهو يضحك على نفسه، فنحن لا نثبت على دعاءٍ واحدٍ في الاستفتاح، فهذه طبيعة الإنسان، أو مقتضى وطبائع النفوس؛ فالإنسان يتعود صيغة فتؤثر عنده الآن، ويقولها مرة، وفي المرة الثانية يضعف التأثير ويضعف ويضعف حتى يفقد تأثيرها عليه، فعندئذٍ ينتقل إلى صيغة ثانية؛ فالصيغ كثيرة في الاستفتاح، وقبل أن تدخل على أمِّ الكتاب جَهِّز نفسك، فأنت دخلت علي ملك الملوك، وليس رئيس الوزارة ولا رئيس الجمهورية، فهذا ملك الملوك، ووقفت بين يديه وقلت: (اللهُ أَكْبَر) فأي تحية تُقدم لوزير أو لرئيس؟! فأكبر منها لمن تُقدم؟ تُقَدَّمُ لله ﷻ، فقبل أن تدخل في فاتحة الكتاب؛ في كلام

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣) من حديث أبي الدرداء ﵁. وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٥٩).

الله ﷻ، تُعِدُّ نفسك وتجهز نفسك، وكان تجهيزًا سبق قبل الصلاة - بصلاة السُّنَّة مثلًا - أو بالاستغفار، أو إخراج الصدقات كما ذكرنا.

فأنت الآن في دعاء الاستفتاح تُعِدُّ نفسك للدخول على فاتحة الكتاب، وأول صيغة كان يقولها النَّبي - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم:

الصيغة الأولى

«**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ؛ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ؛ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ. اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»(١). وكان يقوله في الفرض. وهو أصح أدعية الاستفتاح سندًا، وهو حديث متفق عليه.

الذنوب تمنع الخشوع:

نرجع مرة أخرى إلى الذي يمنع الخشوع وهو الذنوب؟ فلا مصيبةَ إلا بذنب، تريد أن يحضر الخشوع، وأن تستفيد من ملحمة أو مملكة الأسماء والصفات في الصلاة وتستفيد من الخطوط المتوازية: اللسان مع الهيئات - الجوارح - مع القلب، هؤلاء الثلاثة خطوط متوازية لا بد منها، انظر كم سنة نشتغل بالجوارح والأعضاء، ولكن أين القلب؟ وأين المعاني التي يقولها اللسان؟

الذنوب عبارة عن ران وصدأ ورجس وقع على القلب، يمنع الخير، ويمنع الهداية، ويمنع التأثر، ويمنع الخشوع، فماذا نفعل إذا أردنا أن

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نُذْهِب هذا الرجس؟

عليك بالاستغفار، فانظر إلى قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو المعنى نفسه الذي ذكرناه من قبل، لكن مَنِ الحاذق الذي يستحضر هذه المعاني؛ فأنت من الممكن أن تتعلم كيف تمسك البندقية، وكيف تصوب بها، وكيف تُخرج الذخيرة وتضع مكانها أخرى جديدة، ثم تدخل الميدان وحدك، وتَخيب خيبة كبيرة جدًّا، وتُدْبِر وتُضْرب فتموت وتذهب إلى النار، وعلى النقيض الآخر أخذ أحدهم بهذا الكلام وتعلم على السلاح ودخل الميدان فأصاب العدو إلى أن لَقِيَ الله تعالى شهيدًا.

فهذا دعاء نقوله مع بعضنا البعض، أما حين تدخل الصلاة فأنت مُطَالب أن تفهم ما تقول وأن يغلي قلبك مثلما كان قلب النَّبي ﷺ يغلي كالمِرْجَلِ، وكان يُسمع له أزيز كأزيز المِرْجَلِ ﷺ(١)، وهو يقول هذا الكلام رغم أنه غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

أما أنت فترى أنه ليس لك ذنوب أصلًا فلماذا تبكي؟! ولماذا تقول: اللهم اغفر لي؟ فأنت رجلٌ بلا ذنوب!!

دعاء الاستفتاح وعبادة الله تعالى باسمه القدوس:

انظر إلى أول ما يقول النَّبي - عليه الصلاة والسلام:

«**اللَّهُمَّ بَاعِدْ**»: فهذه مملكة الأسماء والصفات، والدعاء هذا كله يخص اسمه تعالى (القدوس). فـ(القدوس) معناه: الطاهرُ الطهارةَ المطلقةَ، والذي يريد أن يجاوره ويكون عنده: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه.

مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ [القمر: ٥٥]، فلا بد أن تكون طاهرًا، وبقدر طهارتك تدنو من القدوس في حظيرة القدس - الجنة - وهناك تطهير في القدر الكوني، وتطهير شرعي، وتطهير جزائي، وشرحناه، فأكثِر من كل هذا الاستغفار، حتى تكون كأنك اغتسلت بكل أنواع الشامبو والصابون والروائح الطيبة، فانظر إلى التعبُّد باسمه تعالى القدوس؛ لأن القدوس: هو الطاهرُ الطهارةَ المطلقةَ.

ثم ما الطهارة؟ وما التقديس؟ التقديس: هو طهارة بعد طهارة بعد طهارة بعد طهارة، ولكن ما معنى طهارة؟ وما معني طهارة القلوب؟ معناها: بُعْدٌ ومباعدة، بُعْدٌ ومباعدة، ودائمًا أضرب هذا المثال: يوضع مثلًا بجانبك قَذَرٌ - والعياذ بالله تعالى - فأنت تبتعد عنه، ولكن هذا ليس وحده هو الطهارة، بل إنك أيضًا تأمر بإبعادها، فهذا بُعدٌ ومباعدة، هذه هي القاعدة، وهذا هو التقديس، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - قال: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ**» فانظر من أين أتت الطهارة، وانظر إلى التقديس، سبحان الملك القدوس!! فأنت تدخل في لقاء مع الملك وقلت: (الله أكبر) فهو ملك الملوك فتبدأ بهذه الصيغة التي قالها النَّبي - عليه الصلاة والسلام - في الاستفتاح بعبادة الله باسمه القدوس ليطهرك لكي تستطيع أن تقرأ الفاتحة ولكي تستفيد، فانظر إلى دعاء النَّبي ﷺ، فهو استفتاح عظيم بدأ به الشيخ الألباني في أدعية الاستفتاح في كتابه العظيم المبارك هذا.

انظر إلى عظمة هذا الكلام!

«**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ**» لأن الخطايا تَثْقُل على قلبي وعلى نَفَسي، فإذا أردت قراءة الفاتحة فإني لا أستطيع أن أستحضر المعاني،

وأبذل جهدًا جهيدًا حتى أستحضر معنى الاستعاذة، وأنا أقول: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»، وأدخل على: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» وأنا لم أُحَصِّل المطلوب من «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»، وهذا ما يحدث، وأنا أحاول ويحدث معي هذا، فلا حول ولا قوة إلا بالله فهذه مصيبة.

فالذنوب تؤخِّر الإنسان، وتعمل كمادة عازلة، بالله لو كان لديك سلك مغطًّى بالشحم فكيف يمكن لنا أن نشحن هذا السلك؟ هل تشحن بطارية بسلك مملوء بالشحم؟! بالطبع لا ينفع، فهذا الشحم هو الذنوب، وهو الران، وهو الرجز، وهو تأثير الخطايا، فهي بُؤَر صديدية، فأنت تدخل الصلاة وتريد أن تُكهرب القلب، والقلب فعلًا يتكهرب، ولكن كهرباء معنوية، كهرباء بذكر الله ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، ثم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤]، فهذه الأذكار تشحن البطارية التي فرغت، والذي يملؤها الذِّكْر، ولكن كيف يملؤها وهنالك طبقة سميكة من الشحم، فأنا داخلٌ في مملكة وملحمة الأسماء والصفات، فلا بد أن يكون أول ما أفعله أن أزيل هذه الطبقة من الشحم وذلك عن طريق الاستغفار، وهو أول شيء قاله الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فأول شيء كأني أقول: يا رب إن ذنوبي أهلكتني وأجاهد نفسي، ولكن لا أستطيع أن أقوم وأريد أن أقوم فلا أقدر، فتقول: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**» وأنت الذي ارتكبت هذه الخطايا، وأنت جئت هنا لتدعو الله ولا بد أن تكون صادقًا في هذا الدعاء وأن يكون قلبك حاضرًا في هذا الدعاء (التوبة بشروطها) ولكن لماذا

فعلت هذه الخطايا أصلًا؟ فأنت تقول: يَا رَبُّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ.

هل تقول: (يا رب)؟ لا تقول: (يا رب)، بل تقول: (اللهم)، **ولكن ما الفرق بين (اللهم) و(الرب)؟**

«**اللهم**»: يعني يا ألله، يا من لك كل الأسماء الحسنى، فهذا هو معنى الميم، وورود الكلمة في القرآن بهذا المعنى، فـ«اللهم» معناها: أنك أثنيت على الله ﷻ بكل محامده ومجده وعظمته.

فأنت تتوسل إلى الله وتقول: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي**»؛ أي: أنك تسأل الله أن يزيل عنك المصائب التي قمت بها والشحم الذي على قلبك، ومن يستطيع أن يفعل كل هذا إلا الله؟ ومن يغفر الذنوب إلا الله؟

وما معنى يغفر؟ لقد قلنا: إن الذنب مأخوذ من الذَّنَب وهو الذيل، فهل لك ذيل؟ أنت ليس لك ذيل لأنك رجل مُكرَّم: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الإنفطار: ٨]، إنما هذا الذيل خلفك ويجر معه ثلاث مصائب: مصيبة في الدنيا، ومصيبة في الدين، ومصيبة في الآخرة.

ومعلومٌ أن المغفرة معناها قصُّ هذا الذيل، هذه هي المغفرة؛ قطع الذيل الذي صنعته لنفسك، ولكن كيف تتم هذه المغفرة؟ وما شروط هذه المغفرة؟ المغفرة لها شروط: الندم، والعزم على التوبة.

«**بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»؛ يعني: أنا قمت بهذه الخطايا وأنا نادمٌ عليها - فعلًا تقول لنفسك هذا - لماذا ارتكبت هذه الخطايا لقد أَثْقَلَتْ قلبي وستجرني إلى النار؟ يا رب أبعدها عني، تستحضر هذه المعاني وتقول: يا تُرَى يبعدها مترًا؟ أم مترين؟ لا؛ «**كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»، فأنت تريد البعد

والمباعدة، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. ما معنى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؟ أي: نزداد طهارةً لك، بالرغم أننا أطهار، ولكننا نزداد، نزداد طهارة بالطاعات، وبالأعمال الصالحات، وبكثرة الأذكار، فهذا هو التقديس، وهنا المباعدة من أول الصلاة.

ثم يقول النَّبي ﷺ مرة أخرى في دعاء الاستفتاح نفسه: «**اللَّهُمَّ نَقِّنِي**» وما معنى: «نَقِّنِي»؟ معناها: التطهير، فهذه معناها أوضح من «بَاعِد».

لأن التطهير هو البعد والمباعدة ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فكيف يقال عنهم: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ وهم لم يفعلوا فاحشة أو أيَّ شيء من ذلك، إنما التطهر معناه: أنهم ابتعدوا عن الفاحشة وأمروا النَّاس بالابتعاد عن الفاحشة، فهذا بُعد ومباعدة؛ لأنهم يريدون أن يقضوا على الفاحشة، فلا يكفي أن يبتعدوا، بل يريدون أن يقضوا على الفاحشة أصلًا.

«**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ**»، ثم الجملة الثانية، وهي في دعاء الاستفتاح نفسه؛ «**اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ**». فالخير متلبس بالشر، والطاعة متلبسة بالمعصية، وتريد من يباعد بينها وينقيها بالمُنْخُلِ، كمن يقول: نَقِّ الحبوب أو الفول من الحصى أو من القش، فالتنقية؛ أي: جعل الشيء نقيًّا؛ أي خاليًا من الشوائب ومن المفسدات والآفات، فهذا معنى التنقية أن تكون هنالك أعمال صالحة.

۞ معنى الإسراف في الأمر وما معنى التنقية:

«**بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ**»؛ فهنالك خطايا متداخلة مع الطاعات، وهذه من الممكن أن تكون أقرب إلى الإسراف في الأمر: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا

ٱغْفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ [آل عمران:١٤٧].

إذًا ما معنى الإسراف في الأمر؟ وما الفرق بينه وبين الذنوب؟

يعني مثلًا: نحن أُمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجاء رجل أُمر بالأمر بالمعروف، فيأمرُ النَّاسَ بصلاة الفجر، وهم نائمون، فيدق على الأبواب وينادي لإيقاظهم، ويتلفظ بألفاظ سيئة، وقد يشتم ويسب، فهو جاهل، ولكنه ما أراد إلا الخير، وقد يكون مستاءً جدًّا من النَّاس الذين لا يقومون لصلاة الفجر، فهذا هو الإسراف في الأمر، فأنت إذا أمرت بالمعروف فلا تتجاوز، فهذا الأمر له ضوابط، ولا تَنْهَ عن المنكر بمنكر أشدَّ، فهذا الرجل غَضِبَ لله ﷻ، ولكنه لا يشعر بأنه أسرف في الأمر ولا يستشعر ما يقول، فهو مسرف في الأمر، فهذا هو الفرق بين الذنب والإسراف في الأمر، وهو يُعَدُّ ذنبًا كذلك: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾.

۞ أمثلة أخرى على الإسراف في الأمر:

كثير من النَّاس يخدم في المسجد في بيت الله تعالى وينوي بذلك العمل الصالح، ولكن أول ما يُستفز تظهر عليه الجاهلية - رغم أنه لا يريد بذلك إلا وجه الله - فهو مخلص ولكنه أسرف في الأمر، فلا بد أن تكون هنالك حدود فأنت تخدم في بيت الله، فإذا وجدت شخصًا جاهلًا فكن حليمًا ولا تكن أجهل منه، تقول: هو استفزني، نعم استفزك، ولكن أنت هنا لخدمة بيت الله الحرام فلا تسرف في الأمر فهذا المقصود بإسرافنا في أمورنا.

موقف موسى عليه السلام:

سبحان ربي العظيم، انظر إلى الآيات حين يَذْكُرُ الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾ [الأعراف:١٥٠] فالألواح مثل القرآن، وألقاها على الأرض! فهل ألقاها تحقيرًا لكتاب الله التوراة؟! أو استصغارًا لشأن التوراة؟! لا؛ إنما ألقاها من شدة غضبه وأسفه، لأن الذي حدث كان شركًا بالواحد القهار، فَغضَبُهُ كان لله، ولذلك لم يذكر الله عتابًا لموسى عليه السلام، فربنا سبحانه وتعالى يقصُّ الأمرَ الذي كان من موسى ولم يعاتبه حتى مجرد العتاب في أنه ألقى الألواح، فهذا موسى كليم الله والموقف كما تعلمون.

أما الإنسان فإنه فعلًا يريد أن يأمر بالخير ولكنه يُسرف في الأمر، يريد أن يعمل الخير فيسرف وينتقل إلى الشر، ويريد أن ينهى عن الشر فيتجاوز في النهي عن المنكر فيعمل الشر فهذا إسراف في الأمر والنهي.

مثال آخر:

تريد أن تَنْهَى مبتدعًا عن بدعته فلم ينته - وهو مبتدع - فتبدأ في سَبِّهِ ومن الناس من يفعل ذلك، وهو يظن أنه بذلك ينهى عن المنكر، ولكن هذا أسلوب غير صحيح؛ فهذا إسراف في الأمر، وهو بالفعل يريد الخير ومنفعل للسُّنَّة ولكن لا ينفع بهذه الطريقة، فنقول: (يَا رَبِّ اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا)، فكم للناس من جهالات، وحدثني أنا عن نفسي حين أنفعل في هذه المسائل، وأنا لا أريد إلا وجه الله ولكن هذا اسمه إسراف في الأمر.

فهذا المعنى أقرب إلى «وَنَقِّنِي»، لأنه عمل خير ولكن فيه دَخَن؛

والخير ملبس بالشر.

لماذا الثوب الأبيض؟

«**اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ**» فالثوب الأبيض أقل القليل يظهر فيه؛ كل شيء يظهر فيه، سواء كان لون هذا الشيء رصاصيًّا أو أزرق أو بنيًّا أو أسود أو أبيض مصفرًا فأقل شيء يظهر فيه، أما الثوب الرصاصي فلا يظهر فيه شيء، ولو وضعت عليه تراب مصر كله فلا يظهر فيه، فتجد بعضًا ممن يعملون بالزراعة ورعاية المواشي ثوبَه ملبدًا بالقاذورات ولكن لا يظهر فيه شيء؛ لأن لونه أصلًا غامق، في حين أن الثوب الأبيض تجد أن أقل شيء يظهر فيه، فأنت المفترض أنك داخل بين يدي الملك لتحيته، فلا بد أن يكون قلبك نظيفًا مثل الثوب الأبيض، ومعنى هذا أنك تقول: يا رب لا تترك لي شيئًا من الذنوب والخطايا يُقَذِّرُ الثوب الأبيض، ونقني منها، ومعناها: اغفر لي ذنوبي كلها، وخصوصًا المتداخلة، لأن التنقية معناها: شر متداخل مع الخير وما أكثر ذلك.

الفرق بين الدنس والرجز:

معنى الدنس: (الوسخ)، ويقابله في المعنويات والقلوب: (الرجز).

أنا لا أريد أن يكون أحدٌ منكم جاهلًا بهذا؛ لأنك مُطالب بهذا الكلام، وليس أن تقوله لامرأتك وابنك فحسب، فأنت مطالب بأن تنفعل به.

۞ ليستجيب الله منك؛ افعل هذا:

أول ما تدخل الصلاة تحاول أن تبكي، وقد فهمت معنى «بَاعِدْ» ومعنى «نَقِّنِي»، فانظر إلى قلبك وكم هو مملوء بالشحم والرجز، وقلوبنا كلها كذلك، فأنت أحوج وأفقر ما تكون إلى هذا، وعليك أن تعرف وتستشعر أن الله يسمعك، وأن كلامك لا يذهب هباءً منثورًا، فهو يسمعك، وترجو أن يستجيب، ولكن ليستجيب الله لك، يجب أن تخرج المسألة من اللسان والقلب معًا. وكذلك يجب أن تكون - الهيئة - مطأطئ الرأس وأن تنظر في مكان السجود وأن تهتز جوارحك وأن تبكي وتغمض عينيك قليلًا لئلا تنشغل بالأثاث أو بالمروحة أو بالسجاد، أو بمن حولك؛ فالإنسان منا ربما ينشغل لأن قلوبنا ضعيفة؛ فنحن نريد أن نقطع كل هذه الشواغل، وانظر إلى تأثير الهيئة واللسان فهما يؤثران على القلب، فبمجرد أن تنكمش وتطأطئ رأسك وتقول الكلام وتستشعر الذنوب والخطايا فسترى أنك ستبكي.

فالله ﷻ بالفعل يمكن أن يزيل عنك تلك الذنوب والخطايا، وهذا ليس صعبًا على الله أن يفعل ذلك.

۞ المرحلة الثالثة والأخيرة:

«**اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي**»: فالمسألة تطورت من البعد والمباعدة الذي هو أصل التقديس، ثم التنقية، ثم الغسيل الكامل، تمامًا كما نفعل عند تنقية الحبوب في البداية ننقيها من الحصى ثم نغسلها.

فانظر إلى الترتيب في دعاء النبي ﷺ، فلا كلمة في دعائه ﷺ إلا وفيها فائدة عظيمة، يقول: «**اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ**

وَالْبَرَدِ»، وبينها فروق.

الفرق بين الماء والثلج والبرد:

الماءُ يغسل الذنوب، وكذلك الثلجُ والبَرَدُ، ومن المعلوم أن البرْدَ يعطي قوةً وصلابةً للشيء، فنجد أن السَّمْن حين يسخن يذوب ويكون سائلًا، وحين يبرد يصير قويًّا متماسكًا، وكذلك معظم المواد، فدائمًا تبريد الشيء يعطيه قوة وصلابة، والقلب كذلك - الشيء المعنوي - كلما بَرَدَ ازداد قوةً وتماسكًا وصلابةً، ولكن ما الشيء الذي تسبب له في هذه السخونة؟ يعني أن هنالك ما يجعل القلب ساخنًا، وهنالك في المقابل ما يجعله باردًا.

فالسؤال الآن: ماذا تفعل الذنوب؟

مثلًا يقال: حرارة الشك ويقابلها، بَرْدُ اليقين. ويقال: (بَرَّدْتَ ناري)، ومعناها: نار القلب، أي: أنك حين قلت له وأعلمته قد بَرَدَتْ ناره، أو يقال مثلًا: (شفيتني بالإجابة)، فهذه حرارة الشك، وبرد اليقين، فهنالك مقابل بين الحرارة والتبريد الذي يحدث في القلوب، فالحرارة دائمًا بالذنوب والمعاصي، فيصاب القلب بالأمراض، ويصبح عُرْضة لكل مرض يؤثر فيه وينهش فيه؛ لأنه مريض بالذنوب التي ارتكبها، ومعنى ذلك أنك وضعت الشحم أو البلاك أو البيتومين على القلب، فأصبح لا يؤثر فيه الذِّكر، ومع انعدام الذِّكر تبدأ الأمراض في مهاجمة القلب وتتزايد؛ لأن الذكر هو المادة التي تَشْحَنُ القلب، مثل الكهرباء التي تشحَنُ البطارية، فأنت بارتكابك للذنوب قد عملت مانعًا من الذكر، بِناءً على ذلك يَضْعُفُ القلب ويصيرُ مريضًا، ثم تتكون فيه

بؤرةٌ صديديةٌ.

ماذا تعمل البؤرة الصديدية في الجسم؟ هل في الجسم بؤرة صديدية من غير حرارة؟ هل عرفت أحدًا عنده بؤرة صديدية - وَلْيَكُنْ في اللثة - دون حرارة؟ مستحيل، فالبؤرة الصديدية لا بد لها من ارتفاع حرارة البدن، ومعلومٌ أن طب الأديان يحتذي حذو طب الأبدان، وهذه قاعدة معروفة كما قال شيخ الإسلام وكما قال الرسول ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً**»[1] في الجسد وليس في الإنسان، ويقابلها القلب في الإنسان، فهنا الجسد يحدث فيه بؤرة صديدية تسخنه، فما الذي يبرده؟ الذي يبرده أن تذهب البؤرة الصديدية، ولكن في المقابل ما الذي يُذهب البؤرة الصديدية المعنوية - الذنوب -؟ الذي يذهبها الاستغفار والطاعات وأسباب كثيرة، فأنت مطلوب منك أن ترفع هذه البؤرة الصديدية من قلبك، أليست هي التي تُسخن؟ فما الذي يُبرد؟ ما الذي يبرد في المحسوس يا إخواني؟ أن تغتسل بالماء فتشعر أنك بردت قليلًا، ونعلم أنه إذا جف الماء عادت الحرارة من جديد، ومعنى هذا أن الحرارة في الداخل أكثر فرغم أنك اغتسلت إلا أنه ما زالت الحُمَّى عندك - وهذا يحدث في البدن - فتلجأ إلى أن تضع كمادات خلٍّ لتساعد على زيادة البرودة، ثم بعد ذلك نضع البَرَد، فهذا كله تبريد؛ لذا يقال: ما يثلج الصدور، أو تنثلج له الصدور، وما معنى تنثلج؟ مأخوذة من الثلج، أي: أن الصدور كانت ساخنة بالذنوب والخطايا فلما بُرِّدَت تبريدًا شديدًا بالثلج انثلجت وصارت باردة وهادئة ومستقرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

وكذلك الدموع؛ يقولون: (دموع الحزن حارة) أو يقولون: (بِحُرْقَةٍ)، فمن أين جاءت الحرقة والحريق؟! ودموع الفرح باردة؛ لأن القلب قوي منتعش مطمئن، وليس عنده ما يزعجه فهو مسرور، فهنا الرسول - عليه الصلاة والسلام - يطلب من الله أن يغسله بالماء والمرحلة الثانية الثلج والبرد، فانظر إلى ترتيب الرسول - عليه الصلاة والسلام؛ لأن الروايات تختلف كثيرًا[1] ف(شيخ الإسلام) أخذ هذه الرواية: «**بِالْمَاءِ وَالْبَرَدِ وَالثَّلْجِ**» على أن البَرَدَ أقلُّ من الثلجِ.

نبدأ أولًا بالماء ثم الثلج، فالثلج يُبرد أكثر، هذا نسبةً إلى التشبيه الذي يحصل في البدن، بعد ذلك نأتي إلى البرد، فالبرد بارد أكثر، وهذه هي مراحل التبريد، ومثلها تمامًا تبريد القلب - التبريد المعنوي - من الذنوب.

فانظر إلى الاستفتاح فوالله لو أنك تفهم هذه العبارات وتستحضرها وأنت داخل الصلاة بين يدي ملك الملوك، لشعرت برغبة بالبكاء، ولكن ليس بصوت عالٍ إنما بينك وبين نفسك في الصلوات المكتوبات.

الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو الذي قال هذا الدعاء، فهل كان يعني ما يقوله أم كان يقوله عبثًا مع أنه غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! والاستغفار عبادة، ومن أَوْلَى النّاس بعبودية الاستغفار والتوبة؟ بالطبع النَّبي - عليه الصلاة والسلام - فهل تقول: لماذا كان النَّبي يستغفر؟ فالاستغفار عبودية هل تريد أن تحرم النَّبي منها: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التوبة: ١١٧] فكيف لا يتوب النبي؟!

(١) ينظر: البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨)، وأبو داود (٧٨١)، والنسائي (٦٠).

بل ورد أنه كان يتوب في اليوم مائة مرة[(١)]، فتتساءل: ومن أي شيء يتوب؟ ذلك لأنك تظن أن التطهر لا بد أن يكون من مصيبة يريد التخلص منها، فكما قلنا من قبل: أن التطهر بُعْد ومباعدة، فكذلكم التوبة؛ فهل يلزم أن يكون زنًا ليتوب الفرد منه؟

يا أخي أنت إذا حصلت على درجة سبعة من عشرة فهذه الدرجة لا تليق بالقدوس، فلا بد أن تحصل على ثمانية من عشرة، فإذا وصلنا لثمانية من عشرة، فإنك تتوب مرة أخرى حتى تصبح تسعة من عشرة، وهذا على وجه التمثيل، لأن الثمانية من عشرة ليس سهلًا الحصولُ عليها، فالله المستعان.

هذا أول دعاء تستفتح به الصلاة:

وانظر كم تكون سعادتك لو أنك استحضرت فعلًا هذه المعاني وأنت تصلي وكذلك وأنت تستغفر، فتعرف معنى الاستغفار وتعرف أنه عبارة عن إزالة وجَلْخ الشحم الذي أفسد حياتك في الدنيا والآخرة؛ الذي هو ذنوبك، وهذا الشحم الذي يمنعنا جميعًا من الخشوع، ويمنعنا من الفهم، وإن فهمنا ما عملنا، وإن عملنا فإن العمل لا يستمر، لأنه لا بركة فيه، فالهداية أيضًا مراتبها ضعيفة جدًّا عندنا بهذه الذنوب، فأول ما تدخل بين يدي ملك الملوك تطلب منه غفران الذنوب، ومن يقدر أن يغفرها غيره؟ ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأَغَر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سبب وجود صيغ كثيرة للاستفتاح:

الصيغة الأولى فهمناها وسهلة، ولكن أنت مثلًا قلتها مرة واثنتين وبعد عشر سنوات تقول: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ؛ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ؛ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ. اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»(١)، ثم تبدأ بالفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢...﴾، فتجد نفسك قد قلت الدعاء بسرعة وبلا تركيز وأنت تتثاءب، فأصبحتْ روتينًا، فنقول له: قف فمن أنت؟ قف إن ربك يسمعك، عيبٌ عليك، إنه يسمعك من فوق عرشه، فللقلوب أصواتٌ مسموعة عند الله، أنت تقول كلامًا بلسانك بغير استحضار للمعاني في القلب، يا أخي استح من الله، فيقول لك: أنا لا أعرف ما الذي حدث لي؟ فنقول له: لا تعرف ماذا حدث لك؟ وهل تريد علاجًا؟ انتقل إلى الصيغة الثانية، وهذا هو الحل لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يفعل كذلك.

الصيغة الثانية

«**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا؛ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ؛ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا؛ لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا**

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»(١) وكان يقول ذلك في الفرض والنفل.

انظر إلى هذه الصيغة، وماذا يُحَصِّل مَنْ يقولُها من الإيمان؟ وهذا للذي يستعد كي يقرأ كلام الله وهو بين يدي الله.

سؤال: [وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ] أم [وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ](٢)؟ إن شاء الله سنقول معناها، ولو قلت: [وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ] فلا حرج، هذه أو [وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ] من باب التنافس، فالمفروض أن تكون أول التائبين، تقول له: يا رب أنا لا أتأخر، وعليَّ أن أكون أول التائبين، وأن أكون أول المستغفرين، وأول العابدين، عليَّ أن أكون كذا وكذا، أي في المحيط الذي أنت فيه، فالمفروض أن تقول لله الذي منَّ عليك: يا رب قد مننت عليَّ، وتفضلت عليَّ، وأعطيتني الصحة وأعطيتني لسانًا متكلمًا وأنت الرحمن الرحيم، فالصواب أن أكون أول النَّاس وأكثرهم إنفاقًا للأموال، وذلك من باب الحض للقلب ومن باب التنافس.

انظر إلى هذه الصيغة الطويلة، ولكن معانيها لو استحضرتها، ولو نجَّى الله تعالى قلبك من غفلته لتفلحن - إن شاء الله - في الصلاة، ولتعرفن كيفية الصلاة، فهذه الصيغة قد فهِمَهَا النَّبي - عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه مسلم [٢٠٢ - (٧٧١)] من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم [٢٠١ - (٧٧١)]، ولفظه: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: . . .

۞ الله ناظرٌ إليك:

أول عبارة: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**» فما معنى: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ**»؟ شرحناها من قبل، فعيبٌ عليك أن تقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ» وقلبك منشغل بالتفكير في عِلاوات العمل، أو المُذَكِّرةِ التي قدمتها في العمل وماذا حدث فيها، وكل هذا تُحَدِّث نفسك به وأنت في الصلاة، وتظل تفكر وتفكر فهل هذا ينفع وأنت تقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ»، فيجب أن يكون كل الاتجاه والنية لله. فالمسألة ليست مسألة الوجه والأنف والعينين والفم والأذنين؛ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [الروم: ٣٠]، أي نعم وجهك يتجه؛ لأن هذا هو الهيئة وهذا هو البدن، ولا بد أن يكون بالتوازي معه اتجاه القلب، فقلنا: لا بد أن تستحضر الحياء، فالحياء ضروري جدًّا لأن الله يراك، ولا بد أن تستشعر هذا كأنك تراه. بالله عليك لو أنك ترى الوزير الذي يملك زمام تعيينك في عمل أو ترقيتك أو فَصْلك من العمل، وهو ينظر إليك فماذا تكون حالتك أمامه؟ لا بد أن تكون عمليًّا وواقعيًّا، ماذا تكون حالتك أمام هذا الوزير وأنت ترجو منه أشياء وتخاف أن يؤذيك، فكيف حالتك حينئذ؟! هل تكون حالتك وقتها كحالتك وأنت تقف في الصلاة؟! تنظر هنا وهناك؛ فعليك أن تذكُر هذا المثال، وعليك أن تُحَدِّث نفسك وتقول: الله - تعالى - يراني الآن، وطبعًا عندنا أحاديث بهذا: «أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَكَ مَا لَمْ تَلْتَفِتْ»(١)؛ فتقول لنفسك: ربنا ينظر إليَّ ويراني، وستجد نفسك وقد بدأت تستشعر هذا من أول الصلاة، فتصلي صلاةً خاشعةً عند قولك:

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٩)، والنسائي (١١٩٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، والترمذي (٢٨٦٣) من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه.

«وَجَّهْتُ وَجْهِيَ» وقد دخلت على ملك الملوك.

معنى الفَطر لغةً واصطلاحًا:

«لِلَّذِي فَطَرَ» لماذا فَطَرَ؟ أولًا من الذي قال هذا الدعاء؟ أليس هو إمام الحنفاء الذي قال هذا؟! بلى؛ فلماذا قال: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ» لماذا فطر؟ لأن الفَطْر: بداية الخلق، فالفَطْرُ أصلًا في اللغة: هو إظهارُ شيءٍ وإبرازُه، أي: أنَّ شيئًا كان موجودًا لكنه لم يظهر بعد.

فَطَرَ نابُ البعير: يعني شق اللثة وخرج منها، والفُطْرُ: العنب أول ما يخرج ويكبر، والفِطْر في الصوم: كمن يقول: (شُقَّ ريقَك)، فدائمًا الفطر هكذا؛ شيء كان في الكتب وسيخرج ويُنفذ مشروعات، فإظهار الشيء وإبرازه هو أصل مادة الفطر.

فالله ﷻ هو خالق الإنسان، فبدايةً التصميم؛ تصميم المشروعات - وسنستخدم كلمة تصميم لتقريب المعنى ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم - وهذا اسمه التقدير أيضًا؛ تقدير أمر الخلائق قبل أن يوجد شيء خُلِق، فحين يُبرِز الله ﷻ هذا التقدير أو التصميم في الواقع، ويخلق العرش والسماوات والأرض والخلق، فهذا اسمه: (الفاطر)؛ ألم نقل: إنه إخراج شيء وإبرازه، يعني هذا الشيء كان مغلقًا، وأنت ستخرجه، وهنالك أدلة كثيرة نبوية ولكن هذا ليس موضوعنا الآن أن أشرح كلمة الفاطر، إنما اختصارًا الفطر هو بدايات الخلق؛ يعني الخلق أولًا: (تقدير)، أو كما نقول نحن: (تصميم) تصميم مشروع، ثم إذا بدأنا التنفيذ فهذا اسمه الفطر، أي: إخراج المشروع إلى حيز الوجود، فالإخراج هو التقدير الذي قدره الله ﷻ من خلق الأرض كذا،

والسماوات كذا، ومقادير الخلائق كذا، وتصميمُ كل شيء وترتيبُه؛ من تفاعلات كيماوية وكيف تتم، أو الدخان وكيف يتكون ويخرج، فهذا كله اسمه التقدير وبعد ذلك الفطر وهو إبرازه.

فبالله عليك هل في ساعة الفطر كان الذين عُبِدوا من دون الله موجودين؟ هل كان أحد ساعتها موجودًا؟! أكان عيسى عليه السلام موجودًا؟! وبرأه الله مما يقولون، أكان موسى عليه السلام موجودًا؟! أكان العُزير عليه السلام موجودًا؟! أكانت الملائكة عليهم السلام موجودين؟! أكان النَّبي محمد ﷺ موجودًا؟! لم يحصل شيء من هذا، ولم توجد أرض، ولا سماء، ولا عرش، ولا شيء، كان الله وحده لا شيء معه عز وجل.

فالفطر يُذَكِّرُنا ببداية الخلق، وبداية الخلق معناه: أن كل شيء عُبد من دون الله؛ سواء الكواكب، أو النجوم، أو اللات، أو العزى، أو الأولياء والمشايخ، أو البدوي، أو الحسين - والحسين برأه الله - لم يكن شيء من هؤلاء موجودًا وقتها، فأقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ - لمن؟ - لِلَّذِي فَطَرَ...»، فهذا بالنسبة للأشياء التي عُبِدَت من دون الله ولم تكن موجودة وقت الفطر.

أما الأشياء التي لم تُعبد ولكنها تَشْغَلُكَ في الصلاة ألا تستحي أن تنشغل بشيء منها وأنت بين يدي الفاطر؟! أليس هو الذي فطرها وأوجدها عز وجل؟ فقولك: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ...» يُذَكِّرُكَ بأنه كان وحده ولا شيء معه، فكيف تتخذ له شريكًا؟ بل كيف تَنْشَغِلُ بغيره وأنت بين يدي الفاطر الآن؟ فالفاطر خلق لك كهرباء أَلِتَنْشَغِلَ بها وبالتلفاز وبغيره؟! وهل خلق لك الماء لِتَنْشَغِل به عنه هو عز وجل وأنت بين يديه الآن؟! خلق لك الغذاء والكساء والجمال والنساء فهل خلق لك كل ذلك

لتَنْشَغِل به وأنت بين يديه؟!

﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

معنى حنيفًا لغةً واصطلاحًا:

ثم بعد ذلك «حَنِيفًا»: ومعناها: معوجًا عن الباطل إلى الحق بقصدٍ، والمثال المادي له: أن امرأً يسافر إلى الإسكندرية ويعرف أماكن المطبات فيعوج عنها ويميل عنها يمنةً أو يسرةً، وفي رحلة العودة كذلك سوف يميل عنها يمنةً أو يسرةً لئلا يقع فيها، فهذا اسمه حنيفٌ، والمعنوي معناه: أن تعرف أين الشرك، وأن تدرس التوحيد على علمٍ، وبالتالي فلن تقع في الشرك، فهذا هو معنى «حَنِيفًا»، أي: أميل عن الشرك بقصدٍ وبعلمٍ إلى التوحيد؛ ولذلك نقول: «لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا» وزاد في رواية: «مُسْلِمًا»[1] ولذلك من فهم هذا الكلام فلا بد أن يُسْلِمَ قلبه وهيئته ولسانه لله، فكيف تقول: «مُسْلِمًا» وأنت قلبك ما زال منشغلًا بالأموال وأنت في الصلاة؟ قل لنفسك هذا، أريدك أن تُذَكِّرَ نفسك وأنت في الصلاة وتقول كيف أكون مسلمًا؟!

والمسلم يعني أنه قد سَلَّمَ كُلَّ شيءٍ لله، فكيف سَلَّمَ كلَّ شيء لله وهو إذا قال: (اللهُ أَكْبَر) حَضَرَهُ كلُّ شيء إلا الله؟! فالشيطان يقول له: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، كما جاء في الحديث[2]، فيقول الشيطان لك: ألم تذكر ما حدث؟ وتلك الرؤيا التي رأيتها أمس - وأنت بالفعل رأيت رؤيا بالأمس أو حُلمًا ولا تتذكره - فالشيطان يَحضُرُكَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في الصلاة ويُذَكِّرُكَ بها فتتذكر ما حدث فيها إذ طِرْتَ وضربك أحدهم وبكيت ووضعت الكوب وفعلت كذا وكذا؛ وتجد نفسك في الصلاة وقد استرسلت مع الأفكار لأنك شغوف بمعرفة ما حدث، وقد يكون هو الذي اخترع لك هذا الحلم كله، فهو الذي اخترعه لك وأنساه لك وذَكَّرَكَ به لما كَبَّرْتَ للصلاة وقلت: «مُسْلِمًا» وأنت لا تدري أن «مُسْلِمًا» معناها: أنك سَلَّمْتَ كل شيء لله ﷻ: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، فكيف أسلمت وقلبك منشغل في الصلاة بالحلم الذي رأيته في منامك، أو بالذي قابلته أو بالذي كلمته، أو بأي شواغل أخرى تحدث.

الشعائر والشرائع:

مملكة الأسماء هذه لا تكون إلا لله ﷻ؛ تحية لملك الملوك، كما تقول في نهاية الصلاة: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ»، هذا في آخر الصلاة، وفي أولها تقول: «إِنَّ صَلَاتِي» وبعد الصلاة (النُّسُك)، وما النسك؟ كل الشعائر وخصوصًا الذبح والدماء لله ﷻ: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ ليس ذلك فحسب، إنما أيضًا ﴿وَمَحْيَاىَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وما المحيا؟

الشعائر هي الصلاة والنسك وكل الشعائر، أما المحيا والممات فهما كل الشرائع، فاذكُر كل الشعائر عند قولك: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ [الأنعام: ١٦٢]، واذكر كل الشرائع في قولك: ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وما معنى محياي ومماتي؟ معناها: إنِّي أحيا لله، أما ترديد بعض الشعارات كـ(إنما نعيش لكذا ونموت لكذا) فهذا شركٌ وكفرٌ، فما ذلك الشيء؟! هل أنت رخيص لهذه الدرجة؟! ولا حول ولا قوة إلا بالله، أنت لا تعيش ولا تموت إلا لواحد ألا وهو الله؛ وعليك أن تعرف جيدًا معنى هذه

الكلمة: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فالإنسان فعلًا يحيا لله ﷻ، وحين يموت فإنه لا يموت إلا لله.

والصحابي كان إذا حضرته الوفاة أرسل لأبنائه ولأقاربه ولذويه، ويعظهم ويحضهم على الاستقامة وتقوى الله، انظر إليه يستغل موته للدعوة إلى الله ﷻ، فهو حين يموت لا يموت من أجل أمر دنيوي، لأن الدنيا لن تنفعه ولن تزحزحه عن النار، بل يموت من أجل الله، فالإنسان يموت في سبيل الله؛ لأن هذا توحيد، فالممات لله؛ لأن الروح غالية، وليس عندك إلا فرصة واحدة تأخذها في الدنيا ولا فرصة أخرى؛ فمعناها أنك لا تُقْبِل على أمر إلا لله ﷻ، ولا تحيا إلا لله.

ولذلك لو حدثت فتنة في الأفق وكان الإنسان خائفًا أن يُفتتن فماذا يقول؟ يقول: اللهم إن أردت بقوم فتنةً فاقبضنا إليك غير مفتونِين، يقول لك قائل: هل تريدني أن أدعو الله أن يُمِيتَني؟ فأقول له: وهل تريد أن تعيش عند حدوث الفتنة؟! لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فهو لا يعلم معنى الفتنة وما هي؟

الفتنة وأمثلة واقعية:

لذا نشرح قليلًا عن الفتنة ونسوق لها مثالًا: ما الذروة؟ الذروة هي: الجهاد في سبيل الله؛ جيش المسلمين ضد جيش الكافرين، وأنت صادق وموحِّد وتريد الإقدام في سبيل الله، ولكن لمَّا وجدت بارقة السيوف على رأسك قلت: هذا سيقطعني، هذا سيفقأ لي عيني، سيحدث لي كذا وكذا، فخِفت وهربت، فلحقك عدوك فضربك فقتلك، فأنت متوعد بالنار والعياذ بالله تعالى، نسأل الله العافية.

فهنا دخل الإنسان على فتنة ففُتن وتوعد بالنار، أما لو أقبل فقُتل مقبلًا فهو في الجنة: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس: ٢٦، ٢٧]؛ لأن هنالك فتنًا تحصل فيها على عشرة من عشرة أو تسعة من عشرة أو تنزل إلى الصفر، فهذه هي الفتن التي تُرعِبُ.

❍ **مثال آخر:**

امرأة مات عنها زوجها بسبب من الأسباب، وهي شابة جميلة ولديها أبناء خصوصًا إن كُنَّ بنات، وأولادها تحت الإغراء المرعب من مصانع الأطعمة المحفوظة والجاهزة، والعصائر ومصانع الوجبات السريعة - والأولاد يحبون إنتاج هذه المصانع - أرادوا نقودًا ليشتروا منها ولا يجدون أبًا لهم وإنما يجدون أمهم، فيصرخ الطفل، والأم ضعيفة جدًّا أمام طلب الأبناء؛ فهو طفل يتيم وقلب الأم يرق له، لكن ماذا تفعل؟ انظر إلى هذه الفتنة، هي جميلة ونحن في زمن الزنا أيسر شيء فيه، بل هو الأصل الآن، والشقق متلاصقة، وكل الظروف مهيأة، والخنازير والذئاب المتوحشة والكلاب المسعورة في كل عمارة تقريبًا، وينتهزون هذه الفرصة، فيحومون حولها خاصة أنها تعيش في ضائقة مالية، فيدخلون عليها من هذا الجانب، وزوجها ترك لها تلفازًا أفسد لها دينها، وهي بغير زوج وقد تعودت على الزوج قبل ذلك، والأولاد يطلبون نقودًا، والذئب المفترس المجرم لديه أموال، وفُتن بجمالها وبالكلام اللين على لسانها، وسكنه قريب أو في المكان نفسه، فانظر لهذه الفتنة التي وقعت فيها هذه المرأة، انظر إلى حجم الفتنة، فإن هي عصمت نفسها وعصمت أولادها وربتهم على الدين سابقت النَّبي ﷺ إلى الجنة

لقوله ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا(١)، فمثل هذه المرأة إن كانت مؤمنةً فإنها تسابق النَّبي ﷺ إلى الجنة.

فهي فتنة كبيرة، إما أن تخرج منها المرأة حاصلةً على عشرة من عشرة، وإما أن تنزل تحت الصفر، طبعًا أكثرهن الآن ينزلن تحت الصفر، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذه هي الفتن: مصائبُ مرعبةٌ وشيءٌ مفزعٌ جدًّا، فالإنسان حين يدخل على فتنة لا يعرف إلى أين تذهب به فالأفضل أن يموت قبلها ويدعو قائلًا: اللهم إن أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون.

الثبات في الفتن:

أحدهم يقول لك: أنا بَطَلٌ فلو أن الله ابتلاني بكذا وكذا لأصبرن ولا أبالي؛ لأن عندي جَلَدًا، ولكنه أول ما يصيبه البلاء فهو كالرجل الذي قال: (ادعوا لعمكم الكذاب) - وهي قصة معروفة - إذ قال: لئن ابتلاني الله بكذا وكذا لأصبرن، فابتلاه الله بعسرٍ في البول؛ يعني تعسر البول قليلًا - وسلني أنا عن العسر في البول وكيف ألمه - فلما ذاق الألم ذهب إلى الأطفال يقول لهم: (ادعوا الله لعمكم الكذاب)(٢)؛ فالإنسان حين يقول: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام: ١٦٢] فإنه يصر على أن يكون ﴿لِلَّهِ﴾ فكلُّ شيءٍ لله؛ إن أكلتَ اللقمة فهي لله، وإن شربتَ الشربة فهي لله ﷻ، وماذا يعني أنها لله؟ أي: أن تكون من حلالٍ، وأقول: (باسم الله)،

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تلبيس إبليس» (ص٣٠٦).

وأتبع السُّنَّة فيها، وفي النهاية أقول: (الحمد لله)، فهكذا تكون: مالًا حلالًا، وطعامًا على السُّنَّة، وجلوسًا على السُّنَّة، وبدايةً على السُّنَّة، ونهايةً على السُّنَّة؛ فهذا مقصود (مَحْيَايَ لِلَّهِ)، تجد بعض النَّاس إذا وقفوا للصلاة يقولون: ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ وأوَّلَ ما يخرجون من الصلاة يقولون لك: مصلحتي، نريد أن نهتم بمصالحنا، فمصالحنا أولًا.

فلمن يجب أن يكون محياك ومماتك؟ ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، تقول: «رَبِّ» بدلًا من لفظ الجلالة؛ لأن الإنسان دائمًا فُطر على أنه يحب ولي نعمته؛ فالذي عيَّنه في الوظيفة، أو الذي أتى لابنه بوظيفة جيدة، أو الذي أتى بأزواج لبناته فإنه يقول عنه: لقد خدمني خدمة كبيرة وأنا مدين له طول العمر؛ فالإنسان فُطِرَ على أنه يحب ولي نعمته فانظر إلى الربوبية الآن، فلمن كل النعم؟ لله رب العالمين.

فَذَكِّر نفسك بهذا حتى تحب ربك في الصلاة، وتقول: إي والله ربنا يستحق مني أن تكون حقًّا صلاتي ونسكي له، وألَّا أعيش إلَّا له هو، ليس لأستمتع أو غير ذلك من مَلَذَّات الدنيا، بالعكس؛ لأن محياي لله، فأربي أولادي لله تربية دينية، فمثلًا: حين يأتي صاحب العمل ويطلب منك أن تفعل شيئًا محرمًّا كأن تأخذ رشوة، وإلا فلتترك العمل وتبحث عن آخر، وهو بذلك يريد أن يطردك من من رحمته، فتضعف أنت بناءً على ذلك، وتكسب رحمة صاحب العمل، وفي المقابل تخسر رحمة ملك الملوك، فأين هنا محياك ومماتك لله؟! أين صِدْقُك؟! فتقول: وماذا أفعل أنا؟ فلينتقم الله منه. لا تكتفِ بهذا؛ فأنت تستطيع أن تجد عملًا آخر، ولطالما يفقد الإنسان مصالح كثيرة، وقد يفقد وضعًا وظيفيًّا، لأنه محياه لله، فإن تعارضت الوظيفة أو المال مع (محياي لله) فلا يُهِمَّنَّكَ،

ولتذهب الوظيفة؛ لأنني محياي لله سبحانه وتعالى، فأنا أعيش لله، ورزقي على الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

وشرح: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ يطول، لو تشعبنا فيه ما انتهينا، فأنت دائمًا تُؤْثِر الآخرة على الدنيا وإنما المصيبة أن تُؤْثِر الدنيا على الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ [الأعلى: ١٦]، فبعض الناس مثلًا يُؤْثِرُون الدنيا ويقولون: نريد أن نتزوج فتاة جامعية ونريدها كذا وكذا ولا يفكرون في أمور الآخرة.

(ومحياي لله) الصعود إلى القمة:

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في دعائه يستعيذ من مضلات الفتن(١)، وانظر إلى سيدنا النَّبي عليه الصلاة والسلام وإلى الموقف الذي تعرض له في «سورة الإسراء»؛ موقف إذا فكرت فيه والله تشيب ولكن أين التدبر؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤]، ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾: أي يا محمد يا بن عبد الله يا أعظم خلق الله - عليه الصلاة والسلام - ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ومعنى: (تركن): أي تطمع أن تستغل قوتهم وركنهم في سبيل الدعوة، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ و(كدت) أي: هممت ولم تفعل ولم يحدث هذا الأمر، ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾، أي: أذقناك ضعف عذاب الدنيا والآخرة، فمحمد بن عبد الله سيتعذب ضعف عذاب الدنيا والآخرة!!!

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٧٦)، وعبد بن حميد (١٥٣٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

انظر إلى الفتن كيف تكون!!! فهي امتحان إما يصعد إلى القمة - وطبعًا صعد للقمة عليه الصلاة والسلام لأن الأمر لم يحدث - لأنه ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ لكنت ستعذب ضعف عذاب الدنيا والآخرة؛ ﴿ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ٧٥].

انظر إلى هذه المعاني؛ فأنت تفتن باستمرار في المحيا وكلنا نفتن في هذا، وأكثرنا يؤثر الدنيا فعلًا، يؤثر المحيا والمطعم والمنكح والمشرب واللهو والعزة والكِبر على دين الله في اليوم أكثر من مرة، وهنالك أناس يتعرضون للفتن أكثر من ألف مرة في اليوم من غير أن يشعروا؛ لا يشعرون من الشحم والدهون التي على القلوب.

اتفقنا أنك لا بد أن تجتهد في دعاء الاستفتاح هذا: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي... اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي...**»[1]؛ ليكشف الله عنَّا ما نحن فيه، فهو تعالى الرب الواجب علينا أن نتألهه - (لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

فهذه الآيات واجب أن تستحضرها؛ لأن هذا حق الله، ولماذا هذا حق الله؟ لأنه رب العالمين وولي نعمتك، فمن أعطاك الصحة التي تقف بها (الرب)، وكذلك الفهم يعطيه (الرب)، والنعمة في الدنيا والدين والآخرة يمنحها لنا (الرب)، ومن يقدر القدر الكوني والتشريعي والجزائي (الرب)، ومن يرزقك الزوجة (الرب)، والذي أنت منشغلٌ به كله (الرب)، فلا تفعل شيئًا إلا للرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: ٤٢]، وفي المقابل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١].

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(الرب) في مقابلها (الإله) فإن ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ كل هذا إلهية، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله)، ولماذا كل ذلك لله؟ لأنه رب العالمين الذي خلقني، وخلق ابني، وخلق زوجتي، وخلق أبي، وخلق أمي، وخلق الأرض التي تُقِلُّني، والسماء التي تُظِلُّني، والمطعم الذي يَقُوتني، وخلق كل شيء؛ فهو (الرب) ﷻ، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فهل له شريك في الصلاة أو المحيا أو الممات؟ فأنت تؤكد هذا القول وتقول: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٣] وأنت لم تؤمر بشيء أكثر من ذلك فهذا تلخيص الدين، فانظر إلى معنى الصلاة عند الرسول ﷺ.

وأنا أول المسلمين:

قال الألباني رحمه الله في كتابه (صفة الصلاة): «رواية «وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِين» الظاهر أنه من تصرف بعض الرواة، وقد جاء ما يدل على ذلك فعلى المصلي أن يقول: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»، ولا حرج عليه في ذلك، خلافًا لما يزعم البعض توهمًا منه أن المعنى: إني أول شخص اتصف بذلك بعد أن كان النّاس بمعزلٍ عنه، وليس كذلك، بل معناه بيان المسارعة في الامتثال لما أُمر به، ونظيره: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١] وقال موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾»[1].

فقل إذًا: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ».

---

(١) «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص٩٢).

قلت: الحديث أخرجه مسلم [٢٠١ - (٧٧١)] بلفظ: «**وأنا من المسلمين**»، و[٢٠٢ - (٧٧١)] بلفظ: «**وأنا أول المسلمين**». ولم أقف على أحد من أهل العلم الأولين أعلَّه أيًّا من الروايتين، فالحديث صحيح باللفظين.

الملك والعبد «اللَّهُمَّ أنتَ الملِكُ»:

اسم (الملك) هو العمدة، وكل الأسماء بعده ما عدا (الرحمن) ولفظ الجلالة (الله) و(الرب) فأولًا؛ لأن الآيات على ذلك: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ - ٣].

تقول: (أنت الملك)، ولماذا الملك؟ لأن كلَّ الأسماء أو جُلَّها داخلةٌ في اسمه تعالى (الملك)، فأنت في الصلاة داخل بين يدي الملك، وماذا تفعل أنت إذا وقفت بين يدي وزير؟ أو لك موعد مع رئيس دولة؟ كيف تقابله؟ وهل تتكلم معه وأنت تتثاءب؟ أم أنك سَتُعِدُّ العُدَّة لذلك الموعد قبلها بِسَنَةٍ، وتفكر ماذا أقول له؟ وماذا أفعل؟ وما الذي يرضيه؟ وما الذي يغضبه؟ وتسأل عن انطباعه عنك، وماذا قال عنك في غيبتك، وهل هو راضٍ عنك، فأنت حريصٌ جدًّا أن ترضيه وهو إنسان مثلك، ويصيبه ما يصيبه من أغيار الضعف والمرض وغيره، فما بالك وأنت تقابل ملك الملوك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا كان هو الملك، ففي المقابل تكون أنت العبد، فتقف أمامه منكمشًا، وتقول: (الملك) وأنت تعني ما تقول؛ أنك عبدٌ ضعيف لا حول لك تقف بين يدي الملك، فمن الذي يستحق أن يُعبد؟ (الملك)؛ فأنت العبد، وهو الملك.

لذلك: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، ثم ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ وأيضًا: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، ثم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ﴾ - فالذي لا يملك لا يستحق أن يُعبد - ﴿رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ [النَّحل: ٧٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ﴾ - ماذا؟ - ﴿رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وهكذا، فهنا ارتباط واضح جدًّا بين الملك وبين العبادة.

فالملك هو الذي يُعبد، بينما الذي لا يملك شيئًا لا يستحق أن يُعبد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٦]، وأيضًا الشفاعة ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ٤٣] فكيف يُعبد من لا يملك شيئًا في الملك، فالذي يُعبد لا بد أن يكون ملكًا.

الربوبية والملك:

وانظر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ماذا يقول هنا: «**أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» كما في «سورة الناس»: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾؛ لأن الله هو رب النَّاسِ، خلق النَّاسَ، ورزق النَّاسَ، وأحيا النَّاسَ، ودبر أمرَ النَّاسِ، وخلق الأرض للنَّاسِ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن: ١٠] وخلق السماء، وخلق النساء، وخلق الجنَّ، وخلق كلَّ شيءٍ، ودبر أمرَ كلِّ شيءٍ إذًا فهو الملك؛ لأنه من تمام الربوبية أن يكون هو الملك، وتمام المالكية أن يكون هو الإله عندك في قلبك، يعني تمام ربوبية الله في قلبك أن يكون هو (الملك)، وتمام مالكية الله في قلبك أن يكون هو (الإله)، وهذا هو رب النّاس الذي هو ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾، وهذا هو الذي في «سورة الفاتحة»، ولكن نحن ما زلنا في الاستفتاح الذي قبل الفاتحة.

«**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» بزيادة: «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ**»[(١)] في رواية أخرى، ونؤجل الحديث عنها في الصيغ القادمة إن شاء الله.

«**أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ**»، مثل صيغ الاستغفار، أي: أنت ولي نعمتي في الدنيا وفي الدين وفي الآخرة، أنت هديتني للإسلام وأنت رزقتني وأنت وأنت؛ إذًا: أنت ربي وأنا عبدك، وفي صيغ الاستغفار تقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٢)]، ثم تخصّص شيئًا من الربوبية فتقول: «**خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ**»؛ لوجود إله، ووجود معبود، فهو الإله وأنت العبد: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] وليس من معبود غيره، لأن الإله هو الذي يستحق أن يُعبد، فإذا كان هو الإله إذًا هو الذي يُعبد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الإله أولًا وهو المعبود ثانيًا؛ فأنت تقول: «**أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ**».

«**ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي**» وهذا محور عظيم جدًّا ذكرناه من قبل:

أولًا: اذكر عظمة الله واذكر معها حقارة نفسك، هَبْ أن البول حُبس فيك مثلًا فماذا يمكن أن يحدث لك؟ أو هَبْ أن الغائط احتبس مثلًا، أو هَبْ أن النَفَسَ احتبس والأنف انسدت، وإذا حدث ذلك فكيف تنام وأنت لا تستطيع أن تتنفس؟! ستتعذب عذابًا أليمًا وأنت نائم، ومن عنده زكام وأنفه مسدودة يعرف هذا ويشعر به، فإنما ذكِّر نفسك بهذه النعم، فالإنسان عنده غشاوة لا يرى هذه النعم التي يعيش بها، فأمرٌ مطلوب أن تذكر عظمة الله وحقارة نفسك.

---

(١) أخرجه الشافعي في «المسند» (ص٣٥)، وابن حبان (١٧٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثانيًا: تذكر عظمة الآخرة وحقارة الدنيا، وهما محوران بغيرهما لا صلاح ولا فلاح ولا نجاح، فوالله العظيم لن تفلح أبدًا من غير أن تذكر عظمة الله ومعها أن تذكر حقارة نفسك، ثم أن تذكر عظمة الآخرة، ومعها حقارة الدنيا. وهذا أصل الأصول ولذلك ماذا تقول في سيد الاستغفار؟ تقول: «**خَلَقْتَنِي وَأَنَا** - ماذا؟ - **عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ** - فهنا ذكر النعمة - **وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**»(١).

فتذكر عظمة الله وحقارتك أمام عظمة الله، وتذكر عظمة الآخرة وحقارة الدنيا أمام عظمة الآخرة، وتذكر نعمة الله وفضل الله وحق الله، وتذكر مع ذلك تقصيرك وذنبك وخطيئتك، فهذه ثلاثة محاور في منتهى الأهمية، ولو دخلت بهذه المحاور في صلاتك لحققت الخشوع بإذن الله، أو حققت بعضه على الأقل، فهذه المحاور هامة جدًّا.

والصلاة كلها تعظيم وتوقير لله، وسنرى ذلك من خلال الشرح، ولكن ليس عليك إلا أن تدخل في الصلاة وأنت ضعيف ومنكمش كما أقول لك، وأنت تعلم عاقبة تعطل الكبد مثلًا، وترى الآن الناس المرضى بمرض الكبد والعياذ بالله تعالى، وتعلم عاقبة تَعَبِ القلب مثلًا أو انسداد الشرايين، ومليارات الأمراض؛ فالإنسان شديد الضعف.

«**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ**»، «**وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**» ثم ماذا: «**فَاغْفِرْ لِي**»؛ فهي أعظم وسيلة لكي يغفر الله لك؛ أن تذكر نعمة الله عليك وما يقابلها من ذنوبك، وتقول: يا رب أنت أفضت عليَّ بالنعم، وأنا مغرقٌ نفسي

---

(١) ينظر التخريج السابق.

بالذنوب، و«أَبُوءُ» معناها: إنني أعوم في الخطايا والذنوب، انظر إلى وقع هذه الكلمة في قلبك لو أنك فاهم لمعناها.

فعليك أن تذكر عظمة الآخرة لتحتقر الدنيا؛ فـ «**لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١)، و«**رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(٢) - وهي سُنَّة الفجر - هذه الدنيا التي أنت منشغلٌ بها ومشغول بآلافها وملايينها مثلًا، وتتعب جدًّا في تحصيلها وبشتى الطرق وهي لا تساوي شيئًا عند الله ﷻ، فهذه المحاور هامة جدًّا، هكذا في الحديث: «**ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي**»، أي تقول: يا رب أنا عبدك ظلمت نفسي، يعني أنا مُفْلس معترف أني كذا وكذا، وأني حقير ومذنب ومجرم وأستحق أن أُضرب وأتعذب وأُقَطَّع الآن، وتقول ذلك وأنت صادق؛ لئلا يكون كلامك مجرد كلام عابر، ولو كنت صادقًا لوجدت الدموع تجري من عينيك، وسترى أن هذا الاستغفار قُبِل وقد خرجت من الصلاة وقد عقدت العزم على التوبة؛ فهذا سيجعلك تقول لنفسك: ما الذي يجعلني لا أقيم الليل؟ أو يجعلني أتفوه بكلمات سيئة مع زوجتي أو أولادي أو جيراني؟ أو يجعلني أعظم هذه الدنيا الحقيرة؟ فستجد حالك وقد خرجت من الصلاة غير ما دخلت؛ لذا أقول لك: سل نفسك كيف دخلت المسجد؟ وكيف خرجت منه؟ فإذا دخلت كما خرجت فأنت لم تصلِّ، ولكن من صلى هو الذي سيعترف بحقارة الدنيا وعظمة الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

۞ كيفية دعاء الطلب:

«**ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي أَوْ ذَنْبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**» هنا يا إخواني توسلٌ عظيم نختم به الكلام.

أنت تريد أن يكون الدعاء مستجابًا، فكيف يستجاب؟

هناك من يقول: «**اغْفِرْ لِي**» فهي تكفي، هذا اسمه دعاء مسألة وطلب، فمثلًا قلتَ لإنسان: أعطني مائة جنيه، فأنت سألته مائة جنيه، فسيعطيها لك.

ولكن آخر يتلطف في المسألة قليلًا، فلا يقول لك: أعطني مائة جنيه مباشرةً، ولكن يقول مثلًا: أنا حصل معي موقف وعندي ظروف والموقف صعب فتقول له: مُرْني ماذا تريد؟ فيقول: أريد مائة جنيه؛ فوصفت بذلك حال السائل، ووصفت المسألة فقد عملت أمرين.

وهنالك شخص آخر ذكيٌّ يأتيك يقول لك: أنا حصل معي كذا وكذا وحالي كذا والحالة صعبة ويرقق قلبك، ثم يقول: أنت رجل كريم ودائمًا فَعَّال للخير ولو لم تكن أنت فلانًا ما كنت لآتيك؛ فهنا يُعَظِّم المسؤول، فقد ذكر المصيبة التي وقع فيها، وذكر حال السائل، ثم ذكر حال المسؤول، ثم ذكر المسألة؛ فهذا هو أعظم سؤال، وهذا هو الدعاء الذي علمه النَّبي ﷺ لأبي بكر لما طلب منه أن يعلمه دعاءً ليدعوَ به في صلاته، فقال له: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كثيرًا...**»(١).

وجملة: «**ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا**» هذه حال السائل، و«**لَا يَغْفِرُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ورواية مسلم فيها: «كبيرًا»، وأخرج رواية «كثيرًا» أيضًا.

الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» هذه حال المسؤول، وجملة: «**فَاغْفِرْ لِي**» هذه هي المسألة، «**مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ**» أي هذه المسألة ثم يذكر حال السائل وحال المسؤول، الثلاثة مع بعضٍ، وهذا الكلام هنا؛ فانتبه إلى هذه الصيغة، فيقول عليه الصلاة والسلام: «**ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**» - الذي هو المسؤول، فهذه هي الأحوال الثلاثة. سنتعرض لهذه المسألة بعد ذلك، والله المستعان.

أهمية الثناء والتسبيح والتحميد والتمجيد

أيها الإخوة الأعزاء:

نستكمل كلامنا عن الخشوع في الصلاة، وعن تعلُّم معاني هيئات الصلاة وأذكار الصلاة وأهداف الصلاة، ولقد ذكرنا من قبل شيئًا عن معاني الأذكار التي كان يستفتح بها رسول الله ﷺ صلواته، وكثير من الناس يحفظون هذه الأذكار لكنَّ الذين يعلمون المعاني قلة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

من أجل هذا يجب أن ننتبه حتى يتبين لنا معنى: (الثناء على الله)، ومعنى: (الحمد لله)، ومعنى: (التسبيح)، ومعنى: (التمجيد)؛ وهذه المعاني لا نعرفها إلا ألفاظًا أما معانيها فنجهلها! وإذا وقفت لتصلي فماذا تقول؟ لماذا تقول هذا الكلام؟ وما معناه؟ سأعطيك مثالًا لأبين لنفسي وإياك خطورةَ وعِظَمَ هذا الأمر.

۞ خطورة الأمر وأهمية الثناء والتسبيح والتحميد والتمجيد:

ماذا يفعل الرسول ﷺ يوم القيامة عند المقام المحمود وعند الشفاعات المتكررة والمتنوعة؟ - والتي بلغت تسعة أنواع كما عدَّها الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»(١) - تَرَى أن الذي يفعله الرسول عليه

(١) «فتح الباري» (١١/ ٤٢٥-٤٢٩).

الصلاة والسلام في الشفاعة مجرد سجود وثناء ينظرُ إليه كل الخلق، ويُجاب له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَادْعُ تُجَبْ**»(١)؛ فكل ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام سجود وثناء قبل السجود، وأثناء السجود وبعد السجود، فما الثناء؟ وما التحميد؟ وما التمجيد؟ نحن لا نقوله إلا لسانًا.

يوم القيامة حين يجتمع العالم بل العالمون وتحدث المشاهد، ومنها المقام المحمود الذي تراجع عنه آدم، وتراجع عنه نوح، وتراجع عنه إبراهيم، وتراجع عنه عيسى، وموسى عليهم جميعًا أفضلُ الصلاة وأتم التسليم، كلهم يتراجعون إلا النَّبي عليه الصلاة والسلام فيقول: «**أَنَا لَهَا**»(٢) فما الذي يفعله؟ الثناء والسجود.

وأنا إنما أريد أن أبين لك الخطر في يوم القيامة، فأنت لا تتخيل المنظر، أنت تتخيل أنه مجرد سجود وكلام سيقوله النبي ﷺ ولكنه كلام على اللسان نابع من إخباتٍ في القلب وانكسارٍ وخشوعٍ وتعظيمٍ لله وتوقيرٍ له، ليس مجرد كلام تقليد؛ فلا تستهن بهذا الكلام.

أمثلة لما يقوله ويفعله النَّبي ﷺ في المقام المحمود:

خذ هذه الأمثلة في رواية سلمان في حديث الشفاعة يقول: «فَيَفْتَحُ اللهُ لَهُ مِنَ الثَّنَاءِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّمْجِيدِ مَا لَمْ يُفْتَحْ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ»(٣) ولا من الملائكة، وهي كلمات يثني على الله بها، يا رب أنت كذا وكذا،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم [٣٢٦ - (١٩٣)].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٦٧٥) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه موقوفًا.

انظر إلى الموقف والمقام المحمود وماذا يتطلب؛ فلا تستَهِنْ بالأذكار وبمعنى الثناء والحمد والمجد والتمجيد والتسبيح والتعظيم والتكبير. ونحن تعلمناها هكذا، لا نعلم معانيها.

لكن انظر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في المقامِ المحمود - مقامِ العَجَبِ يَغْبِطُهُ فيه الأولون والآخرون - كل الذي يفعله ثناء ومحامد لله ولكنها محامد من نوع آخر، وسجود مختلف عن السجود الذي تسجده، وما هذه المحامد إلا ثناء على الله بأسمائه وصفاته.

فهذه الصلاة قيامة مصغرة ولقاء مصغر بينك وبين الله فانظر إلى ما يحدث مع الرسول عليه الصلاة والسلام:

«فَيَفْتَحُ اللهُ لَهُ مِنَ الثَّنَاءِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّمْجِيدِ مَا لَمْ يُفْتَحْ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ»، أما في رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيقول: قال الرسول ﷺ: **«فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ لَمْ يَحْمَدْهُ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَحْمَدُهُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي»**[(١)]، أي: قمة الثناء على الله عز وجل بما هو أهله، وفي هذه اللحظة يشفع النَّبي عليه الصلاة والسلام في المقام المحمود؛ ليقضي الله بين العباد وليستريح المؤمنون من هول الموقف، وليدخل الجنة من لا حساب عليهم، وهكذا الشفاعات المختلفة للنَّبي عليه الصلاة والسلام.

وفي رواية لأنس بن مالك رضي الله عنه في وصف النبي لنفسه في المقام المحمود يقول: قال رسول الله ﷺ: **«فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ** -بين يدي الله عز وجل- **فَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا الْآنَ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٨٣٤)، وأحمد (٢٥٤٦) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٦٦)، وبنحوه مسلم [٣٢٦-(١٩٣)] من حديث أنس رضي الله عنه.

فما هذه المحامد؟ نحن منشغلون بالمحامد في الصلاة، ولا ننشغل إلا باللسان، ولكن لو بحثت في القلب لوجدت أنه غير فاهمٍ، وعدم الفهم لا يساعد الإنسان على حضور قلبه بالإِخْبَاتِ والانكسار والخشوع والتعظيم والتوقير لله ﷻ.

النَّبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**فَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا**»، فالمسألة ليست إلا سجودًا ومحامدَ وثناءً.

فهل تعلم أنت ما المحامد؟ وما الثناء؟

هذه هي القضية التي سنتعرض لها، نحن لا نعرف كيف نصلي، وليس شرطًا إذا تعرفت على المعاني أن تخشع في الصلاة، فأنت ستجد نفسك تجلجل في المعاني، وفي الصلاة تجد نفسك خائبًا خَيْبَةً شديدةَ الثّقل وأنا معك في هذا؛ لأن الأمر ليس مجرد حفظ الكلمات وفهم المعاني، بل لا بد من الانكسار في صلاة القيام بالليل حتى يرزقك ربنا الخشوع ويمن عليك بهذا؛ لأن هذا فضل من الله، ولا يَتَأَتَّى هذا الأمر بسرعة فهمك أو كثرة قراءتك، فكثير من العلماء يستغلون آلة الدين للدنيا فاهمين المعاني قائلين: الخشوع ليس إلا كلامًا ومعانِيَ، وتراه في الخشوع صفرًا، لأن الخشوع رزق من الله سبحانه وتعالى كما بينا من قبل.

وفي حديث أبي بن كعب رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ يقول: «**يُعَرِّفُنِي اللهُ نَفْسَهُ فَأَسْجُدُ لَهُ سَجْدَةً يَرْضَى بِهَا عَنِّي**»[1]. في حديث أبى بكر أن هذه السجدة

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٧٩٠)، وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٤٥٦٤).

قَدْرَ أسبوعٍ.

يسأل سائل: لماذا انتقلنا إلى الشفاعة وما علاقتها بالخشوع؟! لأن ما يفعله الرسول في المقام المحمود أمام العالمين وفي هذا الموقف الرهيب ما هو إلا جزء من صلاتنا. ولكن كيف يُؤَدِّيهِ الرسول عليه الصلاة والسلام؟ بمحامدَ جديدة لن يحسنها الرسول عليه الصلاة والسلام في الدنيا لأن الله استأثر بها في علم الغيب عنده: «**بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»[١]، فهي محامد إذا عرفها الإنسان عن ربنا فلا يمكن له أن يدرك معانيها؛ فحتى المحامد التي هنا في الدنيا هو أصلًا لا يعرفها، فإذا سألته: ما معنى الغفور؟ أو ما معنى القدوس؟ أو المؤمن؟ أو المهيمن؟ فإنه لا يعرف؛ إذًا: فما بالك بالمحامد الجديدة التي ادخرها الله تعالى لمحمد ﷺ، وهذا بنص الحديث مُدخرة للنبي عليه الصلاة والسلام، يتكلم النَّبي محمد يوم القيامة، والعالم كله ينظر إليه، فالمسألة ليست إلا سجودًا وثناءً، كالذي تفعله أنت هنا في الدنيا، ولكن أنت لا تفعله إلا شكلًا بلا روح، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

«**ثُمَّ أَمْتَدِحُهُ بِمِدْحَةٍ يَرْضَى بِهَا عَنِّي**»[٢]؛ فالمسألة مدح لله يرضى به عن النَّبيِّ ﷺ، وسنعرف الفرق بين المدح والحمد، مدح لله وسجود لله، يقول الله له: «**اِرْفَعْ رَأْسَكَ**» عليه الصلاة والسلام فيحمد الله ﷻ بمحامد يعلمه إياها. فهي أمور عبارة عن ثناء على الله، وتحميد لله،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٣١٨)، وأحمد (٣٧١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٧٩٠)، وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٤٥٦٤).

وتمجيد لله، لكنها محامد جديدة تناسب هذا الموقف.

ماذا يفعل أهل الجنة:

تعالَ لنرى كيف يُلهمون التسبيح في الجنة كما نلهم نحن النَّفَسَ(١) بلا تعب وبلا شيء، فهل أنت تتعب في النفس؟ بالعكس، فأنت إن حرمت النَّفَسَ اختنقت، فالتسبيح في الجنة هو النَّفَس، وهذا هو حق الله عز وجل.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] تسأل نفسك: ليس إلا هذا؟ نقول لك: نعم ليس إلا هذا، وهل تظن أن كلمة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ هذه بالشيء الهين، أو أن ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ كذلك، لكن من الذي يفهم معانيهما.

﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ فعندنا ثلاث كلمات: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، و﴿سَلَٰمٌ﴾ وهي قريبة جدًّا من معنى التسبيح، و﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ ثم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] أي أن المسألة هي: التسبيح، وكلمة: (اللهم)، والسلام، والحمد.

ولكن هل الحمد دعاء؟ نعم هو دعاء، فأنت إذا دعوت الله فهل لا يعطيك؟ كيف لا يعطيك وأفضل الدعاء الحمد طبعًا؛ «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ**»(٢).

وقد ذكرنا من قبل كيف أن الحمد لله دعاء: فإما أن تحدد المسألة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٥٩٩)، وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وتكتفي بذلك؛ كأن تقول: أعطني كذا وارزقني كذا، وإما أن تذكر المحامد، كأن تقول: ارزقني وأنت الرزاق، وإما أن تذكر حالك أيضًا وتقول: ارزقني وأنت الرزاق وإني لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقير، فأنا متعب جدًّا وحالتي صعبة فارزقني وأنت كذا وكذا وتذكر المسألة؛ فهذه أنواع، فحين تذكر محامد الله فهذا على الطلب.

وهذه المقدمة لأبين لك خطورة الثناء الذي تقوله وتكرره في افتتاح الصلاة وفي الفاتحة وفي القرآن وفي الركوع وفي الرفع من الركوع وفي السجود وفي التشهد، فهذا الكلام إذا عرفت معناه وجدت أنك أضعت عمرك هباءً منثورًا إلا من رحم ربي، وستتعلم إن شاء الله، وليس في الجنة إلا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، ثم ﴿سَلَٰمٌۚ﴾، ثم ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾، فماذا يفعل النَّبي عليه الصلاة والسلام في المقام المحمود؟ مجرد سجود ومحامد ولكنه لم يكن يحسنها في الدنيا، والله ﷻ يعلمه إياها؛ لتناسب هذا الموقف.

أمثلة لتسبيح الكون كله:

أولًا: المؤمنون في الدنيا، وتعريف المؤمنين في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ - وهذا هو السجود - ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ - وهذا هو التسبيح - ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]؛ فالمسألة كلها سجود وتسبيح بالحمد. فما معنى التسبيح؟ وما معنى الحمد؟ وما معنى التسبيح بالحمد؟ وما معنى (اللهم)؟ وما معنى المجيد والعظمة؟ سنتطرق لهذا إن شاء الله.

ثانيًا: الملائكة، ويقولون: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فكل عمل الملائكة ليس في أنهم يحرثون الأرض، أو يحملون حجارة ويضعون حجارة، بل هم يسبحون بحمد الله ﷻ ويقدسون أنفسهم لله.

ثالثًا: وموسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ﴾ كي ماذا؟ انظر إلى الهدف ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٣٣-٣٥]، وموسى يفهم معنى: ﴿نُسَبِّحَكَ﴾، أما نحن فزدنا عن موسى وعن النَّبي عليه الصلاة والسلام نفسه، لماذا؟ لأنك تجد من يمسك بالسبحة ويقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، وهو يتثاءب ويقلب عينيه هنا وهناك، وينظر ماذا يحدث حوله ويتابع وهو ما زال يقول: سبحان الله، سبحان الله، وينظر خلفه ليتقصى عما يحدث وهو يقول: سبحان الله، سبحان الله، فهل هذا تسبيح؟!

أما موسى فكان يعرف معنى: ﴿نُسَبِّحَكَ﴾، فانظر ماذا طلب من الله سبحانه وتعالى، وانظر إلى الدعوات الثمانية التي طلبها واذكر معناها حتى تعرف لماذا كان يطلبها؟ فهو يقول: يا رب استجب لي؛ كي نسبحك كثيرًا، فانظر ما يلزم التسبيح، انظر إلى المعاني وإلى الطلب الذي طلبه في القرآن في «سورة طه» وستعرف: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٣٣ - ٣٥].

رابعًا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، كل شيء يسبح بحمد الله حتى مكبر الصوت، والطاولة تسبح بحمد

الله، والمقعد والمصابيح تسبح بحمد الله، سلك النحاس يسبح بحمد الله، والخرسانة تسبح بحمد الله، ما من شيءٍ إلا ويسبح بحمد الله ولكن لا تفقهون تسبيحهم، فالمسألة كلها تسبيح بالحمد، ولكن ما معنى التسبيح؟ وما معنى الحمد؟ وما معنى التسبيح بالحمد؟ هذه هي القضية.

خامسًا: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، انظر إلى الملائكة فهي تسبح الله ﷿، وعندهم من الخوف والرعب ما عندهم، وهم ليسوا خائفين من العذاب، ولكن من جبروت الله ﷿ واقتداره وهيبته، فهم يسبحون هيبةً لله ﷿ وتوقيرًا له، أما أنت فأسهل شيء لو عُذِّبت بكماشة تقطع جزءًا صغيرًا جدًّا من وجهك فإنك تمسك خدك وتتأَوَّهُ ومع ذلك لا تخاف، ولكن الملائكة ليس عليهم حساب ولا عذاب ومع ذلك خائفون.

ماذا يحصل حين يتكلم الله بالأمر في السماء من فوق عرشه ﷿؟ ما الذي يحدث للملائكة؟ يُغْشَى عليهم، وحين يفيقون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣] أي: ذهب الفزع عن قلوبهم، ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] فلماذا تسبح الملائكة؟ من خيفة الله ﷿.

سادسًا: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ يسبح الرعد، وما الرعد؟ الرعد: هو صوت يصدر من احتكاك الشحنات في طبقات السحب، فالموجب والسالب والتفريغ الكهربي بينهم الذي هو: البرق، وهذا البرق يُسَخِّن ما بين طبقتين من السحاب؛ لأن فيهما هواءً وإلا فكيف تحمل السحاب؟ فلا بد من وجود الهواء، فالهواء الذي بينهم يسخن سخونة مفاجئة وعالية جدًّا فيحصل تمدد؛ لأنه حين يسخن يتمدد

وما تزال هنالك طبقات لم تتمدد فتحصل هذه الفرقعة الشديدة التي هي الرعد، وهذا الرعد بحمد مَن يسبح؟ بحمد الله. فانظر إلى العظمة والجبروت، الرعد الذي يزلزلنا يسبح، والملائكة تسبح من خيفة الله ﷻ، أما أنت فماذا تقول؟ تقول: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) وأنت تفكر في كل شيء؛ كاللص الذي سلَّط ابنه على الزرع ليسرق منه؟ وقال له: انزل يا ولدُ وَرَبُّنَا يَسْتُرُهَا، والولد نزل ليسرق وأبوه يمسك بالمسبحة وينظر هنا وهناك ليرى صاحب الحقل وصل أم لا؟ - وهذه الحادثة تحدث في الأرياف - فتجده يمسك المسبحة ويقول: (سُبْحَانَ اللهِ) نقِّ الداجنَ يا ولد، يعني كوزَ الذرةِ الجيد، ثم يقول: (سُبْحَانَ اللهِ) اخترْ يا ولد، وهو يظن نفسه بذلك مسبحًا؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سابعًا: الجبال تسبح أم لا؟ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] فالجبال تسبح وبصوت مسموع كان يسمعه داود ﵇، وتأمل إن سقط حجرٌ من الجبل على أم رأسي أو أم رأسك - عافانا الله ﷻ ماذا يحدث؟ ستموت في الحال، حجر من الجبل فحسب، فكيف بالجبل كلِّه!! فهذا الجبل يسبح بحمد الله ﷻ: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ لأن الجبال تُعظم الله وتسبح بحمد الله، وكذلك الطير: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩﴾ [ص: ١٩].

ولماذا ذكرت هذه الأمثلة؟ لأُبَيِّنَ لك خطورة الكلام الذي نقوله بغير فهمٍ، وبلا حضور قلب، وهذا الكلام هو: (التسبيح والثناء والتحميد والتمجيد والتعظيم والتوقير والتكبير) وكل هذا ليس له معنًى واحدٌ، بل كل كلمة تنفرد بمعناها.

فانظر إلى الموقف في الجنة، وإلى المقام المحمود، وإلى المؤمنين، وإلى موسى، وماذا يفعلون؟!

بعض معاني التسبيح في القرآن:

أولًا: ماذا حدث لسيدنا يونس عليه السلام؟ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣] أي: من عادته التسبيح؛ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٤].

هذا يبين لك نواتج التسبيح وفضل التسبيح عند الله عز وجل، وأن الإنسان قد يُوقَى مصائبَ ضخمةً؛ مثلًا سيارةٌ تصدمه أو ظالمٌ يظلمه، أو كارثة تنزل بساحته، أو كربٌ يُلِمُّ به، فحينئذٍ ينفعه التسبيح: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣] لم يُنقذ وإنما ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٤].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧] هذا التسبيح هنا له معناه، وكل سياق في كتاب الله عز وجل عن التسبيح له معناه.

ثانيًا: أيضًا لو نظرنا إلى أصحاب الجنة وماذا قالوا؟ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ٢٨، ٢٩]، فما معنى: ألم أقل لكم لولا تسبحون؟ -لنفهم أن التسبيح ليس مجرد كلام، بل هو كلام نابع من محامد وتمجيد، وذلك لا يكون إلا في القلب، وشرطه الحب والتعظيم كما سنرى إن شاء الله- هنا تفهم شيئًا خاصًّا عن التسبيح فما هو؟ أن الإنسان -ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض- له رئيس أو وزير، وهذا الإنسان خفير على مخزن مثلًا،

ورئيسه لو علم أنه سرقه فسيفتك به وسيفعل به كذا وكذا، وسيغضب عليه وسيحرمُه فضله، فهو إن سرق مخزنه بعد ذلك فلا يكون إلا من الجرأة والجراءة عليه، فنقول: لو أن عظيمًا له مخزن مثلًا فيه بضائع وفيه أموال وفيه غلال، وأنت تعلم أنك لو سرقت منه وعلم هو فإنك ستفقد كثيرًا من فضله ومن عطائه ومن إكرامه، وقد يُعذبك وقد يَطرُدُك؛ لأنه عظيم وهذا المخزن ملكٌ له، فمتى تسرقه؟ تسرقه إن قَلَّ توقيرك له في قلبك فتزداد جرأتك عليه؛ لأنه لا يعلم وكيف سيعلم؟! وإن علِم ماذا يفعل بي؟! وإن كان يعلم واطَّلع عليَّ، ولكن أنا في ضائقة مالية؛ فانظر إلى الجراءة في الكلام ومن أين تأتي؟ فانتبه: لو صعدنا هذا الكلام إلى رب العالمين ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] فهُم مصبحون، ويتخافتون، ولا أحد يراهم أبدًا! فلو سبحتم الله لنزهتموه عن أن يغيب عنكم وأنتم في طريقكم إلى جنتكم لتجمعوا المحصول بعيدًا عن أعين الفقراء، فهذا أول معنًى من معاني التسبيح، ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لولا تعظمون الله ﷻ، ولولا تذكرون أنه لا بد مطَّلِعٌ عليكم وأنه علام الغيوب، بل لا تحركون أرجلكم إلا أن يحركها لكم سبحانه وتعالى وعز وجل.

ثالثًا: نجد من يقرأ بصوت رخيم هذه الآية مثلًا ويقول: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، ويجود في القراءة، ويراعي المد والتفخيم والترقيق والغُنَّة وإذا سألته ما معنى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾؟ يقول: لا أعرف، وما معنى: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾؟ يقول: لا أعرف، إذًا كيف تقرأ وأنت لا تعرف معناها؟!

انظر إلى كلمة: «سبحان» في أول سياق [آل عمران: ١٩١]، [القلم: ٢٩]،

[الإسراء: ١٠٨]، ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ [الإسراء: ٤٠-٤٣]، ماذا قالوا؟ قالوا: اتخذ الله ولدًا؛ فهذه واحدة، وقالوا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٨]، أي: بغير إذن الله؛ (يعني سيذهبون إلى الله ويفاجئونه ويقولون: يا رب لا تعذب هؤلاء فقد كانوا أناسًا مستقيمين وهم من أتباعنا ولا نريد لهم ذلك، فهل يقول الله مرغمًا: لكم ما أردتم، لن أعذبهم؟! - حاشا لله - فهل هذا هو ظنكم برب العالمين؟! هل الشفاعة تكون هكذا بغير إذن الله؟! كما يحدث عند المخلوق. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [الإسراء: ٤٣-٤٤]، فما معنى التسبيح هنا؟ هذا هو المطلوب، فهي سياقات مطلوب منكم معرفتها. فلا بد من معرفة كلمة: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ وسياقاتها.

رابعًا: كذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فلماذا قال هنا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؟ لأنه يقول: يا رب أرني أنظر إليك، يعني أنا لا أستطيع، فمجرد طلب هذا السؤال يُعَدُّ نوع جرأة من موسى، وموسى عَدَّ نفسه جريئًا على هذا الطلب لأنه من هو؟ هو إنسان يأكل الطعام وعنده بول وغائط، ومَنِ الجبار؟! سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ؛ ولذلك قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ لما رأى الجبل بضخامته ونتوءاته قد ساخ في الأرض واندكَّ، فسقط موسى ووقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق قال: كيف كنت سأتحمل أن أنظر إلى الله، وأنا

بضعفي هذا؟ ولو أن حجرًا واحدًا سقط على رأسي لقضى عليَّ، وهذا الجبل بضخامته قد حدث له ما حدث لما تجلى الله له، وهذا جبل، فما الحال إذًا بي!! ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] - من باب التنافس طبعًا وليس من باب تزكية النفس - فانظر إلى معنى كلمة: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ هنا؛ معناها: أني قد أقدمت على عملٍ فيه نوع جرأة؛ وقلت: يا رب أرني أنظر إليك. أو كالذي قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]، طبعًا مع الفارق فهذا نبيٌّ كريم؛ فالتسبيح لا بد لنا أن نفهم معناه.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢] نريد أن نعرف معنى كلمة: (تسبيح) و(سبحان) والمادة بأكملها إن شاء الله، وأنتم مطالبون - أيها الإخوة الأعزاء - بتكرير هذه المعاني؛ لأنني شرحتها سابقًا، ولم أترك تقريبًا موضوعًا إلا وأُدخِلُ فيه مسألة التسبيح والتحميد والثناء والتمجيد، لماذا؟ لأن الصلاة كلَّها كذلك، ومع ذلك الناس ينسَوْنَ ولا يدركون خطورة الأمر. وأذكركم بما يفعله النَّبي في المقام المحمود من الثناء والتحميد والتمجيد والسجود لله ﷻ، فما الذي تفعله أنت لو أدخلك الله الجنة؟ - نسأل الله تعالى أن نكون من أهلها جميعًا - ستقول: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠]، كما رأينا والله المستعان.

الحق الذي خلقنا من أجله:

نحن نعلم أننا خُلقنا بالحق، وهذا الحق بيَّنه (ابن القيم) في ثلاثة أقسام: أن هذا الخلق صَدَرَ عن الحق، ثم هو مشتملٌ على الحق، ثم هو إلى غاية وهذه الغاية قسمان: غاية تراد منا، وغاية تراد بنا. فأما الغاية التي تراد منَّا فهي: أن نعرف الله ﷻ، وإذا عرفناه أحببناه، وتألهناه؛ فعبدناه فأطعنا رسوله، وهذا هو ما في فاتحة الكتاب.

ومن هنا فهذه الصلاة عبارة عن تعرف على الله، فثناء وتحميد وتمجيد وتسبيح، كذلك في الجنة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ وكذلك الملائكة، وكذلك المقام المحمود، وهكذا.

فنحن الآن نتكلم عن التسبيح وأخذنا أمثلةً من كتاب الله، وإن كان المثال الذي من «سورة القلم» عن أصحاب الجنة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] يكفي كلًّا منَّا لو تدبره وأحسن فهمه واستفاد منه.

لماذا يرتكب الإنسان المعصية؟

وانظر إلى الإنسان وكيف يرتكب المعصية؟ بغفلته وشهوته؛ والاثنان أكبر باب للشر، فالغفلة عن عظمة الله وعن رقابة الله والله مطلع عليك يرى ما تفعل وأين تذهب، فأنت عليك أن تحدث نفسك بهذا، وكيف تذهب إلى عمل المعصية، وأنت تعرف أن الله يراك الآن، فلو استحضرت ذلك فعلًا لوجدت أنك توقفت، أما وإنك لم تتوقف فمعنى ذلك أنك قد اجترأت على الله وأن تسبيحك لله قد ضَعُفَ، فغفلت عن رقابة الله لك، فانظر إلى معنى التسبيح هنا، فتجد كل شخص مثلًا يرتكب الكبيرة ويُفترض أنه يستشعر ذلك ويقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا

ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩] كيف أرتكب هذه الكبيرة وقد علمت أن الله يسمعني ويراني وأني لا أستطيع أن أفعل شيئًا إلا أن يُقْدِرَني الله عليه لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرَّعد: ٣٣].

معنى التسبيح:

هيا بنا نأخذْ معنى التسبيح ونحاولْ - هي محاولة والله المستعان - أن نعرف معنى التسبيح والحمد والمدح والثناء والمجد. **وسنبدأ بالتسبيح؛ لأنه هام جدًّا.**

أولًا: التنزيه: وما التنزيه؟ كلمة: (نَزِهَ) ما أصلها في اللغة؟

نَزِهَ: تدل على بُعْدٍ في مكانٍ وغيره، يقولون: خرجنا نَتَنَزَّهُ؛ أي: نبتعد عن البيوت والمجاري والناس ونخرج إلى الهواء الطَّلْق في وسط الحقول للنزهة؛ لأن (نزه) أصلها في اللغة: البُعد.

أيضًا يقال: رجلٌ نزيه الخلق - ونحن نستخدمها بشكل خاطئ - أي: بعيد عن الدناءة وبعيد عن الأخلاق الرذيلة وبعيد عن الشر، وبعيد عن أن يكون رجلًا بخيلًا، وليس معناها كما يفهمها العامة والسُّوقة أنه رجل مسرفٌ، شديد البخل على الناس وشديد الإسراف على نفسه وأهله، ويقولون عنه: إنه رجل نزيه! وليس هذا هو المعنى، إنما المعنى أنه نزيه الخلق، وهو البعد عن الدناءة وعن الخسة، فهذه هي النزاهة.

أما التسبيح: فهو التنزيه، ولكن لا بد من فرق؛ فهذا اسمه تسبيح وهذا اسمه تنزيه، ولا بد لك أن تعرفه. وقلنا: إن التنزيه معناه: التبعيد.

وأما التسبيح: فأصله من سَبَحَ أو السَّبْح؛ أي: فيه حروف السين،

والباء، والحاء، وهو عبارة عن أصلين في «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس.

الأصل الأول: يدل على جنسٍ من العبادة، مثلًا يقول لك: جنس من الحركة؛ وهي الحركة في القطار، أو الحركة في الطائرة، أو حركة بالأرجل أو حركة بالكلام والأذكار، فهذه كلها حركة، فجنس الحركة يعني كل حركة تشتمل على أنواع وأفراد كثيرة.

فالسين، والباء، والحاء، تدل على جنس من العبادة، ومنها السُّبحة، وهي صلاة التنفل؛ ولذلك الفقهاء يقولون: الجمع بين الصلاتين ولا سُبحة بينهما، يعني: يجمع بين الظهر والعصر في السفر مثلًا، ولا سبحة بينهما أي: لا صلاة نفل بينهما، وهو جنس من العبادة. والتسبيح: عبادة أيضًا، وهو تنزيهُ الله عن كل سوء، وقلنا من قبل: إنَّ التنزيه هو التبعيد.

وما السُّبُحات؟ وما حجاب الله؟ كما ورد في الأثر: «**إِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ** - وَفِي رِوَايَةِ: **النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١)؛ فَالسُّبُحَاتُ أي: جلال الله وعظمته ﷻ.

أما الأصل الثاني: فيدل على جنسٍ من السعي، فالسين، والباء، والحاء تدل على جنسين: الجنس الأول: هو جنس من العبادة، والثاني: هو جنس من السعي، ولذلك منه السَّبح وهي السباحة يعني: العوم في الماء، وهي كما قلنا: جنس من السعي، فالذي يعوم لا يمكن أن يتوقف

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

عن السَّبح، لأنه إن توقف عن السَّبح غرق ومات، فالربط هنا بين العبادة وبين السعي الذي هو السَّبح، وفي السباحة لو أن شخصًا يسبح فمع مُضِيِّ الوقت يزداد بُعْده عنَّا، يعني بمرور الوقت تزداد المسافة، ولذلك يقال: سبحت الأرض إذا تباعدت، كمن يقول: أين فلان؟ يقولون: إنه سَرَح، أو إنه سَبَح؛ أي: بَعُد، فالتنزيه هو تبعيد كما قلنا، فهذا هو الربط بين التنزيه وبين التسبيح، فهنا فيه جنس من السعي؛ يعني: تبعيد مستمر؛ لأن السابح يبتعد ولا يتوقف؛ فهو يسبح باستمرار وإلا يغرق ويموت.

ثانيًا: الذي يسبح لا يستطيع أن يسبح وهو تحت الماء بجسمه، ولكن يجب أن يكون فوق الماء ليستطيع السباحة، فلا بد أن يكون عاليًا.

أيضًا: ليس من الممكن أن يسبح الإنسان في شبر ماء، كذلك ليس من الممكن أن تسبح في وجود صخور؛ لأن هذه الصخور تسبب لك أذًى عند أول ضربة في السباحة كأن تصاب في ركبتك مثلًا، ولا تستطيع العوم بعد ذلك، فلا بد ألَّا توجد عَرَاقِيلُ ولا صخورٌ، ولا أيُّ شيء من ذلك.

فالسباحة معناها: أنك عائم ومستمرٌّ في الحركة وعالٍ ومتباعد باستمرار مع عدم وجود عراقيلَ أو صخورٍ، فهذا في الشيء المحسوس؛ الذي هو السعي، ومنه السَّبْحُ، وسنعرف إن شاء الله علاقة السَّبْحِ بالتَّسْبِيحِ.

يقال: فرسٌ سَابِحٌ: إذا كان حسنَ مدِّ اليدين في الجري؛ أي: ظهره أفقي وكأنه قطعة من الخشب لا يرتفع ولا ينخفض، فيقال: فرسٌ سابح أو سَبُوح؛ لأنه يمدُّ يديه للأمام بحركة انسيابية؛ أي: حركة متصلة

وسهلة وفيها تبعيد باستمرار فنسميه فرسًا سابحًا.

انظر أيضًا للآية: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، لماذا يسبحون؟ لأن الأفلاك تتحرك وتدور بسرعات فلكية لا طاقة لنا حتى بتخيلها إنما هي حقيقة، فهل من نجم يصطدم بنجم آخر؟! هل من كوكب يصطدم بالأرض؟! فهي حركة منضبطة وسريعة ودائمة ولا تتوقف.

هل تعلم ماذا يحدث إن توقفت الأرض عن الحركة؟ ستلتصق بالشمس؛ لأن الشمس تجذبها، والأرض لا تلتصق بالشمس؛ لأنها تدور حول الشمس بسرعة، مثل المقلاع إذا توقف وقع الحجر الذي بداخله، فالأرض إن زادت سرعتها جنحت ومَادَتْ بكم، أما إن توقفت فالشمس تجذبها لوجود القوة الطاردة المركزية؛ فـ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] معناها: حركة مستمرة سريعة منضبطة من غير اصطدامات، مثلها في ذلك تمامًا كالذي يسبح من غير اصطدامات فهو دائم السَّبْحِ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾ [المزمل: ٧]، يعني: لك مال وغذاء وسفه السفهاء ومشاجرات ومشاحنات وبغضاء؟! هذا عند النَّاس، أما عند النَّبي عليه الصلاة والسلام فالسبح كان في الدعوة، والخلوة بينه وبين ربه التسبيح والثناء والصلاة وصلاة الليل التي هي قرة عين النَّبي عليه الصلاة والسلام والتي تعطيه طاقة ودفعة جديدة: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦]. أما أنت ففي النهار تأتي من العمل مباشرة على صلاة الظهر أو صلاة العصر فتقف في صلاة العصر وأنت تقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ [سورة الفاتحة]، وتفكر في أحوال مهنتك في الصلاة، وهل العمال الذين تركتهم في موقع العمل سرقوا منك شيئًا أم لا؟ وما زلت تقول: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ

ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٣-٤]، وتفكر مرة أخرى في أحوال بيتك وأسعار فاتورة الكهرباء المرتفعة، وتُذكِّر نفسك في الصلاة بأنك لا بد وأن تنتهي سريعًا من الصلاة لتذهب هنا أو هناك، وتجد نفسك وقد قلت: «آمين»، وكل هذا يدور في داخلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلٗا ﴿٧﴾﴾ [المزمل: ٧]؛ يعني: عملًا دائمًا لا يتوقف؛ فأنت في دوامة، بينما النَّبي عليه الصلاة والسلام عمله للدين، أما أنت فعملك للدنيا، فكل هذا اسمه سَبْحٌ، ونريد أن نعرف معنى التسبيح بعد هذين الأصلين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾﴾ [النازعات: ٣].

الفرق بين التسبيح والتنزيه:

فكما قلنا: إن التسبيح هو تبعيد مستمر؛ أي: تنزيه، ولكن تنزيه لا يتوقف، وهذا هو الفرق بين التنزيه والتسبيح؛ فالتسبيح عبارة عن تنزيه لا يتوقف، لكن التنزيه من الممكن أن يتوقف، كخروجنا للتنزه قليلًا ثم رجوعنا مرة أخرى، أو كرجل نزيه الخلق لكنه من الممكن أن يتغير خُلُقُه، أما الاستمرار في التبعيد فهذا اسمه التسبيح كما قلنا: من السباحة. فانتبه.

۞ خلاصة معنى التسبيح:

التسبيح: هو تنزيهُ الله ﷻ عن كل خطأ، وعن كل شرٍّ، وعن كل نقص، وعن كل آفة، وعن كل عيب، فاستَحَالَ نسبة الشر إلى الله، ولكن هل هذا التبعيد ليس إلا اليوم وغدًا ينتهي؟! - ستجد الشيطان يوسوس لك بهذا؟- لا بالطبع؛ لأن التسبيح معناه تنزيه مستمر ولو توقفت غرقت، فانظر إلى الذي يسبح إن توقف عن السباحة غرق ونزل تحت الماء بعد أن كان هو راكبها، وكان على هدًى، فكذلك هنا التسبيح: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣]، أي: تنزيه مستمر لا شيء يوقفك.

۞ أمثلة على توقف التسبيح والعياذ بالله تعالى:

المثال الأول: كمثل الذي يقول لك: الله على كل شيء قدير، ولكن كيف وَلَدَتْ مريمُ؟!

فهذه صخرة اصطدم بها، فهو منذ قليل كان يقول: إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير، وربنا علَّام الغيوب، وهو العظيم الذي خلق كل شيء، فهذا كله ثناء، ولكن بعد كل ذلك يقول لك: كيف وُلِدَ عيسى من غير أب، وكيف حدث هذا؟ أريد أن أفهم؟ فنقول له: وهل أنت عرفت ما الذي حدث حتى وُلِدتَ أنت من أبيك؟ وهو لم يكن يعرف شيئًا عنك، وكيف تخلق، ولا اسمك، وهل أنت ولد أم بنت؟ وهل تعيش أم تموت؟ إنما هو كان يقضي وطره من امرأته، والمسألة كلها نصف خلية من الأب تتحد مع نصف خلية أيضًا من الأم التي هي (البويضة)، فيحصل تزاوج بين النطفة الأمشاج، فنجد (٢٣) تزاوجًا يتمون في الخلية التي تسمَّى

النطفة الأمشاج، فإنما هي نطفة الرجل ونطفة المرأة؛ (٢٣) كروموسومًا في الرجل، و(٢٣) كروموسومًا في المرأة يتزاوجون مع بعضهم البعض، فليس المطلوب من الرجل إلا نصف خلية.

فلو علمت أنه يخلق بداخلك ملايين الخلايا كل يوم، لعلمت أن الله تعالى لن يعجزه خلق نصف خلية، وهل هذه التي تصعب على الله ﷻ؟ ولكنك تجده يقول: أنا لا أتصور كيف يأتي من غير أب، فهذا قد اصطدم بشُبْهَةٍ بجهله فتوقف عن التسبيح.

فهذا هو معنى التسبيح؛ أن تسبح بدون أن تصطدم بالصخور، فكُنْ سبَّاحًا ماهرًا.

المثال الثاني: نجد شياطين الإنس والجن: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢] وكل واحد منهم يقول لك شبهةً، فيقولون مثلًا: لماذا أعطى النَّبي عليه الصلاة والسلام ابن عمته كذا؟ ولماذا فضل ابن عمته على الرجل لما قال له: «أنْ كان ابن عمتك»(١)، ولماذا فعل النَّبي هذا؟ فحين تجد شيئًا بداخلك يردد هذا، فاعلم أنك بهذا غير مسبحٍ لله، لأن تسبيح الله يقتضي أن تُبَرِّئَ رسله من العيب ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١﴾ [الصافات: ١٨١]، ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩] وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك، فالتسبيح معناه تنزيه مستمر لا يصطدم بصخرة، أي: لا يصطدم بشبهةٍ.

المثال الثالث: الإنسان ربما يحصل له زلزال ويحصل مع هذا الزلزال أن تصاب زوجته بالسرطان، ومع هذا السرطان تحمل في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

أحشائها طفلًا غير معافى، فتجد عنده (١٠٠) مصيبةٍ اجتمعن في وقت واحد، فإن كان ضعيف الإيمان وجدته يعترض على قضاء الله علانيةً وبألفاظٍ صريحة؛ فهذا معناه أنه لا يسبح ولا يعرف معنى التسبيح.

فالإنسان حين تصيبه مصيبة يضعف، لكن طالما أنه يجلس في التكييف والمراوح، والعشاء جاهز ويجلس مستريحًا يشاهد التلفاز وينظر إلى الراقصات، فيقول لك: إن الله خيره كثير جدًّا وعظيم، ولكن عند أول مصيبة تجده متسخطًا، وغير راضٍ بقضاء الله فيه، ويظهر هذا في أقواله؛ كمن يقول: هذا يوم أسود وما شابه ذلك. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

«**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»، فلا ينسب إلى الله: فالتسبيح معناه: أن توقن وتعتقد اعتقادًا جازمًا أن الله لا يمكن أن يُخطئ أبدًا، ولا يأتي منه عيب أبدًا، ولا يحدث منه تقصير في شيء، ولا يخالف مقتضى أسمائه وصفاته أبدًا، فاستحالة أن ينسب الشر إلى الله؛ فكل شر ينعدم نسبته إلى الله ولكنه ينسب إلى مفعولات الله.

يعني: الشر خلقه الله - لأنه لا أحد يخلق إلا الله - إنما لا ينسب الشر إلى الله؛ لأن الله ﷻ لمَّا خلق الحَيَّةَ مثلًا فَلِحِكْمَة، فمن ناحية الخلق هو الكمال كله. ولمَّا خلق الكافر فَلِحِكْمَة، ولمَّا رحمه ورزقه واستدرجه في الدنيا فلحكمة؛ فهو الحق والعدل والفضل، فأفعال الله دائرة بين العدل والفضل والحكمة ولا يمكن أن يكون فيها نقص بحال. فالكافر نفسه هو مفعول لله، فالله خلق الكافر ويرزقه ويعطيه وكذا وكذا، فَخَلْقُ الله وفِعْلُ الله لا ينسب إليه شرٌّ أبدًا بحال من الأحوال.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢]، فالنَّار شرٌّ وليست خيرًا، ولكن مَن الذي سيُحاسب بهذا الشر؟ سيحاسب به المجرمون عدلًا وليس ظلمًا، وهذا العدل بالطبع ليس شرًّا، فيتضح من هذا أن النار لمَّا نُسِبَت إلى الله كانت عدلًا وليست شرًّا، أما حين تُنسب لمفعولات الله فتكون في هذه الحالة شرًّا، ووصفت النار بذلك لأنها شرٌّ عند الكافر وليست خيرًا، أما بالنسبة إلى العدل فهي عدلٌ مطلق؛ ولذلك فهي إذا نسبت إلى الله فهو الكمال، فالله ﷻ لا يُنسب إليه الشر بحالٍ من الأحوال، وإنما الشر في مفعولات الله، فمثلًا: أنت مفعول لله، وأنت تفعل الشر، فكيف يتركك الله تفعل الشَّر؟ هذا لحكمة، وما هذه الحكمة؟ الابتلاء، والجنة والنَّار.

استنباط الحِكم من أفعال الله تعالى:

فإذا قال قائل: فما الحكمة من أحداث البوسنة والهرسك؟!

أقول لك: هذه سنن ربانية؛ عدل وحكمة ورحمة. فمن رحمة الله بأهل البوسنة والهرسك أن قدر لهم هذا الهجوم؛ لأنه منذ (٥٠) سنة كانت تتزوج عندهم المرأة المسلمة من اليهودي والنصراني في البوسنة والهرسك بنسبة حوالي (٣٠٪)، فلما قامت الحرب قام النصراني بمساعدة الصربي بأن أخذ مصوغاتها وممتلكاتها وملابسها ثم أسلمها للصربيين يفعلون بها ما يشاؤون؛ لأنها أصلًا كانت مسلمة، مع أنها تركت إسلامها لما تزوجت هذا الرجل، فانظر إلى هذا الوضع كيف حدث؟! فكَوْن الله تعالي أراد أن يحدث هذا للمسلمين على يد اليهود والنصارى من اعتداء على الأعراض والنساء والبنات، فهذا لأنهم تركوا

النساء يتزوجن من اليهود والنصارى، فقدَّرَ الله لهن ذلك، وقَدَره هذا ليس عدلًا فحسب إنما هو عدلٌ ورحمةٌ؛ لأنهم عادوا بذلك إلى الإسلام، ولو وعظتهم مليار سنة بعد الحال المزري الذي وصلوا إليه ما كانوا ليرجعوا إلى دينهم، وهم الذين قالوا هذا، ولكن حدث ذلك بحكمة الله، ولم يموتوا بعد ولهم انتصارات رهيبة برغم أن العالم كله تحزب عليهم.

فلا تتسخط ولا تعترض على قضاء الله تعالى؛ لأن التسبيح معناه تنزيه مستمر لا يتوقف، ولا يصطدم بحادثة، فكل أمر يحدث يجب عليك أن توقن بأن الخير كله لله، وأن الشر لمفعولات الله ولمخلوقات الله، ولا ينسب إليه بحال؛ لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا...﴾، هل بما فعل الله أم بما كسبت أيدي الناس؟ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ فالتسبيح هو تنزيه بغير توقف مهما كانت الأحداث ومهما كانت الأمور.

إسقاطات على حياتنا العملية:

ضربت مثالين أو ثلاثة من قبل فأنت عليك في كل حياتك إذا ازدادت الأمور قتامة وتراكمت المصائب عليك - كأن يرسب الأولاد في الامتحانات، أو أن يُضْرَبَ ولدك أو أن يُظْلَمَ أو أن يُسْجَنَ - أن تكون ثابتَ الجأشِ مسبحًا لله، وإذا أتتك المصيبة قلت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فما معنى: (إنَّا لله)؟ يعني: أنا مِلْكٌ لله، وهل إذا حكم الله في ملكه كان ظلمًا؟!

فعليك أن تَذكُر هذا لئلا تنسى نفسك وتظنَّ أنك أنت الإله! فأنت عبدٌ

لله، فكيف تنسى نفسك، أنت مجرد عبد مملوك لله ليس بيدك من شيءٍ ولا حول لك ولا قوة، فهل لأن الله أنعم عليك ببعض النعم ومتعك في الدنيا بجاه أو رئاسة تجرأت عليه ونسيت نفسك؟! بل ينبغي لك أن تعرف أنك لله؛ يعني أن الله يفعل بي ما يشاء؛ يأخذ بصري، أو يأخذ سمعي، أو يأخذ ولدي، أو يأخذ امرأتي، أو يبتليني بكذا أو كذا؛ فأنا مِلْك لله.

ثم: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، تعني: كل مصيبة أصابتني سيعطيني أجرها، فلا شيءَ يضيع عليَّ؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٥].

انظر إلى حكم الصبر هنا، فالمراد هنا أن يكون الإنسان دائم التسبيح، وهو التنزيه الذي لا يتوقف ولا يصطدم بحادثة أو بمصيبة؛ كشبهات في القدر، أو في الشرع.

۞ الجانب القدري:

والقَدَرُ هو: الأحداث؛ كأحداث البوسنة والهرسك، أو الزلزال الذي دَمَّرَك أو قَتَلَ ابنك، أو من أُصيب مثلًا بفشل كلوي فيقول: أتفعل بي هكذا يا رب، أَتُصِيبُني بهذا المرض، أو الذي أصيب بمرض القلب، فيعترض على قضاء الله، فعندئذ لا يتوقف تنزيهك لله لأن هذا هو التسبيح، فأنت مُسَبِّح وعيب عليك أن تتوقف، وهذا بالنسبة للقدر.

۞ الجانب الشرعي:

أما بالنسبة للشرعي؛ فحين يمر القارئ بآية لا يفهمها يوسوس له الشيطان بشبهات حول القرآن؛ ويبدأ الشيطان بجعله يستدعي إلى ذهنه الآيات المتشابهات حتى يشككه في صدق الرسالة وينزع عنه يقينه بأن

القرآن هو الحق ولعل النصارى أو غيرهم هم الَّذين على حق؟! فيكون بذلك قد اصطدم بصخرة في الجانب الشرعي والعياذ بالله.

أو مثلًا كالذي يقرأ حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ولا يفهمه مثل حديث الذبابة(١)، فيقول لك: هل لو وقعت الذبابة في الإناء غمستها ثم أخرجتها؟! هذا شيء مقزز، نسمع هذا الكلام كثيرًا في بلاد الغرب يتهكمون على السُّنَّة تهكمًا فظيعًا في مثل هذه الأمور. فالحديث في الصحيح عن النَّبي عليه الصلاة والسلام أن الذبابة إذا وقعت في الإناء أو في اللبن أو في الماء تغمسها ثم تخرجها، لأن في أحد جناحي الذبابة داءً وفي الآخر دواءً، وهذا الكلام اكتشف طبيًّا وحديثًا وفيه من دلائل النبوة ما فيه، لكن هَبْ أنك لم تكتشف هذا الكلام وهو كلام ثابت عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فإذًا عليك الإيمان به.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨١]:

يقول تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾، ونجد في هذه الآية أن الله تعالى يَقْرِنُ السلام بالمرسلين، ومرة بالحمد فيقول: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، ومرة بـ(سبحان)، فيقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافَّات: ١٨٠، ١٨١] فالمقصود هنا: تسبيح الله فوق وصفهم، فانظر كيف وصفوا الله، وانظر إلى البُعد الرهيب بين الذي يصفون به الله وبين الله تبارك وتعالى، فهذا البعد

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظه: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ، فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً وَالأُخْرَى شِفَاءً**».

ليس له نهاية ولا يتوقف؛ لأن هذا التبعيد ليس (١٠٠) كيلو مترٍ، وليس مليون كيلو مترٍ، ولكنه تبعيد ليس له نهاية ولا يتوقف؛ فهذا هو التسبيح، و﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١﴾ من أي شيء الله يُسَلِّم المرسلين؟ ومعناها كمن يقول لأخيه: (سلَّمك الله)، يعني: يُسَلِّمُكَ من الأمراض والفقر والغم وضعف الدين والشبهات والشهوات والنَّار ويُسَلِّمُك من كل شر دنيا وآخرة.

أما السلام على المرسلين هنا فهو تسليم المرسلين من كل ما رماهم به عدوهم، ومعلوم أن كلَّ شيء يرمي به عدوُّ الرسولِ الرسولَ يُعَدُّ اتهامًا للذي أرسله، فالله ﷻ حين يُسَلِّم المرسلين فهذا معناه أنه يُسَلِّم رسالاتِهم وكلامَهم وكلَّ ما جاؤوا به، إذًا كل شيء جاء به الرسول هو الحق، فإذا سمعت مثلًا حديث الذبابة التي إذا وقعت في الإناء غمستها وشربت بلا خوفٍ ما أعجبك هذا الكلام، فاحذر أن تتهم الرسول؛ لأنك لو اتهمت الرسول فكأنك اتهمت الذي أنزل عليه هذا الكلام، إذًا توقفت عن التسبيح، ويكون حالك تمامًا كحال رجل يعوم في الماء فاصطدمت قدمه بصخرة فتأوَّهَ، فتوقف عن السباحة فغرق فمات، أو السفينة التي اصطدمت بشيء صُلْب فانفجرت وغرقت، فليكن في حسبانك أنه طالما أن الرسول قال هذا الكلام إذًا فهو صحيح وهو الحق، ولكن الذي يقول: إنه لا يستطيع أن يشرب من هذا الإناء لأن نفسه لا تتقبل هذا، فنقول له: إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يرغمك على شيء، فإذا أردت فاستعمل هذا الشراب الذي وقع فيه الذباب ولا يفرض عليك هذا، ولو كنت أنت مصابًا بمرض الوسواس وهو بذلك منزوعةٌ البركةُ عنه، فلو أن أحدًا غير زوجتك أمسك شيئًا من طعامك مثلًا فلا تأكله

أبدًا، وهذا مرض، وهنالك كثيرون ممن يفعل ذلك والذي لا تقبل نفسه ذلك فنحن لا نرغمك على شيء، ولكن لا تتهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه يقول كلامًا منافيًا للحضارة؛ لأن اتهامك للرسول هو اتهام للذي أرسله؛ لأن الله لما سلَّم رسله فإنما سلم رسالاتهم وسلَّم كلامهم من كلِّ نقصٍ أو عيب: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] فلا يمكن للرسول أن يخبر عن أمر ثم يظهر خطؤه بعد ذلك.

۞ مثال واضح على سلام المرسلين (محمد عليه الصلاة والسلام):

ولذلك لما قال الرسول: «**أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»(١)؛ وكان رجلًا من أشد المسلمين ذَوْدًا عن الإسلام والمسلمين، يعني: هو في القتال بطل مغوار، ومع ذلك أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه في النَّار، وذلك قبل أن يموت، فوجد كثيرٌ من الأصحاب في أنفسهم، أي: لم يناسب كلام الرسول ما في نفوسهم من إكبار لهذا الرجل على شجاعته وإقدامه، فالرسول عليه الصلاة والسلام حين يقول لك: «هو في النَّار» بالرغم من أنه قاتَلَ قتالًا عجيبًا في صف المسلمين، ولكن كيف هو في النَّار؟ تسلل الصحابة وحاولوا أن يعرفوا حكاية هذا الرجل - لأن هذا شيء مزعج - فوجدوا الرجل غير متحملٍ ألَمَ قوةِ الضربةِ بالسيفِ التي أصابته، ولم يتحمل نزيف الدم من جسده فبدلًا من أن يَثْبُت ويصبر حتى يلقى ربه - لأن الله تعالى قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ [إبراهيم: ٢٧] - فهو ظالم لم يُثبته الله، فألقى بسيفه ثم هوى عليه بصدره، فدخل السيف في صدره

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فمات، فلما أخبروا الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله**» وأمر بلالًا فنادى في الناس: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ**»، يعني لا بد أن يكون مسلمًا لله ﷻ، فلا يكفي قتله المشركين، فالإسلام يعرفه بالله، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ» فقد سُرَّ الرسول لأن عددًا من أصحابه كاد أن يَهْلك؛ فالرسول يقول كلامًا وأنت مسبح لله، فإذًا لا بد أن تنزه الرسول عن كل خطأ، وتنزه الرسالة عن كل نقص، فهنا تسبيح لله وتنزيه للرسالة، والتسبيح معناه تنزيه مستمر.

۞ معنى الحمد لغةً واصطلاحًا والفرق بينه وبين المدح:

الآن ما معنى الحمد؟ والمدح؟ والثناء؟ والمجد؟ لأن التسبيح لا ينفصل عن الحمد.

أولًا: عندنا كلمتان هما: (حَمِدَ)، والأخرى: (مَدَحَ)، فما أحرف (حَمِدَ)؟ الحاء والميم والدال وما أحرف (مَدَحَ)؟ كذلك الحاء والميم والدال مع اختلاف الترتيب، فهذا يسمى اشتقاقًا أوسطَ؛ أي: الدائرة التي تجمعهم دائرة متوسطة. أما كلمة (مَدَحَ) بالنسبة لكلمة (مَدْحٌ) فبينهما اشتقاق أصغر؛ لأن الدائرة صغيرة جدًّا؛ فالعلاقة بين الكلمتين: (مَدَحَ ومَدْحٌ) أن الأولى فعلٌ، والثانية مصدرٌ، كذلك كما لو قلنا مثلًا: (صَدَقَ وصِدْقٌ) فهذا اشتقاق أصغر، فقولك: (مَدَحَ وحَمِدَ) اشتقاق أوسط؛ لأن المعنى شديد القرب بينهما، لكن المدحَ غيرُ الحمدِ، فالمدح: أصلٌ صحيح يدل على وصف محاسن الغير بكلامٍ حَسَنٍ.

ومن هنا نعرف معنى المدح، فالشعراء مَدَّاحُونَ لقول النَّبي ﷺ: «**إِذَا**

رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ»[١] والمدح أن يقول لك شخص: أنت كذا وكذا، فهو يمدحك ولو كان فيك هذا الكلام ويقصم ظهرك بذلك، ولكنني الآن أتكلم عن المعاني اللغوية، فالمدح معناه: أن تصف الغير بمحاسن، ومن الممكن أن تصفه بالمحاسن وأنت لا تحبه، كما يصف الإنسان عدوًّا له فمثلًا يقول: إن إسرائيل فيها نظام وديمقراطية والحياة فيها مريحة والمصانع منتجة والأولاد في المدارس على أعلى مستوًى من التعليم وهكذا، فهل هذا حمد أم مدح؟ هذا مدح طبعًا.

أما الحمد فهو: كلمة واحدة وأصل واحد يدل على خلافِ الذم، فيقال: رجلٌ محمود ومحمد، إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة، إذًا فما الفرق بينهما؟ الفرق بينهما أن المدح خبرٌ مجرد، أما الحمد فمدح مع حبٍّ وتعظيمٍ ونفيٍ للنقيض، فالحمد خلاف الذم؛ ومن أجل هذا سمي الرسول عليه الصلاة والسلام بـ(محمد) حتى قبل أن يُبعث كان هذا اسمه؛ فهو ليس لديه صفات مذمومة، فهذا هو معنى: (محمد)؛ أي: يستحق أن يحمد، لما له من صفات محمودة، ولا يتصف بضدها. فالمدح خبر مجرد ولو كان عدوًّا لك، أما الحمد فصفات محاسن مع حبٍّ وتعظيم؛ وهذا هو معنى الحمد.

الخلاصة في معنى الحمد:

حين تقول: (الحمد) بالألف واللام فإنك تعني أنَّ كلَّ المحاسن الجميلة لله، وكلَّ الكمال لله، إذًا: كل الأسماء الحسنى لله، وكل صفات الكمال لله، وكل نعوت الجلال لله، وكل الأفعال المشرفة لله،

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

وكل الطيب لله؛ «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ»[١]؛ وكل المحامد لله، وكل المدائح لله بشرط ألا يوجد نقيض لها؛ لأن الله ليس لديه نقص أبدًا، وبشرط أن أحبه من أجل هذه المحامد، وبشرط أن أعظمه من أجل هذه المحامد، فأنت لما أَثْبَتَّ الحمد لله فقد نَفَيْتَ الشر والنقيض، ولما نَفَيْتَ الشر والنقيض فقد أثبتَّ المحامدَ.

والتسبيح نفي لكل النقائص والعيوب، وتنزيه أي: تبعيد مستمر لكل النقائص والعيوب عن الله؛ فهذا النوع الأول للثناء الذي هو التسبيح والتنزيه.

والنوع الثاني الذي هو التحميد والتمجيد. والتحميد هو إثبات صفات الكمال لله مع محبة وتعظيم، ولا يمكن أن يكون فيه مذمة ضد الحمد الذي أثبتَّه لله، فلما حَمِدْتَ الله نفيت عنه المذمومات والشر والمعايب والنقائص، أي: سبَّحته فتضمن الحمد تسبيحًا.

(١) أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

معرفة الله تعالى

أيها الإخوة الأعزاء:

جاء في الحديث الثابت عن رسول الله ﷺ، أن هذه الصَّلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام النَّاس؛ وإنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن(١)، فمسألة التسبيح والتحميد والثناء والتمجيد... هذا لا بد أن نعلم أننا خُلقنا من أجله، ليس في الصَّلاة فقط، بل ما خُلقنا إلا من أجل ذلك.

وما الَّذي يفعله الرسول عليه الصلاة والسلام في المقام المحمود إلا أنه يثني على الله ﷻ بمحامد لم يكن يحسنها في الدنيا، ولم يكن يعلمها في الدنيا؛ أي: بمعارف جديدة عن الله ﷻ، فيُثني على ربه بها في القيام وفي السجود وفي الرفع من السجود، كأنه يصلي لله رب العالمين، وتكون السجدة قدر جمعة كما جاء في حديث أبى بكر(٢)، فالمسألة كلها ثناء.

ومعلوم أن الملائكة في الملأ الأعلى ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه. وفي رواية لأحمد (٢٣٧٦٦): «والتحميد».

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل (١٥).

فالَّذين في السماوات يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وقوله تعالى: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، فمنذ بداية الوحي إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والأمر واضح.

الكون كله صدر عن (الحق):

ولذلك دائمًا أسلط الضوء على كلمة (الحق) في أن السماوات والأرض وما بينهما ما خُلقتا إلا بالحق، فما معنى: (إلا بالحق)؟ أي: صدر الكون كله عن الحق أي: عن الحكيم العليم، فلم يصدر عن الحكيم العليم شيءٌ أبدًا فيه نقصٌ، أو فيه جهلٌ، أو ما إلى ذلك، كذلك هذا الخلق مشتملٌ على العلم والحكمة؛ لأنه أيضًا صَدَرَ عن العليم الحكيم. هذا حقٌّ وهذا حقٌّ، ثم الغاية من الخلق، وهي غايةٌ تراد من العباد أن يعرفوا ربهم عَزَّ وَجَلَّ، وأن يعبدوه ويوحدوه، فلا يشركوا به شيئًا.

وغايةٌ تراد بالعباد؛ ألا وهي الجزاء يوم القيامة في مملكة العدل والفضل والرحمة يوم القيامة؛ وهذه هي الغاية من الخلق. فالله عَزَّ وَجَلَّ يقضي بين الجميع يوم القيامة ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، فانظر إلى عدد المختلفين تجدهم أعدادًا كبيرةً جدًّا، ولا يحصيهم إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فالله يقضي بين هؤلاء المختلفين بما يترتب على هذا القضاء من الجنة، أو من النار، أو من العفو، أو من المغفرة، أو من السخط، أو من العقوبة.

إذًا فالغاية الأولى: خُلقنا لنعرف الله ونعبده، وما يترتب على ذلك في الغاية الثانية: من الحساب والبعث والجزاء.

الفرصة ما زالت أمامنا:

نحن ما زلنا في الدنيا؛ وما زلنا في الغاية التي تراد بنا، ألا وهي أن نعرف الله ﷻ، فهل نحن الآن - كمسلمين - نعرف الله؟ نعرفه معرفةً ضئيلة جدًّا وبالكاد يثبت لنا بها الإسلام، فأكثر المسلمين إن سألتهم عن الله ﷻ أجابوك ببعض صفات الربوبية، مثل الخالق أو الرازق أو القادر، أما المعرفة القوية أو الجيدة عن الله سبحانه وتعالى فذلك لا تجده إلا قليلًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن هنا هذه الصَّلاة كلها ما هي إلا كما حددها الرسول عليه الصَّلاة والسلام، فالرسول - وهو صاحب المقام المحمود - يحدد الصَّلاة من الآن ويقول لك: هي تسبيح، وتحميد، وتكبير، وقرآن، فهذه هي الصَّلاة، ولذلك لمَّا تكلمنا عن التسبيح أطَلْنا القول فيه.

وقد يقول أحدهم: لقد قلتَ: إن التسبيح يكون بلا اصطدام في الشبهات، فهل الملائكة تصطدم بالشبهات؟ بالطبع لا، ولكن كلٌّ بحسبه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] ولننتبه إلى أمر مهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤].

تسبيح الإنسان، وتسبيح الملائكة، وتسبيح الخلائق جميعًا؛ كلٌّ بحسبه، فكل شيء يسبح لله سبحانه وتعالى؛ دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل؛ تسبيح لله، وثناء على الله بما هو أهله ﷻ.

الهدف من الصَّلاة:

ومن هنا كانت الصَّلاة تؤدي هذا الهدف نفسه؛ وهو أن نعرف الله، وأن نتعرف على الله ﷻ، فاحذر أن تخدع نفسك وتظن أنك قد عرفت

الكثير عن الله، لأنك قد حفظت أسماء الله التسعة والتسعين أو أقل أو أكثر، وأنت بالكاد حفظتها كألفاظ، فظننت نفسك عرفت شيئًا عن الله، كلَّا والله العظيم، إن لم تفهم معاني هذه الأسماء، فأنت لم تعرف شيئًا عن الله إلا أنه خَلَقَ ورَزَقَ؛ أي: أعطاك المال والصحة، وبعض النعم الخاصة بالربوبية أو بجزء من الربوبية كالتشريع وهو من الربوبية.

فالتعرف على الله ضعيف جدًّا، وهؤلاء النَّاس يصلّون كثيرًا ولكنهم لا يحسنون الصَّلاةَ إنما يُحسنون هيئاتِها وأركانَها وواجباتِها ومستحباتِها، أما فهم المعاني والتأثر بها والتعرف على الله فهيهات هيهات!

فالصَّلاةُ كلها تَعَرُّفٌ على الله، وثناءٌ على الله، وتسبيحٌ لله، وتحميدٌ لله، وتمجيدٌ لله، وتكبيرٌ لله ﷻ، فليست مجرد هيئات، أي نعم الهيئة ضرورية جدًّا وأنا لا أحقر منها، وكيف أُحَقِّرُ من الهيئة وأنت بين يدي ملك الملوك! فلا بد من الهيئات وأن تكون الهيئة والركوع والسجود والنظام بالشكل المعروف عن النَّبِيِّ ﷺ. فالهيئات مهمة؛ لأنك مع ملك الملوك، ألا تحيي أنت ملك الملوك تحيةً حسب مزاجك؟! لا؛ بل لا بد من تدريبٍ؛ كيف تركع؟ وكيف تسجد؟ وكيف ترفع؟ وكيف تضع يديك؟ كل هذا مطلوب لكنه لا يساوي شيئًا إن فقدت جوهرَ وروحَ ومعانيَ الصَّلاة التي هي تسبيح الله وتحميد الله وتمجيد الله وتكبير الله.

فشرحنا التسبيح وتبين لنا أنه ليس مجرد نفيك العيب عن الله؛ لأن الله ليس عنده عيب، فهذا ليس بنفي محض وإنما هو نفي يتضمن إثبات الكمال المقابل، كقولنا: إن الله ﷻ لا يظلمُ مثقال ذرة؛ إذًا فهو العدل، وكقوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] فليس عند الله سبحانه وتعالى

ضلالات ولا جهالات ولا غفلة؛ إذًا فالعلم الكامل له، وهكذا.

فدائمًا نفي العيوب والنقائص والشر، ونفي المِثل والشريك؛ وهذا هامٌّ جدًّا، وأذكركم به مرة أخرى، وهو التنزيه، وقلنا: إن التنزيه هو التبعيد، وقلنا أيضًا: إن التسبيح هو التبعيد.

فما الفرق بين التسبيح والتنزيه؟

إن التسبيح تنزيه مستمر لا يتوقف ولا يصطدم بشبهة، فمثلًا: أصابتك اليوم ضراءُ، فتعترض وتتسخط على قضاء الله فيك، وتكون بهذا الاعتراض بمثابة من قد شكَّ في حكمة الله وفي عدل الله وفي قدرة الله، وتكون بذلك قد توقفت عن التسبيح، والصواب أن التسبيح لا يتوقف بُرْهَةً.

وقلنا من قبل: إن التنزيه على محورين - وهذا ما جاء في القرآن:

النوع الأول: تنزيه الله ﷻ عن النقائص والعيوب والشر.

النوع الثاني: تنزيه الله ﷻ عن السَّمِيِّ والشريك والولد؛ يعني: عن الأمثال.

فلا يكفي قولنا: إن الله ليس عنده نقص؛ لا في العلم ولا في القدرة ولا في السلام ولا في القدسية؛ لأنه من الممكن أن يقول أحدهم: إن هنالك من يتصف بهذه الصفات ولا يعتريه نقص في هذه الأمور، إذًا في هذه الحالة ليس الكمال كله لله، فلا يصح بذلك أن يكون إلهًا؛ لأن الإله شرطه أن يكون متعاليًا عن الأمثال، فلا بد من نفي النقائص والعيوب عن الله، ولا بد من نفي الأمثال كذلك عن الله.

فالنفي في القرآن نوعان - ولا يمكن أن تفهم التسبيح من غير أن تفهم هذه المعاني - أولًا تنزيه: أن تنزه الله عن الظلم، وعن الضعف، وعن الجهل، وعن الغفلة، ولكن هنالك تنزيه آخر وهو الأهم، لماذا؟ لأنك إنما نزهت الله عن هذه العيوب وسَكَتَّ، فالتنزيه لا قيمة له إلا أن تنزه الله عن الأمثال، وهو ألَّا يكون أحدٌ مثله، وهذا هو المعنى من قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] فمعنى الأحد: أي انفراده بصفات الكمال من الربوبية والإلهية، فلا أحدَ مثله، فهو الصمد: يعني الذي له الكمال كله، والتنزيه المقابل له هو الأحد، فهذا شديد الأهمية، فالتسبيح هو التنزيه والذي سيدور على محورين:

التنزيه الأول: عن النقائص والعيوب وهذه كثيرة جدًّا في كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهذا يتضمن الكمال؛ أي: أن الله لا ينام ولا يغفل، ولا يغلبه النعاس مثلنا، فهذا معناه إثبات أن حياة الله كاملة ليست ناقصة كحياتنا؛ فحياتنا نحن عبارة عن ساعات معدودة وهذه الساعات المعدودة كلها جهالات ويعقبها غفلة أو نوم، وناهيك عن النسيان وما إلى ذلك، فانظر هنا إلى نفي النقائص وقد تضمن إثبات الكمال المقابل، وليس هذا وحده بل لا بد من نفي المثيل.

فعليك أن تذكر هذا الكلام في التسبيح، حتى الملائكة منشغلون في هذا التسبيح وأنت كذلك مطالب به.

ثم ذكرنا نوعي الثناء؛ والثناء: هو تكرار المحامد كقولنا: يا رب! أنت الجبار! أنت الجبار! فالتكرار هذا هو حق الله، فالثناء هو تكرار المحامد؛ أي: تظل تكرر وتقول: الجبار، الجبار، ويزداد فهمك وإحساسك بالمعاني في كل مرة عن سابقتها، وتجبر نقص المرة الأولى

إن كنت فيها منشغلًا عن فهم المعاني، أو غير فاهم لها، فتظل هكذا مدندنًا بالثناء على الله، فهو سامعك ﷻ.

والملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، فالثناء: هو تكرار المحامد.

كم ركعة صليتها اليوم؟ وكم ركعة صليتها أمس؟ وكم سنة وأنت تقرأ الفاتحة وتقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، وأيضًا الثناء والتعظيم والتكبير، فكل هذا تكرار المحامد، فهذا هو حقه سبحانه تعالى.

فأنت من الممكن أن تمدح شخصًا مرة واحدة، ثم بعد سنة تريد أن تأخذ الثمن، ولو لم يعطك هذا الثمن كان لك رد فعل غير طيب ناحيته، وتظل تَمُنُّ عليه بمدحك إياه هذه المرة، وترى في نفسك أنه لا يستحق هذا المدح، أما لرب العالمين؛ فأنت تقوله اليوم وأمس وغدًا وما حييت، ورغم هذا فأنت لم تؤدِّ حق الله، فهذا هو معنى الثناء، فمسألة الثناء هذه وتكرار المحامد مسألة كبيرة جدًّا، وليست بالأمر الهين، ولكن الناس قد استهانوا به؛ لذا فَهُم يقرؤون الفاتحة بفتور وتوانٍ وغفلة عن المعاني؛ لأنه لا يريد أن يُثْنِيَ على الله، فكأنه يقول لك: أنا قرأت الفاتحة كثيرًا وقد حفظتها، ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ [طه: ٨٦] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: ٢١]، فلا تمل أبدًا؛ لأن هذا هو حق الله، فتكرر دومًا وأبدًا لأنك أنت العبد الضعيف الفقير، والله تعالى أهل لذلك وأكثر من ذلك.

❍ **وكما قلنا: إن الثناء نوعان:**

النوع الأول: التسبيح الَّذي هو التنزيه، وينقسم إلى قسمين:

١- تنزيه مستمر لله ﷻ عن النقائص والعيوب وأنه لا ينام ولا يظلم ولا يغفل... إلخ.

٢- والتنزيه الثاني عن الأمثال؛ يعني: ليس كمثله شيء؛ فلا شريكَ له ولا ولدَ ولا سَمِيَّ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ولا ند له ولا مماثل؛ بل انفرد بصفات الكمال. فهذا هو النوع الأول من الثناء.

أما النوع الثاني: فهو إثبات صفات الكمال؛ فتقول: يا رب! أنت الجبار، أنت العزيز، أنت وأنت، فهذه صفات الكمال، وهذه الكمالات لو أردنا أن نجملها في كلمة لقلنا: (الحمد)، ولكن إن أردت أن تُفَصِّلَ في كلمتين قلت: (الحميد المجيد).

ولذلك نقول في الرفع من الركوع: «**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ**»(١) وبعدها نقول: «**أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ**»(٢) فانظر هنا إلى (الحمد، والثناء، والمجد)، وفي آخر التشهد: «**إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»(٣)، فهذا المجد يختص بصفات معينة لله ﷻ، فكما قلنا من قبل: إن بعض أسماء الله ﷻ لا تدل على صفة واحدة، وإنما تدل على مجموعة من الصفات مثل: (العظيم، والمجيد، والصمد، والمهيمن).

فـ(الحميد) تدل على الصفات كلها، أما (المجيد) فتدل على صفات

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٩)، ومسلم (٤١١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

السعة والكثرة في الجلال والعظمة والإكرام والفضل، فمجموعة هذه الصفات اسمها (المجيد).

أما إن كانت (الحميد) مع (المجيد) فنجد أن (الحميد) تختص بالجمال والمحاسن أي: الجمال والكمال والإحسان، أما (المجيد) فتختص بالعظمة والجلال والسعة والإفضال.

ونرى أن (الحميد) تختص بمجموعة صفات، و(المجيد) تختص بمجموعة صفات أخرى، أما إن أُفرد الحمد تضمن كل الصفات، وذلك الَّذي جاء في فاتحة الكتاب فنقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فهنا كل المحامد لله، وكل الكمالات لله، لماذا؟ لأن الحمد: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ وهذه هي أصول أسماء الله تعالى وصفاته؛ أنه رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، بالتفصيل، أما الإجمال، فهو الحمد.

الفرق بين الحمد والمدح:

ما الفرق بين الحمد والمدح من جهة المعنى؟ (اختلاف الحال والمحبة والتعظيم).

ولا بد من أمرين: الأمر الأول: الحب، والثاني: التعظيم، فالحامد هو الَّذي يقول المدائح ولكنْ في قلبه حبٌّ وتعظيمٌ، وهذا هو المطلوب وهو الفرق بين المادح والحامد، ولذلك الحمد كله لله ﷻ، أي المدح الَّذي يخرج من القلب حيث تجد مع هذا المدح حبًّا وتعظيمًا، وهذا كله على الاستغراق لا يكون إلا لله ﷻ، فالحمد هو: الكمالات كلها لله بما فيها الجمال والإحسان والإكرام والإفضال والمجد أيضًا: «**أَهْلَ الثَّنَاءِ**

وَالْمَجْدِ» فكل هذا تفاصيل للمحامد.

الفرق بين الحمد والشكر:

(الشكر) مختلف تمامًا عن الحمد؛ وهو العرفان بالجميل، والاعتراف بنعمة الله سبحانه وتعالى وعز وجل، يعني مثلًا يقال: دابةٌ شكورٌ، أي: ظهر عليها السِّمَن برغم أنها تناولت قليلًا من العلف، فشَكَرَت الدَّابة؛ أي: سَمِنَت برغم أنها أكلت طعامًا قليلًا؛ أي: أقل شيء من الخير يظهر عليها، وهذا هو الشكر يعني: مقابلة نعمة الله ﷻ بالاعتراف بها وشكره على ذلك.

أما (الحمد) فهو مدحٌ لله ﷻ مع حب وتعظيم؛ أي: أن تُثْبِت الكمالات لله ﷻ ومنها الإنعام والإكرام والإفضال والرزق والنعم التي أنعم بها عليك، وهذه النعم جزء من المحامد، وهذه النعم أنت ترد عليها بالمقابل بشكرك لله سبحانه وتعالى وعز وجل، فإن أثبتَّ الحمد لله فقد فرضت على نفسك الشكر لله، (فالشكر) نتيجة (للحمد)؛ ولذلك (الحمدُ) رأسُ (الشكرِ)، ومن لم يحمد الله لم يشكره، أي: الَّذي لم يُثبت لله المحامد وأنه هو صاحب النعمة فعلًا فعلى أي شيءٍ يشكره؟

(فالحمد) أسبابه كل كمالات الله ﷻ، ومُتَعَلَّقُهُ اللسان والقلب، أما اليد فليس لها دخل في الحمد، وكذلك الرِّجْل ليس لها دخل في الحمد، والوجه وباقي الجوارح ليس لها دخل في الحمد، إنما أسبابه كل صفات الله؛ فهي كلها محامد.

أما (الشكر) فأسبابه أيضًا صفات الله؛ ولكنها صفات الإنعام والإفضال، فهو الذي أعطاك المال والصحة، وهداك للإسلام، ووعدك

الجنة، فكل هذه صفات الإنعام والإفضال، فكيف ترد الجميل؟ ترده باللسان والقلب والجوارح، يعني الصَّلاة وكل الأعمال الصالحة.

(فالشكر) يقع أكثر من الحمد؛ لأنه باللسان والقلب والجوارح، أما (الحمد) فلا يقع إلا باللسان والقلب، وسبب (الحمد) كل أسماء الله وصفاته.

فهناك فرق كبير جدًّا بينهما؛ فالمحامد: إثبات الكمال، لماذا؟ لأننا خُلقنا لنُثبت الكمال لله، ولكي نتعرف على الله، ونثني عليه الخير كله، فنحن خُلقنا من أجل هذا، وهذه هي الغاية التي تراد بنا، والحساب يوم القيامة مترتب على ما عملته هنا في الدنيا، ماذا عرفت عن الله؟ وكيف أثَّرت فيكَ هذه المعرفة؟ وماذا عملت بها؟ ولذلك الحساب يترتب على الشكر؛ لأن الشكر هو معرفتك بالله تعالى، فكيف تشكره؟ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وبذلك نكون قد بينا معنَى الحمد والفرقَ بينه وبين المدح، وكذلك الفرقَ بينه وبين الشكر.

۞ الفرق بين الحميد والمحمود:

أولًا: الله ﷻ هو الحميد، أم هو المحمود؟

ما الفرق بين الحميد والمحمود؟ نقول: إن (حميد) على صيغة فعيل، و(محمود) على صيغة مفعول، فمثلًا تقول: هذا الرجل (محبوب)؛ على صيغة مفعول، أما: رجل (حبيب) فعلى صيغة فعيل.

فما الفرق بين (الحبيب) و(المحبوب)؟ (المحبوب) هو الَّذي أحبه النَّاس سواء كان رجلًا شريرًا أو رجلًا طيبًا؛ ففي الحالتين هو (محبوب)، يعني من الممكن أن يكون هذا الرجل لصًّا كبيرًا وطاغوتًا يسرق وينهب

ويوزع على أصدقائه فهم يحبونه لذلك؛ فهو رجل (محبوب) بالرغم أنه قد يكون من أهل النار، لكنه (محبوب)، أما (حبيب) فهي مسألة مختلفة تمامًا، فـ(الحبيب): هو الَّذي اتصف بصفات يستحق بها أن يُحَب سواء أحبه النَّاس أم كرهوه، وسواء وجِدَ النَّاس أم لم يُوجَدُوا. فهذا هو الفرق بين (الحبيب) و(المحبوب).

وكذلك (المجيد) و(الممجد)، وكذلك (الحميد) و(المحمود)، فـ(المحمود) الَّذي يحمده غيره، ولكن هل الله ﷻ قبل أن يَخْلُق الخَلْق لم يكن حميدًا؟! كان حميدًا، أما إذا قلت: (محمود) فأقول لك: وهل كان هناك خَلْق قد خُلِقوا ليحمدوه؟ لا، بل هو حمد نفسه سبحانه وتعالى وعز وجل.

و(الحميد) هو الذي يستوجب الحمد؛ لأن صفات الكمال ثابتةٌ له سبحانه وتعالى وعز وجل.

فـ(الحميد) هو الَّذي يستوجب الحمد سواء حمده النَّاس أم لا، وسواء كفر النَّاس به أم آمنوا؛ فهو مستوجبٌ للحمد، ولماذا هو مستوجبٌ للحمد؟ لأن المحامد ثابتةٌ له. كما قلنا في (الحبيب) و(المحبوب)؛ فهنا فرق كبير يجب الانتباه إليه.

فالحميد: هو الذي يستحق أن يُحمد بما له من صفات الكمال ونعوت الجلال والأفعال المشرفة.

فحين نقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه:١٣٠] فالباء هنا هي باء المصاحبة؛ أي: حين تسبح الله ﷻ تسبحه مصطحبًا الكمالات المقابلة؛ ومعنى هذا أنك إذا قلت: إن ربنا لا يظلم - ومعلومٌ أن الله لا

يظلم- أو قلت: إن ربنا لا ينام - ومعلومٌ أن الله لا ينام - أو إن ربنا لا تأخذه سِنَةٌ، فأنت هنا تنفي، وتنفي، وتنفي، وانتبه أن هذا النفي ليس مرادًا لذاته؛ لأن نفي العيبِ عما لا يستحق العيبَ عيبٌ.

فمثلًا إذا قال أحدهم لك: إنَّ النَّبي عليه الصَّلاة والسلام لم يسرق، فهذا تطاول على النبي؛ لأنه معلوم أن النَّبي عليه الصَّلاة والسلام لم يسرق، فحين تنفي العيب عن الله، فليس المراد به النفي المجرد وإنما هو النفي المتضمن إثبات الكمال.

فحين تقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]، أي: تُنزه الله تَنزيهًا مستمرًّا لكل النقائص والعيوب، وتنزيهًا عن الأمثال والأنداد والمسميات والشريك والولد.

أما إذا أردت أنت أن تُسبح الله، فلا يكون بكلامٍ من عندك، فلا يصح أن تقول: إن ربنا مهندس أو دكتور؛ لأن الله ﷻ له محامد، وإذا نزهته فعليك أن تنزهه بتلك المحامد، فهذا معنى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤]، ومعنى هذا الكلام أنك تنزه الله تنزيهًا مستمرًّا مصطحبًا - وأنت تنفي النقائص عن الله - الكمالات المقابلة، فالتسبيح هو تنزيه ولكن ليس تنزيهًا لعيبٍ واحدٍ، أو اثنين، ولكنه تنزيهٌ لكل العيوب، إذًا هذا التسبيح فيه إثبات لكل الكمالات، وكما قلنا من قبل: إن نفي الظلم عن الله يتضمن إثبات أنه العدل؛ فحين تنفي الظلم والسِّنَة والغفلة والنوم، وتنفي كل النقائص والعيوب والأمثال، فهذا معناه إثبات كل الكمالات، فقمة المعرفة بالله ﷻ هي التسبيح بحمد الله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]، ومجرد التسبيح بحمد الله هذا هو الَّذي خُلقنا من أجله؛ لأن التسبيح بحمد الله معناه نفي النقائص والعيوب كلها ونفي

الأمثال - وهذا من ناحية التسبيح - وإثبات المحامد كلها لله، وهذا هو التعرف الكامل على الله، وما خُلقنا إلا من أجل ذلك.

ولذلك الملائكة تقول: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠] والَّذي يترتب على التسبيح بالحمد أننا نترقى في معارج الكمال؛ لكي نقترب من القدوس أكثر وأكثر: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: نقدس أنفسنا لك، أي: نرفع درجاتنا من أجلك: «**سُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ مَا عَبْدَنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ**» فنحن ما خُلقنا إلا من أجل التسبيح بالحمد، وهذه هي المعارف والغاية التي تراد من العباد.

وبذلك نكون قد أثبتنا قاعدة في غاية الأهمية لا تُنسى: وهي أننا ما خُلقنا إلا لكي نسبح بحمد الله، فإذا سألك أحدهم: لماذا خُلقت؟ فرد قائلًا: لكي أُسبح بحمد الله، وتكون بذلك قد ذكرت كلَّ شيءٍ ولم تدع خيرًا إلا ذكرته. ولذلك في المواطن التي كان يتعرض فيها النَّبي عليه الصّلاة والسلام للإهانة والاستهزاء من الكفار، تجد القرآن ينصحه بالتسبيح بالحمد في مواضعَ كثيرةٍ في كتاب الله، فالإنسان فعلًا حين يتعرض لأذًى، وهو مستشعر أنه من أولياء الملك وأنه عسكري مع ملك الملوك ويقول: أنا جندي لملك الملوك كيف يراني أتعرض للإهانة والاعتداء على عرضي، وعلى أهلي، وعلى كرامتي ويتركني؟ كيف يتركني هكذا وهو قادر على أن يسحق المجرمين؟!

فالتسبيح بالحمد تشتد الحاجة إليه هنا في هذا الموقف؛ لأن الله هو الَّذي يراه، فأنت لا تعرض على الله أمرًا جديدًا؛ لأن الله تعالى هو الَّذي قدَّر هذا الموقف قبل أن تُخلق، وهو الَّذي يجزي خيرًا عليه لو أنك ثَبَتَّ وفهمتَ هذا الموقف وعبدتَ الله في السراء والضراء، فلا بد لك أن

تعبد الله في السراء وتعبده أيضًا في الضراء، وهذا هو معنى: (الحمد لله على كل حال)، فكمالات الله ثابتة على كل حال، فالإنسان حين يتعرض للمواقف الصعبة تجد الشيطان يوسوس له، تمامًا كما يحدث في النَّار؛ حيث يقول أهل النار للموحدين: إنكم موحدون ومع ذلك فأنتم معنا في النار، فيضج الموحدون لله، وعندئذٍ يخرجهم الله ﷻ من النار، فهذه السخرية من الموحدين قد أَذِنَ الله بها قدرًا ليُخرج الموحدين من النار بذلك.

فالسخرية قد قدرها الله؛ لأنها هي السبب في أن يخرج بها المؤمنون، فإذا سَلَّطَ الله عليك ظالمًا، يبدأ الشيطان يوسوس لك، فعليك أن تسبح بحمد الله؛ يعني تُثبت الكمالات لله، وتنزه الله عن الغفلة عن هذا الأمر، أو أن الله قد أهمل وليه ونصر عدوه؛ فهذا ظن السَّوْءِ بالله، فالتسبيح بالحمد عند مواقف الشدة خصوصًا عند مواقف الإهانة والاستهزاء وتثبيت الظالمين هذا من أهم ما يكون، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]. فالتسبيح بالحمد شديد الأهمية وهذا هو الذي خُلقنا من أجله، وما الصلاة إلا تسبيح بالحمد.

وسنفصل بعد ذلك ونتكلم عن المحامد التي جاءت في الصَّلاة مثل: (أكبر، أعلى، عظيم، حميد، مجيد، مالك يوم الدين، الرحمن الرحيم) وهذه الأسماء قد جمعت كلَّ شيءٍ ولكن على الإجمال طبعًا. والتفاصيل يوم القيامة ويعرفها سيدنا النَّبي عليه الصّلاة والسلام في المقام المحمود؛ تفاصيل أكثر وأسماء لله لا تعرفها أنت ولا الملائكة ولا جبريل ولا أحد أبدًا، إنما يعرفها النَّبي عليه الصّلاة والسلام في المقام المحمود.

ولكن نحن في الصلاة علينا بمعرفة معاني هذه الكلمات، وكذلك الصمد في سورة الإخلاص، وكذلك يجب أن نفهم معاني «سورة الكافرون»، حتى يَثْبُتَ عندك أنك ما خلقت فعلًا إلا للتعرف على الله وأن نظام الصَّلاة من أجل هذا الهدف سواء «الفاتحة»، أو «سورة الكافرون»، أو «سورة الإخلاص» على وجه الخصوص، وهذا بالإضافة إلى (التكبير) الَّذي هو شعار الصَّلاة وتحريمها، و(الأعلى) الَّذي هو في أشرف وأعلى ركن في الصَّلاة أَلَا وهو السجود، و(العظيم) و(المجيد) وهذه هي أصول أسماء الله تعالى وعز وجل.

وقبل أن ندخل في حِمَى الوطيس هذا، كيف جاء إثبات الكمال لله في القرآن والسُّنَّة؟

لقد جاء إثبات الكمال لله في كتاب الله بطرق متعددة ومن أهمها ثلاثة:

■ **الطريق الأولى: الاستدلال بالفعل:**

لأن الفعل مستلزمٌ للقدرة، وللإرادة، وللعلم، وللحياة، وللحكمة، وما إلى ذلك، فكل شيء تراه في الكون فعل، وهذا الفعل يدل على أن الَّذي فعله حيٌّ، وأراد ذلك، ولحكمة، وهو قادر على ذلك.

إذًا إثبات صفات الكمال لله عن طريق التدبر والتفكر في آيات الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١]، جاءَ بِلَالٌ النبي ﷺ بَعْدَمَا أَذنَ، فَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ

وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ: «**وَمَا لِي لَا أَبْكِي، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الْآيَةَ، **وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا ثُمَّ لَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا، وَيْحَكَ يَا بِلَالُ! أَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[١]، فانظر إلى الوعيد الَّذي يذكره الرسول عليه الصَّلاة والسلام.

آيات الله في الكون؛ في الأرض والسماء، وفي الصحة، وفي الجسد، والزوجة، والأهل، والعيال، والكهرباء، والميكانيكا، والعمارات، والهواء، والزراعة، انظر إلى كل الآيات التي لا حصر لها؛ «**وَيْلٌ لِمَنْ لَاكَهَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَلَمْ يَتَدَبَّرْهَا**»؛ أي: أن هذه الأفعال وهذه المخلوقات تدل على إثبات الكمال لله، وهذه هي الطريقة الأولى: أن الفعل مستلزم للقدرة وللحياة وللعلم وللإرادة، فما من فعلٍ من غير قدرة أو من غير إرادة أو من غير حياة. فهذه كانت الطريقة الأولى وهذا هو المثال عليها، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [هود: ٦٩]، وآيات كثيرة جدًّا في القرآن على نفس هذا المنوال؛ وهو التَفكُّر في مخلوقات الله، والفعل مستلزم للصفات؛ فمثلًا عندنا سمكة جميلة، ويستلزم من ذلك أن خالقها جميلٌ؛ لأنه لا يتأتى أن يخلق الجمالَ من ليس بجميل، فيكون بذلك الفعل مستلزمًا للقدرة والإرادة والحياة والعلم والحكمة وما إلى ذلك.

■ **الطريق الثانية: الاستدلال بالأثر على المؤثر:**

الَّذي خلق أو أعطى الكمال هو أولى وأحق بهذا الكمال، وهذا في غاية الأهمية ولا بد من حفظه جيدًا، وهو الاستدلال بالأثر على المؤثر،

---

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٦١٨).

والمعنى لهذه الجملة أن الَّذي أعطى الكمال لهذا المخلوق أحق بهذا الكمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصّلت: ١٥] أي: أن هؤلاء الناس فيهم قوة، فيكون الَّذي خلقهم - وهو الله ﷻ - أحق بالقوة منهم؛ لأنه هو الَّذي خلق فيهم القوة، ولأن الَّذي خلق القوة هو أحق بهذه القوة، فهذه اسمها الطريقة الثانية، وهذه هي الطريقة الأمثل في الطرق الثلاثة.

فالَّذي خلق العلم - والمقصود كل العلوم - يدل على أن الله أعلم، أي: أن الَّذي خلق العلم هو الأعلم. وكذلك كل رحمة في المخلوقات - أليست الرحمة مائة جزء أنزل الله منها جزءًا واحدًا في الأرض يتراحم به الخلائق حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه من ذلك الجزء[1] - فإن الذي خلقها هو أولى وأحق بهذه الرحمة.

فلتنظر مثلًا لرحمة القطة بأولادها أو كل مخلوق آخر؛ فالأحق والأولى بهذه الرحمة هو الذي خلقها من جهة أنه هو خالقها.

وأيضًا كل حياة في كل مخلوق، الله أولى بهذه الحياة؛ لأنه هو خالقها، وإلا فكيف يعطيها وهو فاقدها بل لَمْ يُعْطِهَا إلا أن كان أحق بها سبحانه وتعالى وعز وجل، وانتبه؛ فهذه مذكورة كثيرًا جدًّا في كتاب الله، وأنا ذكرت لك مثالًا وهو: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ...﴾ [فصّلت: ١٥]. نعم، هم مفتونون بقوتهم مثل أمريكا عندها قوة كبيرة في أجهزة الاستخبارات والترصد والرقابة وتستطيع أن تصور الناس بالأجهزة وبالأقمار الصناعية، وترى حركاتِهم وكلامَهم وضحكَهم، فوجود مثل

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الأجهزة للترصد والاستخبارات تدل على أن الله أعلم بالغيب، فهم بواسطة هذه الأجهزة يعلمون بعضًا من الغيب، ولكن ليس كل غيب، إنما الغيب الَّذي غاب عن الأسماع وعن الأبصار، وعن طريق الأجهزة يعرفونه، فلم يصر غيبًا عندهم.

فالله أحق بهذا الغيب؛ لأنه هو الَّذي خلقهم وخلق لهم الأجهزة، فكل صفة كمال في المخلوق، فإن الَّذي أعطاها لهذا المخلوق أحق وأولى بها؛ لقوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصّلت: ١٥]. وكذلك وجود القوة التي عند أمريكا تدل على أن الله أقوى، فهذه اسمها الطريقة الثانية التي هي المُثلَى أو الأمثل كما قال شيخ الإسلام عند شرحه لـ «سورة العلق».

■ **الطريق الثالثة: قياس الأَوْلَى، أو الترجيح والتفضيل:**

لنفهم هذه الطريقة نسأل هل ربنا أفضل أم المخلوقات؟! وهذه مسألة ثابتة حتى الكافر لا يسأل هذا السؤال، فهي مسألة ثابتة، فليس الأفضل من جهة أنه هو الَّذي أعطاها هذا الكمال فحسب، إنما من جهة أنه هو أفضل من غيره، فهذا اسمه أسلوب الترجيح والتفضيل، أما أمثلته في كتاب الله ﷻ فكثيرة جدًّا وحدِّث ولا حرج.

أولًا: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّحل: ٦٠]، وما معنى المثل الأعلى؟ يعني: الأفضل، فالذهب مثلًا أعلى من الفضة، فمن معاني العلو الفضيلة كما سنرى إن شاء الله، فربنا ﷻ أفضل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهذا هو قياس الأَوْلى والترجيح والتفضيل، وكذلك نجد أن كل التحيات والاستعدادات لهذه التحيات لرئيس أو لملك من ملوك الأرض

- ولله المثل الأعلى - الأولى بها ملك الملوك؛ لأنه أفضل منهم، فهذا اسمه قياس الأولى أو الترجيح والتفضيل.

ثانيًا: قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ...﴾ [الروم: ٢٨] إن كان لك عبد يعمل عندك فهل من الممكن أن تقتسم معه كل ما تملك بحيث تخاف أن يبيع قطعة أرض عزيزة عليك؟ ومعلوم أن الأب لا يقبل ذلك على نفسه من ولده ويقول: كيف أعطي ملكي لابني ليذلني وأنا ما أزال على قيد الحياة، ولا يرضى أن يعطيها لابنه أبدًا، فما بالك إن كان عَبْدًا عندك؟! هل ترضى وتقبل أن يقتسم معك كل ملكك؟! هل تفعلها في نفسك وترضى بذلك؟! هذا كلام لا يرضى به أحد، فكيف بك ترضاها لرب العالمين؟! فمن الأفضل؟! والآية هنا تتكلم عن ذلك؛ واسمه قياس الأولى.

فيتبين لنا من ذلك أنك لا تقبل أن يكون لك شريك في ملكك - والشريك معناه: الند بالند - كما قال تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، فكيف تطلب من الله - وهو أفضل منك - أن يجعل الحسين ندًّا له؟ فإذا أراد الله مثلًا أن يرحم فلانًا قال الحسين: لا يا رب لا ترحمه!!

وإن رأيت أن الله يقبل أن يكون الحسين شريكًا له في ملكه يحدد له من يرحمه ومن لا يرحمه؛ فأنت ترى بذلك أن الله تعالى أقل من ابن آدم!!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا معنى أسلوب التفضيل؛ أنك لا تقبل على نفسك أن يكون عَبْدُكَ

شريكًا لك، أو حتى ابنك يكون شريكًا لك، فهل تظن أن رب العالمين يقبلها على نفسه من عبيده، ويجعل الحسين ندًّا له، أو النَّبِيَّ ﷺ ندًّا له، أو المسيحَ ندًّا له؛ فهذا اسمه (قياس الأَوْلى).

ثالثًا: قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ [النمل: ٥٩]، فهل الله خير أم الأنداد التي اتخذوها؟! فهذا هو أسلوب الترجيح والتفضيل، ومن المعلوم أن الله أفضل منهم؛ يعني أنَّ كل كمال ثابت في كل شيء الله أفضل منه وهو أحق بهذا الكمال.

فالطريقة الثانية: أن ربنا ﷻ أحق بكل كمال في المخلوق من ناحية أنه هو الذي خلق هذا الكمال.

أما الطريقة الثالثة - وهي كذلك موجودة في القرآن: فهي أن كل كمال في المخلوق؛ الله ﷻ أولى به، ليس من جهة أنه هو الَّذي خلقه وأعطاه للمخلوق فحسب، ولكن من جهة أنه أفضل من هذا المخلوق. وسيظهر هذا في (الأكبر والأعلى والأكرم)، فهذه هي ثلاث طرق أساسية.

۞ وإليك بعض الأمثلة الأخرى على قياس الأولى أو الترجيح والتفضيل:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ﴾ [يونس: ٣١ - ٣٢] فمن الأفضل؟ هل هؤلاء الشركاء أم الله الذي فعل كل هذا؟! وإذا كنت مقتنعًا بأن الله فعل كل هذا، فلماذا تذهب إلى غيره؟ فهذا من

قياس الأولى.

كذلك مثلًا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ﴾ [يونس: ٣٥]، من الأفضل هذا أم ذاك؟ فلو أن ربنا أفضل فكل خير أو كمال تظنه بالمخلوق؛ الله هو الأولى والأحق به من ناحية أنه أفضل وأعلى، وليس من ناحية أنه هو الذي خلقه؛ لأنه من هذه الناحية تكون الطريقة الثانية.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾ [فصّلت: ١٥].

وأيضًا في سورة النَّحل مثلًا قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ [النّحل: ١٧]، فهل تجعل أنت الذي يخلق كالذي لا يخلق؟! إذا كان الذي لا يخلق من المخلوقين قد فتنت به؛ وظننت أن له كرامات، وكمالات بالرغم أنه مخلوق فما بالك بالذي خلقه؟! أليس الأَولى بك أن تعبده وتتضرع وتتخشع له، فكل نوع من الكمال يظنه الإنسان بكل مخلوق، الله هو الأحق به من جهتين: من جهة أنه: هو الذي خلقه؛ (الأثر على المؤثر).

ومن جهة: أنه ﷻ أفضل من المخلوق؛ لأنه لا يُعقل أن يكون المخلوق المنتن المحدث الذي لم يكن شيئًا بالأمس هو الأفضل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١] نعم، فأين كنت أنت قبل أن تولد أو قبل أن يولد أبوك وأمك، أين كنت؟ هل كان أحدٌ يعرف عنك شيئًا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] فمن الأفضل أنت أم ربنا؟! وهل الذين اتخذوهم شركاء أفضل أم ربنا؟! فالله

هو الأفضل وهو الخير؛ وهذه الأفضلية اسمها (الترجيح) أو (الترجيح والتفضيل)، وهذه هي الطرق الثلاثة في قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وكذلك أيضًا في سورة النَّحل: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [النحل: ٧٥] هذا مثال ضربه الله تعالى لنفسه؛ فهل أنت تساوي العبد المملوك - الذي لا يستطيع أن ينفعك أو يخدمك في شيء - بآخر قد رزقه الله الأموال الطائلة والعلم والطب: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ وينفق منه سرًّا وجهرًا بمعنى أنه ينفع الناس ليلَ نهارَ. فهل هذان يستويان؟!

فمن الأحسن والأفضل؟! طبعًا الثاني، وهذا المثل قد ضربه الله.

وكذلك الذين اتخذوا شركاء يقولون: إن هذا الشريك يفعل كذا وهو يملك كذا، فنقول أولًا: إن هذا الشريك عبد مملوك لا يقدر على شيء ولو كان النَّبيَّ محمدًا ﷺ؛ فهو عبد مملوك لا يقدر على شيء، وجبريل عليه السلام عبد مملوك لا يقدر على شيء، والمسيح عليه السلام عبد مملوك لا يقدر على شيء.

إذًا فمن الذي يملك ويقدر على كل شيء؟ الله سبحانه وتعالى، وحيث إنك لا تساوي في العبيد بين عبد مملوك لا يملك شيئًا وعبد آخر من بني آدم ولكنَّ عنده أموالًا كثيرةً ورزقًا وخيرًا وعلمًا وهو ينفع النَّاس، فكيف بك تساوي بين عبيد الله الذين لا يقدرون على شيء، وبين الملك الذي يقدر على كل شيء، فهذا هو (قياس الأَوْلى).

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ...﴾ [النحل: ٧٦] وهذا مثال آخر لعبادة هذه الأصنام وهي مصنوعة من الحجر، ف﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الذي يتكلم باللسان ويأمر بالعدل، والذي قامت به السماوات والأرض؛ وهذا أيضًا اسمه (قياس الأَوْلى)؛ الترجيح والتفضيل.

إثبات الكمال لله بالطرق الثلاثة من سورة العلق:

هذا هو القرآن الكريم وأول تنزيل ووحي على سيدنا النَّبي ﷺ، وقد ذكر هذا الكلام شيخ الإسلام في شرح الآيات الأُوَلِ من «سورة العلق» - هذه الآيات، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١-٥]، فأين دلائل الطرق الثلاثة في هذه الآيات، سأثبت لك الآن أن هذه الآيات الأُوَل من «سورة العلق» وكل ما فيها دندنة حول إثبات الكمالات لله بهذه الطرق الثلاثة.

■ **أولًا قوله:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾:

الطريق الأولى: الفعل مستلزم لصفات الكمال:

وخَلْقُ هذه الأشياء هو فعلٌ، ومستلزم أن يكون خالقها قادرًا، وعليمًا، وحكيمًا، وأراد هذا الخلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]؛ فهذه الآية قد دلت على الطريقة الأولى في إثبات الكمال لله؛ وهي أن الفعل مستلزم للصفات؛ فمثلًا لو نظرنا للكهرباء وكيف خُلقت؟ وإلى هذه

القدرة والجبروت؟! أو إذا نظرنا إلى ماهية الذرة التي في سلك النُّحاس وماذا في هذه الذرة؟!

أعرف طبيبًا قَدِمَ حديثًا من أمريكا، ويقول: إنه شاهد فيلمًا عن الذرة، يقومون خلاله بتكبير صورة الذرة (١٠٠ ألف) مرة، وكذلك بتصغير صورة المجرة بالنسبة نفسها تقريبًا، حتى يظهر في النهاية أن حجم المجرة كحجم الذرة، فيقول هذا الطبيب: إنه لم يستطع أن يفرق بين الاثنين أبدًا - بين الذرة وتكوينها والمجرة وتكوينها - فجعل يبكي ويقول كيف لهؤلاء الناس أن يشركوا؟! وكيف أنهم لم يستطيعوا أن يستنبطوا؟! فهنا الفعل مستلزم للصفة، فأنت لا تستطيع أن ترى الذرة أو الإلكترون الذي يسير في السلك، ومثله مليارات المليارات من الذرات تسير في هذا السلك، فهذه أمور عجيبة تدل على أن الله يرى هذا الإلكترون، أم أنه لا يراه؟! فهل من الممكن أن يكون خلقه ولا يراه؟! هو لا يحتاج لميكروسكوب إلكتروني ليراه؛ لأنه هو الذي خلقه؛ إذًا فالفعل مستلزم للصفات، وهكذا، وكذلك البحار والمحيطات والحيتان والمجرات، فالفعل مستلزم لصفات الكمال.

أما **الطريقة الثانية**: أن الذي خلق هو أحق بهذا الكمال؛ لأنه هو الذي خلقه.

الطريقة الثالثة: وهي أن كل كمال في المخلوق الخالق أحق به من جهة أن الخالق أفضل من المخلوق ومن جهة أنه هو الذي أعطاه هذه الصفة ومن جهة أنه هو الأفضل، طبعًا الطريقتان كأنهما متقاربتان وليستا كذلك فمع قراءة القرآن وإسقاط الآيات يتبين الفرق؛ لأن القرآن في معظمه يدندن حول إثبات الكمال لله سبحانه وتعالى وعز وجل بالطرق

المتعددة، ومن أهمها هذه الطرق الثلاث.

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، ثم ذكر شيئًا خاصًّا فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾، وهي قطعة متعلقة نشبت في رحم الأم التي هي النطفة الأمشاج، مثل الدويدة التي تظهر على فخذ الجمل أو فخذ الدابة حين تنزل للماء فتنشب وتمص دم الدَّابة، فاسمها علقة مثل الشماعة؛ كما يقال: (العُلِّيقَة)، مثل الخطاف فاسمها (عَلَقَة)، فأنت كذلك كنت شيئًا كهذا! شيء مستقذر وشيء ضعيف، وهكذا خلق الإنسان وهذا خلق خاص، ولكن من الذي كان يرى هذه العلقة؟! هذا يدل على أن الله يعلم ما في الأرحام؛ فكونه خلقك من علقة يدل على أنه يعلم ما في الأرحام. وقوله: ﴿خَلَقَ﴾ دلت على إثبات الكمالات كلها له سبحانه وتعالى بالطرق الثلاثة.

ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٣]، وهذه أيضًا يجهلها كثير من الناس، فـ(الأكرم) ليس معناه (الكريم) فحسب، نعم هو الكريم طبعًا؛ ولكن (الأكرم) هنا صيغة تفضيل مثل الأعلى، والأجل، والأعز، والأعظم، والأغنى، والأطول، والأعرض، فهي صيغة تفضيل؛ أفعل تفضيل، **فـ(الأكرم) تدل على**:

أولًا: أن كل كرم تجده عند شخص كريم؛ الله هو الأحق به؛ لأنه هو الذي خلق هذا الكرم فيه، فإذا وجدت رجلًا شديد الكرم ينفق غير مريد جزاءً ولا شكورًا، وتجده ينفق بسخاء وليس للمال من قيمة عنده وقت الكرم، وهو لا يريدك أن تكرمه إذا استضفته؛ ولا يريد ذلك لأنه كريمٌ بطبعه وصفته الكرم، فالذي خلق هذه الصفة فيه من باب أولى أن يكون هو الأكرم، فكلمة (الأكرم) أثبتت صفات الكمال لله سبحانه وتعالى بالطريقة

الثانية؛ لأن هذا الرجل الكريم من خلق له الكرم وأعطاه هذه الصفة؛ هو أولى به كما في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ثانيًا: من باب الأفضل فيكون الله هو الأكرم، فإذا كان فلان رجلًا كريمًا فمن الأعلى والأفضل منه في الكرم؟! الله بالطبع، وهذا متفق عليه ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، فـ(الأكرم) عن طريق قياس الأَوْلى؛ أو الترجيح والتفضيل دل على صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

وبعد ذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ فالذي علم بالقلم لا بد أن يكون هو الأعلم، **وذلك من جهتين**:

أولًا: من جهة أنه هو الذي أعطاه هذا العلم وهذه الصفة، فإذا كان هو الذي أعطاه العلم وهو الذي علم بالقلم إذًا فهو الأعلم وأولى بهذا العلم.

ثانيًا: من جهة أنه الأفضل وهذه ثابتة، فربنا أعلى وأفضل.

وهذه الآيات جاءت في أول سورة العلق تحدثنا عن الطرق التي تثبت الكمال لله ﷻ.

أحد الناس يقول: لماذا ندرس كل هذا؟ فأقول له: والله نحن الآن نعيش في وادٍ والإسلام في وادٍ آخرَ، ولأنَّنا ما خُلقنا إلا من أجل هذا، ولم نخلق من أجل الأكل والشرب والملبس؛ فكل هذه وسائل، إنما نحن خُلقنا للتعرف على الله؛ خلقنا لغاية؛ وهي أن نعبد الله وأن نثبت له الكمالات بالطرق السابقة التي درسناها، وهذا علاوة على الذكر المباشر

لأسماء الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

وتأمل الفرق بين (الأكرم) و(الكريم): فالأكرم: هو الأحق بالكرم؛ لأنه هو الذي خلق الكرم، والأكرم صفة تفضيل؛ فالله أفضل أصلًا وأساسًا. ومن هنا نجد أن (الأكرم) غير (الكريم)، وكذلك (الأكبر) غير (الكبير).

الأكرم والكريم:

الكرم هو: كثرة الخير ويسرته، كما قال ابن القيم، أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: اسمٌ جامع لكلِّ صفات الإحسان، أو اسمٌ جامع لكل المحاسن، هكذا قال في «سورة العلق»، فالكرم كما قلنا: كثرة الخير ويسرته؛ فالكريم كأن يكرمك أحدهم الآن بمأكولات وغير ذلك ثم بعد ذلك تجده يريد أن يقتص منك. أما الأكرم ففي التعريف الثاني لشيخ الإسلام وهو: اسم جامع لجميع المحاسن، فالمحاسن هي المحامد ولذلك يقال: إن الله هو الأكرم من خلال أن هذا هو الكرم.

ولننظر لقصة المرأة التي كانت في السبي وكانت تبحث عن طفلها فوجدته فألصقته ببطنها وأرضعته. قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ**» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**».

امرأة تَحَلَّب ثديها - يعني في صدرها لبنٌ كثيرٌ - وهذا ولدها وهو طفل، فألصقته ببطنها وجعلت ترضعه، فالنَّبي عليه الصَّلاة والسلام نظر

لهذه المرأة وشدة لهفتها في هذا الحال وهذا الموقف الذي هو شدة اللهفة وشدة الحال؛ فالمرأة في السبي ولم تَرَ ابنها وفجأة بعد بحث وتعب نظرت فوجدت ابنها، فحملته وجعلت ترضعه في حنانٍ كامل، فيستغل النَّبي عليه الصّلاة والسلام هذا الموقف الذي هو قمة الرحمة في الخلق، ويقول للنَّاس: «**تَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ أَلَّا تَطْرَحَهُ؟!**» يعني هل من الممكن أن تُلقي هذه المرأة ابنها في النار وهي تستطيع ألا تطرحه؟! قالوا: لا يا رسول الله وهي تقدر على ألا تطرحه؛ غير ممكن، قال: «**فَاللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(١) والله قادر على أن يطرحك، فلا الحسين يغلبه - والحسين برأه الله من ذلك - ولا البدوي ولا المسيح، يقول: أنا كنت المخلص وهؤلاء المسلمون لم يؤمنوا بي، فالله يقدر على أن يطرحك في النار، ولذلك يقول لك: «**فَاللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»، فانظر هنا إلى إثبات الكمال لله من النَّبي عليه الصَّلاة والسلام بطريق الأَولى، انتبه فهو أحق وأولى بهذه الرحمة من طريقين: من طريق أنه هو الَّذي خلق هذه الرحمة في المرأة، والدَّابة التي ترفع حافرها خوفًا على ولدها، ومن طريق أنه هو الأفضل من كل مخلوق.

فالكرم اسم جامع لجميع المحاسن، فكل صفة إحسان للإنسان، وكل صفة إكرام للإنسان، وكل صفة إعطاء خير على الإنسان، وكل صفة معونة للإنسان؛ فالله الأكرم هو الأولى بها، وهو الأحق أن يُدعَى وأن يُطلَبَ منه كلُّ شيء، وانظر إلى هذه الآيات وعليك أن تتدبرها جيدًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وعليك أن تعرف أن بداية الوحي هو الذي نتكلم عنه في هذا الكتاب وما كان كتاب الصَّلاة إلا من أجل هذا المعنى، بل والله العظيم ما كانت الصَّلاة إلا من أجل هذه المعاني، فالصَّلاة ما هي إلا تسبيح وتحميد وتكبير وقرآن؛ فانظر إلى العظمة.

الأعلى:

أما (الأعلى) فهو من أسماء الله سبحانه وتعالى وعز وجل ونشرحه على وجه السرعة طبعًا ولكن سأعطيك الخلاصة إن شاء الله.

العُلُوُّ أنواع:

أولًا: علوُّ قهر وغلبة؛ قال تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٨] يعني: إنك أنت مع الأعلى؛ أي: أنت عسكري للأعلى يا موسى فأنت أعلى، لأنك جندي الأعلى سبحانه وتعالى وعز وجل، وأيضًا المعنى: معك الله، ومن كان الله معه فمن ذا الَّذي عَلَيْهِ؟! من عليه أمام الأعلى سبحانه وتعالى وعز وجل.

فالأعلى أول نوع فيه: علو قهر وغلبة، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] هذه هي الطريقة الثانية وهي: طريقة الاستدلال بالأثر على المؤثر في إثبات صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وعز وجل، فحين تقول: (سبحان ربي الأعلى) يكون أولُ معنًى تَذْكُرُهُ في (الأعلى) هو علو القهر والغلبة، يعني هو أعلى من أمريكا، يقول قائل: نعم ربنا خلقنا وهو رحمان ورحيم ولكن نحن نريد أن نرى القوة، ومقصودهم من هذا أن أمريكا أجهز وأسرع وأعلى من الله، هذا لسان حالهم يقول كذلك، وقلوبهم أيضًا،

ولكن لا يقولونها بلسانهم، فالأعلى هو علو قهر وغلبة؛ وهذه هي الطريقة الثانية في إثبات صفات الكمال لله؛ فـ(الأعلى) ستثبت لك الكمالاتِ كلَّها، وتنفي النقائصَ كلَّها، وتنفي الأمثالَ كلَّها، هذا كله في صفة (الأعلى) وليس تكلفًا أبدًا، بل في منتهى البساطة والسلاسة.

فقلنا: إن أولَ شيءٍ عُلُوُّ القهر والغلبة.

ثانيًا: عُلُوُّ القَدْرِ: فمن أكبر قَدْرًا؟ الأعلى أم غيره؟! فكلمة الأعلى على وزن أفعل التفضيل؛ فـ(الأعلى) هو الأفضل، فالذهب أعلى من الفضة، فالأعلى هنا علوُّ قدْرٍ وعلوُّ أفضلية؛ فالأعلى بمعنى الأفضل؛ يعني كل خير وكل كمال الله أفضل منه سبحانه وتعالى وعز وجل، فهذه هي الطريقة الثالثة من إثبات الكمال لله الَّتي هي قياس الأولى أو الترجيح والتفضيل، فإذا قلتَ: (الأعلى) فقد أثبتَّ كل صفات الكمال بالطريق الثانية والثالثة.

ومرة أخرى نقول الطريقة الثانية: هي الأثر على المؤثر من جهة أنه هو الَّذي أعطى؛ فهنالك من هو أعلى، فمثلًا انظر إلى قوة الأَسَدِ أو السَّبُعِ، وسرعته، وقدرته على المناورة وعلى الجري، وعلى البطش بالفريسة، فالَّذي خلقه أعلى، ولكنك تكون شديد الخوف ويخفق قلبك رعبًا إن انفردت بالأسد، فكيف بك لا تخاف من الله وهو الذي خلق هذا الأسد بهذه القوة والرهبة والبطش وهو الأعلى من هذا الأسد. وأنا أعطيك إسقاطًا سريعًا، أما أنت فعليك أن تسقط إسقاطاتٍ دائمًا وباستمرارٍ على صفة الأعلى حتى يستقر عندك معنى الأعلى وأنه تعالى الأعلى في البطش والقهر والغلبة، وأنه الأعلى في القَدْرِ.

فالطريقتان الثانية والثالثة لإثبات الكمال لله سبحانه وتعالى وعز وجل. وهذا كله مختلف تمامًا عن قولنا (العلي)، أما (الأعلى) ففيها الطريقتان الاثنتان في منتهى الوضوح لإثبات الكمال لله سبحانه وتعالى وعز وجل، وبناءً على هذا فالعُلُوُّ عُلُوُّ قهر وعُلُوُّ قدر.

أما العُلُوُّ الثالث: فهو معنًى جديد ناتج من معرفة مقتضيات معنى علو القهر، فهو تعالى متصرف وقاهر للمخلوق ومتحكم فيه؛ إذًا هذا التصرف في المخلوق؛ لأنه «رب الناس ملك الناس» فهو الذي يقهرهم ويتصرف فيهم، فعلو القهر معناه أنه متصرف؛ فهو إثبات الربوبية، فحين تقول: الأعلى، فقد أثبتَّ ربوبية الله ﷻ، من علو القهر ومن علو القدر، فتكون أثبتَّ الربوبية وأثبتَّ الكمالات لله ﷻ بالطريقتين.

وهذا العُلُوُّ عُلُوُّ مكان: لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ولقوله ﷺ: «**أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»(١) فهذا علو مكان، وأيضًا علو القهر والغلبة، وعلو القدر يعني الأفضل، فنحن خُلقنا لنثبت هذه الصفات - ولكن إثباتها كمحامد وليس كمدائح - يعنى إثباتها في القلب وأن يكون القلب منشغلًا بأمرين لله؛ بالمحبة والتعظيم، فهذا الذي أقوله ليس من باب الترف العلمي؛ لأنك إذا قرأت اليوم هذا الكلام فأنت بذلك لم تُثبت الكمالات لله، ولم تُثبت المحامد لله، إنما أثبتَّها كمدائحَ لله، أما المحامد فتثبتها أنت، والحامد لله إذا تحرك قلبه عند قوله:

(سبحان ربي الأعلى)، وأخذ بكلمة (الأعلى)، فهذا حب وتعظيم،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا هو إثبات المحامد في (الأعلى). فعلو مكان، وعلو قهر، وعلو قدر وأفضلية فهذه ثلاثة.

أما الرابع: فحين أقول لك: علا عن هذا الأمر؛ فهو المتعال، تقول مثلًا: إن الله يتعالى عن هذا الكلام، هل ربنا يعمل الشر؟! تعالى الله عنه، فالعلو هنا معناه أن الله أعلى من هذا الشر، أي: لا يفعله لعلوه ورفيع قدره، ومهما تصورت فهو أعلى، ومهما حاولت أن تدرك عظمة الله فهو الأعلى بمعنى التعالي، فـ(علا عن كذا) لا ترد هكذا في القرآن، وإنما ترد: ﴿سُبْحَانَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٣]؛ فهذا تنزيه، فالأعلى اشتملت على التنزيه كله؛ لأنه تعالى عُلُوًّا، فهذه الصيغة؛ مثل: (تعالى، تبارك، تقدس) فتدل على السعة والمبالغة؛ أي: منتهى العُلُوِّ لله ﷻ ومن أوسع الأبواب، فكل شر تذكره الله يتعالى عنه. قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فهل الله يخلق هؤلاء النَّاس وقد جعل الإنسان سميعًا بصيرًا عاقلًا ذا فؤادٍ، وبهذه الإمكانيات وهذا الجمال ثم لا يأمره ولا ينهاه؟! فهل الله يخلق ذلك عبثًا؟! تعالى الله أن يفعل ذلك. والثانية قوله: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أي: لا قيامة، ولا بعث، والكل متساوٍ؛ فالنَّبي عليه الصَّلاة والسلام يكون مثل إبليس؟! وجبريل مثل فرعون؟! لأنه لا بعثَ، هل هذا هو الظن والحسبان؟! فالله مُتَعَالٍ عن هذا الظن منتهى العلو، ومنتهى العلو يكون على صيغة السعة والمبالغة، مثل تبارك.

فالأعلى فيها معنى التعالي عن كل الشرور والعيوب والنقائص، وعن النِّدِّيَّةِ، فقد ذكرنا من قبل أن التنزيه شقان: أحدهما أن الله لا يفعل العيب والشر، وهذا لا يكفي في إثبات الكمال لله؛ لأنه من الممكن أن

يكون هنالك آخر مثله لا يفعل العيب والشر، وبذلك لا يكون الله هو الأعلى؛ لأن شرط الإله أن يكون هو الأعلى، ومن هنا كانت أهمية الشق الثاني؛ وهو التعالي عن الأنداد والشريك والمثل، فلو كان إِلَهَانِ في الكون لعلا بعضهم على بعض، فالإله لا يرضى أن يكون له شريك في الملك وإلا لما كان إلهًا. وهذا هو المعنى الرابع في العلو، فـ(الأعلى) فيها التعالي: يعني التنزيه الرهيب المستمر عن كل النقائص، والأمثال، وعن الأنداد، وعن الأولاد، والشركاء، ففيها إثبات الإلهية، يعني ليس له شركاء ولا أولاد، وهذا هو معنى: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فـ(الأعلى) فيها: (لَا رَبَّ إِلَّا اللهُ) وفيها: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وفيها إثبات كل الكمال لله.

وهذه المعاني ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في سورة الأعلى في المجلد السادس عشر[1]، فانظر إلى عملقة ابن تيمية وقد منَّ الله عليه مِنَّةً عظيمة للوصول إلى هذه المعاني في الآيات، ومثال «سورة العلق» والأعلى والأكرم وهذا الكلام لا تجده إلا عنده.

فخُلِقْنَا لنثبت الكمال لله وتثبته في قلبك أنت، فالله لا ينقصه إثبات كمالات! إنما أنت تثبتها في قلبك؛ لأننا الفقراء إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] أي: أنتم الفقراء إلى (الرب)، وإلى (الإله)؛ فـ(الله) كلمة يشمل معناها معنى: (الرب، والإله)، فالافتقار ليس إلا إلى الرب - يعني: في المأكل والمسكن وما إلى ذلك - إنما أيضًا الافتقار إلى الألوهية؛ أي: أنك فقير أن تسجد له وتقول: (سبحان ربي الأعلى)، وأنت متأثر ومنفعل بالمعاني، وستجدك وقد

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٩٧).

خرجت من الصلاة وأنت متغذٍّ غذاءً روحيًّا، ولديك قوة روحية، وتخرج من الصلاة وأنت منتعش.

فهذه هي القضية؛ فنحن خُلقنا من أجل إثبات الكمالات لله في قلوبنا بحبٍّ وتعظيم. ونسأل الله ﷻ أن يمن علينا وعليكم بالعلم الكامل من كتابه الكامل.

صفات الله تعالى

تكلمنا في مسألة تعظيم الصلاة والخشوع فيها ودراسة معانيها، وذكرنا بعض معاني الصلاة، وشرحنا معنى التسبيح ومعنى التحميد ومعنى التمجيد، وما زال البيان مستمرًّا في معاني أذكار الصلاة ونأخذ معنى المجيد، ومعنى العظيم إن شاء الله.

۞ التذكير دائمًا بالهدف الذي خلقنا من أجله:

وقبل أن نسترسل في ذلك نُذكِّر دائمًا بأننا لم نُخلق إلا لهدف التعرفِ على الله ﷻ بأسمائهِ الحسنى وصفات كماله ونعوت جلاله وما يترتب عليها من العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. فإذا عرفنا الله ﷻ بصفات إحسانه ومحامده أحببناه غاية الحب، فلا تجد حبًّا بعد ذلك أو يتقدم ذلك أو أكبر من ذلك، ثم إذا عرفنا صفات العظمة والبطش والقهر والغلبة لله ﷻ ذللنا له غاية الذل، فلا تجد ذلًّا أكبر من ذلك.

وإذًا فلماذا خلقنا؟ خلقنا لنعرف الله بصفاته الثبوتية، وما النفي إلا لإثبات الصفات أيضًا.

الصفات الثبوتية نوعان:

والصفات الثبوتية نوعان: وهذا هو الأمر الجلل الذي يغيب عن أكثرنا؛ إذا كنا قد خلقنا لنعرف الله، **فليعلم كل منا أن الصفات الثبوتية نوعان**:

النوع الأول: هو التحميد أو المحامد أو المحاسن والتي من أجلها يحب الله ﷻ بغاية الحب.

والنوع الثاني: هو التمجيد والتعظيم وذلك يؤدي إلى الذل لله بغاية الذل.

وما العبادة إلا جمعٌ لهذه الصفات الثبوتية بآثارها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. فما معنى: (يعبدون)؟ يعني: غاية الحب مع غاية الذل. وكيف تأتينا غاية الحب؟ تأتينا بمحامد الله وبمحاسنه ﷻ، وغاية الذل تأتينا بعظمة الله وبكبريائه وبتكبره وبجلاله ﷻ.

■ **مرةً أخرى الصفات الثبوتية نوعان**:

النوع الأول: المحامد، **والنوع الثاني**: التمجيد.

فإذا قلنا: التحميد والتمجيد، فليست مجرد كلماتٍ إنشائية على السجع والقافية؛ إنما هذا أمرٌ جَلَلٌ مَن جَهِلَهُ؛ خسر خسرانًا لا عوض له لا في الدنيا ولا في الآخرة.

فكل العبادات وكل الأذكار والصلاة على وجه الخصوص دندنة لمعرفة الله ﷻ ولإثبات كمالات الله بنوعي الثبوت.

إذا سألك أحد لماذا خُلقنا؟ فقل: لكي نعبدَ الله، وما معنى أن نعبد الله؟ معناه: أن نحقق غاية الحب لله مع غاية الذل في آنٍ واحد؛ هذه هي العبادة. وأنَّى لنا ذلك؟ هذا سهل؛ يكون بدراسة صفات الله. ولكن ما المقصود بصفات الله؟

المقصود بصفات الله نوعان:

صفات ثبوتية أي: تثبت لله أنه كريمٌ وأنه محسنٌ وأنه برٌّ وأنه توابٌ عفوٌّ غفورٌ رحيمٌ منعمٌ رزاقٌ وتثبت له المحاسن وصفات الإحسان كلها. فهذه هي المحامد أو التحميد.

وهناك صفات ثانية تُولد خوفًا وتُولد الذل وغاية الذل؛ وهي صفات العظمة.

ولماذا أتينا نحن المساجد؟ ولماذا نتعلم الصلاة؟ لنتعلم غاية الحب مع غاية الذل؛ فهذان الاثنان هما العبادة، وقد خلقنا من أجل هذا، فإذا فاتك هذا المعنى ندمت ندمًا لا أوَّل له ولا آخر، ولن تفلح إذًا أبدًا. ومن أجل هذا - برحمة الله ﷻ القرآن كله والسنة كلها والدين كله دندنة حول هذا المعنى.

فنجد من يقول: والتسبيح! نقول له: نعم التسبيح: هو التنزيه المستمر الذي يتضمن الإثبات، فالهدف في النهاية هو الإثبات، فما الذي تثبته لله؟ تثبت شيئين، خطين متوازيين؛ خط المحاسن التي يُحسن بها إليك وتُحِبُّ من أجلها، وخط العظمة التي تُذَلُّ من أجلها.

معنى: (ذو الجلال والإكرام):

إذا أردت أن تثبت لله كل شيءٍ فقل عنه: (ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ).

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»[1]؛ فقد أثنيت على الله الخير كله إذا قلت: (يا ذا الجلال والإكرام)؛ لأن (الجلال) رمز لصفات العظمة والتمجيد والتبجيل، وهذا هو الذي يؤدي إلى الذل، بل إلى غاية الذل.

(والإكرام) رمز لمحاسن الله؛ فقلنا من قبل: إن (الكرم): اسمٌ جامع لجميع معاني المحاسن لله سبحانه وتعالى وعز وجل غير البطش والقهر والعظمة، فنجد أن (ذو الجلال) هذه هي التعظيم، (والإكرام) هي التحميد؛ يعني: المحاسن.

لكن لو ذكر (الحمد) منفردًا، فهو يشمل كلَّ شيء؛ فأنت عند قولك: (الحمد لله) تثبت لله ﷻ في قلبك كلَّ المحامد بما فيها العظمة والجلال والإكرام.

لكن إذا ذكرت كلمة (الحميد) ومعها (المجيد) نجد أن:

(الحميد) هنا تختص بالمحاسن بحيث بها يُحَبُّ الله ﷻ غاية الحب.

(والمجيد) تختص بالتعظيم الذي يُولِّد غاية الذل.

فحين نقول: (ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ):

فـ(الجلال): هذه هي العظمة التي تُنشئ الذل في قلب الإنسان.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(والإكرام): وهي صفات المحاسن كلها التي تُثبت غاية الحب لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

فهذه (ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ).

معنى: (حميدٌ مجيد):

أما العبارة الأخرى: (إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) فشديدة القرب من قولنا: (ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) ولماذا؟

لأننا نجد أن (حميد) اسم من أسماء الله، وما معنى (حميد)؟ معناها كل المحاسن لله سبحانه وتعالى وعز وجل؛ أي: أنه يُحَبُّ حبًّا لا حدود له؛ مثلًا أنت تحب رجلًا؛ لأنه أحسن إليك في كذا، وأنعم عليك بكذا، وتفضل عليك بكذا، وغفر لك كذا، وعفا لك عن كذا؛ فأنت تحب هذا الرجل؛ لأنه أكرمك بهذا، فمن الأكرم والأحق بكل إكرام؟ الله سبحانه وتعالى وعز وجل؛ إذًا فالحب كله لله.

أما (مجيد): فهي العظمة كلها؛ المجد والعظمة كلها لله سبحانه وتعالى وعز وجل بعد الحمد.

وسنرى كيف أن هذا الكلام مكرر في الصلاة؛ وأن آخر شيء في الصلاة هو: «**إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[(١)] بعد أن قلت كل شيء في فاتحة الكتاب وفي غير فاتحة الكتاب.

فالصلاة إثباتٌ للخطين، خطٌّ اسمه محاسن الله التي يُحَبُّ من أجلها الحبَّ المطلقَ، وعظمة الله التي يُذَلُّ من أجلها لله الذلَّ المطلقَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إذًا حين أطلب منك عبارة سهلة تجمع كل المعاني فعليك أن تقول: (ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فـ(الجلال) خط العظمة، و(الإكرام) خط الحب.

وطبعًا ربنا يُحَبُّ؛ لأنه عظيم، لكن حين تأتي (ذو الجلال) مع (الإكرام) يكون الحبُّ (للإكرام) والذلُّ ناتجًا عن (الجلال). وما الحب والذل؟! هما العبادة؛ فهي غاية الحب مع غاية الذل في وقت واحد.

معنى: (غنيٌّ كريمٌ):

حين تقول: (إِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) مَعَ (ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) فهي نفسها كأنك تقول: (حَمِيدٌ مَجِيدٌ)؛ فأنت تثبت لله كلَّ شيءٍ بهذا، وما معنى (غَنِيٌّ كَرِيمٌ)؟

عرفنا من قبل معنى (كَرِيمٌ): وهي المحبة كلها والمحاسن كلها.

و(غَنِيٌّ) معناها: أنه تعالى غنيٌّ بنفسه، غنيٌّ بذاته، وكل ما سواه فقيرٌ بذاته إلى الله سبحانه وتعالى وعز وجل؛ فغنيٌّ بذاته أي: لا يحتاج إلى أحد؛ فهذا نوع من العظمة أنه لا يحتاج لأحد أبدًا ولا يحتاج لمخلوق؛ فهو عظيم، فما بالك إن كان كلُّ مخلوقٍ يحتاج إليه وهذا اسمه: (نهاية العظمة)؛ كما يقول شيخ الإسلام.

ولذلك نهاية العظمة لله ﷻ؛ لأنه الغنيُّ عن كل شيء، فلا يحتاج إلى أرض ولا إلى سماء ولا إلى عرش ولا إلى حَمَلَةِ العرش ولا إلى عباداتٍ ولا إلى تسبيحٍ ولا يحتاج إلى شيء مِن هذا.

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن﴾ من ماذا؟ ﴿مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ

ﭐلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] فالله تعالى لا يحتاج إلى أحدٍ، بل العظمة أن كل ما سواه محتاجٌ إليه ولا يقوم إِلَّا به وهذه هي نهاية العظمة؛ ولذلك اسمه تعالى (العظيم)، وكما سنرى هو اسمٌ جامع لعدة صفات ولعدة أسماء، كما أن (المجيد) أيضًا يجمع عدة صفات وأسماء، فالأسماء الجامعة: كالصمد والأحد والعظيم والمجيد والحميد؛ أسماء جامعة لمعانٍ أو لصفاتٍ متعددة.

وهذا غير اسمه تعالى السلام والقدوس، فهذا نوع ثانٍ من أسماء الله وصفات الله، فـ(القدوس) من أسماء التنزيه، و(السلام) تنزيه مطلق يتضمن إثبات الكمالات المقابلة.

فإذا قلنا: (ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)، (إِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) وجدنا أن (الغَنِيَّ): هو العظمة؛ العظمة كلها فلا يحتاج لشيء أبدًا بل كل شيء محتاجٌ إليه؛ وهذه هي نهاية العظمة، أما (الكريم) وقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ٣] فهذا هو الحب. و(الغَنِيُّ): يُعَظَّم و يُعَظَّم أي ذُلٌّ في القلب. و(الكريم) يُحَبُّ؛ فغاية الحب مع غاية الذل هما العبادة، وهذا الذي خلقنا من أجله.

۞ الغَنِيُّ الحَمِيدُ:

عند قولك: (الغَنِيُّ الحَمِيدُ) في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥] فقد جمعت كل شيء؛ فالتعظيم كله في (الغني)، وحينما تقول: (المجيد أو الغني أو العظيم أو ذو الجلال)، فهذا كله يؤدي إلى المعنى ذاته وكله خط واحد وهو خط التعظيم الذي يُولد ذلًّا لله في قلب الإنسان.

(فالحميد) كلمة شديدة القرب من (الكريم)، لكن (الحمد) ضد (الذم)؛ ولذلك حين يُفرد (الحمد) لا يكون معناه (الكريم) فحسب، بل (الكريم العظيم) و(الغني الكريم)، فكل هذا حمد، لكن إذا كان مع (الحميد) الغني أو المجيد، فعند ذلك تختص (الحميد) بصفات المحاسن والإكرام الذي فيه الحب؛ فكل ازدواج من هؤلاء: (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ)، (غَنِيٌّ كَرِيمٌ)، (غَنِيٌّ حَمِيدٌ)، (حَمِيدٌ مَجِيدٌ) يؤدي إلى المعنى ذاته الذي نريده.

معنى: (لَهُ الملْكُ وَلَهُ الحمْدُ):

هي المعنى ذاته؛ فـ(الملك) أثبتَّ بها العظمة كلَّها لله، و(له الحمد) أثبتَّ بها المحامد والمحاسن كلَّها لله سبحانه وتعالى وعز وجل، يُحَبُّ من أجلها غاية الحب، و(له الملك) يُذَلُّ من أجلها غاية الذل؛ لأنه المَلِك وله المُلْك وله التعظيم فيُذَلُّ لله سبحانه وتعالى وعز وجل ولا يُذَلُّ لغيره. وإذا كان هو الملك؛ إذًا فالكلُّ عبيدٌ؛ فهي عظمة يقابلها عند الإنسان ذلٌّ، فيكون (لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ).

(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ):

سُئِلَ النَّبي ﷺ: أي الكلامِ أفضل؟ قال: «**مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»[(١)]، والملائكة ما عملهم غيرُ هاتَيْنِ الكلمتَيْنِ؛ قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]، فالملائكة يعملون في أفضل الكلام. وما معنى: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)؟

(الحمد) حين يأتي منفردًا يعني: كل المحامد وكل الكمالات لله بما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فيها العظمة والجلال والغِنَى. أما حين يأتي معه التعظيم، فيتضمن أو يختص بالمحاسن والإكرام.

فهنا قال: «**سُبْحَانَ اللهِ**» وهى - كما ذكرنا - كلمةُ تنزيهٍ مستمرٍّ، أو تبعيدٍ مستمرٍّ بين الله ﷻ وبين النقص والعيوب والآفات والشرِّ والمثال؛ كما بَيَّنَّا نوعَيِ التنزيه.

فالتسبيح ما هو إلا تعظيم؛ لأنه طالما أن التسبيح تنزيه عن الضعف وعن العجز وعن الخطأ وعن المثيل إذًا فهو عظيم، فنجد أن التسبيح يقتضي ويُثبت التعظيم، فحين تقول: (سُبْحَانَ اللهِ)، فقد أثبتَّ العظمة لله، فتكون قد عظمت الله سبحانه وتعالى وعز وجل، وحين تقول: (وَبِحَمْدِهِ) فقد أثبتَّ المحامد لله والمحاسن لله، فيكونُ بذلكَ التعظيمُ هو الْمُنْشِئُ الذُّلَّ في القلوب، والمحاسنُ هي الْمُنْشِئَةُ الحُبَّ في القلوب.

۞ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ:

فأفضل الكلام ما اصطفاه الله لملائكته وهو: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)، وهذا على الإجمال، فإن أردنا أن نُفصِّلَ فعلينا أن نَذْكُرَ آخِرَ حَدِيثٍ في صحيحِ البخاريِّ كُلِّهِ - وآخِرُ كتاب في «صحيح البخاري» كتابُ التوحيد - أَلَا وهو: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»(١). هما كلمتان مثل: (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) ولكنهما جمعتا كلَّ شيء، وكذلك: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)، فنجد أن (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)

(١) أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تكفي، ولكن هذا إجمال، ونحن نريد التفصيل لعل هناك من لَا يفهم (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) ويقول: هي ليست إلا إثباتَ المحامدِ لله ليس بها تعظيم، فنجد أن التكملة توضح فنقول: (سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)، لأن هذا هو نوعَا الثبوت.

فـ(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) وحدها تكفي، لكن عند التفصيل تقول: (سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)، مَعَ أن الأولى تتضمن الثانية، وهي إثبات لمحامد الله ﷻ على وجه الكمال؛ لأنك لم تذكر الحمد وحده، بل ذكرت التسبيح أيضًا.

فتكون بذلك أثبتَّ الحمد الذي بِهِ يُحَبُّ اللهُ ﷻ الحبَّ الكاملَ بنوعيه: الثبوتِ والتنزيهِ.

أثبتَّ الحمد في (وَبِحَمْدِهِ)، ثم أثبتَّ التسبيح أو عدم النقص بأن قلت: (سُبْحَانَ)؛ فتكون بذلك قد قلت: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)، ثم قلت: (سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ).

وهذا الحديث آخِر حديث في «صحيح البخاري»؛ فنجد عظمةَ الإمام البخاري وفهمَه.

۞ سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ:

إذا أردنا أن نُفصل أكثر، فماذا علينا أن نقول في الأذكار؟ نقول: (سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ)، فنجد أنها هي نفسها (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)، أو (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ)، أو (غَنِيٌّ كَرِيمٌ) أو (حَمِيدٌ مَجِيدٌ)، أو (الغَنِيُّ الحَمِيدُ)؛ الكلام نفسه، ولكن التفصيل الأكثر يكون في: (سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ)، فإذا أردنا أن نفصل أكثر زِدْنَا عليها: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ).

۞ هل تعرف ما جُعل في الصلاة لمن لم يحفظ الفاتحة بعد ولا يعرف شيئًا من القرآن؟

جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ فَعَلِّمْنِي شَيْئًا يُجْزِئُنِي مِنَ الْقُرْآنِ. فَقَالَ: «**قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**»(١). هل هذه الصلاة؟ نعم هذه الصلاة؛ فالصلاة كلها تَعَرُّف على الله سبحانه وتعالى وعز وجل بنوعي التنزيه ونوعي الثبوت. فنجد من الناس من يقول: تنزيه وثبوت! هذا كلام ليس إلا في الكتب وأنا لا أفهمه، فنقول له: إنك محروم إلَّا أن يتوب الله عليك.

وظهر لنا هنا شيء جديد وهو: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

۞ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ:

(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) هي (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) أو (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ) أو (سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)، المعنى نفسه.

أو تقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وحدها، فهي تكفي وذلك كله تفصيل لما أُجمل، فإذا أردت أن تُجمل، فلا تقل إلا واحدًا من هذا الذي قلناه سابقًا.

(١) أخرجه أبو داود (٨٣٢)، والنسائي (٩٢٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما.

ومعنى: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ): لَا مألوهَ إلا اللهُ، وما معنى المألوه؟ لنعرف ذلك يجب علينا أن نذكر الفرق بين المحمود والحميد؟

معنى (المحمود): هو الذي يحمده غيره؛ فوقع عليه الحمد وقد يكون مجرمًا ولصًّا وكبيرًا بلا وجه حق لكن يقال عليه عند الوصف: هذا رجلٌ عظمةٌ كلمتُهُ سيف؛ قتل خمسةً بكلمةٍ، يحمدونه بهذا؛ لأنهم سفهاءُ، لكن هل هو حميد؟! لا ليس حميدًا؛ هو مجرم ولكنه محمودٌ؛ فالناس يحمدونه.

أما (الحميد): فهو يستوجب الحمد سواء حمده الناس أم لا. ولنتذكر هذا المعنى، نذكر الفرق بين الحبيب والمحبوب، والمجيد والممجد، والقدوس والمقدس، كل هذه الصيغ مرادفات.

فما معنى (مألوه): يعني: يستحق التأله سواء أَلَّهَهُ الناس أم لا. لكن هو يستحق أن يكون الإلهَ الواحدَ سبحانه وتعالى وعز وجل، فالمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، مرة أخرى نُذكِّر لماذا يعبد؟ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

أذكر كلامًا من كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية مع قليل من التصرف، يقول: (الإله: هو المألوه، وهو الذي يستحق أن يُعبد؛ وذلك لما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوبُ غاية الحب - الحميد - المخضوعُ له غاية الخضوع - العظيم - والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل، ففيها حبه وحمده على المحاسن وفيها الذل له الناشئ عن عظمته وكبريائه، ففيها إجلاله وإكرامه).

فحين تقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فمعناها: لا مألوه إلا الله. يعني: لا

يستحق العبادة إلا الله ولا يستحق غاية الحب مع غاية الذل إلا الله.

ولماذا غاية الحب؟ ولماذا غاية الذل؟

لأن له صفاتٍ تجعل له غاية الحب مع غاية الذل؛ فهو (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) أو (الحَمِيدُ المَجِيدُ) أو (لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ) أو (غَنِيٌّ كَرِيمٌ)، أو تقول: (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) أو (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ)، أو تقول أكثر: (سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)، أو تُجمل وتقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

تطبيق عمليٌّ من قصة سيدنا يونس عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء:٨٧].

مغاضبًا، أي: لربه، وذلك في تفسير ابن مسعود والشعبي والحسن وغيرهم، وهذا المعنى هو الذي يترجح عند شيخ الإسلام، وهو وجيه جدًّا؛ إذ ذهب مغاضبًا: أي: زعلانًا. فالله لم يدمرهم مع أنهم كفار ومجرمون ولكن كأنه كُذِّبَ أمامهم، والعذاب لم يأتهم! بل تاب الله عليهم: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨] مغاضبًا لربه وهو بذلك لم يكن إلا غضبًا لله سبحانه وتعالى في النهاية لأنه يريد أن ينتقم من هؤلاء الكافرين، ولكن لم يحدث انتقام؛ لأنه حدث استثناء لهم، فالله هو العزيز الرحيم، فسيدنا يونس هنا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء:٨٧] أي: أن لن نُضيق عليه، وليس المعنى أن الله لن يقدر عليه من القدرة؛ فهو نبي كريم، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الصافات:١٣٩] هو رسول كريم فكيف

يشك في قدرة الله؟! ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات:١٥٤]

فظن أن لن نضيق عليه، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، ماذا قال؟ قال شيئين: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ ثم فصَّل، فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، ثم فصَّل، فقال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

۞ ما معنى: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)؟

أيُّ شيءٍ أثبته لله سبحانه وتعالى وعز وجل؟ أثبت كلَّ شيء، ليس الإلهية فحسب، وما هي الإلهية، هو المستحق العبادة، لاتصافه بصفات يستلزم أن يُحب بها غاية الحب، وله من الصفات ما استلزم أن يُذل له بها غاية الذل، وهذا معنى الإله.

ثم قال: (سُبْحَانَكَ)، ما معنى: (سُبْحَانَكَ)؟ على أي شيء تدل؟ نجد أن (سُبْحَانَكَ) زيادة على (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) ولكن انظر إلى الإسقاط هنا، فـ(سُبْحَانَكَ) ماذا تقتضي؟ تقتضي التعظيم، فالتسبيح يقتضي التعظيم؛ لأن التسبيح في النهاية تعظيم. أما (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ)، فهذا تعظيم مع حب، المحبة هنا الحمد، فإذًا هو يُعظِّم الله ﷻ في كلمة: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ). عن أي شيء ينزه الله؟ ومن أي شيء يبرئ الله هنا؟ يبرئه من الظلم.

فنحن نقول: التسبيح هو تنزيه مستمرّ، لله لا يتوقف عن النقائص والعيوب، فهذا كلام نظري، أما العملي فالذي شرحناه من قبل في التسبيح؛ وهو أنك وقت المصيبة تقول: (لماذا يا رب؟) فأين تسبيحك وقتها.

ولكن سيدنا يونس يسبح (في المصائب): ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ

﴿ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصافات:١٤٣] من المسبحين، ليس من أصحاب الجيل الرديء الذي نعيشه الآن، بل كان من المسبحين، فهو يفهم معنى التسبيح تمامًا.

﴿لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات:١٤٤] فهو يُبرئ الله عن الحالة الخاصة به، فلا تقل هو ينزه الله عن النقائص والعيوب، فهذا كلام إجمالي نشرح به التسبيح، ولكن الآن نذكر هذا الإسقاط لنفهم ولا ننسى، فكلنا نعرف قصة سيدنا يونس، هو في بطن الحوت في الليل في قاع المحيط فمن الذي يستطيع أن يخرجه؟! بل من يراه؟! فيونس عليه السلام يسبح ربه ويبرئه، ومن أي شيء يبرئه؟! هل من النقائص والعيوب والآفات والمثال، هل هذا يمكن أن يكون من سيدنا يونس، بل المقصود من تسبيحه عليه السلام الحالة الخاصة التي هو فيها الآن، وما هذه الحالة الخاصة التي هو فيها؟ الحالة الخاصة هي أنه يقول: يا رب كون أنني في هذه الظلمات ليس بظلمٍ منك لي، فأنا أستحق: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ وإنما ذلك لصفات كمالك (العدل) فقد جازيتني بعدلك، فأنت مبرأ عن الظلم، وإذا نُزِّه الله سبحانه وتعالى عن الظلم، فهذا معناه إثبات العظمة لله.

فإذا نظرنا من البداية لماذا يَظْلِمُ الإنسان؟

الإنسان يظلم لأمرين:

إما لجهله: أي تَعَدَّى وظلم ولا يدري ماذا فعل، وإما لحاجته، فهو يحتاج مثلًا لهذه الأرض ليقيم عليها مشروعًا فيظلم اليتامى ويأخذ الأرض بوضع اليد أو بطريقة من الطرق المحرمة.

فنجد أن الإنسان يظلم لشيئين: إما لجهله أو لحاجته. فهل الله عنده جهل أو حاجة؟! حاشا لله ﷻ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾. يعلم كل شيء: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢] وهذا العلق لم يكن يراه الأب أو الأم أو يعرف عنه أحد شيئًا.

فالله تعالى ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ وهذا هو إثبات الصفات الذي جاء في أول التنزيه كما شرحناه.

فهو سبحانه وتعالى وعز وجل عليمٌ بكل شيء، فهل الله يحتاج لأحد لكي يظلمه؟! لا؛ فهو له كمال العلم مع كمال الغنى، فهو لا يحتاج إلى غيره، إذًا كونه مُبرأ عن الظلم ذلك لسبب أنه لا يحتاج لغيره فهو الغني، ولا يجهل شيئًا، فهو العليم.

فإذًا أثبتَّ العظمة لله، فالعظمة أيضًا توجب براءة الله من الظلم لأن العظيم في النهاية هو الذي لا يحتاج لأحد من خلقه ولا يمتنع عليه شيء، فهذه هي العظمة، لا يتعاظم عليه شيء ولا يمتنع عليه شيء، هذه هي العظمة.

فحين يقول سيدنا يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ فهذا إثبات كل شيء لله، ثم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ معناه أنت مبرأ -أن جعلتني في بطن الحوت بالليل في قاع المحيط عن ظلم منك حاشا لك وإنما هو عن ظلمٍ مني أنا- عن أن تظلمني لأنك بكل شيء عليم ولأنك الغني فلا تحتاج إلى ظلمي، ثم إنك تعلم كل شيء؛ فلا أنت تظلمني لا عن جهل ولا عن حاجة.

فنجد التسبيح ومعناه هنا وكيف قالها سيدنا يونس فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ

أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فكانت النتيجة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

نجد كثيرًا من الشراح مثلًا (الفخر الرازي) في شرح (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ)(١)، أو حتى (الكرماني) - وأنا أقرأ «فتح الباري»(٢) - يقول: ذو الجلال: يعني: صفات السلب، والإكرام: صفات الإثبات.

طبعًا هذا الكلام غير صحيح، إنما الصحيح الذي قاله بطل الأبطال شيخ الإسلام العملاق - نسأل الله ﷻ أن يجزيه عنا خير الجزاء - بأن (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) هما نوعا الثبوت، (الجلال) صفات ثبوت، ليس نفيًا ولا سلبًا، فهي صفات ثبوت تتضمن سلب النقص طبعًا، إنما الأصل فيها أنها ثبوت، (والإكرام) أيضًا ثبوت(٣)، أما الذي لم ينتبه لهذه المعاني التي قلناها فيقول: إن الجلال صفات السلب، والإكرام صفات إثبات، والإنسان الذي سمع هذا الكلام يصرف النظر تمامًا ويفقد الأمل في أن يفهم هذا الكلام، ويظل في الصلاة كما هو الحال.

إنما المنة من الله أن يُعطَى شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم هذه المعاني التي نجتهد من أجلها، وإذا قيل: اللغة العربية، ففعلًا مصيبتنا في اللغة العربية، فإن الاستعمار أحدث خرابًا في هذا المجال، فقد ركز على تدمير اللغة العربية عن طريق المناهج وما إلى ذلك، مناهج خططوا لها بمكر رهيب، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦].

---

(١) «تفسير الرازي» (١/ ٩٨).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٥٤١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٢).

فخططوا من أجل نسف اللغة العربية، وهذه مصيبة، ولكن هل اللغة العربية تكفي؟ بالطبع لا تكفي، بل لا بد معها من التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

قد ضربنا مثالًا، أسقطنا هذا الكلام على يونس عليه السلام لما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧].

اللَّهُ أَكْبَرُ:

نريد الآن أن نذكر شيئًا عجبًا، قبل أن ننتقل للمجيد والعظيم، فما هذا العجب؟

أريد منكم أن تجيبوني على هذا السؤال: ما الكلمة التي تجمع كل ما قلته؟ وتثبت كل شيء لله عز وجل وتنفي عنه كل نقص؟ هي كلمة: (اللهُ أَكْبَرُ)، فـ(اللهُ أَكْبَرُ) أي: أكبر في النوعين اللذَيْنِ تكلمنا عنهما، النوع الأول: المحاسن والمحامد أي خط الحب، ونوع آخر: العظمة والجلال أي خط الذل، إذًا هنا خطان.

كل حظ في التعظيم حق الله أكبر منه، فيكون بذلك: (اللهُ أَكْبَرُ)، سواء للمخلوق أو للخالق، أو كل شيء تتصوره لتعظيم الله سبحانه وتعالى، فالله أكبر من ذلك، فيكون (اللهُ أَكْبَرُ) في التعظيم ويكون ذلك هو الذل الذي ينشأ في القلب.

وكل شيء عن المحاسن وعن النعم وعن الخيرات وعن الإفضال تتصوره عن الله سبحانه وتعالى فهل يا تُرَى الله هكذا فعلًا أم أنه تعالى أكبر من ذلك؟! بالطبع أكبر، فأنت هنا خط الحب أثبتَّه على الكمال وعلى القمة،

وخط الذل أثبتَّه على الكمال وعلى القمة في قولك: (اللهُ أَكْبَرُ)، ولذلك أيهما أفضل وأكمل: الكبرياء أم العظمة؟

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبي داود وغيره: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي**»[1] فهنا تنتبه؛ لأنه حين يتكلم شيخ الإسلام يكون كلامًا رهيبًا، فهو هنا تعرض لكلمتي: (أكبر) و(أعظم)، أيهما أفضل؟ فقال: إن (أكبر) أكمل، وقولك: (اللهُ أَكْبَرُ) أتم من قولك: (اللهُ أَعْظَمُ)، هو فعلًا أعظم، ولكن شيخ الإسلام لم يجد أثرًا أو آيةً تقول: إن (اللهُ أَعْظَمُ) بدلًا من (اللهُ أَكْبَرُ)، وإن كنتُ أنا وجدت في البحث عن الأحاديث والآثار لكن هذا لا يعنينا الآن، فـ(أكبر) أكمل من (أعظم)، فالحديث: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**» وهو عند أبي داود.

وأخرجه مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**»[2].

وفي رواية: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «**الْعِزُّ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي بِشَيْءٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»[3].

فنحن سنأخذ الرواية الأولى التي لأبي داود، وهي: «**قال الله تعالى: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**». ما الرداء؟ وما الإزار؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٥٢) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذا على وجه التمثيل، وتجد شروحًا كثيرة في ذلك. فمثلًا قرأت لشيخ الإسلام يقول: إن الرداء أشرف من الإزار وأكمل وأعلى؛ لأن الرداء يغطي الجزء الأعلى من الإنسان - على جهة التمثيل - ولماذا؟ لأن العربي يلبس رداءً، فهل من الممكن أن يشاركه فيه أحد أو أن يلبس هو كُمًّا ويلبس آخر كُمًّا؟ بالطبع لا، وكذلك الإزار، وهو الذي يكسو العورة والجزء الأسفل، فهل من الممكن أن يشاركه فيه أحد، فالإنسان لا يقبل المشاركة في هذا، هذا من باب التشبيه وهذا هو المعنى - ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض - الكبرياء رداؤه، ولا تَقُلْ: كيف؟! فلا تمثيل ولا تعطيل، فالرسول قال كلامًا عن رب العزة؛ إذًا فهو صحيح، ولكنه على وجه التمثيل من ناحية أن الإنسان لا يقبل شريكًا في ردائه، فكيف ترضى من الله أن يقبل شريكًا له في ردائه سبحانه وتعالى وعز وجل، فما رداء الله؟ الكبرياءُ.

والحديث الثاني سوف نتكلم عنه، عن الكبير والكبرياء، وما بينه وبين الله إلا رداء الكبرياء على وجهه سبحانه وتعالى وعز وجل؛ فالكبرياء رداؤه، فلا أحد يشارك الله في الكبرياء أبدًا، كما أن الإنسان لا يُشرك إنسانًا آخر في قميصه الذي يلبسه أو ردائه الذي يلبسه أو في الإزار. «**فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»: عذبته، فالكبرياء هنا هو الرداء، والعظمة هي الإزار، والرداء في الإنسان أعلى وأكمل من الإزار، فيكون الكبرياء أيضًا أعلى وأكمل، فحين تقول: (اللهُ أَكْبَرُ) فهو أتم وأكمل من قولك: (اللهُ أَعْظَمُ)، وإذا قال المؤذن: (اللهُ أَكْبَرُ) وقلت أنت: (اللهُ أَعْظَمُ) فهذا خطأ، هو فعلًا أعظم لكن في السنة: «**قُولُوا مِثْلَ**

مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ»[١]، فيجب أن نقول كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام، فمسألة أكبر هي الأتم؛ لأنه أكبر في خطين: (خط التعظيم) فكل تعظيم أُثبت ومهما تصورت في هذه العظمة، فالعظمة الحقيقية لله ﷻ وهل هي بالمستوى الذي تصورته أم هي أكبر؟ نعم هي أكبر. وبالتالي الذل يبقى على الكمال الذي ينشأ في القلب، ثم أيضًا نجد (المحامد) وهي الخط الثاني خط الحب، فمهما أَثْبَتَّ فهل فعلًا الله أكبر أم أنه على هذا المستوى؟ فنجد أن (اللهُ أَكْبَرُ) هي نفسها (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وهي نفسها (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) وهي نفسها (حَمِيدٌ مَجِيدٌ) وهي نفسها (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) وهي نفسها (سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ) وهي نفسها (سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ) هي الصلاة من بدايتها إلى نهايتها.

واذكروا ما نقلناه عن ابن القيم بداية في: (اللهُ أَكْبَرُ) أنها تشمل كلَّ شيء في الصلاة[٢]. ولقد عرفنا الآن لماذا: ولله الحمد.

فنجد أن الأتم (اللهُ أَكْبَرُ) وليست (اللهُ أَعْظَمُ)، ولذلك جُعلت شعار الصلاة، وتحريم الصلاة، وجُعلت شعار الأذان، والأعياد، والحج، والحرب أيضًا، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**»[٣] فهنا (اللهُ أَكْبَرُ) معها شروط، (اللهُ أَكْبَرُ) شعار الأذان، مثل النداء يوم القيامة، فَشِعَارُ الصلاة صورة مصغرة من يوم القيامة وهو لقاء الله تعالى وعز وجل،

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١)، ومسلم (٣٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) «الصلاة وأحكام تاركها» (ص١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والأعياد والحج. كما قال ابن القيم تتضمن كل شيء وكل حق. ونجد بعد ذلك كله أن أحسن طريق لإثبات الكمال كله لله في الخطين اللذين ينتج عنهما الحب والذل - وهُمَا العبادة كلها - هو أن تقول: (اللهُ أَكْبَرُ).

اسمه تعالى (المجِيدُ):

أولًا: (الميم والجيم والدال -عند ابن فارس في «مقاييس اللغة»: أصلٌ صحيح يدل على بلوغ النهاية، ولا يكون إلا في محمود)[١]، فلو أن إنسانًا بلغ النهاية في الشر والافتراء على الناس فهل يكون هذا مَجْدًا؟ بالطبع لا، ولماذا لا يكون هذا مَجْدًا بالرغم من أنه بلوغ النهاية؟! لأن المَجْدَ لا يكون إلا في المحمود.

(ومنه: المَجْدُ بلوغ النهاية في الكرم)، فالكرم محمود؛ لأن الكرم: اسمٌ جامع لجميع المحاسن، والكرم أصلًا كثرة الخير ويسرته، خيرٌ كثير وسهل، والخير الكثير والسهل هذا يستلزم أن يكون معطي هذا الخير عفوًّا وغفورًا، وإلا فلن يعطِيَك شيئًا، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل:٦١] فالكرم كثرة الخير ويسرته، فالكريم: (اسمٌ جامع لكل محاسن الله ﷻ وكمالاته). فهنا المَجْدُ: (بلوغ النهاية في الكرم)، وهذا هو أحد الإسقاطات.

يقولون في المثل: «فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ»[٢].

والمرخ والعفار نوعان من الشجر ولكن مادتهم سريعة الاشتعال

---

(١) «مقاييس اللغة» (٥/ ٢٩٧).

(٢) ينظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ٤٣١).

وتعطيك ما تريد، أما إن زاد عن ذلك واشتعل بمفرده اشتعالًا ذاتيًّا، فهذا مصيبة؛ لأنه خطر.

واستمجد يعني: أن شجر المرخ أخذ حظه وكفايته من مادة النار والاشتعال، ولكن لو زاد عن ذلك يكون شرًّا؛ لأنه من الممكن أن تجد الشجرة قد احترقت بلا فائدة، فإذًا النهاية في المحمود؛ لأن شجر المرخ هذا أسهل شيء أن يعطيك نارًا صافية وبكثرة، فلو كان يشتعل هكذا بمفرده فسيحرقنا، فهذا ذمٌّ وليس حمدًا، فيكون الشجر حينئذ شجرًا مذمومًا؛ لأنه سيتأتى منه شرٌّ، ولكن إذا أعطاك النار وبأيسر طريق - وهو يعطي كميةً هائلةً وصافيةً من النيران - حين تحتاجه، فيقال في هذه الحالة: «فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ». يعني: استكثر من النار وأخذ منها ما هو حسبهما، فقد تناهيا في ذلك وهما سريعَا الوَرْيِ وهو الاشتعال، شَبَهًا بمن يرسل العطاء طلبًا للمجد، فشجر المرخ يُكثر عطاء النار كذلك الكريم يُكثر إعطاء المال.

فبلوغ النهاية في الخير وهو نار عظيمة وصافية وأنت الذي تُشعلها وتتحكم فيها لا يكون إلا في المحمود، فهذا يدل على السعة في الشيء، وهذا هو مبناه في اللغة.

فأصله في اللغة: السعة، كما قال ابن فارس: (بلوغ النهاية في الشيء)، ولكن السعة المحمودة، فهي وصلت إلى أعلى درجات السعة من الخير، أما ما بعدها من السعة، فيكون مذمومًا ويكون هو الضد من ذلك.

يقال: (مَجَدَتِ الإبِلُ مُجُودًا): أي نالت قريبًا من شبعها، ولماذا

قريبًا؟ لماذا لم تنل شبعها كله؟ لأنها لو شبعت تمام الشبع، فمن الممكن أن تموت، أو يحدث لها هبوط، أما إذا أكلت دون الشِّبَعِ بمعنى أن يوجد مكان للماء ومكان للنفس، فهو بلوغ النهاية في الخير.

و(مَجَدَتِ الإِبِلُ): أي وقعت على مرعًى واسع، فأكلت إلى ما دون الشبع، ثم تجتر وتستقبل عين الشمس، كما هو معلوم في الحديث المشهور[1]. فهنا المجد يشير إلى السعة وإلى الكثرة في المحمود، يعني ما بعده مباشرة لا يكون محمودًا.

كما يقال أيضًا: (أَمْجَدَنِي قِرًى): وقِرَى الضيف هو: إكرام الضيف، يقول لك: كنت عند فلان فأَمْجَدَنِي قِرًى: يعني: أعد لي وليمة أكلت فيها حتى وصلت إلى النهاية في الاستمتاع والنهاية في الكرم بلا حدوث ضررٍ كأنْ آكل حتى أشعر أنِّي أريد أن أتقيأ الأكل الذي أكلته أو أني لا أستطيع التنفس جيدًا؛ فهذا قد أنهك قواك وآذاك قِرًى وليس أَمْجَدَكَ قِرًى. فهذا هو معنى المجد: السعة في الشيء والكثرة فيه في المحمود والكمال بحيث لا يكون فيه ذم ولا نقص.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٧)، ومسلم (١٠٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الأَرْضِ**» قِيلَ: وَمَا بَرَكَاتُ الأَرْضِ؟ قَالَ: «**زَهْرَةُ الدُّنْيَا**» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَلْ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَصَمَتَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ، فَقَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ؟**» قَالَ: أَنَا - قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: لَقَدْ حَمِدْنَاهُ حِينَ طَلَعَ ذَلِكَ - قَالَ: «**لَا يَأْتِي الخَيْرُ إِلَّا بِالخَيْرِ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ، إِلَّا آكِلَةَ الخَضِرَةِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ، فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ. وَإِنَّ هَذَا المَالَ حُلْوَةٌ، مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَنِعْمَ المَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ**».

ويقال أيضًا: (أَمْجَدْتُ الدَّابَّةَ) أي: علفتها ما كفاها، أيضًا ما دون الشبع، وما كفاها أي: بلا أن أتسبب في أذًى لها بأن نالت فوق شبعها أو وصلت لحد الشبع، فهي بذلك تجد مكانًا للماء ومكانًا للنفس.

ويقال: (مَجَدَ يَمْجُدُ مَجْدًا، فَهُوَ مَاجِدٌ): أي: مفضال كثير الخير شريف حسن الخلق والسمت.

وأيضًا يقول سعد بن عبادة عن المجد: «اللَّهُمَّ هَبْ لِي حَمْدًا، وَهَبْ لِي مَجْدًا، لَا مَجْدَ إِلَّا بِفِعَالٍ، وَلَا فِعَالَ إِلَّا بِمَالٍ، اللَّهُمَّ لَا يُصْلِحُنِي الْقَلِيلُ وَلَا أَصْلُحُ عَلَيْهِ»(١)، فأنت مثلًا تريد من الله ﷻ أن يهب النبي ﷺ حمدًا ومجدًا، والصلاة على النبي ليس معناها أن تطلب الرحمة للنبي، بل هي رفع للدرجات ولكن إلى أين الرفع؟ إلى المقام المحمود، وهو الوسيلة والفضيلة، فهذا هو المجد كل المجد، وبركات أيضًا.

بعضهم يقول: (المَجْدُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الآبَاءِ): يعني كل من عنده مجد يقتضي أن آباءه كانوا كرماء وكانوا كذا وكذا، وهذه العبارة لا يقبلها كثير من الناس، لكن هذه العبارة صحيحة مائة بالمائة ولها تفسير؛ وتفسيرها أن الإنسان إذا اعتاد على صفة أو تَخَلَّق بِخُلُق؛ صار له حالًا لازمًا وصفةً ثابتةً وخلقًا، فكما نعرف: الأخلاقُ هي الصفات التي صارت خلقًا وسجيةً وطبيعةً لك وقرينةً فيك، يعني مثلًا: أنت ظللت تجتهد في الكرم بالرغم من أنك شديد البخل وتدرب نفسك عليه وتحببه إلى نفسك وفي كل مرة تَجود وتُكرم الناس تُذكر نفسك بهذه الفضيلة حتى اعتدتها وأصبح الكرم طبيعةً لك وما زلت تحببه إلى نفسك إلى أن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٦١٩).

يصير الكرم سجيةً لك وخُلقًا لك؛ فهذا معنى الخُلق: أن الخلق أصبح صفة ثابتة، ثم حين يتحول الكرم صفة ثابتة للإنسان نجد أن الكروموسومات أو جينات الوراثة الداخلة في نطفة الرجل تعطي برنامجها أو التعليمات الموجودة فيها تنتج سلالةً كريمةً.

يعني مثلًا: رجل سريع الغضب على أقل شيء، تجد ابنه كذلك على هذا الحال، والرجل في الأصل لم يكن كذلك فَجَدُّهُ كان باردًا ولكنه ظل ينفعل وينفعل ويقبل الاستفزاز إلى أن صار خُلقًا له، فلما صار خُلقًا له بدأ هذا الانفعال يخلق فيه. فتجد ولده فعلًا قد تحلَّى بهذه الصفة؛ ولذلك يقولون: (إِنَّ المَجْدَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الآبَاءِ). يعني صار خلقًا لهم، أي: صفة ثابتة، وبالتالي سلالته تولد فتجد الولد كريمًا من الأصل ولا يحتاج مجهودًا وكفاحًا؛ لكي يكون كريمًا.

فكلمة المجد معناها: بلوغ النهاية في الشيء. فآباؤه كانوا كرماءَ بلا موانع وبلا بُخل وبلا مَنٍّ وبلا أذًى، فهو يحب الكرم، فجاء الولد متحلِّيًا بهذه الصفة كابرًا عن كابرٍ.

وقالوا أيضًا: المجد هو: (الأَخْذُ مِنَ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدَدِ مَا يَكْفِي) يعني كله في اتجاه الشرف والعظمة.

وقالوا أيضًا: إن المجد هو: (الشَّرَفُ الوَاسِعُ).

وقالوا: (إِذَا قَابَلَ شَرَفُ الذَّاتِ حُسْنَ الفِعَالِ صَارَ مَجِيدًا أَوْ صَارَ ذَا مَجْدٍ). فما معنى شرف الذات مع حُسن الفعال؟

شرف الذات: هو (العلو والعظمة) كما يقال رجل كبير - ليس كبيرًا في السن بل في المقام - ولا يرتكب العيب، وفي الوقت نفسه الأخلاق

مع الكرم، فهاتان الصفتان لو اجتمعتا في شخص واحد، فهذا هو الذي جمع المجد.

يقولون عن المرأة: (لَيْسَتْ بِمَاجِدَةٍ لِلطَّعَامِ وَلَا لِلشَّرَابِ) أي: لا تأكل كثيرًا وأقل شيء من الطعام يكفيها، وهذا مدح للمرأة وفي الرجل طبعًا من باب أولى.

وكذلك كثرة صفات الكمال الخاصة بالعطاء والكرم والإحسان والبر والجود والإفضال والإنعام والمنِّ.

وكما قلنا من قبل: (مَجَدَتِ الْإِبِلُ) أي: وقعت على مرعًى واسع به خضرة كثيرة، وأكلت كثيرًا ما دون الشبع، فكذلك الإنسان حين يكون عنده كثرة صفات العظمة وكثرة صفات الإكرام) فهاتان الصفتان يُكَوِّنَانِ معًا المجد، حتى يبلغ النهاية في هذه الصفات.

فنجد أن المجد: هو الكرم الذي هو (البر والإحسان والجُودُ) وتجمعه مع العظمة، فهذا معنى المجيد.

فكأن المجيد تجد فيها جمعًا هائلًا لصفات الله ﷻ، وهذا معناه سعة كبيرة لا نهائية، فمن الذي يحصي صفات الله؟! ومن الذي يحصي أسماء الله ﷻ؟!

وكما قال رسول الله ﷺ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فهذه الكثرة والسعة. فحين قولنا: (حَمِيدٌ مَجِيدٌ)، كانت الكثرة والسعة في العظمة، أما المجيد وحدها فالكثرة والسعة لأسماء الله تعالى وعز وجل في خَطِّي العظمة والكرم؛ ولذلك يقولون: رجل كريم، وهو مَنْ عنده كرم كبير فهو مجيد، وآباؤه كانوا كرماء، كانوا أمجادًا، فالمجد أصلًا هو السعة والكثرة في الخير وبلوغ النهاية.

ونتكلم الآن عن المجيد نسبة إلى الله سبحانه وتعالى وعز وجل:

قال الراغب: المجد هو: السعة في الكرم والجلال.

أصاب الحق مائة بالمائة؛ لأنه قال: إن المجد هو السعة في شيئين: هما الكرم والجلال.

لكن إذا ذكر معها الحميد كانت أخص بالجلال والعظمة وليس هذا وحده؛ لأن فيها أصلا الكرم فهي: (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ).

ولذلك أنت تطلب للنبي عليه الصلاة والسلام درجة الوسيلة والفضيلة، وتقول: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»، فإذًا كم من البركة تطلب؟!

ولا تطلب للنبي عليه الصلاة والسلام وحده، بل تطلب أيضًا لآل النبي، وكلنا - إن شاء الله - من آل النبي عليه الصلاة والسلام، يعني من أتباعه، فهذا كله معناه أن هذا الخير مطلوب لآلاف الملايين إلى يوم القيامة؛ فهل هذا مطلوب له سعة أم مطلوب له خزنة صغيرة؟ المطلوب سعة، فالخزنة الصغيرة لا تكفي.

إذًا ما الصفة التي تكون لله ليعطيك كل الذي طلبته في التشهد؟ بالطبع هي صفة (المجيد)، (إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ).

قال الحليمي: المجيد: هو المنيع المحمود.

طبعًا المحمود هو المعنى نفسه. ولكن هذا يذكرنا بمعنًى عظيمٍ: ماذا يعني اجتماع هذين الوصفين: (ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَام) أو (الغَنِيُّ الحَمِيدُ) أو (غَنِيٌّ حَمِيدٌ) أو (الغَنِيُّ الكَرِيمُ) أو (لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ)؟ يفيد أنه ليس كلُّ محبوبٍ معظمًا، وليس كلُّ معظمٍ محبوبًا، وهذا له أمثلة واضحة بين الناس، ولكن الكمال هو اجتماع الوصفين؛ وهما نوعا الثبوت لله سبحانه وتعالى وعز وجل. وهذا هو ما في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أن يُحب وأن يُعظم في ذات الوقت، فكثرة الصفات وسعة هذه الصفات؛ هذا هو المجد.

فأما (الفرقاني) يقول: إن أصل المجد: السعة؛ المجيد هو واسع الكرم، وليس الكرم وحده ولكن العظمة أيضًا والجلال. إذًا كثرة صفات الجلال والعظمة والكرم؛ والكرم: هو الذي يجمع.

والإمام (الغزالي) يقول: المجيد هو الشريفُ ذاتُهُ، الجليلُ أفعالُهُ، الجزيلُ عطاؤُهُ ونوالُهُ، وهو المعنى نفسه.

أما ابن القيم، فيقول في «بدائع الفوائد»: المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا؛ فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فأنت تطلب الصلاة والسلام على النبي وآله ومن سوف يُخْلَقُ من آل النبي وأجيال كثيرة ومطلوب لكل هؤلاء الرفعة والبركات والخيرات، إذًا توجد زيادة، إذًا موضوع للسعة والكثرة والزيادة. ومنه: اسْتَمْجَدَ الْمَرْخ وَالْعَفَار، وأَمْجَدَ النَّاقَةَ عَلَفًا، ورَبُّ العَرْشِ المَجِيدِ.

وأخذ (المجيدِ) بالكسر في قراءة على أنها صفة للعرش لسعة العرش؛ فالعرش واسع، فهو سقف المخلوقات؛ لقوله ﷺ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ، كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ**»(١)، فإذا كان العرش مجيدًا فكيف بخالقه سبحانه وتعالى وعز وجل!! فإذًا نجد أن (رَبَّ العَرْشِ المَجِيدِ) هذه تدل على صفة العرش لسعته وعظمته وشرفه، وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ؛ لأنه في مقام طلب المزيد والكثرة والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه.

وإن شاء الله إذا تكلمنا فيما بعد عن البركة اتضح المعنى أكثر.

يتكلم ابن القيم أيضًا في كتاب آخر وهو كتاب: «جلاء الأفهام في بيان معنى الصلاة والسلام على خير الأنام»، يقول: المجد: كثرة صفات الجلال والسعة والفضل.

والذي تبارك هو المجيد؛ لأن تبارك معناها: في الصفات، أما في الأفعال فتكون: بارك.

فالتبارك لذات الله ﷻ صفة لله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان:١١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

فالتبارُكُ صفة ثابتة لله سبحانه وتعالى، أما بَارَكَ ففعل؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١] فهذا هو الفرق بين (تبارك) و(بارك)، فـ(تَبَارَكَ) صفات ذات، و(بَارَكَ) الفعلُ.

وما الفرق بين الصفة والفعل؟

«**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ**»(١) أنت السلام؛ صفةً ثابتةً لله ﷻ وملْكًا.

أما أنا إذا أردت السلام فمن أين آخذه؟ آخذه من الذي يملكه؛ والذي يملكه هو الله الذي هو السلام؛ فالسلام صفة له تعالى، وليس هذا فحسب، ولكن أيضًا لا أحد يأخذ السلام إلا من الله.

فالله الرحيم وذو الرحمة ملكًا وفعلًا، إذا أردت رحمةً فلن تأخذها إلا من الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

فتبارك ومبارك من المجيد، ولذلك يقال: تبارك من باب مَجَدَ، أما بارك: فبابها أعطى وأنعم، والاثنان مجد.

ويقول ابن القيم في كتاب «جلاء الأفهام»: (وأما المجد فهو مستلزم للعظمة والسعة والجلال)(٢) كما يدل عليه موضوعه في اللغة؛ فهو دالٌّ على صفات العظمة والجلال، والحمد يدل على صفات الإكرام، والله تعالى ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ.

فهمنا معنى المجيد لغة: وهو لله تعالى وﷻ مجموعة الأسماء والصفات التي تدل على العظمة وفي الوقت ذاته تدل على الإكرام، ومن

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩١، ٥٩٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه، ومن حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «جلاء الأفهام» (ص٣١٧).

ناحية تدل على الجلال والسعة والإكرام ولكن حين يكون مع الحميد، فإنه يكون مختصًّا بسعة صفات العظمة والجلال وحينما يكون بمفرده يكون السعة والكثرة. والحمد ضد الذم، وهناك فروق لطيفة بين الأسماء، والمجيد هي سعة وكثرة الصفات، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] فأسماؤه وصفاته كثيرة.

المجيد في القرآن:

القرآن مجيد؛ لقوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق:١]، ووصف القرآن بأنه كريم في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٧]، ووصف بالعظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر:٨٧]، ووصف بالعلو والحكمة والعزة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف:٤]، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف:٢]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١]، فبكثرة الصفات صار القرآن مجيدًا، وَيُرْوَى عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِجَارِيَتِهَا: «نَاوِلِينِي الْمَجِيدَ» تُرِيدُ الْمُصْحَفَ(١)، وكيف لا يكون مجيدًا وهو حين يوفي قضيةً، فإنه يوفيها بأبلغ لفظٍ وأوجزه، وبأوسع المعاني وكثرة الأدلة والحجج، فيكون فيه السعة، فالمجيد هنا معناه السعة والعظمة وهو الكريم.

كذلك حين تقرأ في سورة هود: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود: ٧٣]، فما مناسبة الحميد

(١) ذكره الخطابي في «غريب الحديث» (٢/ ١٤٧).

المجيد هنا؟ المناسبة أنها امرأة عاقر وزوجها بلغ من الكبر عتيًّا: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ [هود:٧٢-٧٣]، والبركة: هي كثرة الخير ودوامه، فإذا قلت لك: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ) فقد خَلصتُك من كل شر، وهذا يتضمن أني قد أثبتُّ لك كل خير، أما إذا أردت أن أُفَصِّلَ وأزيدَك قلت: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ)، فأكون بذلك قد خَلصتُك من الشر وأثبتُّ لك كل الخير في الرحمة، ولكن من الممكن أن يحدث لك شر بعد قليل؛ فأقول لك: (وَبَرَكَاتُهُ)؛ لدوام الخير.

فهذه هي البركة، ولكن من يعطيها؟ لا يعطيها إلا الله؛ لأنه هو المجيد؛ ولأنك إذا أكرمت أخاك اليوم وغدًا، فلن تستطيع أن تكرمه على الدوام وإلى الأبد؛ لأنك لست مجيدًا، ولكن المجيد هو الذي يفعل هذا، فهي الكثرة والسعة وبلوغ النهاية لك ولمن قبلك ولمن بعدك وللعالمين. كُل واشبع فلن ينقص ذلك من ملك الله شيئًا إلا كما يأخذ المِخْيَط من المحيط؛ الإبرة صغيرة، فهل حملت معها ماءً؟ ما كمية الماء التي حملتها معها من المحيط؟ فهنا نجد معنى المجيد، هي عجوز وعاقر وزوجها شيخ كبير بلغ من الكبر عتيًّا، فأنَّى لها بالولد فهي تعجب: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ هذا قول الملائكة ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود:٧٣]، فمن أين تأتي هذه الرحمة وهذه البركة؟! فلا أسباب مطلقًا هي عاقر وزوجها شيخ كبير بلغ من الكبر عتيًّا فكيف تنجب؟ إذًا ما الصفة المناسبة لله ﷻ وهو المعطي: (الحميد)، فهو قادر ولا يَعْظُمُ عليه شيء ولا يُعْجِزُه شيء، وهذه الحالة تستدعي وجود صفات كثيرة تشترك فيها مثل العلم والقدرة والعظمة والجلال، وكذلك

الإكرام؛ لأنه تعالى سيعطيهم ولدًا، فنجد أنه حميدٌ مجيد يعطي الرحمة والبركة، فحينما تكون في آخر صلاتك وتقول: (إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) عليك أن تتذكر هذه المعاني.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح:١٣].

كم صلاة فرضها الله علينا في البداية؟ فرض خمسين في اليوم والليلة، فسيكون معظم الوقت حينها صلاة، وما الصلاة؟ الصلاة قرآن وركوع وسجود... إلخ، كله يندرج تحت إثبات الكمالات لله سبحانه وتعالى وعز وجل بأنواعها وبطرق إثباتها، هذه هي الصلاة؛ تَعرُّفٌ على الله وتعظيمٌ له؛ وهي التسبيح والتكبير والقرآن، أليست هذه هي الصلاة؟ والمقام المحمود وأول التنزيل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١]، وما اصطفى الله لملائكته.

نسأل الله ﷻ أن يمن علينا وعليكم بالفهم العظيم الدائم من كتابه العظيم ونتوسل إليه تعالى بأنه هو المجيد أن يمن علينا بالفهم المستمر من كتابه العظيم.

اللهم إنا نسألك القرآن والعلم والعمل.

أسماء الله تعالى الحسنى

أيها الإخوة الأعزاء:

نستكمل كلامنا عن الصلاة ونبين معنى الأذكار التي وردت في الصلاة، ونحدد بعض الأسانيد لتحصيل الخشوع، ولقد بدأنا بشرح بعض الصيغ التي جاءت في الافتتاح، ثم رأيت أن أنتهي أولًا من شرح الأسماء الحسنى التي وردت بالنص في الصلاة؛ وإلا فكل أسماء الله تعالى لها موضعٌ في الصلاة ولكني آثرت أن أنتهي من شرح الأسماء: الحميد، المجيد، السلام، الأعلى، العظيم، وهكذا، لأننا إذا فهمنا معاني الأسماء الحسنى فهمنا الأذكار بإذن الله.

۞ أسماء الله الحسنى هي باب الخشوع في الصَّلاة:

فإذا ظن أحد أننا قد ابتعدنا عن دروس الخشوع في الصلاة وعن بيان معاني الصلاة، فهو واهم؛ لأننا فعلًا ما خلقنا أصلًا إلا لنتعرف على الله ﷻ وما يترتب على هذه المعرفة، فبدأنا بأسماء الله وننتهي بأسماء الله، وندندن حول أسماء الله، وما من شيء إلا وله أثر أو مقتضى أو موجب لاسم أو لأسماء لله ﷻ وما يترتب على هذه المعرفة.

۞ اسم الله العظيم:

فهذا اليوم نأخذ اسم الله العظيم، كما نقول في الركوع: (سُبْحَانَ

رَبِّيَ الْعَظِيمِ)؛ والعظيم هو من الأسماء الدالة على جملة صفات. تحدثنا عن أنواع الأسماء فيما مضى، ومن الأسماء نوعٌ هام أغفله كثير من الشراح. يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: من أسمائه الحسنى ما يكون دالًّا على عدة صفات ويكون ذلك الاسم متناولًا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها كما تقدم بيانه كاسمه العظيم والمجيد والصمد[(١)]. وكل هذه الأسماء تدل على جملة صفات وعلى جملة أسماء؛ بمعنى أن مجموعة من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ مع بعضها تُختصر في اسم من أسماء الله، كالمجيد وقد شرحناه.

وكذلك أيضًا مجموعة من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ تُختصر أيضًا في العظيم؛ غير أن العظيم هو من أوضح المعاني عند الناس، وينبغي أن يكون كذلك، يعني إذا أردنا شرحه اتبعنا ذات المنهج بإذن الله تعالى في معناه اللغوي، وفي معناه الشرعي، وفي التعرض لبعض سياقات وروده في القرآن وفي السُّنَّة.

ويبقى مدار الأمر على قلبك وعلى عقلك؛ فكيف تتفكر في عظمة الله وأنت تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ).

وكلامي هذا ليس إلا معونة؛ ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] أما البر والتقوى نفسه فهو من عندك أنت، هذا في قلبك فما الذي تستحضره وأنت تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)؟

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٨).

المعنى اللغوي لاسم الله (العظيم):

يقول (ابن فارس) في «مقاييسه»: العين والظاء والميم أصل واحد صحيح يدل على كِبَر وقوة[١]، أي: شيء كبير في الحجم وقوي؛ وليس كبيرًا شكلًا وحجمًا أو منفوخًا هكذا ظاهرًا فحسب؛ فهو قوي كبير في الأغراض التي يؤديها وما إلى ذلك.

هذا في اللغة، فمثلًا قولك: دبابةٌ عظيمة؛ ليست دبابة ضخمة فحسب، بل تُدَمِّر كل دبابة أخرى؛ لأنه لو دمرتها دبابة صغيرة فهي دبابة ليست إلا كبيرةً حجمًا. لكنها دبابة كبيرة في الحجم وشديدة القوة في عملها وتدميرها فتسمى دبابةً عظيمةً؛ فهنا يُشترط أمران للعظمة في المعنى اللغوي أو في الأصل اللغوي: كبر الشيء وقوته.

بعض استعمالات الكلمة:

أول ما يرد على أذهاننا في استعمالات الكلمة: العظام، هل منا أحد بلا عظام؟ وهل يستطيع أحد أن يعيش بغير عظام؟ وهل يتمالك جسده بغير عظام؟ وهل تستطيع أن تجلس بغير عظام؟ وهل تستطيع أن تقوم بغير عظام؟

ولذلك العظام معناها: (مُعْظَم الشيء)؛ أكبر شيء فيك وأقواه هو الهيكل العظمي.

وعَظْمُ الشيء: أكثره ومعظمه، وعَظْمُ القوم: أكثرهم عددًا.

فمن غير العظام يمتنع على الإنسان كل شيء، أما بالعظام فكثير من

(١) «مقاييس اللغة» (٤/ ٣٥٥).

الأشياء لا تمتنع عليه؛ لأنها تعطيه كِبَرًا وقوة؛ ولذلك الإنسان يتحدد طوله بحسب هيكله العظمي.

فقلنا: الكبر والقوة؛ الاثنان، فمثال: رجل طوله متران أو آخر طوله متر ونصف أو متر وربع فهيكله العظمي هكذا وقوته أيضًا هكذا، وأما آخر فهيكله العظمي كبير وقوي مثل أبطال كمال الأجسام فهيكله العظمي ينبني عليه قوة الإنسان، وضخامة الإنسان، وذلك في المعنى اللغوي.

○ عندنا أيضًا استعمالات أخرى:

العظيمة: يعني (الداهية والمصيبة الشديدة)، ويقال: عظيمة العظائم؛ يعني: المصيبة الشديدة نزلت بالناس، نزلت بالناس عظيمة؛ أي: داهية؛ مصيبة شديدة كبيرة. فهذا في الاستعمال اللغوي وفي استعمال الناس.

وكلمة التعظيم: يقال: فلان هذا عظيم القوم؛ كان العرب إذا دخل أحدهم على قبيلة أو على اجتماع للناس يقول: مَن عظيم القوم؟ يعني: مَن كبير القوم؟

ولكن هنا اختلاف بين عظيم القوم وكبير القوم، فهو يقول: مَن عظيم القوم؟ وعظيم الروم: هرقل، وما معنى عظيم القوم أو عظيم الروم؟ يعني: الذي لا يمتنع عليه أحدهم، ويقهرهم، ويغلبهم وأمره نافذٌ فيهم، وعنده من السلطان الكبير والقوة ما عنده، ليس منظرًا من الخارج فحسب؛ فيُسمى عظيم القوم أمره نافذ بهذا الاعتبار؛ فنجد أنها أيضًا كِبَر وقوة.

لكن في الناس وإن كان عظيم القوم فهو رجل؛ يعني: قد يمرض، قد تخونه بطانته وحاشيته، قد تضعف شرطته وجيشه، قد ينافسه رجل آخر

فيغلبه ويقهره ويأخذ عظمة القوم منه. إذًا الإنسان مهما كان عظيمًا لقومه، فهذا إلى حدود وإلى أجل مسمى، ولم يحصل على ذلك إلا مِن الله العظيم وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذو العظمة.

قاعدتان هامتان:

نُذَكِّر بالقاعدة: الرسول ﷺ يقول: «**بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ**»[1]، فهل يجوز للإنسان أن يستغيث بمخلوق؟ لا يجوز، أما أن تستغيث بصفة الله؛ فهذا توحيد، «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ**»[2] هل هذه العزة مخلوقة أم أنها صفة الله؟ نعم هي صفة الله. لكن توجد عزة مخلوقة أيضًا؛ العزة التي سوف تأخذها ويأخذها المؤمنون؛ فهي كلها مخلوقة خلقها الله لعبده فلان.

فإذن العزة: صفة قائمة لله، والعزة من نوع آخر اسمها: عزة مخلوقة. وكذلك الرحمة من اسمه تعالى الرحيم؛ فهي صفة قائمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سواء وجد ناس رُحِمُوا أم لم يُرْحَمُوا، وتوجد رحمة مخلوقة.

فحين يستغيث الرسول عليه الصلاة والسلام برحمة الله، فهل هو

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٩١)، والترمذي (٢٠٨٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٥٠٤)، وابن ماجه (٣٥٢٢) من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ عُثْمَانُ: وَبِي وَجَعٌ قَدْ كَادَ يُهْلِكُنِي قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**امْسَحْهُ بِيَمِينِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَقُلْ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ**» قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ بِي، فَلَمْ أَزَلْ آمُرُ بِهِ أَهْلِي وَغَيْرَهُمْ.
وأخرجه مسلم (٢٢٠٢) بلفظ: أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**».

استغاث بالرحمة المخلوقة؟! الله تعالى جعل الرحمة مائة جزء[١]، يعني: خلق رحمة وقدرها مائة جزء، فهل يجوز لك أن تستغيث بالرحمة التي هي مائة جزء؟ لا؛ أنت تستغيث بالرحمة التي هي صفة لله ﷻ. فهو الرحيم ذو الرحمة، والسلام ومنه السلام، والمجيد ومنه المجد.

«**اللَّهُمَّ هَبْ لِي حَمْدًا وَمَجْدًا**» كما يقول سعد بن عبادة: «لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال، اللهم لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه» إذًا كيف أحصل على المجد؟ أحصل عليه من مجد الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

كذلك البركة؛ (تبارك): هي صفة قائمة لله سواء وجد خلق يُبَارَكُونَ أم لا، فهذا لن يغير من الأمر شيئًا، فهذه (تبارك).

أما (بارك): فهذه مسألة أخرى، فهي البركة المخلوقة، لذلك يقال: (تبارك بابها (مَجَدَ) من صفات الله تعالى) أما (بارك): فمن باب أعطى وأنعم ورزَق وتفضل وهي المادة نفسها.

فعلى ذلك (تبارك) و(بارك): الأولى: على صفة الله، والثانية: على الخلق؛ بركة مخلوقة، أو رحمة مخلوقة، أو عزة مخلوقة، أو عظمة مخلوقة، فاللهم أنت المجيد ومنك المجد، أنت العظيم ومنك العظمة، أنت الرحيم ومنك الرحمة، أنت السلام ومنك السلام.

فهذه قاعدة لا ننساها أبدًا؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام حين يستغيث برحمة الله، فهو يستغيث بصفة الله، ولا يستغيث بالرحمة المخلوقة، فالله تعالى لما خلق الجنة قال: «**إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مَنْ أَشَاءُ»[1]، فهذه رحمة مخلوقة.

فدائمًا الأسماء؛ إما صفة قائمة لله ﷻ؛ كـ: الرحيم ذو الرحمة، والغفار ذو المغفرة، والعظيم ذو العظمة، والمجيد ذو المجد، والسلام ذو السلام، ومنه السلام؛ فهو السلام صفةً ومنه السلام مُلكًا، وكذلك العظيم.

ولا ننسى القاعدة الثانية أيضًا: وهي الفرق بين المحبوب والحبيب. فالمحبوب هو الذي يحبه الناس حتى ولو كان مجرمًا حتى ولو كان لصًّا، فجنوده يحبونه؛ لأنه كريم معهم جدًّا ويعطيهم بسخاء، فهو محبوب وقع عليه الحب.

أما الحبيب مثل النبي عليه الصلاة والسلام فلا يكون إلا من استحق أن يُحب سواء أحبه الناس أم كرهوه فلا يتغير في الأمر شيء، ثم صعدنا منها إلى الحميد والمحمود، فما الفرق؟ المحمود: هو الذي يقع الحمد له فهذا لأن هناك مخلوقين قالوا كذلك، إنما هو الحميد وليس المحمود سبحانه وتعالى وعز وجل، وهو محمود أيضًا، لكن الأصل أنه الحميد؛ يعني الذي يستحق أن يُحمد فكذلك العظيم، وكذلك الفرق بين المجيد والمُمَجَّد، والقدوس والمُقَدَّس، فالقدوس: هو الذي يستوجب التقديس قدسه خلقه أم لا فهذا حقه.

وكذلك هنا العظيم؛ ليس المُعَظَّمَ فحسب - نعم أيضًا المُعَظَّمُ من الموحدين من أوليائه - إنما هو العظيم الذي يستوجب أن يُعظَّمَ، فهذه قواعد في أسماء الله وصفاته.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تكملة للعلاقة بين دراسة أسماء الله الحسنى والخشوع في الصلاة:

إذا قال أحد: إننا خرجنا عن موضوع الخشوع في الصلاة، فهذا ليس بصحيح، فالصلاة هي التسبيح والتحميد والتكبير وقراءة القرآن، وفي رواية هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن.

فمثلًا في الركوع تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، وفي السجود: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى)، أليس هذا تسبيحًا، ولله الحمد شرحنا معنى التسبيح، وشرحنا الأعلى ونشرح العظيم، وكذلك التشهد وتقول فيه: (إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)، وإن شاء الله أيضًا نشرح الفاتحة، فهل معنى هذا أننا خرجنا من الخشوع في الصلاة إلى التفسير؟ لا؛ فهذه المعاني يجب شرحها من باب: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

نتيجة خشوعك في الصلاة:

والباقي عليك أنت فهي معركة بينك وبين الشيطان، فهو لص بارع يحاول دائمًا أن يسرق صلاتك، فأنا حين أشرح لك الأسماء الحسنى أشرحها لتنهض ويكون عندك عزيمة فعلًا ولئلا يستطيع الشيطان أن يسرقك، فأنت تتذكر هذه المعاني وتستعين بها على الشيطان، وليس لأنك استمعت للمعاني فحسب استطعت الصلاة؟! لا؛ إنما هي حرب ومعركة؛ لأنك إذا أحسنت صلاتك أفلحت في كل شيء، إذا أحسنت الصلاة، فلن تهتم بأي شيء بعد ذلك، لن تهتم بالأكل والماء البارد ولا الشقة الفسيحة ولا الهواء البحري ولن تهتم بأي شيء وستكون الدنيا تافهة وحقيرة جدًّا عندك إذا أحسنت الصلاة، وسوف تكون دائمًا مشغولًا بالتفكر في الله ﷻ وفي عظمة الله، ودائما تجد جلدك يقشعر وتجد

عينيك وقد اغرورقتا بالدموع، وهذا دائمًا حال من يُحسن الصلاة، فيشعر بهذه المعاني، وأيضًا طالما أنك تحسن الصلاة لا تجد مصيبة تهزك ولا ظالمًا يهزمك أو يهزك ولا شيئًا؛ والنبي عليه الصلاة والسلام هو الذي كان يفهم الصلاة فكان يقول: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**»[1]، ليس أرحنا منها، فإذا جاءت الهموم، وازدادت على الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفزع إلى الصلاة، فأنت فعلًا إذا نجحت في إحسان الصلاة، أفلحت في أمرك كله.

والأثر الذي قاله الإمام (أحمد) هو أثر عظيم: «حظّك من الإسلام وقدر الإسلام عندك بقدر حظّك من الصّلاة وقدرها عندك»[2].

فالأسماء الحسنى التي نشرحها والتي ذُكرت بالتصريح في الصلاة من باب المعونة على تحصيل الخشوع في الصلاة وعلى كيفية الصلاة، وسترى الآن أن كل دروس الفقه في الصلاة والتي تُقْضَى فيها سنوات وسنوات لكي تتعلمها وتستفرغ فيها وسعك وتبذل فيها جهدك ما هي إلا نوع من تعظيمِ الله ﷻ.

ولكنك أحيانًا تقول: أنا نسيت التشهد الأوسط أو السجدة الثانية هل أقوم أم ماذا أفعل؟ وتجد خلافات في هذا كثيرة وهذا حق، لماذا؟ لأن هذا تعظيم الله، كيف؟ سنرى.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) من حديث رجل من خزاعة.

(٢) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٣٥٤).

○ **عودة لشرح اسم الله (العظيم):**

نريد أن نفهم ما معنى: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)؛ قلنا: إن هنالك فرقًا بين العظيم والمُعَظَّم، فالعظيم يستوجب أن يُعَظَّمَ، كالحميد، فهو يستوجب أن يحمد. لماذا؟ لما له من صفات المحاسن والمحامد والكرم.

وهو العظيم لما له من مجموعة صفات، فما هي؟ هي مجموعة الصفات أولها الغِنَى؛ لأن الغَنِيَّ معناه: أنه لا يحتاج إلى أحد ولا يحتاج إلى شيء بل كل شيء يحتاج إليه؛ وهذا اسمه كمال العظمة كما قال شيخ الإسلام[(١)]، وأيضًا يدخل فيها الجليل والحسيب والعلي والأعلى والمتعالي، فيدخل فيها كل هذه الصفات التي تُنشئ الذل في قلب الإنسان والتعظيم والخضوع لله.

فهو العظيم في ذاته، عظيمٌ في سمعه، عظيمٌ في بصره، عظيمٌ في علمه، عظيمٌ في قدرته، العظيم في علمه، العظيم في قوته، العظيم في غناه، إذًا العظيم هو العظيم في كل أسمائه وصفاته، وهذا وارد في مسألة تعظيم الله ﷻ في قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]؛ فهنا التعظيم وسنرى من سياقات ورود هذا الاسم ما يُثبت هذا المعنى.

بعض الناس اجتهد ليشرح «العظيم»، فقال الحليمي: هو الذي لا يمتنع عليه شيء بالإطلاق، لا شيء يمتنع على رب العالمين أبدًا، ويقول: لأنه العظيم في قدرته، العظيم في علمه، العظيم في قوته، العظيم في غناه، العظيم في قهره وبطشه، لا يمتنع عليه شيء أبدًا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٠).

فالطريق السهل أن نُبيِّن لك مجموعة الصفات التي يدل عليها العظيم، هي ليست محددة؛ لأن هذا الاسم قد ينسحب على كل صفات الله، العظيم في كرمه، والعظيم في عفوه، العظيم في بره، والعظيم في إحسانه، وهكذا.

كلمة العظيم في القرآن لها معان متعددة:

ونأخذ هذه الكلمة ليست كاسم من أسماء الله، إنما ككلمة مفردة من مفردات القرآن، فمثلًا في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٧] ما الذبح العظيم؟ هو عظيم من ناحية النوع، يعني مثلًا عندنا خروف كبير وآخر صغير ولكن الكبير ليس على ما يرام ولحمه لا يؤكل، أما حين يكون ذبحًا عظيمًا من ناحية النوع فمعناها أنه جمع صفات العظمة لهذا النوع. فما عظمة الخراف؟ عظمته أن يكون كبير الحجم ليس به دهن ولا أمراض وأيضًا هو صحيح قوي، فجمع ذلك في كلمة واحدة، وقال: ذبح عظيم، فهي تؤدي المعنى نفسه الذي ذكره ابن القيم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] يعني: تعدد الصفات فيكون الكيد عظيمًا؛ لأنه ناتج من عدة صفات.

وأيضًا قال تعالى: ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩] حظ: أي: نصيب، وعظيم أيضًا من عدة صفات، حظ عظيم وبلاء عظيم.

وأيضًا: ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] و﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣] وأيضًا في القرآن: ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] و﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، و﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وستأتي العلاقة بإذن الله بين الكرب والعظيم.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] ما معنى عظيم هنا؟ معناه عرش كبير، وعظيم يعني: لا بد أن يكون قويًّا حين تعتليه ملكة سبأ لا ينكسر، بل لا بد أن يكون قويًّا ومتينًا.

قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وهذه هامة جدًّا، فمقابل العظيم: الهين والحقير، أما مقابل الكبير: الصغير؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٣]. ما الذي عند الله عظيم؟ هو أمر معنوي وهو أنك تخوض في قضية ما وتتكلم بكلام ما كإنسان يتكلم بكلام كنوع من التسلية، وهو يظن أنه يتسلى لمجرد الدردشة أو المسامرة.

فهنا العظمة معنوية وكلٌّ بحسبه فمثلًا أقول: نملة عظيمة فهذا بالنسبة لنوعها لكن النمل يتفاوت، أما إذا كانت نملة أكبر من باقي النمل فتكون نملة عظيمة بالنظر إلى نوعها وصفاتها؛ فجمعت من الصفات أكثر من نوعها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] يعني: ليس ظلمًا صغيرًا كأن ظلمت رجلًا في ألف جنيه، أو ظلمته في شقة، أو ظلمت زوجة، أو ولدًا، أو في رئاسة أو وظيفة، لا؛ ولكن هذا ظلم عظيم، وإذا تفكرت في الشرك وجدت أنه لا ظلم أعظم من الشرك.

قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ: ١-٢] والنبأ العظيم معلوم ما هو.

قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠] يعني: هذا القول يوجب النار، فإذا نظرت

وتفكرت وجدت نفسك تقول كيف أن هؤلاء العقلاء صدر منهم هذا القول؟! فهنا يراد عظمة القول بالنسبة للسياق وبالنسبة للواقعة التي نتحدث عنها؛ فعمَّن تتكلمون؟! عن الله رب العالمين أفتدري ما تقول؟! إنك تتكلم عن الذي له صفات العظمة؛ العظيم في جبروته، العظيم في سمعه، العظيم في بصره، العظيم في غناه، العظيم في علمه، العظيم في ملكه.

قال تعالى أيضًا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] ما هذا الميل العظيم؟ هو ليس ميلًا عاديًّا إنما هو ميل عظيم، ومعنى (عظيمًا) هنا أي: متعددًا، فهي ظلمات بعضها فوق بعض، وهو ميل ليس في ناحية واحدة ولكنه ميل في كل النواحي، و(عظيمًا) تدل على الميل في جهات متعددة وباعتبارات متعددة، فكما قلنا: إن العظمة لا تدل على معنى واحد وإنما تدل على جملة معانٍ بحسبها.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٦].

اسم الله العظيم في القرآن:

وُرُودُ هذا الاسم من أسماء الله تعالى في القرآن الكريم في آية الكرسي: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وسورة الشورى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾ [الشورى: ٤]، وسورة الحاقة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة: ٣٣]. و﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤] أيضًا في الحاقة، ومرتين في الواقعة، و﴿رَبُّ

﴿ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] بالكسر؛ لأن العرش حين يكون عظيمًا فكيف بخالقه؟!

ونحن بذلك لم نخرج عن الصلاة فنحن نثبت الكمالات لله؛ لأن الصلاة ما هي إلا هذا.

إذا نظرنا لما كان سيحدث، كان سيُفْرَضُ علينا خمسون صلاة في اليوم[1]، أي أنك لن تجد وقتًا لتجلس مع أحد تتكلم معه، إنما تجد وقتًا للأكل والشراب وترجع مرة أخرى للصلاة؛ فتأمل. والصلاة ما هي إلا التسبيح وقراءة القرآن.

۞ طرق إثبات الكمالات لله تعالى:

وقد أثبتنا الكمالات لله بثلاث طرق:

الأولى: أن الفعل يستلزم الحياة والقدرة والعلم وهذه هي صفات الكمال، وهذا في القرآن كثير جدًّا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ...﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ...﴾ [غافر: ٦١]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ...﴾ [الجاثية: ١٢] وكل ذلك استدلال بهذا الفعل على أن الله له فضل الكمال.

الطريقة الثانية: وهي دلالة الأثر على المؤثر: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً...﴾ [فصلت: ١٥]، فالذي خلق هذه القوة هو الأقوى، من باب أنه هو الذي خلقها.

الطريقة الثالثة: أن الله تعالى هو الأفضل وهو الأعلى دائمًا فهو الأكرم والأعلى وهذه طريقة قياس الأَوْلى وتسمى الترجيح والتفضيل،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وليس من ناحية أنه هو الذي خلق ولكن من ناحية أن هو أحسن وأفضل دائمًا.

وأعطيك مثالًا آخر يجعلك لا تنسى الطريقة الثالثة أبدًا وتعلم أنها شديدة خطيرة - وإن كانت الطريقة الأولى أخطر والثانية أمثل في إثبات الكمالات لله ﷻ؛ لأنها واضحة: هو النور، فمن الذي خلق النور؟! الله طبعًا الذي خلقه، فيثبت له من باب أولى؛ لأنه هو الذي خلقه، وكذلك العظمة من الذي خلقها؟! طبعًا الله هو الذي خلق كل هذه العظمة؛ فالذي خلقهم هو أشد منهم قوة.

مثال من القرآن الكريم يوضح إثبات الكمالات لله تعالى:

وضربنا مثلًا في الآية الثامنة والعشرين من سورة الروم، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨]؛ يعني: أنك من المستحيل أن تجعل لعبدك نصف ملكك ليقول لك يومًا: اسمع، أنا سأبيع هذا المحل أو أبيع هذه الشقة وأنت تخرج منها، وأنت ساكت ولا تتكلم، فهل من الممكن أن تفعل ذلك في نفسك؟ تجعل عبدك رأسه برأسك! يرتكب أخطاء ويضايقك ويقهرك بها، فهذا لن يحدث منك أبدًا.

ألا يكون ذلك من باب أولى في حق الله تعالى أن لا يفعل ذلك وهو الإله الملك الحق، يعنى هل أنت أحسن أم الله؟! وهذه لا تستدعي إجابة، وطبعًا أنا أستحي من هذه المقارنة لكنها طريقة واردة في القرآن كما في قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا

يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل:١٧]، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ...﴾ [الزمر:٢٩] وأمثلة كثيرة في كتاب الله.

مثال آخر خطير جدًّا:

وإليك مثالًا: يقرب المعنى تمامًا وهو مثال في غاية الخطورة: لو أن رجلًا قهرك على امرأتك وعلى ولدك، وقال لك: إنما سلطانك عليهم في دائرة محدودة في البيت، وسأراقبك وسأحدد لك ما تستطيع أن تتحكم فيه، أما في الشارع وخارج البيت ليس لك أن تتحكم في شيء، وكأليس لك زوجة ولا ولد، فيكونون تحت سلطانه، هو الذي قهرك فهل تقبل أنت هذا؟ وَمَن قَبِلَ هذا وآثر الحياة بهذه المهانة فماذا تعده؟! تعده مَهينًا أو ديوثًا أو خنزيرًا، ولو استطاع أن ينتقم ممن فعل به ذلك، فما حد انتقامه؟ هل فيه شيء دون قتله؟ لا شيء دون قتله؛ لأن الإنسان الذي عنده كرامة والذي عنده قيمة والذي عنده عِزة نفس والذي عنده رجولة وشهامة لا يقبل ذلك.

فهل أنت في هذه الصفات أحسن أم الله تعالى؟! ولننظر إلى سلطان الله تعالى في أرضه من ناحية الشريعة نجده محدودًا في المساجد، وذلك في بلاد المسلمين، وليس في بلاد الكفرة؛ فهل أنت تُحَكِّمُ شرع الله العظيم في حياتك وأنت في الشارع وأنت في الوظيفة؟ فهذا مطلوب منك أن تحكم شرع الله ولك قدرة على تحكيم شرع الله في حياتك، أما أكثر المسلمين الآن فقد حَصَرَ إلهية الله في المسجد، ونصف نصفها ويا ليتها نصف نصفها ولكنها ربع ربعها وأقل، بل عشر عشرها وأقل؛ فنحن في خطر عظيم جدًّا.

فمسألة ألا تقبل أن يُذِلَّك أحد، ويقول لك إنك ليس لك سلطان على زوجتك أو بناتك أو أولادك في الشارع ولكن سلطانك هنا في البيت فحسب ومحدود أيضًا؛ فهل أنت أعلى أم الله؟! أنت خيرٌ أم الله؟! أنت أفضل أم الله؟! فكيف تريد أن يقبل الله تعالى على نفسه ذلك.

فتجد أن طريقة قياس الأولى والترجيح والتفضيل وصلنا بها إلى تعظيم شريعة الله في هذا المثال.

اسم الله العظيم في آية الكرسي:

العظيم: هذا الاسم من أسماء الله ﷻ الدالة على جملة صفات، وحين نعرض سياقاته في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم سَيَسْتَبين أكثر وأكثر إن شاء الله وسيكون الموضوع سهلًا.

آية الكرسي وهي سيدة آي القرآن، نجد أن الاسم الذي اختير لهذه الآية في ختامها هو: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فمن هنا يتبين لك عظم قدر هذا الاسم من أسماء الله تعالى بعد أن ذكر الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

محاولة لتصور بعض من معاني اسم الله (العظيم):

ولك أن تتدبر كم تسير وتتعب في أجواء القاهرة وفي شوارع القاهرة وأحيائها لو سرت بسيارة؟! وقد لا تحصيها في يوم، فما بالك بمصر كلها هل تحصيها؟! بصحرائها وبوديانها وسهولها، فما بالك بقارة إفريقيا، فما بالك بالبحر الأبيض، فما بالك بالبحر الأحمر، فما بالك بالمحيط، فما بالك بالقارات كلها، فما بالك بالكرة الأرضية، فذلك

شيء رهيب لا يستطيع الإنسان أن يتخيله وأن يستوعب مدى عظمته؛ فهذه الأرض كيف خُلقت؟ وكم وزنها؟ فنجد من يحمل خمسين كيلو جرامًا أو لو استطاع حمل مائة أو مائتي كيلو جرام يقول: أنا بطل ويأخذ على ذلك نيشانًا وجائزةً؛ ، فالماء هذا كم وزنه؟ وكم عمقه؟ فهذا شيء رهيب.

والله العظيم لقد نظرت إلى سطح البحر وكدت أضحك بقهقهةٍ عالية تهكمًا من أحوالنا، هل نحن سنقف أمام الذي خلق هذا البحر؟! ونحن نخاف إذا وصل الماء إلى مستوى معين ويخاف أحدنا أن يغرق، فما هذه البحار وتلك المحيطات.

فخلق الأرض وحدها شيء رهيب؛ ولك أن تتفكر في الماء وحسب؛ خمسة وعشرون ألف نوع من الأسماك وأسماك الزينة، وأيضًا جمال الطيور إذا ذهبت لحديقة الحيوان وشاهدت الطيور وألوانها البديعة والعصافير فسبحان الله العظيم، شيء يجعل الإنسان يشحن نفسه، والأسد والسباع وكيف تفكر في الافتراس؟ والغريزة التي بداخلها، وما الذي فُطرت عليه؟ وما هذا العجب وما هذا التركيب البديع؟!

وإذا ما تفكرت في الأرض وما ومن عليها وأحوالها؛ فكم ألف نوع من الحشرات؟ وكم ألف نوع من الأمم؟ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: ١٠] فلننظر لعظمة الأرض واتساعها شيء رهيب.

فكما قلت لك، وأنت هنا بالقاهرة وحدها بسيارة سريعة لا تستطيع أن تحصي شوارعها في يوم، وأنت بسيارة فما بالك بالقارة بأكملها، لو أنك سافرت من القاهرة إلى أسوان وهي مسافة بعيدة جدًّا عليك قلت: (يااه)

كأنك انتقلت إلى الآخرة فما بالك لو ذهبت إلى عمق السودان أو أكملت إلى أفريقيا والمحيط.

فالأرض عندك عظيمة العظائم وهي في الواقع حقيرة جدًّا، وكيف حُمِلت هذه الأرض وكيف تدور حول نفسها ومن يجعلها تدور كذلك ومن يحركها بسرعة فلكية؛ حول الشمس، وبانضباط رهيب، فمن ينزل بطائرة وبحركة ناعمة عند هبوطه بلا اصطدام شديد بالأرض يُصفق له الركاب تحيةً له وإعظامًا لهذا الطيار الماهر الذي استطاع أن يقود الطائرة ويهبط بها دون أن يصطدم العَجَلُ اصطدامًا قويًّا بالأرض، فما بالنا بهذا الاقتدار الموجود في الأرض، وحركة فلكية وحركة مركزية حول نفسها وحركة حول الشمس تضبط النتيجة عليها؛ يقول لك الشروق اليوم والساعة كذا والشمس سوف تدور ففي ثانية كذا تشرق ولا يمكن أن تتقدم أو تتأخر.

وكم مليار مليار طن في الأرض؟ وكم من البراكين؟ وكم من المخلوقات؟ وكم حوت مثلًا من الممكن أن تبتلع معظم البشر؟ كم من الثلج في القطبين مثلًا؟ وعظمة الأرض!!! والأشجار؛ كم شجرة في شوارع القاهرة؟ ومن يخلقها ومن يغذيها؟ وإذا تفكرت في هذا فستظل دائمًا تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)... (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)... (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)... ولا تنتهي أبدًا.

فكذلك الصلاة لا تنتهي أبدًا، وكذلك التسبيح لا ينتهي أبدًا؛ ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤] كذلك لا تنتهي أبدًا. «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، سُبْحَانَ اللهِ**

وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»(١).

حين تتفكر في الأرض أو حتى في مخلوق واحد في الأرض، كحبة البرسيم وهي في حد ذاتها مصنع كبير، فهل من الممكن أن تنتج أمريكا أو أوروبا برسيمًا من الطين؟ أو حتى العالم كله؟! لن يستطيعوا، هل من الممكن أن ينتجوا برسيمًا أخضر تأكله البهائم وتنتج لك لبنًا طازجًا، وتأكل منها لحمًا متنوعًا وجلدًا تصنع منه أحذية غالية الثمن. من ذا الذي يستطيع أن يفعل هذا؟! كل هذا من حبة البرسيم الصغيرة الحجم. فهذه عظمة ولكن الإنسان نائم نوم غفلة: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥] فهذا إعراض وغفلة من الناس؛ فالإنسان لا بد أن يتفكر في عظمة الأرض.

وهذه الأرض مقارنة بالشمس لا شيء - بعد أن تفكرت فيها وفي عظمتها؛ فكيف بعظمة خالقها - فالشمس ضعف الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة تقريبًا، وهي إن لم تكن تعدل إلا حجم الأرض عشر مرات بما تحمل من المحيطات والبحار والقارات، وأمريكا وأوروبا بما فيها من دول وحكام بقوتهم وسطوتهم وجيوشهم، فهذا حريٌّ بك أن ترتعد من الله ﷻ، وإذا قلنا لك: إنها تعدل قدر الأرض ١٠ آلاف مرة وليس عشر مرات، فهذه أشياء يصعب تخيلها على الإنسان، فهي مسافات شاسعة لا يمكن للإنسان أن يتخيل مدى اتساعها ويرسم صورة ذهنية علمية لهذه المسافات والجبال والبحار وهذا الذي على الأرض كلها، ولكن الشمس ليست كحجم الأرض ألف مرة، أو عشرة آلاف

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مرة، لا؛ بل هي مثل حجم الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة. هذا هو حجم الشمس برغم ما تبدو لنا أنها صغيرة مثل حجم الكرة التي يُلعب بها. فهل أنت مُتخيل معي مدى هذه العظمة؟ هذا علاوة على النار التي بداخلها والحرارة المنبعثة منها آلاف الدرجات، فسبحان الله العظيم، فهذه هي الشمس بعظمتها فما بالك بخالقها، وهذه الشمس واحدة من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية كالأسرة الواحدة، والشمس فيها هي الأستاذ، فتجذب الأرض، وإلا كادت الأرض ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٣١] فأين تذهب؟ الله أعلم، وبأي شيء اصطدمت؟ وماذا يحدث نتيجة هذا الاصطدام؟

هل سينسف جزء من الأرض؟ بالطبع لا، بل يُنسف كله ويتحطم. ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: ٤١]، الأرض والمجموعة الشمسية بكواكبها مثل عطارد والزهرة والمشترى (أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر).

أما الفراغات التي بين الأرض والشمس، فشيء آخر، فما حجم هذا الفضاء؟ لا يمكن لك أن تتخيل هذه الأحجام، فعليك أن تتفكر في ذلك كثيرًا ولكن عليك بذلك في صلاة القيام، فستجد نفسك ترتعش؛ لأن الذي خلق كل هذا يراك الآن وأنت في صلاتك وينظر إليك وأقرب إليك من حبل الوريد، فلو أني وقفت أمام وزير أو أمام رجل لي فيه رغبة ورهبة وعنده سلطة وعنده أموال وعنده وعنده، ويستطيع أن يعطيني مكافأة وأخاف منه أن يطردني من العمل، أو يؤذيني، سأكون واقفًا أمامه وأنا أريد أن أوقره وأن أعظمه وأن أُحَبِّبَهُ فِيَّ بقدر المستطاع؛ لأن الرغبة

والرهبة لا تجعل قلبك يحيد في التفكير عنه أبدًا لأنك حريص أن تأخذ كل رعاية منه فكيف بالله العظيم سبحانه وتعالى وعز وجل، فعليك أن تتفكر في المجموعة الشمسية والفضاء الرهيب الشاسع الذي تدور فيه المجموعة الشمسية وتسبح فيه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠] فتجد نفسك تسأل وتقول: الذي خلق كل هذا ما عظمته؟! فهو أشد عظمة؛ فأنت إذا تفكرت في أن الأرض عظيمة جدًّا، فهي شيء تافه جدًّا مقارنة بالشمس، وهي والشمس تفاهة التفاهة في الفضاء التي تسبح فيه، فالخالق لهذا كله كم عظمته؟! سبحانه وتعالى وعز وجل، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة:٧٤] والمجموعة الشمسية ليست بمفردها في هذا الكون، ولكن بجانبها مائة ألف مليون مجموعة أخرى؛ ليست مائة فحسب، أو مائة ألف، بل مائة ألف مليون مجموعة شمسية، وكل هذه المجموعات في مكان واحد وتسير بسرعات فلكية رهيبة، واسمها المجرة وتسمى درب التبانة، والمجرة كيف لك أن تتخيلها، فكما قلت لك: إنك تتعب إذا مشيت من هنا حتى شبرا، وتقول: إنك أشرفت على الموت من كثرة التعب والإجهاد.

وعليك أن تُفكر بهذا الأسلوب وأنت في صلاتك، وإلا فكيف تصلي من غير أن تتفكر في هذا، فصلاتك هذه ليست صلاة، ولكنها ليست إلا روتينًا، أما صلاة القيام فتعطيك فرصة أن تقف وتتمهل في القراءة، وفي الركوع تتمهل وتتفكر في هذا الكلام، وتخرج من الصلاة وقد عرفت ما معنى الصلاة، وما معنى الإخبات لله، وقد فهمت معنى الآية: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] وستصل إلى هذا المعنى ولا شك.

فالمجموعة الشمسية مثلها مائة ألف مليون مجموعة شمسية وهي ما

تسمى بالمجرة، والمجرة مثلها ألف مليون مجرة أخرى ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي: مثلها مجرات أخرى لم تكتشف وما زالوا كل يوم يكتشفون الجديد من المجرات، ولكن هذا الذي استطاعوا أن يحصوه فحسب، وهو ألف مليون مجرة.

سبحان الملك، ما هذا العمق؟ وما هذا الاتساع؟ وما هذه العظمة؟ وما هذا الجبروت؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، أقول لك: إن الإنسان حين يرى البحر يغرق فيه قبل أن يغرق.

أحيانًا يقولون لك: قنديل البحر! لا تنزل! وقنديل البحر هذا مخلوق عجيب هلامي يرش مادة كيماوية ليدافع عن نفسه، أليست هذه أيضًا من عظمة الله تعالى، وإذا نظرت إلى كل شيء، وتفكرت فيه فستجد عظمة.

مثلًا: كيف يعمل الميكروفون؟ يعمل إلكترونيًّا، وكيف يمشي الصوت في السلك ليصل إلى أذنك؟ وكيف حدث هذا؟ حدث هذا عن طريق المرور بمراحل علم واقتدار؛ سبحان الله العظيم، فجهلك بهذه الحقائق هو الذي لا يجعلك تعظم الله.

وكل هذه المجرات من زينة السماء الدنيا، والديكور للسماء الدنيا، فما حجم السماء الدنيا نفسها والفراغات التي بين المجرات وبين النجوم والأفلاك والكواكب والسَّبح الرهيب وهي حركة منتظمة لا تتوقف في الكون، فمن المهيمن على هذا كله؟! سرعات لا نهائية، والإلكترونات أيضًا لها سرعات لا نهائية. والكل في حركة، ولا اختلال في هذه الحركة.

فمثلًا: أنت جسمك كله ذرات فلو حدث خلل في هذه الإلكترونات

وهذا التوازن الذي بينها وبين الشحنات السالبة، الموجبة الموجودة في النواة فسيكون جسمك مكهربًا، ولو أنك لم تقف على عازل ولمسك أحد الأشخاص، فإنه سيتكهرب، وكما نرى الرجل الذي يقوم بإصلاح الكهرباء في المنزل مثلًا، حين يقف على خشب لا يتكهرب؛ لأنه يقف على عازل ولكن متى يتكهرب؟ يتكهرب حين يمسك سلك الكهرباء بيد ويمسك معدنًا آخر باليد الأخرى أو يلمس الأرض، أو يلمس إنسانًا آخر يقف على الأرض بيده الأخرى.

فمن الذي ينظم هذا كله عندك؟! هل غير الله تعالى يقدر على هذا؟!

فيجب عليك أن تتفكر في عظمة الله، وإذا تفكرت وجدت نفسك ساجدًا لله دائمًا؛ لأنك ستفكر كيف تقف بين يدي هذا العظيم سبحانه وتعالى وهو سائلك، فهذه هي عظمة الله والتفكر في عظمة الله.

مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ، فهل يُتَخَيَّل هذا الكلام؟ بالطبع غير ممكنٍ لك أن تتخيل هذا، ولكن لك أن تتفكر فحسب: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومن فوق العرش رب العالمين سبحانه وتعالى وعز وجل، وهذا حديث ثابت صححه الشيخ الألباني(١)، فكم عظمة الله؟!

فلا ينفع هنا إلا التسبيح ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤]؛ ولذلك ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وآية الكرسي

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

ابتدأت باسمين عليهما تدور جميع الأسماء الحسنى وصفات الكمال، ألا وهُمَا الحي القيوم كما ذكر ذلك (ابن القيم) أيضًا في كتابه «بدائع الفوائد» في إحدى المسائل في شرح اسمه تعالى «السلام»، فالحي القيوم؛ هذان الاسمان عليهما مدار جميع أسماء الله تعالى وصفاته[1]، وفى آخر الآية: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

تتفكر في عظمة الله وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يشق عليه حفظهما، فأنت إذا أردت أن تحفظ العمارة من الزلازل أنت والحكومات التي في العالم كله ما استطعتم، فما بالك بمن يحفظ كل شيء في موضعه كما أذن وقدر سبحانه وتعالى وعز وجل، حركات فلكية رهيبة، واتزان الأمم، كل هذا في الأرض والسماوات، يعني: حَفِظَ النظام في هذا الكون ليستمر ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] فكم عظمة الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ فحين تتفكر في هذا تجد أنك استشعرت عظمة الله.

كذلك في ذات المعنى في سورة الشورى: قال تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤] نتذكر ما في السماوات وما في الأرض، بمعنى أن له كل شيء وأحوال كل شيء، فليس له إلا أنت وامرأتك وولدك فحسب، بل وأحوالك ويومك وغدك وأمسك وأحوال امرأتك وأحوال ولدك كلها ملك لله، وإن كنت صالحًا أو غير ذلك فأنت ملك لله؛ فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء[2]؛

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﭬ.

فعموم الملك لله ﷻ؛ الأشياء وأحوال الأشياء ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ونجد أيضًا في سورة الواقعة في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

سورة الواقعة تتقلب في أقسام الربوبية:

وسورة الواقعة: عبارة عن تقلب في ذكر أقسام الربوبية من أولها إلى آخرها وما يترتب عليها، لكن الكثرة الغالبة في ذكر أقسام الربوبية. وما أقسام الربوبية؟

أقسام الربوبية: هي طريقة للدراسة والفهم لنعرف ما معنى الرب، فحين نقول: ما معنى الرب؟ نقول: هناك ثلاثة أقسام:

■ **أول قسم اسمه: (القدري الكوني)** هذا الذي شرحته آنفًا.

وهو التفكر في الأرض وما حجمها والمجموعات الشمسية والمجرات والسماء الدنيا والجن والإنس والملائكة والطير والوحوش والماء والأكسجين وثاني أكسيد الكربون والدورات، فكل هذا قدري كوني ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، فهذا هو النظام الكوني ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] وعليك أن تتفكر وليكن حتى في حبة البرسيم التي كيف لها أن تتحول إلى لبن ولحم، وكيف أنها تنبت أصلًا من الطين، فأولها القسم القدري الكوني.

■ **أما القسم الثاني فهو القسم التشريعي:**

فكل كلام عن التوراة أو عن الإنجيل أو عن القرآن أو عن موسى أو

عن عيسى أو عن محمد ﷺ أو عن إبراهيم أو عن نوح أو عن رسل الله عليهم صلوات ربي وتسليمه، فهذا اسمه القسم التشريعي؛ وهذا هو القسم الثاني من ربوبية الله، فليس أنه يخلق ويرزق ليس إلا، فالقسم التشريعي هو الرسالات؛ الأوامر والنواهي، وهو القسم الثاني من ربوبية الله.

■ **أما القسم الثالث فهو الجزائي:**

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] فلان أصابته مصيبة اليوم فلماذا؟ نعم بما كسبت يداه، يعني: القائم عليه أُذِن له قدرًا أن يرتكب هذه المعصية، ثم أذن له جزاءً أن يصاب بمصيبة كذا مقابل هذه المعصية وأحيانًا يحدث له كذا وكذا.

فهنا أقسام الربوبية الثلاثة: عبارة عن قدري كوني (المخلوقات كلها وتسيير أمرها)، والثاني: تشريعي (رسالات ورسل، الصراع بين الحق والباطل والابتلاء وحياة الإنسان وإلى أين هو ذاهب؟ ومن أين يأتي؟)، ثم الجزائي الذي هو (النار والجنة ومشاهد القيامة، وعذاب القبر ونعيم القبر والحياة هنا في الدنيا أيضًا والجزاء فيها)، فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] هذا هو الجزاء.

فنجد أن الثلاثة أقسام: هي ربوبية الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

سورة الواقعة بيان مفصل لأقسام ربوبية الله تعالى:

وسورة الواقعة بيان مفصل لهذا المعنى:

فمن أولها ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ فهذا هو (الجزائي)، ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾، ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ فهذه هي (الجزائي) ثم يشرح من هم أصحاب الميمنة والمشأمة والسابقون، ثم يصل بعد ذلك إلى (القدري الكوني): ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ وقبلها: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾ ما معنى ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾؟ أي: من أي شيء خُلقت؟ خُلقت من حوالي ستة من عشرة من المليون من الجرام، وهو وزن نطفة الرجل، وهو الميكروب المنوي وهو النطفة، وهذه هي التسمية الحق، فماذا تفعل هذه النطفة وكيف أنها تتزاوج مع النطفة الأمشاج وكيف تكون علقة تنشب في الرحم.

وهل أنت كنت تعرف عن هذا شيئًا أو رأيت من هذا شيئًا؟! أو الأم أو الأب هل شاهدا شيئًا من هذا.

من الذي يتابع هذا كله؟ هل هناك غير الله تعالى علام الغيوب سبحانه وتعالى وعز وجل! فانظر لقدرته تعالى كيف يتابعك ومن أين، ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح: ١٣، ١٤]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩] هل خلق منكم أحد شيئًا من هذا في مرحلة من مراحل الجنين.

وطفل الأنابيب هذا! ما الذي فعلوه؛ هو عبارة عن مرحلة معطلة في رحم المرأة فعملوا تعويضًا عنها بدل قناة الرحم فصنعوا أنبوبة يقومون بزراعتها في رحم الأم ويقولون لك: طفل الأنابيب، كأنهم هم الذين

خلقوه فإنا لله وإنا إليه راجعون. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٦، ٧].

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾ [الواقعة: ٥٨- ٦١] في أنبوبة مثلًا ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [الواقعة: ٦٢] فأنت تتفكر في خلقك وأنت راكع وتقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ)؛ لأن ختام الآيات سيكون في النهاية ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤] بعد القدري الكوني.

وانظر أنت لتعقيد جسمك مثل الأعضاء والعروق والعضلات والعظم والدماء، والجهاز الليمفاوي، والجهاز التناسلي، والجهاز البولي، والجهاز الهضمي، والغدد، وتجد أن غدة تعطلت مثلًا فيقال لك: كيمياء الجسم بها خلل، وتجدك تصرف كل ما جمعته من مال في حياتك؛ لكي تعالج بدنك ثم لا تستطيع، ولا يستطيع أطباء العالم إلا أن يشاء الله بك رحمة، فسبحان الله.

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨﴾ كيف كنت؟ ومن خلقك هكذا وجعلك هكذا؟ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦] فهذه الأولى.

أما الثانية: فقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣﴾ [الواقعة: ٦٣] وتحرثون أي: انظر إلى التفاحة الحمراء والأخرى الصفراء، والاثنتان تسقيان بماء واحد؛ ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ [الرعد: ٤] وأيضًا بجانبها البرسيم والبرقوق والتين والجوافة والخوخ، وكل هذه الفواكه بجانب بعضها البعض!

فهل زرعت يومًا بذرة برتقال وأثمرت تفاحًا أو مشمشًا أو ليمونًا؟

فماذا بداخل هذه البذرة حتى تنتقي من التربة ومن الطين المواد الغذائية، والمواد التي تأخذها من الشمس إلى أن تؤلف هذه الثمرة ونوع الورقة ونوع الفروع.

أليست هذه عظمة؟! وكل الذي فعلته أنك شققت الأرض ووضعت البذرة ووضعت قليلًا من الماء، فأنت لم تخلق بذرة ولا خلقت طينًا، ولا أنزلت الماء.

وفجأة أصبحت هذه تفاحة تسقى ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] شيء رهيب جدًّا مسألة الزرع هذه.

ولكنك تمر على الزرع ولا تتأثر، فترى مثلًا شجرة الجازورين وبجانبها شجرة توت، وبداخل العاصمة تجد هذا في شوارع القاهرة، فكيف نبتت هذه الأشجار، ومن المستحيل أن تزرع بذرة وتخرج نبتة أخرى، حاشا لله ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فلتتفكر في الزراعة ولتذهب إلى الأرياف، وكيف تنبت الثمار وكيف تخرج هذه الطينة هذه المواد المتنوعة.

وأيضًا فلتنظر إلى الحبوب وإلى سنبلة القمح مثلًا وإلى الحكمة والتخطيط الذي أُودِعَ فيها، فالعليم الحكيم هو الله، وهذا هو الخلق بالحق؛ لأنه مشتمل على العلم، وعلى الحكمة بل على كمال العلم وكمال الحكمة.

فانظر إلى السنبلة وبجانبها الفول الأخضر وبجانبها الذرة، وتجد الفلاح كل هذا أمام عينيه ولا يصلي!

فمن «سورة الواقعة» هذا السياق: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ثم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وليس الذي يعلم التفاصيل كالذي لا يعلم التفاصيل ففعلًا الدارس للزراعة حين يركع ويقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ) ويذكر الزراعات والعلوم والحكم التي أَوْدَعَهَا العليم الحكيم في الزراعات يستطيع فعلًا أن يُخبت لله ﷻ؛ لأنه على علم أو على بعض علم، فليس الذي يعلم كالذي لا يعلم، فأنت تذكر هذا الكلام إجمالًا، ولكنك حين ترى شجرة الزينة مثلًا كيف تنبت أو البرسيم كيف ينبت لوجدت آلاف الدراسات العليا في الزراعات وفي هذه المواضيع، وكل هذا علوم وحكم.

فحين يقول الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فمعناه أن نتدبر في كل هذه العلوم والحكم ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [٦٥] ومعناها أن يكبر الزرع ولا يخضر ولا يعطي ثمرًا.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ هل الماء شيء غريب عليك؟ كم تشرب من الماء كل يوم؟ كم جالونًا من الماء تشربه كل يوم؟!

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾؛ فماء البحر يُسلط الله ﷻ الشمس عليه فيخرج منه البخار، ويتكون في سحاب والسحاب ينزل مرة أخرى على هيئة أمطار، فهو ماء مبارك وكمية الماء هي هي، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩].

والعرق أيضًا: يتبخر ويتجمع وينزل مرة أخرى، حتى البول يصب في المجاري والمجاري تصب في النهاية إما تُسَرَّب إلى باطن الأرض وتترشح، وإما تتبخر وتتكون سحبًا وتنزل مرة أخرى، فيقول تعالى: ﴿لَوْ

﴿نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [٧٠] يعني: بالزفارة نفسها التي فيه فلا يستطيع أحد أن يشربه ثم يقول: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [٧٠].

هذا هو التذكير في القرآن العظيم وكم أنَّ القرآن كريم وكم هي محاسن القرآن.

وبعد ذلك نجد مَن يتطاول وقد خلق من بصقة، بل أقل من بصقة؛ فقد خلق من نطفة، فنقول له: الشجر الذي تأكل منه المانجو والجوافة وهي بجانب بعضها كيف أثمرت من الطين.

وأيضًا الماء: هل تستغني عنه؟ الفاكهة يستغنى عنها، أما الماء فلا يمكن أن تستغني عنه، وإذا منعت منه فبكم تشتريها؟ فتجده من الممكن أن يدفع ملكه كله إذا تعرض للعطش الشديد ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

انظر للأمثال وانظر إلى التذكير الموجود في القرآن العظيم.

ثم بعدها يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾، النار التي تشتعل بعود كبريت صغير جدًّا وتعطيك نارًا كثيرة.

ومن ليس عنده موقد تراه يشعل الحطب، أو القش، أو حطب الذرة. ويكون الأكل أفضل في الطعم والنكهة، وكل هذا من عود كبريت، ومن الذي خلق الكبريت؟ خلقه الله تعالى.

كلمة: ﴿تُورُونَ﴾ [٧١] نجد أن فيها نعمة أننا من الممكن أن نولد النار. ولكنك تجد من يستعمل النار في إشعال السجائر، والشيطان يعينه على ذلك بأن يشعره أنه قد رفع قدره أمام الناس أو أمام نفسه وبأن يشعره بالعظمة وكيف أمسك بالسجائر وطريقته في إشعالها وطريقة تدخينه، يشعره الشيطان بالفخر من عمله هذا، وأن التدخين يضفي عليه شيئًا من

الفخر بنفسه والكبر على الآخرين وأنه في منزلة أفضل منهم.

فكيف تنقاد إلى الشيطان بهذه السهولة وتتركه يقودك إلى ذلك وتستعمل نعمة الله تعالى في معصيته، أين تعظيم الله تعالى؟! وهل هناك تعظيم لله تعالى بغير تعظيم أمر الله تعالى ونهيه.

وكذلك في الركوع، كيف تركع لله تعالى بغير هذه المعاني وهي موجودة في كتاب الله.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ وليس زرعتم شجرتها فحسب، بل ﴿أَنشَأْتُمْ﴾ وهي تشمل إنشاء كل نار، وهذا يدلك على أن النار تأتي من فروع متعددة؛ سواء من الشجر أو من الغاز أو من الكهرباء أو من البترول أو من الكيروسين أو من البنزين أو من أي مصدر، وهي مصادر متعددة أصلًا جاءت من الشجر، ولكن كيف فمن أين أتى البترول؟ ومن أين أتى الفحم؟ كلها أشياء كانت في الأصل شجرًا أخضر دُفِن أخضر أو شجرًا مات وتغطى تحت الأرض ثم بتفاعلات مر عليها مئات أو آلاف أو ملايين السنيين تحول إلى البترول، وكذلك الفحم الحجري، وكل هذا هو نار أيضًا. فمن الخالق الذي خلق لك هذه النار؟ أم أنك قد وجدتها جاهزة كذلك. ولكنك تقول بكل بساطة: أريد أن أشرب شايًا وتذهب لتشعل الموقد بعود صغير من الكبريت ثم تلقي العلبة، وتضع البراد ولا تذكر عذاب النار ولا تشكر نعمة إشعال النار وشجرة النار؛ فهي شجرة بفروع متعددة جدًّا تعطيك نارًا، وما عليك إلا أن تشعل عود الكبريت فتعطيك النار في كل مكان، وتحمل معك علبة الكبريت، أو الولاعة! ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

يقول تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣﴾ وهنا لم يقل تعالى: ولو نشاء لأطفأناها، لماذا؟ لأن النار لن تُطفأ إلى يوم القيامة حيث تشتعل على أهل النار في جهنم.

إذًا هي لا تنطفئ ولكنها تبقى تذكرة ومتاعًا، فكيف لك أن تأكل لحمًا إذا لم توجد النار؟

﴿وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [٧٣]، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ والفاء هنا حين تقرأ سورة الواقعة تذكرك القدري الكوني مثل: ﴿تُمْنُونَ﴾ و﴿تَحْرُثُونَ﴾ والثالثة الماء ﴿تَشْرَبُونَ﴾ والرابعة ﴿ٱلنَّارَ﴾، وكل هذا من النعم عندك وتتعامل مع الله تعالى وكأنه لم يفعل لك شيئًا ولم ينعم عليك بهذه النعم الجليلة.

ثم تأتي بعد ذلك الآيات الدالة على أن خلق السماوات أكبر من خلق الناس من قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾، ولقد علمنا كيف تتحرك هذه النجوم بسرعات رهيبة وهي سرعات منضبطة تمام الانضباط وإلا إن اصطدم نجم بآخر بغير قدر وعلم وإحكام وهيمنة لقامت القيامة، ولزالت السماوات والأرض؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] يعني أن يحدث تصادم وتجد أنه قد انفرط عقد هذا الكون كله؛ لأنها سرعات فلكية. فأي اصطدام ينهي كل شيء إلا أن يكون بقدر الله ﷻ ومرسومًا بحكمة واقتدار: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر:٤٩].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ فنجد أن كلمة عظيم أتت مرة أخرى؛ فالقرآن عظيم وهو صفة الله ﷻ

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾، فالقسم هنا عظيم.

وما معنى قوله: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾: أننا نحن الآن علمنا شيئًا من هذه العظمة لكن «لو تعلمون» سارية المفعول إلى يوم القيامة - ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] - فكل ما قلنا هذا ما اكتشفوه، ولكن بين الحين والحين يعلنون عن اكتشافات جديدة؛ مثلًا يقولون: اكتشاف مجرة! يعني: هم لم يكتشفوا كوكبًا أو نجمًا ولكن اكتشفوا مجرة، يعني: ألم تكونوا قد رأيتموها من قبل؟ وكنتم تظنون أنفسكم أنكم قد أحطتم بالكون كله ولكنكم قد اكتشفتم مجرة أي: ما يوازي مائة ألف مليون مجموعة شمسية، شيء رهيب! لو تفكر الإنسان في عظمة الله ﷻ لارتعد.

فنجد أن في سورة الواقعة خمسة أشياء: ﴿تُمۡنُونَ﴾، ﴿تَحۡرُثُونَ﴾، ﴿تَشۡرَبُونَ﴾، ﴿تُورُونَ﴾، ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ وليس بالنجوم؛ ولكن ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ لبيان أهمية بقاء النجم في مداره وخطورة اختلاف موقعه واصطدامه؛ ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

ثم نأتي إلى ختام «سورة الواقعة»؛ الجزائي مرة أخرى ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ فالقرآن تشريعي ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ وبعد ذلك كيف تجد التصرف مع القرآن؟ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾ وبعد ذلك كله ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ مثل الذي يبيع دينه ويكتب فتوى لمن سيعطيه النقود، أو الشقة، أو حمام السباحة، أو الذي يعطيه سلطة أو كذا أو كذا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونهاية السورة عبارة عن الموت: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ﴾ والفاء هنا معناها: يعني حين تذكُر الموت وحال الموت فسبح.

وهذا هو التقسيم: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ - كما جاءت في أول السورة - الجنة: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾، والثالثة: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ فهو تعالى قادر على كل هذا.

فأنت كذلك تقول في الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾؛ يقول لك الله: «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**»[1]، وهنا: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾؛ إذًا ما الذي ينبغي أن تتفكر فيه وأنت تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)؟ وقد علمت من قبل ما معنى (سُبْحَانَ) وهي في النهاية تعظيم.

العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السنة:

فالتسبيح هنا معناه: تعظيم الله تعظيمًا لا يتوقف. أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتْ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟!**»؛ وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ!**

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟! إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا - وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ - **وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**»(١). «وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ»؛ لأن العرش سقف المخلوقات، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، «إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ هَكَذَا». فنرى كيف أن الرسول يعظم الله ﷻ.

تنبيه: هذا الحديث فيه كلام في الإسناد؛ لوجود ابن إسحاق فيه وهو مدلس، وهكذا فالحديث فيه كلام، لكن قرأت لابن القيم عدة صفحات في مختصر «سنن أبي داود» وهو يدافع عن هذا الحديث(٢)؛ فهو حديث عظيم جدًّا، وفيه استدلال على عظمة الله.

ولنأت لآخر سورة الحاقة، والتي فيها: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾. فنجد السياق الجزائي، ثم التشريعي.

فأما السياق الجزائي:

فقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٢٨ -٣٢] لماذا كل هذا؟ سلسلة تدخل من دبره وتخرج من فمه بعد أن تقطع الأمعاء الدقيقة والغليظة والحالب وتقطع، سبعون ذراعًا، فكيف يعيش هذا! منتهى التعذيب، لماذا؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة: ٣٣]. وأدلة عظمته في ﴿تُمْنُونَ﴾، ﴿تَحْرُثُونَ﴾، ﴿تَشْرَبُونَ﴾، ﴿تُورُونَ﴾، ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، والموت، ألم تر الموت؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) «تهذيب السنن» (٤/ ٢١٦٥)

وفي «سورة الحاقة»: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾، ﴿فَسَبِّحْ﴾ وهذا حكم الله التشريعي، إذًا الربوبية لله تعالى ومدار الاسم واستعماله للتسبيح وللتفكر في ربوبية الله؛ ولذلك في الركوع أنت لا تقول: (سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ) ولكن تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ).

الربوبية تعني: حكم الله القدري الكوني والتشريعي والجزائي؛ فمدار الأمر على هذا وعليك أن تفكر في النار. والكافر الطاغية والذي اغتر غرورًا رهيبًا واستُدرج استدراجًا لو علم أن السفن ستجري في الأخاديد على وجهه من دمعه ما كفر بالله، وما أقدم على كفره هذا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤] وأمامه كل أدلة العظمة هذه ثم لا يعظم الله بعد ذلك!

اسم الله تعالى «العظيم»

أيها الإخوة الأعزاء:

كنا قد شرعنا في شرح معاني اسم الله تعالى «العظيم»، وذكرنا وروده في كتاب الله ﷻ وخصوصًا في سيدة آي القرآن، أو في أعظمِ آي القرآن، كما قال رسول الله ﷺ: هذه الآية أعظمُ آية في كتاب الله مع أن القرآن كله عظيم لقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]، ولكنَّ هذه الآية بالنسبةِ إلى باقي الآيات هي أعظم آيةٍ في كتاب الله، وفي آخر آية الكرسي: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

ولما رأينا شدة العذاب في النار، وجدنا العلةَ الأولى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣﴾ [الحاقة:٣٣].

ومن أسباب الخشوع: حضور القلب، ولكن هذا لا يكفي، بل لا بد من تَفَهُّم المعاني، ولكن هذا لا يكفي، بل لا بد من الحياء والتعظيم والرهبة، لا بد من كل هذا، فكيف يكون؟ **﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾** [المائدة: ٢] فلا يكون إلا بأن نفقه ونتدبر في أسماء الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

۞ عتاب للناس لعزوفهم عن فهم معاني الخشوع:

وقد تفاجأت بأنه قد انصرف عدد كبير من الناس عن فهم معاني الخشوع، ويتركون هذه المعاني العميقة بعمق الإسلام العظيم الحقيقي؛ فهي سلعة نادرة، بل نادرة جدًّا، ولو جئتكم بكتب ابن القيم وتعليقاته على مثل هذه المعاني لوجدتم أنه يقول كلامًا يحسده فيه مَن يفقه عنه هذه المعاني، ويقول كلامًا طويلًا في ذلك.

۞ دليلان على ربوبية الله تعالى:

■ الدليل الأول: دليل الاختراع والإنشاء:

اسمه تعالى العظيم، وقد تعرضنا لمواضع وروده في القرآن العظيم وتبين لنا ذكرُ آيات الله في السماوات وفي الأرض على الإجمال وعلى التفصيل.

فالذكر على الإجمال؛ في مسألة إيجاد السماوات والأرض بغض النظر عن حجم السماوات والأرض وما فيهما، المهم هو إيجاد السماوات والأرض؛ فهذا يسمى: (دليل الاختراع والإنشاء)، هكذا يسميه العلماء؛ فلم يكن من قبل لا سماء، ولا أرض، ولا عرش، ولا شيء؛ كان الله ولا شيء معه. وبعد أن خُلقنا نظرنا، فوجدنا كونًا، فإذًا وُجِدَ هذا الكون كله من العدم؛ فهذا يدل على الكمالات لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

ثم نجد الدليل الثاني وهو منفصلٌ تمامًا عن الدليل الأول، وإن كان الربط بينهما لا ينفك، لكنه منفصلٌ من ناحية أن الدليل الأول دليل الاختراع والإيجاد والإنشاء؛ يعني أن الكون لم يكن موجودًا فأصبح

موجودًا.

■ **أما الدليل الثاني: وهو دليل الحكمة والرعاية والعناية:**

وهذا يأتي من التفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى وعز وجل، وفي تفاصيل خلق الله، ويبين لك مدى رعاية الله بك؛ جعل لك الأرض فراشًا، وجعلها لك مهادًا، وجعلها لك بساطًا، وأنزل لك الماء؛ فتفاصيل نِعَمِ الله سبحانه وتعالى تسمى: (دليل الرعاية والحكمة)، والقرآن كثيرًا ما يذكر هذا لكنَّ الناس لا ينتبهون.

في كل آيَةٍ من القرآن يقول الله عز وجل فيها: إنه خلق السماوات والأرض، فهذا اسمه: (دليل الاختراع والإنشاء).

وهو دليل يتحدث عن أصل الإيجاد، كان الكون عدمًا لا هواء، ولا ماء، ولا شيء، وإذ بك تجد هذا الكون قد خُلِق، وأن تعلم شيئًا ضخمًا كبيرًا عن عظمة الله عز وجل، وعن جبروت واقتدار الله سبحانه وتعالى، فهذا هام جدًّا.

الدليل الثاني: وهذا مسألة ثانية؛ سندخل في التفاصيل كلٌّ فيما يَفْقَه أو يَفْهَمُ فيه؛ الجيولوجي يفهم في الجيولوجيا أكثر، والكيميائي يفهم في الكيمياء أكثر، والطبيب يفهم في الطب أكثر، والفلاسفة يفهمون في الفلسفة أكثر، والعلوم لا حصر لها، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فتأتي هذه التفاصيل؛ لتتعرف أنت على حكمة الله في خلق كل شيء، وتتعرف على رعاية الله بك وعناية الله بك أيها الإنسان!

فمثلًا في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، (والرب) هنا إجمال، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] هذا هو التفصيل؛ فكيف فُرِشَت

الأرض؟! ومطلوب هنا التفكر ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ كيف أحكم الله تعالى هذا ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] فالقضية أن تتفكر في الرعاية والحكمة.

فالدليل الأول: هو (دليل الاختراع والإيجاد)، ويجب أن تتفكر فيه.

أما الدليل الثاني: فإخبات لله ﷻ حين تُحَصِّل بعضًا من رعاية الله لك، وهو (دليل الرعاية والحكمة)، ويستبين من التفسير في تفاصيل الأشياء، كما جاء في سورة البقرة في أوائل كتاب الله ﷻ، وعُدْ أنت إلى هذا السياق وستعلم التفاصيل.

مثال آخر في سورة آل عمران: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] نجد هنا الخلق وهو فعل يستلزم صفات الكمال وهو دليل الاختراع والإنشاء.

فهذه الآية كافية جدًّا لكي نفهم شيئًا كبيرًا من عظمة الله ﷻ، ولكي تخضع وتذل لله، وبعد ذلك تأتي التفاصيل، وهي دليل الرعاية والحكمة. ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢] نجد أن الليل ينتهي فيأتي النهار، ثم النهار ينتهي فيأتي الليل؛ فهذا هو اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ومعناه دورات الأكسجين وثاني أكسيد الكربون، ومعناه دورة المياه التي تتجدد باستمرار، ومعناه الهواء، ومعناه النبات والزرع، ومعناه الحياة، وبغير ذلك لا تجد ماءً، ولا زرعًا، ولا أكسجينًا، وإن أحياك الله فللتعذيب: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ

﴿سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص: ٧١].

فنجد في أول الآيات قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا إجمال فيه (دليل الإنشاء والاختراع) فتجد سماء وأرضًا ونجومًا فسبحان الله وبعد ذلك تتعرف على التفاصيل فهذا اسمه: (دليل الرعاية والحكمة)؛ فانظر كيف يرعاك الله؟! ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ثم بعد ذلك نأتي لآية سورة البقرة فهي أوضح:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالدليل الأول هو (الخلق والإنشاء)، ثم الدليل الثاني: وهو الرعاية؛ كيف يرعاك الله؟! فانظر إلى السنن الربانية في البر والبحر والأنهار والفلك، وتجد نفسك إذا نزلت في الماء تغطس أو تعوم وقواعد علمية رهيبة؛ فهذا هو (دليل الرعاية والحكمة)؛ فهذا يدلك على أن الله هو الحق، وعلى أن الكمال كله لله سبحانه وتعالى وعز وجل، وفى النهاية قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

❍ ونجد أمثلة أخرى كثيرة:

مثلًا في سورة إبراهيم، وفي سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الحديد: ٤] هذا هو (دليل الاختراع والإنشاء والإيجاد)، وبعدها تجد التفاصيل؛ وما التفاصيل؟ التفاصيل هي: (الحكمة والرعاية).

يجب فهم هذه المعاني؛ لأننا ما خلقنا إلا من أجل هذا: الشيطان يعلم أهمية هذه المعاني ونحن لا نعرف أهميتها، فلا حول ولا قوة إلا بالله، والله العظيم الشيطان يعرف أهميتها تمامًا. هذه المعاني ليست صعبة ولكنَّ فيها نوعَ رجس وغضب؛ وهو نوم طويل ومزعج؛ كابوس منذ ولدت وإلى الآن وأنت في كابوس بعيد عن هذه المعاني من أسماء الله وصفات الله، فإذا جاء أحد يريد أن يوقظك من هذا النوم تجد أنه ثقيل وهو ليس بثقيل؛ ولكن أنت ما خلقت إلا من أجله وإلا فأخبرني ما معنى: «أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ»[(١)]؟

۞ اسم الله العظيم كما ذكرناه من قبل:

ذكرنا اسم الله العظيم وذكرنا وروده في كتاب الله وفي آية الكرسي، كم حجم السماوات؟ وكم حجم الكرسي؟ وكم قدر عِظَم عرش الله العظيم؟ كم الحكمة في كل هذه المخلوقات؟ كم الرعاية؟ كم القدرة التي يتطلبها حفظ السماوات والأرض؟ ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾.

ثم نظرنا إلى كيف خلقنا نحن؟ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وهذا اسمه دليل الرعاية والحكمة.

وأيضًا معه دليل الاختراع والإنشاء؛ لأن ﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ هي عبارة عن ستة من عشرة من المليون من الجرام الذي هو أنت وفجأة أصبحت كما أنت هكذا فكيف حدث هذا:

أولًا: من ناحية الإيجاد والاختراع ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ ثم بعد ذلك تأتي لتفصيلات هذه النطفة وكيف أصبح الإنسان هكذا.

(١) أخرجه مسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وكذلك: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾ فالنبتة تكون صغيرة جدًّا، ثم تصبح شجرًا وثمارًا مختلفًا ألوانها.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩﴾ انظر إلى دورة المياه وكيف يتم الحصول عليها؟ وكيف يعاد تكريرها؟ وكيف يصل إليك نقيًّا مرة أخرى؟

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١﴾ بمجرد عود من الثقاب صغير جدًّا تشعل نارًا هائلة، والله هو أيضًا الذي خلق هذا العود من الثقاب أصلًا. ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾.

فحين تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ) في الصلاة فما عليك إلا أن تتفكر في شيء يُعجبك من هذه الأشياء؛ تفكر في أصل خلقك؛ كيف أصبحت رجلًا يافعًا، وأنت في الأصل كنت نطفة صغيرة ولا أحد يراك.

أو الزراعة، أو الماء الذي تشربه وتبرده في الثلاجة، أو النار؛ فتُنضج بها الطعام وتشرب الشاي أو تُنضج اللحم.

فكل هذا يعلمك أن تستحضر بعض هذه المعاني وأنت راكع تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، فأنت لا تستطيع أن تستحضر كل هذه المعاني إلا في صلاة القيام؛ لأن في الوقت مُتَّسَعًا، وإذا استحضرت شيئًا ولم يتحرك قلبك فمن الممكن أن تستحضر شيئًا آخر، بمعنى أنك مثلًا استحضرت خلق الإنسان فلم يتحرك قلبك، فتستحضر الزراعة، فعندك وقت في صلاة النافلة، أما في صلاة الفريضة فليس عندك الوقت الكافي.

فيجب عليك من قبل أن تتخير ما الذي يؤثر فيك ويجعلك تخضع لله

وأنت تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)؛ اختر شيئًا تتفكر فيه يُنبئك عن عظمة الله، أو عن بعض عظمة الله وهي تكفيك.

ثم ذكرنا القسم الجزائي في آخر سورة الواقعة:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

الجزاء يوم القيامة ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ إذا قلتها في الفاتحة يرد عليك الله تعالى قائلًا: «**مَجَّدَنِي عَبْدِي**»[1].

تفكر مثلًا في يوم القيامة وتفكر مثلًا في كل البقر الذي ذُبح إلى يوم القيامة ويُحشر مرة أخرى أو كل الإبل تأتي أعظم ما كانت يوم القيامة - ومعنى كلمة (أعظم) هنا أي: هي أضخم وأسمن؛ فكما عرفنا معنى كلمة العظمة بحسبها، فعظمة الناقة ليست في أنها عاقلة تمسك ورقةً وقلمًا، إنما عظمتها في أنها كبيرة وقوية ليس عن ورم، وإنما عن سِمَن وعن صحة - فتُبْعث أعظم ما كانت، ونجد أيضًا يوم البعث النعجة ذات القرون والنعجة غير ذات القرون، وكله يحشر يوم القيامة؛ كل نساء العالمين، وكل الرجال، وكل الأطفال؛ وكل من مات له شخص من الآباء والأبناء والأجداد يجده يوم القيامة، نعم الكل سيحشر، وفي النهاية: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأيضًا التشريعي (آخر الحاقة):

فالله تعالى يختار ويجتبي رسولًا من بين الناس ويصطفيه ويعلمه وينزل عليه الكتاب، ليعلم الناس وهذا ليس بالأمر الهين؛ فهذا من عظمة الله ﷻ، وأيضًا كيف يُنْصَر محمد ﷺ، فلقد آمن كثير من الناس على أن محمدًا ﷺ قد انتصر على قومه في النهاية، إذ قالوا دعوه فإن ظهر على قومه فهو نبي، إذًا فظهور النبي ﷺ برغم أن الأسباب لا تبدو أنها معه، ومع ذلك فقد نصره الله؛ إذًا فهو رسول، فالمسألة إذًا نصر الله ﷻ لرسوله في هذه الظروف التي نعلمها جيدًا في مكة؛ فذلك من عظمة الله ﷻ، وكل هذا في القسم التشريعي.

والكتاب الذي يحفظه الله، انظر كم مطبعة الآن في العالم تطبعه وعدد دور النشر، ومع ذلك فالقرآن محفوظ وذلك من عظمة الله ﷻ. فالتفكير في القسم التشريعي من ربوبية الله مثل القرآن والسنة والنبي عليه الصلاة والسلام والوحي وما يتعلق به، وفي النهاية قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الحاقة: ٥٠ -٥١].

۞ اقتران اسم الله تعالى العظيم باسمه تعالى العلي:

ذكرنا ورود هذا الاسم ولكن لم نذكر بعد اقترانه بالعلي؛ إذ جاء علوه ﷻ مقترنًا بعظمته في آية الكرسي، وفي آية سورة الشورى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾ [الشورى: ٤].

فمهما كان الشيء عظيمًا وجدت شيئًا فوقه فهذا نقصٌ في العظمة، لكنه سبحانه وتعالى هو العلي، وأعلى من كل شيء.

وهو العليُّ: علو مكان، وعلو قدر، وعلو قهر وبطش، وعلو بمعنى التعالي.

وهو العلي العظيم؛ عليٌّ في عظمته، عظيم في عُلُوِّهِ، ولكن كيف يكون عظيمًا في عُلُوِّهِ؟

انظر إلى علو الكرسي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥] ثم انظر إلى الحديث الذي يقول: «**الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ كَحَلْقَةٍ فِي فَلَاةٍ**»، كحلقة في صحراء، فالعرش عظيم، فكيف بعظمة خالقه سبحانه وتعالى وعز وجل. كل هذا يدور حول عظمة الله.

وانظر إلى اقترانه بالعلي ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]. عظيم في عليائه سبحانه وتعالى وعز وجل. وطبعًا لا يخلق الله شيئًا أعظم منه أو أكبر منه سبحانه وتعالى وعز وجل، فالله أكبر وأعظم من الكون كله، لا نتكلم أن لله حجمًا حاشا لله، ومعاذ الله أن نتكلم في هذا ولكن الذي نعلمه أن الله أكبر وأعظم من كل شيء.

هل أنت تتخيل حجم الأرض وإذا كنت تتخيلها، فهل تتخيل حجم المجموعة الشمسية، هل تتخيل حجم الشمس وهي قدر الأرض مليون مرة وثلثًا، هل أنت متخيل المجموعة الشمسية؟!

من يزعم أنه يتخيل المجموعة الشمسية فهو كاذب، وكل إنسان مهما كان، وحتى لو كان من رواد الفضاء نقول له: كاذب لأن الإنسان له طاقة فكيف به أن يتخيل هذا الحجم الرهيب والمرعب، كيف لك أن تتخيل مائة ألف مليون مجموعة شمسية في المجرة الواحدة وزيادة وكل هذا زينة؛ نقطة صغيرة في السماء الدنيا، والسماء الدنيا على كبرها وعظمتها

كحلقة في فلاة مقارنة بالسماء الثانية، والثانية مقارنة بالثالثة والرابعة حتى تصل للسابعة والعرش والكرسي والله تعالى؛ فهنا التسبيح لعظمة الله ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

بعض مواضع ورود اسم الله تعالى (العظيم) في السُّنة ودلالته:

نأخذ بعضًا من مواضع ورود هذا الاسم العظيم في السُّنَّة؛ لكي يتبين لنا إن شاء الله أيضًا بعضٌ من عظمة الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

■ الحديث الأول: الاستعاذة بالعظيم:

المرأة ابنة الْجَوْنِ التي خطبها النبي ﷺ وتزوجها، فلما أراد أن يبني بها في الليلة، قال لها النسوة: إذا اقترب أو إذا دنا منك فقولي له: أعوذ بالله منكَ، فهو يفرح بذلك ويُسَرُّ بذلك؛ لأنك تذكرين الله ﷻ، وأن الله أعظم من النبي عليه الصلاة والسلام - هي تَخيلتْ هذا المعنى - هكذا قرأتُ في «فتح الباري»(١)، والحديث في البخاري في كتاب الطلاق.

فلما دنا منها النبي ﷺ قالت: أعوذ بالله منك، فقال النبي ﷺ لها: «**لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيم، الْحَقِي بِأَهْلِكِ**»(٢)، والرواية الثانية: «**قَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ**»(٣)، وليس بمُعاذٍ؛ لأن «مُعاذ» هو المفعول، أما «مَعَاذ» فهو الفاعل بمعنى: مُعيذ. والمُعاذ هذا هو الإنسان مثل مُعاذ بن جبل أما المَعَاذ فهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٣٥٧). وأخرجه الحاكم (٤/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٥٥) من حديث أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه.

أما الرواية التي في البخاري: «**لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ**» فما المعنى؟ ولماذا اختار الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الاسم؟

قال الحليمي: إن العظيم هو الذي لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق؛ لا يمكن أن يمتنع شيء على الله أبدًا، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] لا شيء يستعصي على الله أبدًا.

وأضرب لك مثالًا - ولله المثل الأعلى - في السماوات والأرض، حين تجد رجلًا شهمًا تقول: هو ليس شهمًا فحسب إنما هو أيضًا شجاع، وكريم، وعذب اللسان وسلس، وشريف، وذو سمت، وذو هيئة، وفعال للخير، وكثير الإصلاح بين الناس يأمر بالقسط؛ فهو بذلك رجل عظيم ومعناها أن له صفات كمال ممدوحة كثيرة فهذا هو العظيم.

فلما اختار الحليمي معنى أنه: (لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق) ذكر عظيم القوم، مثلًا يقول لك: عظيم الروم، أو عظيم الفرس، أو عظيم القبيلة. فما معنى عظيم القوم؟ معناه أنه الرجل الذي إذا أمر سُمِع لأمره، وإذا نهى انتهى الناس بنهيه. فلا يستطيع أحد أن يُخالفه ولا أن يقاومه؛ فهو الرجل في القوم الذي لا يُقاوم فيقال: هذا عظيم فهو عنده قوة وعنده غلبة وعنده قدرة على التصرف وقدرة على إذلال الآخرين وإخضاعهم؛ فهو رجل عظيم.

فالعظيم لا مقاومة له من الآخرين، ولكن من الممكن أن يضعف ويبدأ الآخرون بمقاومته والانقلاب عليه وضربه بالنعال مثلًا؛ فهو عظيم لمدة معينة؛ أي: شيء مجازي، لكن العظيم للأبد هو الله سبحانه وتعالى وعز وجل وهو واحد لا يضعف أبدًا، ولا يمكن لأحد أن يقاومه، ولا يمتنع

عليه شيء أبدًا، فبهذا المعنى أخذ الحليمي لاسمه تعالى العظيم.

ستجد الآن بعد ذكر الأحاديث أن قلبك يستشعر معنى العظمة، فالحديث الذي معنا أنها - ابنة الجَوْن - لما قالت للنبي عليه الصلاة والسلام: (أعوذ بالله منك) بمن قد تحصنت؟

كما قالت مريم في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٨] ففزع جبريل وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ [مريم: ١٩] فأنا هنا بأمر الله ﷻ، فلماذا تستعيذين مني؟ أنا ليس لي من الأمر شيء.

أما ابنة الجَوْنِ فقالت لرسول الله: (أعوذ بالله منك)، فلما سمع النبي هذه الكلمة رجع؛ لأنه أعظم خلق الله تعظيمًا لله عليه الصلاة والسلام، وقال لها: «**لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيم**» أي: لا يمتنع عليه شيء أبدًا؛ فكيف بي وأنا رسوله وعبده وأخشى النَّاسِ له، وأتقى الناسِ له، وأكثر الناس تعظيمًا له، ومع ذلك أمتنع عليه؟! وهذا المعنى يقرِّب المعنى الذي ذكره الحليمي.

أما المعنى الشامل: (اسم يجمع عدة صفات) فمثلًا: الرجل في الدنيا الذي إذا اجتمع له صفات كثيرة ممدوحة؛ شهم، شجاع، طويل، جميل، حلو اللسان، يأمر بالقسط وهو على صراط مستقيم، وذو سمت عظيم، ذو هيئة وذو وقار، وذو أدب، فيقولون: رجل عظيم وهو اجتماع عدة صفات فيه.

ولكن إذا شرحت صفة واحدة فأنت شرحت جزءًا من العظيم؛ ولذلك وأنت تفكر في عظمة الله، لك أن تتفكر في أفراد عظمة

الله ﷻ، مثلًا: أنه لا يمتنع عليه شيء؛ وهذا الذي قاله الحليمي وهو أول معنى وصل إلينا.

تتفكر في اسمه تعالى الكبير، أو في اسمه تعالى العلي كل هذا وأنت راكع أو في العزيز، في الجبار، في المتكبر، في الملك، وكل الأسماء التي بها يُخضع لله أو استلزم بها أن يُخضع له غاية الخضوع تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ).

وهذا الحديث الذي نحن بصدده يقول: «**لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ**» وما معنى الاستعاذة؟ معناها الاعتصام؛ كمن يريدُ ضربك بخنجر، فتذهب وراء عامود فتعوذ به أو تلوذ به، فتلتصق بالعامود حتى إذا أتاك الرجل من ناحية ذهبت إلى الناحية الأخرى وهكذا، كمن عاذ أو لاذ بشجرة.

فالذي يعوذ بالله ﷻ يجري إلى الله، ويفر إلى الله، ويلجأ إلى الله ﷻ من عدوه هذا، وسيأتي شرح الاستعاذة بإذن الله في تفسير «سورة الفاتحة».

فمن يقول: أعوذ؛ أي: أحتمي وألتجئ وأهرب إلى الله وألوذ به منك يا محمد، فهل بعد ذلك يقترب منها الرسول عليه الصلاة والسلام مع أنها حلاله؟! قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣] يعني ما لكم لا ترجون لله عظمة، وما لكم لا تخافون لله عظمةً.

فهذا الحديث قد فهمنا منه شيئًا من معنى اسمه تعالى العظيم.

■ **أما الحديث الثاني:**

فهو حديث طويل وأكثر الناس يحفظونه والحمد لله، ورواه أبو داود: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي** - وفي رواية: **عَوْرَاتِي** - **وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(١).

وأول الحديث: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي...**» إلى أن يقول: «**وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**» كيف يُغتال الإنسان من تحته.

أول ما يتبادر إلى أذهاننا في زماننا هو الزلازل، فتجد الإنسان جالسًا مطمئنًّا مستريحًا وفجأة يجد نفسه مع البراكين في باطن الأرض أو مدفونًا بين الأنقاض. من الذي يقوى على منع الأرض من زلزالها؟! هل الدول الكبرى تقوى على ذلك؟ هل تستطيع أن تقول: أعوذ بالدول الكبرى أن أغتال من تحتي؟!

فإذا أتى الخسف أو الزلزال أو البركان فلا أحد يقدر على منعه إلا الله ﷻ، فحُقَّ للرسول أن يقول: «**وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**».

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وابن ماجه (٣٨٧١) من حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما.

وهذا مما يرجِّح المعنى الذي ركَّز عليه الحليمي، وهو الذي (لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق)؛ أي: لا شيء يُعجز ربَّ العالمين أبدًا، ومن شرح اسمه العظيم بأنه هو القادر الذي لا يعجزه شيء، فهل هذا جزء من العظمة أم أنها هي العظمة كلُّها؟ لا، بل هي جزء من العظمة.

أيضًا في «الموطأ» نجد كعب الأحبار - وهو رجل عظيم من أهل الكتاب الذين آمنوا -يقول: «لَوْلَا كَلِمَاتٌ أَقُولُهُنَّ لَجَعَلَتْنِي يَهُودُ حِمَارًا»- انظر إلى تكملة الأثر وانظر إلى هذه الكلمات التي لولاها لكانت اليهود جعلت كعب الأحبار حمارًا - فَقِيلَ لَهُ: وَمَا هُنَّ؟ فَقَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْعَظِيمِ - فبمن يستعيذ هو؟ بالذي لا يمتنع عليه اليهود ولا النصارى ولا الدول الكبرى، ولا شيء في العالمين؛ فنجد واحدًا من اليهود وهو أحد أحبارهم يقول: «أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ مِنْهُ»؛ فهنا يرجِّح جانب الامتناع وهو خائف من أذى اليهود، هل يمتنع على الله أن يمنع عنه أذى اليهود؛ فنجد أقرب الصفات لهذا (العظمة)؛ لأنه لا أسباب أبدًا تحكم الله ﷻ، بل هو يحكم كل الأسباب - الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، وَبِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَبَرَأَ وَذَرَأَ»[(١)].

طبعًا أنت تعرف مواطن التحصين بآية الكرسي وخصوصًا عند الإيواء إلى الفراش - حين تأوي إلى فراشك تقرأ - بعد الوضوء طبعًا[(٢)] - آية

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٥١).

(٢) ورد الوضوء قبل النوم في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما، أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

الكرسي، فهذا حديث صحيح: «فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَهَا ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَقَالَ: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُكَ الشَّيْطَانُ حَتَّى تُصْبِحَ»(١) فما السبب في هذا؟ السبب صفة الله ﷻ وهو القرآن؛ وأعظم آية فيه وهي آية الكرسي ونهايتها اسم الله العظيم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ونهايتها أهمُّ من أولها فلماذا؟

قوله في الحديث: «حَتَّى تَخْتِمَهَا»، ولماذا؟ لأن بعض الناس يقرأ آية الكرسي ويستحضر قلبه ويتفهم المعاني إلى قرب آخرها ثم يختمها قراءة روتينية سريعة بغير تدبر.

وإنما المقصود بقوله: «**حَتَّى تَخْتِمَهَا**» بحضور قلب أيضًا؛ لأن آخرها: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، وإذا قرأت هذا قبل أن تنام يمتنع الشيطان ولا يحضرك «**وَلَا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ**» يحفظك من أشياء كثيرة مثل الزلازل، «**وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**» يحفظك من ثعبان يقتلك إلا أن يكون ابتلاءً لرفع درجاتك، وهكذا كل أنواع الحفظ.

فهذا من ناحية الاستعاذة. ونأتي بعد ذلك من ناحية الدعاء والسؤال:

۞ دعاء المريض واسم الله العظيم في الدعاء:

كلنا نحفظ هذه الصيغة: «**أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ**»(٢) في الجملة الأولى العظيم هو الله، ثم تُفَصِّل وتقول: رب

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٢٣١١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٢٩) في قصة أبي هريرة مع الشيطان الذي جاء يسرق من زكاة رمضان.

(٢) أخرجه أبو داود (٣١٠٦)، والترمذي (٢٠٨٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٨١٥) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

العرشِ العظيم؛ فالعظيم في الجملة الثانية هو العرش، وفعلًا حين تتخيَّل حجم الأرض والمجموعة الشمسية والمجرة، وألف مليون مجرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] والسماء الدنيا والثانية والثالثة والرابعة ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، والكرسي والعرش ومن فوق العرش رب العالمين. فحين تعرف عظمة العرش؛ فكم عظمة خالقه الذي استوى عليه سبحانه وتعالى وعز وجل؟!

وكان الله ولا شيء معه. فالعرش مخلوق، وهو سقف المخلوقات، وصفات رهيبة لهذا العرش، وهو عرش عظيم، فكيف بخالقه والمهيمن عليه سبحانه وتعالى وعز وجل؟

فهنا في الدعاء نقول: «**أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ**» وتُريد أن تقرِّب معنى العظيم فتقول: «**رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ**»، ولماذا العظيم هنا؟ لأنه كما قلنا في «شرح الحليمي» أنه لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق.

فمثلًا: رجل مريض بالإيدز، فهل مرض الإيدز يمتنع على الله تعالى؟! أليس الله هو الذي خلقه؟! أو رجل مريض بالسرطان فتجد من يقول: إنه مرض ليس له علاج ولا شفاء منه، فأنت ما عليك إلا أن تتبع السنة وتدعو والنتيجة ليست عليك وليست إليك أنت؛ فهو يُشفى أو لا يُشفى هذه ليست بيدك أنت فالأمر لله ﷻ ويبتليه كيف يشاء والذي عليك أنت أن تعمل بالسنة: «**أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ**».

إذ لا يمتنع شيء على الله سبحانه وتعالى وعز وجل؛ فهكذا الاستعاذة والسؤال هنا كله حتى الآن يدور حول أنه لا يمتنع شيء على الله رب العالمين أبدًا، وكل العلوم الموجودة في العالم الآن لم يقدروا بها على

الإيدز والسرطان، أما على العظيم، فلا يمتنع عليه شيء؛ فما عليك إلا أن تسأل الشفاء من كل مرض مهما كان هو؛ لذلك تقول: «**أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ**»؛ هل عرفت لماذا تدعو الله تعالى باسمه العظيم حين تسأله الشفاء؟!

وهذا من الممكن أن يكون أرجح أو أسرع المعاني حضورًا في القلب؛ لا شيء يعجز رب العالمين أو يمتنع عليه أبدًا، وهذا يدل على كمال العلم وكمال القدرة وكمال العزة، لأن العزة تعني الغلبة؛ ستجد كل الصفات تندرج تحت هذا الاسم؛ لا شيء يمتنع على ربنا أبدًا سبحانه وتعالى وعز وجل.

أدعية لتفريج الكروب واسم الله العظيم:

أما دعاء المكروب: فنجد في أوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ**»، الجملة الثانية: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**» وفيها تفصيل، ثم نجد التفصيل أكثر: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**» وهذه الرواية في الصحيحين(١).

ما معنى هذا الدعاء؟ إذا نظرنا لمن هو مكروب بشيء من مرض أو زلزال أو سقطت عليه عمارة، كأن يكون تحت الردم لمدة أربعة أيام، ويريد أن يخرج من هذا الكرب وتجده يقول: أنا أدعو منذ سنة وأقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ، رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**»، ولا فائدة تظهر من وراء هذا الدعاء!! فأقول له: إن الله يعلم أنك قليل الأصل ومن أجل ذلك لم يستجب لك، هذا بلغتنا العامية المعروفة، أما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الكلام العلمي فإليك ما يلي: «**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**»؛ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «**يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**»[(١)].

مثلًا: يقول أحدهم في أزمة السكن: يا رب لا أجد شقة للبنت أو للولد ومنذ سنة وأنا أدعو وربنا لا يريد أن يستجيب لي؟ فهل أنقطع عن الدعاء؟! الله هو علّام الغيوب، علم أنك ستعجز وتستحسر عن الدعاء؛ فالحديث واضح.

أما الذي يدعو عن ثقة ويظل يدعو ويُلح على الله بالدعاء، وقلبه لا يتغير بتأخير الاستجابة؛ لأنه يعلم أنه إذا حُرم شقة في الدنيا، فلعله أن يؤتى جنات واسعة وملكًا كبيرًا في الجنة بهذا الدعاء، وهو بذلك يحسن الفهم وعنده أصل، أما من ليس عنده أصل فيقول: أنا منذ خمسة أيام وأنا أدعو ولا فائدة أريد أحدًا يحل لي مشكلتي.

أنت عند كل كرب مهما اشتدّ ومهما كان عظيمًا تقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ لأن أفضل الذِّكر «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، ولماذا هي أفضل الذكر؟

لأن معناها: لا مألوه إلا الله؛ لا يستحق العبادة إلا الله، وما معنى: لا يستحق العبادة إلا الله؟

معناها: لا يستحق أن يُحبَّ غاية الحب، وأن يُذل له وأن يُخاف منه ويُخضع له غاية الذل والخضوع والخوف إلا الله سبحانه وتعالى وعز وجل، فغاية الحب وغاية الذل هذا الذي تنبني عليه العبادة، ولماذا غاية

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحب لله وغاية الذل لله؟

لما اتصف به من صفاتٍ استلزم أن يُحب بها غاية الحب، وبما اتصف به من صفات استلزم أن يُخضع له بها غاية الخضوع والذل؛ فحين تقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فقد أثبتَّ كل الكمالات لله بما فيها العظيم، وبما فيها الكريم.

و(الكريم): الاسم الذي يجمع كل موجبات الحب ومنها المِنّة والإحسان والإفضال والخير والعفو والمغفرة.

والذي يجمع الذل والخوف والإخبات والرعب هو اسم الله: (العظيم).

فيجب أن يكون ذلك بالاسمين: (الكريم العظيم)، أو (الغني الحميد)، أو (الغني الكريم)، أو (ذو الجلال والإكرام)، أو (له الملك وله الحمد)، أو (سبحان الله وبحمده)، أو كلمة واحدة تقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

فإنك إن قلت هذه الكلمة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» تكون قد قلت كلمة أثبتَّ بها كل الصفات التي بها يُحَب الله غاية الحب، وكل الصفات التي يُذل بها له غاية الذل، ولما قلتها أثبتَّ كل شيء على الإجمال.

كلمة أخرى تثبت كل الكمالات لله: (الله أكبر) معناها: أكرم وأعظم.

هناك اسم من أسماء الله فيه كل الكمالات لله ألا وهو (الحي)، ولماذا؟ الإجابة هي: أن حياة كل إنسان بحسب الكمالات أو الإمكانيات الموجودة عنده.

فمثلًا: إنسان لا يسمع فهذا حياته ناقصة، أو إنسان ضرير فعنده نقص في آلة الإبصار، أو إنسان مريض مشلول وعنده نقص في الجوارح؛ لا يستطيع أن يمشي أو أن يتحرك؛ فهذا نقص، أما حين تقول: الحي وهو الله ﷻ فقد عرفت أنه ليس عنده نقص، إذًا: الحي يستلزم ألا يكون عنده نقص أبدًا وهي الحياة الكاملة، ففي اسم الله الحي كل صفاته تعالى.

ولذلك في «سورة غافر»: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ...﴾ وبعدها قال: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَـٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، ولذلك أيضًا في آية الكرسي: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

نرجع مرة أخرى لدعاء المكروب والذي نقول فيه: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ»؛ ولماذا العظيم؟ هَبْك مكروبًا مثلًا وقعت عليك العمارة - معاذ الله - فأنت محبوس تحت الردم، ولا تستطيع أن تفعل شيئًا، أو ابنتك أو ابنك أو زوجتك أو مالك وتريد أن تخرج حيًّا، فمن الذي يقدر على هذا؟ لا أحد إلا العظيم.

فمهما كان الكرب، فهذه الأسباب حقيرة أمام عظمة العظيم؛ والمكروب يقول: لماذا أنا مكروب؟! نعم، هو مكروب في الأسباب، أما قلبه فلماذا يكون مكروبًا؟! فكل هذا الكرب عند العظيم لا شيء، فحُقَّ لك أن تقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ»؛ لأنه مهما كان كربًا فهو حقير، ولكن نقول: نعم، هو كرب ولكن بالمقارنة بعظمة الله هو حقير وصغير. فلا يمتنع على عظمة الله شيء، تحدث نفسك قائلًا: من أين أتتني هذه المصيبة؟ إن هذه المصيبة ما أتتك إلا من ذنوبك؛ أم أنك أفضل من يونس بن متى؟! إن من يُفضِّل نفسه على يونس بن متى هو

أحد الكذابين[1]؛ ولكن ماذا فعل يونس عليه السلام؟ قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وتجد من يقول لك: لا، أنا لا أفعل الشر، أنا ليس لي سيئات، يعني: هل هو أفضل من يونس بن متى الذي قال الله عنه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾ [الصافات: ١٣٩]، فهل هو أحسن من الرسول، إذًا فهو كذاب. وهذا هو معنى الحديث.

فالمصيبة التي أصابتك هي بذنب منك وليست ظلمًا من الله - حاشا لله.

ثم ما الصفة من صفات الله تعالى التي يؤجل الانتقام بها ولا يكون الآن؟ هذه الصفة هي (الحليم)؛ إذًا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ». ثم الثانية: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»؛ وهذا تفصيل للعظمة الأولى لكي تزداد يقينًا بأن كربك هذا لا شيء أمام عظمة الله عز وجل؛ إذ لا شيء أعظم من الله. وانظر من أين أتاك هذا الكرب؟

هل أتاك من الأرض مثلًا زلزال، أو بركان أو شهب وقعت عليك؛ فهو كرب من السماء أو من الأرض إذًا تفصل أكثر، فتقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ فكل مرة تكرر «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لتثبت الكمال كله لله، وتثبت اقتناعك بأن الكمال كله لله، وبأن الحب كله لله، وبأن ذل العبد كله لله، وتعلن التوبة الخالصة لله، والمشكلة أننا لسنا فاهمين معناها وهذه مصيبة كبرى؛ لأننا حفظنا بعض الصيغ فظننا أنَّا أصبحنا مثل الأصحاب، كلا وألف مليار كلا!!

---

(١) أخرج البخاري (٤٦٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ**».

ثم يأتي التفصيل بعد ذلك:

«**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ**» يعني: لا فرق إن جاءك الكرب من السماوات أو من الأرض.

«**وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم**» إذًا: لا شيء خارج عن قدرة الله ﷻ، وعن هيمنته، وعن إحاطته ﷻ.

أما «الكَرِيم» والتي جاءت في آخر الحديث، وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية - جزاه الله عنا خير الجزاء - لما قال: إن الكرم اسم جامع لجميع المحاسن(١)؛ فكل صفة يُحمد بها الإنسان ويجمع كل المحاسن هو الكرم.

والعظيم يجمع الجلال والكبرياء والعلوَّ؛ فالعظمة كلها له سبحانه وتعالى وعز وجل، ففرق بين العظيم والكبير وذي الكبرياء والمتكبر، وسنشرح ذلك لاحقًا إن شاء الله فنحن لا زلنا في بيان اسم الله العظيم.

أما «الكريم» في آخر الحديث، فيجمع كل المحاسن والمحامد، فيكون الحب كله لله ﷻ؛ فالذل كله لله، والحب كله لله؛ لأن في أول الحديث العظيم وفى آخره الكريم وفي هذا الحديث تفصيل وإجمال، فبالله لا دعاء أفضل من هذا للمكروب.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٦٠).

شرح دعاء يونس عليه السلام:

ودعاء يونس بن متى عليه السلام هو من أفضل الدعاء: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ومعنى ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تعظيمًا لله عز وجل. فقد كان هو أيضًا مكروبًا؛ إذ كان في بطن الحوت، وأي كرب هو! ليس هذا زلزالًا من الممكن للبلدوزر أن يرفع الأنقاض ويخرج المكروب، إنما هو في بطن الحوت، فمن يقدر على أن يصطاد الحوت أو ينزل له في المحيط، وفي أي حوت هو وفي أي محيط هو؟ وأين ذهب هذا الحوت وفي أي مكان هو؟!

فلا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى فيقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، فقد أثبت كل شيء؛ الحب كله مع الذل كله وذلك لصفات الله.

ثم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ وهي تقتضي في النهاية التعظيم؛ لأن التسبيح في النهاية يقتضي غاية التعظيم لله، ثم يريد أن يُثبت التعظيم من طريق آخر، فقال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فمن الذي يظلم؟ قلت من قبل: إن الذي يظلم هو المحتاج أو الجاهل. الجاهل: لأنه لا يعتقد أنه يظلم ويقول لك: هذا من حقي! ولا يعرف شيئًا فهو جاهل ولا يعرف موازين العدل؛ والسبب الثاني للظلم هو الاحتياج فهو مثلًا محتاج لأرض ليقيم عليها مشروعًا يعود عليه بالذهب ويقول لك: سوف أعطيه ثمنها! فالظلم يصدر عن جهل وعن احتياج؛ لكن الله تعالى له الكمال في العلم، وله الكمال في الغنى، فلما قال له يونس: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قصد: أنت لم تظلمني؛ لأنك لك الكمال في العلم ولا تحتاج إلى ظلمي، ولأنك لك الكمال في الغنى؛ فقد أثبتَ إذًا العظمة كلها لله عز وجل؛ إذ

قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ من طريق الحب كله والذل كله لله ﷻ، ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ وهذا هو التعظيم لله، ثم قال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإذًا هذا دعاء للمكروب وهذا من أفضل الدعاء المستجاب للمكروب.

الدعاء المستجاب:

دعاء آخر، وهو من حديث أنس أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي ثم دعا فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ...**»(١).

«**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ**»: فبالحمد أثبتّ كل المحامد لله، ولكنه أخص بالأشياء المباشرة في المحبة؛ كالعفو والرحمة والبر والجود والإحسان والعطف والمنة والإنعام والرزق... إلخ.

«**بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ**» فالحمد يعم كل شيء طبعًا.

ثم: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» فأثبتها من طريق آخر كما شرحنا.

ثم: «**الْمَنَّانُ**»؛ أي: أنا أحتاج إلى مِنَّتِك الآن ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]، فأنا شديد فقير لمنتك يا رب وأنت المنان، أي: تُحب أن تَمُنَّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٥].

ثم يناديه فيقول: «**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**» أي: دليل الاختراع

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨).

والإنشاء، أي: أنشأت السماوات والأرض على غير مثالٍ سبق؛ فمن الممكن للإنسان أن يصنع ماكينة نسيج لكنها متطورة؛ لأنه قلَّد آباءه في ماكينات النسيج، أما الذي أحدث ماكينات النسيج في لحظة وبـ «كن»؛ فيكون فهو (البديع)؛ وهو اسم من أسمائه سبحانه وتعالى وعز وجل. فهو البديع الذي أوجد المخلوقات على غير مثال سبق فـ «**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**»؛ ومعناها: خالق السماوات والأرض؛ وهو دليل الاختراع والإنشاء وهو أصل الإيجاد، وليست الرعاية والعناية والحكمة فهذا هو الدليل الأول، وهو دليل الاختراع وجاء التركيز على معنى آخر وهو مختلف عن قولك: (خالق السماوات والأرض)، فقال: «**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**»، ويركز على أن ذلك على غير مثال سبق؛ وهنا يبين عظمة الله ﷻ؛ لأنه خلق كل المخلوقات من العدم ولم يقلد أحدًا، ولم يُحاكِ أحدًا بل أبدع ذلك واخترع ذلك على غير مثالٍ سبق.

ثم يقول: «**يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**» فنجده مُصِرًّا على كل شيء ولم يترك شيئًا أبدًا؛ فهو يُثبت الكمالات لله من كل الطرق. فـ«الْجَلَال» هو الاسم الذي يستوجب الذل والإخبات والخوف والرهبة. و«الْإِكْرَام» يستوجب الحب والكمال في الحب.

ثم: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**» قلنا: إن ابن القيم قال في «بدائع الفوائد»: إن (الحي القيوم) عليهما مدار جميع الأسماء والصفات وركز على هذين الاسمين؛ لأن (الحي) إذا أثبت الكمال والحياة لله، فقد أثبت كل كمال لله؛ لأنه إن نقص كمال من الله، فقد نقصت حياة الله على قدر نقص هذا الكمال.

فكل المخلوقين يعلمون أن حياة الله كاملة؛ وبالتالي فكل الكمالات

ثابتة لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

«**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**» وما معنى «قيوم»؟ معناه: أنه قائمٌ بنفسه لا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه؛ بل لا يقوم شيء من خلقه إلا بقيوميته؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، فكل شيء يقوم بأمره، ومعنى ذلك كمن يقول: أنا أقوم على بيتي أو أقوم على عيالي، أو أقوم على هذه العمارة، أي: أتولى أمرها ومصالحها وكل شيء.

فالقيوم الذي يقوم على كل شيء، ولا يقوم شيء أبدًا إلا به حتى أعداء الله ﷻ فالله قيوم عليهم؛ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وهناك حديث يقول إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور من القرآن في «سورة آل عمران»، و«البقرة»، و«سورة طه»[(١)]؛ لأن مدار الأسماء كلها على: «الحي القيوم» كما ذكر ابن القيم[(٢)].

انظر إلى الفتوحات في الأسماء عَلَّ فؤادَك يشتعل ويتوقد - والفؤاد معناه في اللغة: التوقد، و(المفئدة): السفود أو السيخ الذي يوضع عليه الكباب والكفتة، و(الفئيد): الخبز المشوي أو اللحم المشوي، والتفؤد: هو التوقد، فالمادة كلها توقد - فأنا أريد لفؤادك أن يتوقد، وأريد أن أُورِيَ نارًا وأشعل فؤادك وأُخرج حرارة قلبك. ولكن كيف هذا؟ لا شيء أبدًا يشعل حرارة قلبك سوى شيء واحد وهو التعرف على الله ﷻ. فانظر إلى الصحابي لما وقف يسأل الله تعالى، ويقول: «**اللَّهُمَّ**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٤).

إِنِّي أَسْأَلُكَ...» فهو يؤلف كلامًا يقوله لله ويدعوه به، ولكنه يفهم جيدًا ما يقول ليس مثلنا، فماذا كان تعليق النبي ﷺ؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**». لماذا؟ لأنه قال أولًا: «لَكَ الْحَمْدُ» - وهذه تكفي والله - ثم جاء بالتفصيل وقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» دليل الاختراع والإيجاد، ثم: «يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» الحب كله والذل كله، ثم: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ» وهي مدار الأسماء والصفات كلها. فعندها قال النبي ﷺ: «**لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**» نسأل الله ﷻ أن يفقهنا في أسمائه.

ومن دعاء عائشة رضي الله عنها الذي علمها النبي إياه، لما قال لها: «**قُومِي فَتَوَضَّئِي وَادْخُلِي الْمَسْجِدَ**»؛ الوضوء ودخول المسجد، فإن أردت أن يُقبل دعاؤك فعليك أن تكون مثل أم المؤمنين في الفهم وتجتهد، وإذا كانت المرأة تدخل المسجد فمَن الأولى إذًا بالدخول؟ الرجل.

«**قُومِي فَتَوَضَّئِي، وَادْخُلِي الْمَسْجِدَ، وَصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ ادْعِي حَتَّى أَسْمَعَ**»، أي: ارفعي صوتك، فلما جلست للدعاء قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ وَفِّقْهَا**» - وكل شخص منا عليه أن يكون متربصًا بهذا الدعاء؛ لأن النبي ﷺ دعا لها بالتوفيق، والسائلة أمنا المبرأة - فما الذي قالته؟ قالت: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِجَمِيعِ أَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا، مَا عَلِمْنَا مِنْهَا وَمَا لَمْ نَعْلَمْ، وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ الْأَعْظَمِ الْكَبِيرِ الْأَكْبَرِ الَّذِي مَنْ دَعَاكَ بِهِ أَجَبْتَهُ وَمَنْ سَأَلَكَ بِهِ أَعْطَيْتَهُ**». قيل: فقال النبي ﷺ: «**أَصَبْتِهِ أَصَبْتِهِ**»[(١)].

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٩).

فروق لطيفة جدًّا بين معاني أسماء الله الحسنى - نسأل الله تعالى من علمه:

هذا كلام يعلمنا الفرق بين الكبير والأكبر، والعظيم والأعظم، تسألني الآن: ما الفرق بين الكبير والعظيم؟ أقول لك: لا أعلم حتى الآن وحتى هذه اللحظة؛ دراسة طويلة ولكن لا نعلم حتى يفتح الله؛ لأنها فروق لطيفة جدًّا، ولذلك إذا شرحنا: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»(١) وجدنا صعوبة إلا أن يشاء الله لنا فتحًا في فهم هذه الأذكار التي تتطلب منا فهم المعاني الدقيقة جدًّا واللطيفة بين الأسماء، كما سنرى إن شاء الله.

(سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ) من باب الأذكار في الركوع: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** ﷻ، **وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»(٢). وأما السجود فاجتهد في الدعاء، تقول: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**» ولا تسأل الآن عن الفرق بين الكبرياء والعظمة؟! إلا ما قاله شيخ الإسلام(٣) لكنه كلام لم يستقر في القلوب بعد.

وفي قَسَم الله ﷻ: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) «إقامة الدليل على إبطال التحليل» (٥/ ٣٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ما معنى: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيائِي وَعَظَمَتِي**»؟

هل من فرق بينها؟! أم أنه لا فرق بينها! حاشا لله أن يقول الله ﷻ ذلك بغير فرق بين المفردات.

بل أسماء الله تعالى مترادفة من ناحية الدلالة على الذات، أي: أن اسم الله يدل على ذات الله، وأما من ناحية الصفة، فهي متباينة، وإن كانت متلازمة في بعض الأسماء مثل العظيم والكبير والعلي والعزيز، أما الفروق بينها فلطيفة جدًّا تتطلب فتوحات من الله. لكن على مَن يفتح ربنا؟ أعلى أناس مثلنا وعلى أردأ الأجيال؟ هذا مستبعد ولكننا لا نيأس من رَوْح الله ﷻ.

لأنه كما روي عن عكرمة قال: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام لِلْحَوَارِيِّينَ: يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ، لَا تُلْقُوا اللُّؤْلُؤَ لِلْخِنْزِيرِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَصْنَعُ بِهِ شَيْئًا[1]. فطبعًا نوع من هذا المعنى، أن الناس في هذا الزمان ابتعدوا بُعْدًا رهيبًا واسعًا عن التدبر والتفقه في أسماء الله الحسنى، وما خُلقنا - ورب العرش العظيم - إلا لمعرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإنابة إليه والتوكل عليه وإخلاص العمل له ومحبته والرضا به والقيام في خدمته، وهذا كما يقول ابن القيم[2].

وأنت حين تتعرف على الله ستخاف منه وستذل له وستعظمه، والتعظيم له علامات سنراها إن شاء الله ومنها تعظيم الأمر والنهي. «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي**

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في «الزهد» (٤٧٩).

(٢) «عدة الصابرين» (ص٢٨).

النَّارِ»[١].

في «صحيح مسلم» في كتاب الزهد والرقائق من طريق خالد بن عمير العدوي قال: خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ: «إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ - وهذا الكلام أيام عتبة بن غزوان أيام الصحابة، ويقول: لم يتبق شيء إلا صبابة في قعر الإناء، وهي: نقاط قليلة جدًّا للصَّبِّ. أما نحن فعندنا الدنيا ما يزال على نهايتها مليار سنة!! - يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَوَاللهِ لَتُمْلَأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ؟ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا - وهذا هو الشاهد من الأثر - وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا، وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا، فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الْأُمَرَاءَ بَعْدَنَا»[٢].

انظر إلى عملقة الأصحاب وإلى شأن الأصحاب، وهو يخطب؛ ليس

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه بنحوه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٧).

مثلنا الآن نُحضِّر الخطبة في أسبوع، وتطلع كأنها ولادة متعسرة.

لماذا العملقة؟ لأنها قلوب انفعلت بأسماء الله، قلوب رسخت فيها معاني أسماء الله، راسخون في العلم؛ إذا تكلم نطق بالحكمة وأصلها أسماء الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

الحمد

أيها الإخوة الأعزاء:

ما زلنا حتى الآن مع معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلا التي وردت في الصلاة، وما زلنا نتابع هذه المعاني.

۞ كلام نفيس من ابن القيم (معنى المثل الأعلى):

نَذكُر بدايةً معلومة عظيمة من ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يصف قلب ابن آدم على أنه العرش الذي يستوي عليه المثل الأعلى لله عَزَّ وَجَلَّ.

نحن نعلم أن المثل الأعلى لله عَزَّ وَجَلَّ هو (معرفته، ومحبته سبحانه، وإرادته)[1]؛ هذا هو المثل الأعلى.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]؛ الكمال كله، معرفته وما يترتب على ذلك من محبته وإرادته، هذا هو المثل الأعلى لله سبحانه وتعالى وعز وجل؛ فكل صفة كمال ثابتة في الأرض أو في السماء لمخلوق هي من باب أَولى تكون للخالق سبحانه وتعالى وعز وجل؛ لأنه هو الذي خلق، ثم لأنه هو الأَخْيَر والأفضل والأعلى والأحسن والأكرم؛ سبحانه وتعالى وعز وجل.

---

(١) «الفوائد» (ص٢٧).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] الله ﷻ استوى على أوسع المخلوقات، وأمجد المخلوقات، وأعظم المخلوقات، وأكرم المخلوقات، اختار الله ﷻ عرشه هذا. ونكرر بأن العرش هو أعظم المخلوقات؛ فقوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] صفة للعرش؛ فكيف بعظمة خالقه؟! وأكرم المخلوقات: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وأمجد المخلوقات: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]. فهو أكرم، وأعظم، وأمجد، وأوسع، وأنزه، استوى الرحمن على هذا العرش، فسبحان الله العظيم أن جعل عرشًا آخر يستوي عليه مثله الأعلى.

عرش آخر يستوي عليه بصفاته:

فما هذا العرش؟ هذا العرش هو قلب ابن آدم، ولكن القلب الموحِّد الذي يعرف الله حق معرفته ويحبه ويريده (قلب المؤمن)، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] اطلع الله على العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاختاره للقرآن.

إذًا فالقلب هذا هو العرش الذي يستوي عليه المثل الأعلى لله ﷻ، كما أن الله تعالى استوى على عرشه.

إذًا: فمسألة قلبك التي سوف نعمل عليها في دروس الصلاة، هي من أخطر ما يكون؛ لأن القلب إن لم يكن عرشًا يستوي عليه المثل الأعلى لله، صار عرشًا يستوي عليه الشيطان، وبين ذلك أمور.

فإن لم يُطهر الإنسان قلبه، وإن لم ينصقل قلب الإنسان بأسماء الله تعالى وصفاته وبحقائق الأسماء والصفات؛ لم يَلِقْ أن يكون عرشًا يستوي

عليه المثل الأعلى لله ﷻ، وإلا لكان عرشًا يستوي عليه الشيطان.

إذًا أوسع المخلوقات، وأمجد المخلوقات، وأكرم المخلوقات، وأعظم المخلوقات، وأنزه الموجودات والمخلوقات هو عرش الرحمن، وفي المقابل خلق الله قلب ابن آدم هذا، وهو من أهم ما يكون وأخطر ما يكون وجعل له عرشًا آخر لا لله وإنما للمثل الأعلى لله ﷻ.

فانظر إلى خطورة الأمر، وإلى خطورة ما أنت عليه؛ فإن لم تجعل قلبك مناسبًا لاستواء المثل الأعلى لله عليه جعل الله قلبك عرشًا لإبليس يقعد عليه ويفعل بك ما يشاء ويتحكم بك (بالريموت كنترول).

۞ كيف يكون قلبك عرشًا آخر؟

كيف يكون الإنسان صاحب قلبٍ يليق باستواء المثل الأعلى لله عليه؟ لا يكون ذلك إلا بمعرفة الله حق المعرفة، كما أخبرنا بذلك الرسول العظيم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم.

ثم تجد بعد الرفع من الركوع قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ**»(١)، ما معنى: «**أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ**»؟ شيخ الإسلام ابن تيمية في «المجلد الرابع عشر»(٢) يقول: إن قوله عليه الصلاة والسلام: «**أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ**» هذا خبر ولكن أين المبتدأ؟ قال: إن المبتدأ هو الحمد، والمعنى أن (أحق ما قال العبد هو الحمد). أو تقول: (هذا الذي قلته هو أحق ما قال العبد).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣١٢).

ما معنى الحمد؟

نريد أن نتعرف على الحمد بعد أن ذكرناهُ بإشاراتٍ عابرة، لما ذكرنا اقتران الاسمين الَّذَيْنِ يَدُلَّانا على الخطين الأساسين في معرفة أسماء الله سبحانه وتعالى وعز وجل: (الغني الحميد)، (حميد مجيد) كما ذكرنا.

نريد أن نعرف معنى الحمد:

* لأنك تبدأ الصلاة - قبل قراءة أم الكتاب - بالافتتاح، والافتتاح فيه المحامد وفيه الحمد كما سنرى.

* وكذلك الفاتحة تبدأ بالحمد كما هو معلوم.

* ثم في الركوع تقول: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ** - ثم - **سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»[(١)]، و(العظيم) ذِكْرُ شيء من محامد الله، أي: نعم هي مجموعة من الأسماء والصفات تسمى (العظيم) أو إجمالها (العظيم)، فهي من محامد الله وكذلك (الأعلى) من محامد الله.

* وبعد الرفع من الركوع تقول: «**رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ**»[(٢)]، ومن هذه الصيغ: «**مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بلفظ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ.
أو «سبحان ربي العظيم»

(٢) أخرجه البخاري (٧٩٩) من حديث رفاعة بن رافع الزُّرَقي، ومسلم (٦٠٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

* وأيضًا في آخر التشهد: «**إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»(١).

نجد من هذا أن مسألة الحمد شيء خطير وإلا فنحن لا نصلي إلا شكلًا، فنريد أن نعرف معنى الحمد ومطلوب لقلبك أن يكون عرشًا يستوي عليه المثل الأعلى لله ﷻ؛ فكيف معرفته ومحبته وإرادته؟

فلو قلت لي مثلًا: أنبئني عن فلان، وقلت لك: إن خبر فلان عند فلان، فتذهب إلى فلان تقول له: أنبئني عن فلان، يقول لك: إن طوله كذا وعرضه كذا ولونه كذا وأن صفته كذا وكذا، كأنه رسم لك صورة منه، فلو لَقِيتَهُ لعرفته - ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض - فكيف نعرف الله ﷻ؟ نعرفه بأسمائه وصفاته كما جاء بها الرسول ﷺ. فإذًا المثل الأعلى كما شرحناه يستوي على عرش الله، وهذا العرش هو القلب، لكن يشترط أن يكون قلبًا صالحًا لهذا العمل ولهذا المَنْصِب؛ ولن يكون ذلك إلا بدراسة أسماء الله وصفات الله.

○ الحمد لغةً واصطلاحًا:

الحمد: هو خلاف الذم في اللغة العربية. فمثلًا الإنسان يُذم أو يُشتم لأن عنده نقيصة كذا أو عنده سيئة كذا فيذم على كذا، وعلى كذا، فليس عنده من المحامد شيء، وآخر عنده من الخير في كذا، فهو يُحمد في كذا، ويُذم على كذا؛ إذًا فالحمد بخلاف الذم.

فكلمة (الحمد) تتضمن كل المحامد وكل المدائح وكل الكمالات التي هي لله سبحانه وتعالى وعز وجل، وكلما كانت صفات الكمال أكثر كان الحمد أكثر؛ فالذي يُحمد لأنه عظيم؛ فهذا حمد، أما الذي يُحمد؛

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

لأنه عظيم وكريم، فهذا حمدٌ أكبر، والذي يُحمد لأنه العظيم والكريم والمجيد والجبار والعزيز والملك، فهذا حمدٌ أكثر وأكبر وأتم وأكمل.

فكلما كانت الصفات أكثر كان الحمد أكمل لأن الحمد هو المحامد، وهو بخلاف الذم - والذم يعني النقص - فمثلًا: فلان هذا ضعيف يعني عنده نقص في القوة، أو فلان هذا عاجز يعني عنده نقص في القدرة، أو فلان هذا ينسى يعني عنده نقص في العلم، أو فلان يظلم، فهو نقص في العدل، فإذا قلت: لا نقص فهو الكمال، أو قلت: كمال فلا نقص، وهذه الكمالات اسمها المحامد.

إذًا فـ(الحمد) معناه الكمال كله لله وهذا المعنى اللغوي، أن (الحمد) بخلاف الذم.

فحين تقول: إن الحمد لله فقد أثبتَّ الكمالات كلها لله سبحانه وتعالى وعز وجل إذًا فلا نقائص؛ وهذا هو معنى الحمد.

۞ كيف يكون حمد الله تعالى ملء السماوات والأرض وما بينهما؟

أما معنى: «**مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا**». فهي بالطبع أن يكون الحمد ملء كل شيء؛ وذلك لأن ملء الأشياء بحسب المالئ والمملوء.

وعندنا ملء محسوس مثل: ملأت الكوب ماءً؛ يعني: لا حيز لأضيف إليه شيئًا آخر؛ أو ملأت الوعاء قمحًا. وملء آخر مثلًا كمن يقول: عِلمه مَلأَ الدنيا، أو صِيته مَلأَ الآذانَ، وهكذا، فكما يقول ابن القيم: ملء الأشياء بحسب المالِئ والمملوء؛ فحين نقول: إن الحمد «**مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا**» فهنا الملء بحسب المالِئ

والمملوء؛ فإذا نظرنا إلى كل شيء خلقه الله ﷻ وجدنا أنه يتكوَّن من جزيئات لا يعلم عددها إلا الله، وكل جُزَيْء يتكون من عدد من الذرات، وكل ذرة تتكون من إلكترونات والإلكترونات تتكون من نيوترونات وبروتونات، ومخلوقات لا يعلمها إلا الله؛ أعداد لا نهائية، وكل صغيرة وكل كبيرة الله ﷻ يُحمد بسببها ومن أجلها، لماذا؟ لأنه ليس بها نقص أبدًا؛ فهذا معنى الحمد ملء السماوات.

تفكر في كل شيء في الكون وانظر إلى حكمة خلقه، والغاية من ورائه؛ تجد الأمر محكمًا غاية الإحكام.

إذًا لا مكان يوضع فيه نقص لله تعالى لأن حمده قد ملأ كل شيء؛ فكل شيء تنظر إليه تجد أن الحمد قد ملأه؛ فلا نقص.

«**وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا**» وما الذي بينهما؟ الذي بينهما نحن، بل نحن جزء من الذي بين السماء والأرض.

وهل الله يُحمد على الكافر؟ نعم الله يُحمد على كُفر الكافر، ويحمد على معصيتك أنت بمئات الوجوه، ولكن لا بد لك أن تدرس الحكمة من خلق الكافر، والحكمة من خلق المؤمن، والحكمة من الطاعة والمعصية والإذن القدري والإذن الشرعي، وكل شيء يُحمد الله عليه، ولن يوجد شيء في الكون إلا وهو ممتلئ بحمد الله؛ أي يشهد بأن الكمال لله، وحتى كفر الكافر يشهد بأن الحمد كله لله وأن الكمال كله لله، لا يمكن أبدًا أن تجد شيئًا بين السماء والأرض إلا وهو مملوءٌ حمدًا؛ فاستحالة أن تجد نقصًا فيه أبدًا بالنسبة لله سبحانه وتعالى.

فالكمال كله ثابت لله ولا فرصة للنقص أبدًا وهذا هو معنى: «**مِلْءَ**

السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا». والذي يؤكد هذا المعنى هو: «**وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»؛ يعني: كل شيء ستخلقه يا رب بعد ذلك لن يوجد فيه نقص؛ لأن الله يستحيل إلا أن يكون محمودًا، كما أنه يستحيل إلا أن يكون حيًّا، فكذلك يستحيل إلا أن يكون محمودًا، فكل شيء يخلقه الله لا بد أن يكون ممتلئًا بحمد الله؛ لأن الكل يشهد بأن الكمال لله.

فمثلًا: إذا قلنا: إن هنالك من يولد بغير أذنين، أو بغير رِجْلين، أو مجنونًا، فهذا ليس نقصًا لله، ولكن هذا هو الحمد لله ﷻ من وجه آخر، بل من مئات الوجوه، وتفهم ذلك حين تدرس الحكمة والتعليل، وعلى سبيل المثال تذكر بعض ما ذكره ابن القيم في كتابه «شفاء العليل» تجد عجبًا.

فالقدرة والقوة والعزة والعظمة والجبروت والاقتدار والحكمة والسلام والقدوس كل هذه كمالات لله وهذه الكمالات كلها محامد، ولذلك الرسول عليه الصلاة والسلام يعلِّمه الله تعالى محامد لم يكن يُحسنها في الدنيا، وما المحامد؟ هي صفات كمال أخرى لله تعالى لم نكن نعرفها في الدنيا، والرسول عليه الصلاة والسلام نفسه لم يكن يعرفها في الدنيا ولم يكن يُحسنها فهي صفات كمال جديدة لم نعرفها من قبل لله الواحد القهار.

لا يمكن لشيء في الدنيا إلا أن يكون ممتلئًا حمدًا لله. والحكمة من أن يأذن الله ﷻ بوجود الكافرين أن تجد مملكة العدل الإلهية يوم القيامة وتعلقها بما يحدث الآن. والسليم مثلًا إذا رأى المُشوَّه أو المُعوَّق قال: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ**

تَفْضِيلًا»(١). إذًا: فلا شيء إلا وهو ممتلئ بالحمد لله، ممتلئ بكمالات لله سبحانه وتعالى وعز وجل، عَلِمَهَا من عَلِمَهَا وجَهِلَهَا من جَهِلَهَا.

ويأتي الجاهل يقول: لماذا يأذن الله للبهيمة أن تتألم؟ وما ذنب الطفل الذي في معهد السرطان أو معهد السكر يصيح من الألم؟ هذا كله حمدٌ لله. ولكن عليك أنت أن تقوم بدراسة الحكمة.

وبما أنك سلمت لله بما هو معلوم ألا يُخطئ أبدًا؛ لأن الكمال كله ثابتٌ لله، فلماذا يُخطئ في هذه أو تلك، هل أنت أرحم منه؟!

وإذا نظرت أنت إلى الجزء الذي أدركت به أن هناك شيئًا ضد الرحمة، أو حكمت على أن الله أخطأ أو أن عنده نقصًا في هذا، فهذا الجزء الذي أدركت به هذا هو أصلًا من خلق الله تعالى لك ومِن نعمته عليك أنْ رَزَقك هذه الآلة التي هي العقل والتي استطعت بها أن تحكم على الأشياء.

وأسماء الله تعالى كلها حسنى ليس فيها اسم سوء أبدًا، وكذلك صفات الله كلها كمال ليس فيها نقص، وأفعال الله ﷻ كلها حكمة ليس فيها عبث أو سَفَه - حاشا لله - والله ﷻ حمد نفسه على السَّلْب أيضًا، فنجد أنه تعالى حمد نفسه على أنه الذي لا يموت؛ لأن كونه لا يموت يتضمن إثبات كمال حياته، وحمد نفسه أنه لم يتخذ ولدًا؛ لأن ذلك يتضمن إثبات غناه وصمديته سبحانه وتعالى وعز وجل وملكه أيضًا، وحمد نفسه أنه لا يظلم.

ولو راجعت مادة الحمد في القرآن لوجدتها واسعة، ولكني الآن

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أذكر بعض المعاني على أني سأعيد ما لم نذكره الآن عند تعرضنا لشرح فاتحة الكتاب.

أنواع الحمد:

وقد عرفنا من قبل أن الله تعالى يحمد على خلق المتقابلات؛ فهو تعالى قد خلق المؤمن وخلق الكافر، خلق الشياطين وخلق الملائكة، خلق الرسل وخلق أعداءهم، خلق الأنعام وخلق السباع، وخلق الهوام والحشرات والحيات والعقارب، فيحمد على كل ذلك. فلا تجد شيئًا في الخلق ولا في الأمر إلا والله تعالى يُحمد عليه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فلا شيء إلا والله محمود عليه، فالحمد يملأ كل شيء، وكل شيء سيخلق بعد ذلك نحن نُسَلِّم تمامًا بأن هذا الشيء سيكون ممتلئًا بالحمد، واستحالة أن يوجد فيه مكان لإثبات النقص لله، فاستحالة أن يُنسب الشر أو النقص إلى الله بحال؛ لأن الحمد ثابت لله ﷻ، فلو خلق شيئًا بعد ذلك فأيضًا هذا الشيء ممتلئ بحمد الله ويشهد بحمد الله.

فالحمد نوعان: حمد المدح أو حمد الثناء والعبادة.

والحمد الآخر: هو حمد الآلاء أو حمد الشكر أو حمد النعم.

(حمد الثناء): هو أن تثبت العظمة لله في قلبك، فقد قلنا من قبل: إن قلبك يجب أن يكون عرشًا نظيفًا مقابل عرش الله ﷻ، فالقلب عرش للمثل الأعلى لله ﷻ، يعني أن يتجلى بحقائق الأسماء والصفات ويشرب معاني الأسماء وحقائق الأسماء والصفات، هذا هو المطلوب للقلب، فأنت تثبت العظمة لله في قلبك أولًا.

فالقلب يجب أن يليق بكونه عرشًا للمثل الأعلى لله ﷻ، فالعظمة لله، ثم تثبت كل الكمالات لله.

فإذا قلت: إن العظمة ليس فيها نعمة، قلت لك: إن العظمة هي كمال لله، فإذا أثبتها في قلبك فهذا اسمه حمد ثناء أو حمد عبادة أو حمد مدح.

وكذلك العزة والجبروت والملك والبطش الشديد، كل هذه محامد لله ﷻ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] فهي أيضًا من محامد الله.

۞ الرد على شبهة أن الله خير الماكرين:

هي من محامد الله، ولكننا نجد الآن نغمة منتشرة فوجئت بها - وأنت تعرف أن اليهود والنصارى والعلمانيين يلقون بالشبهات في هذا الوقت خاصةً فنجد كثيرًا من الشبهات تلقى الآن - وهي مسألة المكر لله تعالى فيتكلمون عنها بأن الله تعالى مكَّار أو ماكر - حاشا لله من قال: إن الله ماكر أو مكار؟ جاهل من قال هذا، ولكن الله ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ - وتجد من يقول: وما الفرق إنها هي هي؟ فنقول له: يا جاهل يا أعمى القلب كيف هي هي؟

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]؛ لأنهم مكروا ومكر الله والله خير الماكرين، والله ﷻ لا يمكر إلا بالماكرين، فمكرهم أقبح شيء، ومكره تعالى أجمل شيء؛ لأنه عدل؛ فالله يمكر بالذين يمكرون بأوليائه ورسله وأحبائه وهذا من الله أجمل شيء؛ إذًا فهذا عدل. فمقابلة مكرهم بمكر

من الله وهو الحق، فهذا قمة الكمال من الله، وهذا عدل من الله ﷻ لهؤلاء الناس: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٦]، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢].

فالله ﷻ لا يُشتق له هذا الاسم من صفة المكر. إنما يمكر الله تعالى بمقابلة مكرهم؛ فهو من الله عدل ومنهم منتهى القبح والسوء.

يقول لك: قد عرفنا هذه، فهو تعالى يمكر بالمجرمين والكافرين والظالمين؛ وما مكره بهم؟ نقول: استدراجه لهم مثلاً.

فيسألك سؤالًا آخر: كيف أن واحدًا من العمالقة - أبا بكر الصديق - يقول: (لو أن قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله)؛ فأولياء الله لا يأمنون مكر الله، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ترد على هذه الشبهة بأن كل ولي لله يخشى أن يمكر الله به، ولكن الله تعالى لا يمكر به ظلمًا أبدًا إنما مقابل شيء حصل منه هو.

وأنا فوجئت بأن الناس على الملل الأخرى يدندنون حول هذه الشبهة كثيرًا والمسألة واضحة جدًّا فنجد في كتاب «الفوائد» لابن القيم أنه ذكر خمسة أنواع من مكر الله.

۞ أنواع مكر الله تعالى (كما ذكرها ابن القيم):

وهو أنواع: وبعض هذه الأنواع:

١- **النوع الأول**: أن يؤجل عقوبتك على الذنوب وعلى أفعالك،

فتأنس هذه الذنوب والأفعال؛ أي: تعتاد عليها؛ ولو طاف بك طائف من الشيطان مثلًا والعياذ بالله تعالى وجدت رِجْلك أحيانًا وقد اصطدمت بالطاولة أو في الكرسي أو في شيء آخر؛ ويكون الاصطدام شديدًا لدرجة أنك من الممكن أن تصيح من الصدمة، فتتذكر ما فعلته لِتَوِّكَ، فتستغفر الله.

إذًا: الله تعالى أنعم عليك بهذه الصدمة التي جعلتك تذكر الله، وفكَّرت فيما فعلته وراجعت نفسك، كيف لك أن تفكر في هذا، أو كيف تظن هذا الظن، أما لو أن الله تعالى مكر بك - ويمكر بك؛ لأنك استحققت هذا ببعض ذنوبك وليس بكل ذنوبك أيضًا - فلم يعاقبك - وقد كان يعاقبك من قبل - برغم ما صدر منك من الذنوب، فاستمرأت وتعودت وآنست هذه المصيبة التي فعلتها وتكررت منك مرة واثنتين وثلاثًا ومائة، وعند المائة والواحدة تضرب ضربة شديدة؛ ضربة موجعة جدًّا فتتساءل: ماذا فعلت؟!

فالذي حدث أنك قد تعرضت لمكر الله، وأن الله ﷻ قد أجَّل عقوبتك على هذا الذنب، مرة واثنتين وثلاثًا ومائة وأجل عقوبتك على كذا وعلى كذا، فأنست هذه الذنوب لأنه لا عقوبات، وقلت: أنا لا بأس بي، فالله يتركني ولم يعاقبني إذًا فأنا ممتاز.

وهذا نوع من مكر الله ﷻ ويكون نتيجة لظلمٍ منك أيضًا؛ فهذا هو أحد أنواع المكر.

فهل هذا فيه شيء يشين الله أو فيه نسبة من نقص لله ﷻ؟! حاشا لله؛ فهذا عدل.

٢- النوع الثاني: بذنوبنا يمكر الله بنا، فيُخلي بيننا وبين أنفسنا في أمور كثيرة. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

نحن نعلم - وهذا إجماع المسلمين - أن التوفيق ألا يدعك الله إلى نفسك، وأن الخِذْلان أن يكلك الله إلى نفسك؛ فحين يُخلي الله بينك وبين نفسك فمن المؤكد أن تسقط وترسب وتفشل، أما لو وفقك فالتوفيق ألا يكلك إلى نفسك، والخذلان أن يكلك إلى نفسك.

فبذنوبك خلى الله بينك وبين نفسك فوقعت ووقعت ووقعت؛ إذًا فالسيئة أتت بعدها سيئات أخرى، وهذا من مكر الله بك، وسببها ذنوبك وخطاياك أنت، وهذا من عدل الله تعالى فيك. والعدل صفة كمال.

٣- النوع الثالث: هو أن الله يعلم من نفسك ما لا تعلمه أنت؛ فالله تعالى يعلم أشياء كثيرة أنت لا تعلمها؛ فأنت فعلت كذا وفعلت كذا، وكأنك لم تفعل شيئًا ولم تنته فيؤاخذك الله بذلك، ويكون ذلك بأن يُخلي بينك وبين نفسك وذلك بمصيبتك وبعملك أنت وبذنبك أنت. فهذا أيضًا عدل من الله ﷻ.

٤- النوع الرابع: وهو أن نَغْفُلَ عن ذكر الله وأن تُنسينا الغفلة ذِكْر الله، فلا نقول أذكار الصباح والمساء وننشغل بالأعمال في الدنيا والورديات ونشوش بالشهوات ونخرج من عمل وندخل في غيره، وننغمر في دخان الشهوات وغيم النفوس والطباع، فتجد الإنسان وقد تعود على عدم الذكر، ونسي ذكر الله، فالله تعالى يمكر به بأن يُخلي بينه وبين نفسه في الفترة التي غفل فيها عن ذكر الله، لأنه نسي ذكر الله:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

٥- **النوع الخامس:** نوع آخر وهذا من أخطر ما يكون:

وهذا المكر كالذي كان لإبليس، ومكر الله تعالى كله عدل؛ فللكافرين هو عدل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وأيضًا لأوليائه وهو بذنوبهم ويعفو عن كثير. ولننظر إلى هذا المكر العظيم الذي يليق بمن فعل هذا.

انظر إلى إبليس كان عابدًا وكان عالمًا وواعظًا وكان، وكان، وكان، ولكن ما الذي حدث له؟

الله سبحانه وتعالى ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. فهو يعلم ما الشيء الكامن في نفس إبليس المكنون بداخله، لكن لم تأت الظروف التي تُظهر هذه المكنونات.

تمامًا كالكشف عن المواد الكيميائية إذا وضعت هذا على ذاك صار اللون أصفر أو بنفسجيًّا فانكشفت لك المادة وعرفتها وهذا يحدث في المعمل، أما في الإنسان فكيف تخرج مكنونات نفسه وتكشف هذا الإنسان؟ يحدث هذا حين يتعرض لظروف لا صبر له عليها، فيظهر ما بداخله وما كان مكنونًا.

فإبليس كان بداخله الكبر والحسد والإباء وكان إبليس ممتازًا جدًّا بدون هذا الامتحان، ولكن أول ما تعرض للامتحان ظهر وبان ما بداخله وكان عليه اللعنة، وترتب على ذلك جنة ونار، وكل هذا الكفر الذي يقدح الآن في الأرض، كل هذا نتيجة لشيء كامن في نفس إبليس ما

خرج إلا بامتحان من الله فظهر وبان ما بداخله؛ فهل أنت في أمان من مكر الله ومِن أن يمتحنك الله بامتحانات تُظهر ما بداخلك ويُخرج بها أضغانك، هل تظن أن الله غافل عما بداخلك، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١].

أمثلة من مكر الله تعالى بالمؤمنين:

* نجد أناسًا كثيرين طالما أنهم فقراء مميزون في العبادات بكَّاؤون في الصلاة بلغوا غاية العظمة.

ولكن الكامن بداخل الشخص منهم أن عنده فقرًا للشهوات ولكن لولا الفقر لأشبع شهواته فهو يحتاج إلى النقود، ولا يعلم هذا عنه إلا الله علام الغيوب، وذنبه هو أنه ليسَ صابرًا على الفقر، وكذلك حسده على فلان فعنده من الاعتراض ما عنده، يقول: كيف يُنعم الله على فلان ولا يعطيني أنا، وهو في الواقع لا يقول هذا بلسانه إنما هذا بداخله ولا يعلم الأسرار إلا علام الغيوب: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، فيريد الله تعالى أن يمكر به وأن يظهره للناس ولنفسه، فيعطيه بسطة في الرزق والمال، فيظهر ما بداخله، فأول شيء يفعله أن يشتري الفيديو وأحسن نوع، وأن يبدأ يُصنف وينوع في الأطعمة، وتجده أيضًا ما يزال ممسكًا بالمِسْبَحة والصلاة والصيام وله لحية، ولكن الله تعالى مكر به وكشف ما بداخله، وهذا عدل من الله.

❍ **مثال آخر:**

تجد من عنده شهوة العُمُديَّةِ يخدم في المسجد وقد بلغ الذروة في

خدمة المسجد، ولكن إذا حدث عدوان على الجاه والرئاسة ووجد كلمته وقد وقعت على الأرض أقام الدنيا ولا يقعدها، والشياطين تملأ عينيه والنار في وجهه والعياذ بالله تعالى، لماذا لقد كنت في غاية العظمة؟ لقد كنت الرجل المخلص القوي الأمين؟ ولكنه بداخله شيطان الرئاسة وهي شهوة رهيبة، هذه الشهوة الخفية، فكيف يمتحن وهو يعيش فيها؟ يُمتحن حين يُمنعها، وتجده يحارب بقوة لاستردادها بالرغم أنه في بيت الله، فهل أنت تعمل لوجه الله أم للجاه والحظوظ والرئاسة؟! والله تعالى يعلم السر، ثم هو تعالى يمكر به، فهذا هو عدل الله.

* تجد مثلًا رجلًا تمامًا في كل شيء ويتحدث عن النساء مثلًا بأنهن كذا وكذا ويقول لك: أنا تمام؛ لكن الله تعالى يعلم الضعف الذي بداخله، والرجل تمادى في هذا الأمر، فيريد الله تعالى أن يمكر به، فيسلط عليه امرأة فوق الحد الذي عنده؛ فهو يتحمل جمالها وفتنة لسانها في حدود، ولكن إذا تعدى هذا الحد يفتن وينكشف للناس، فهنا قد مكر الله به.

ومن الناس من يعمل بعمل أهل الجنة فما يكون بينه وبينها إلا ذراع – في الحديث الصحيح[(١)] – وفعلًا بينه وبين الجنة ذراع، أي: أن هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ**».

العمل فعلًا لو مات عليه، فهو في الجنة، ولكن الله ﷻ الذي يعلم السر وأخفى يعلم أن بداخله شيئًا كامنًا من الشر يمتحنه به، ويقول له: إن غيرك قد امتحنته كثيرًا ونجح، وأنت كنت تعيب.

فالإنسان يجب عليه أن يخشى مكر الله، ولا يأمن مكر الله؛ لأن الله لا يمكر إلا بحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

فهل تجد نقصًا بمسألة المكر هذه؟!

والكافرون الآن طمعوا في المسلمين طمعًا لا حدود له، ويقولون: إن هذه هي اللحظة المناسبة لنقضي على الإسلام في قلوب المسلمين، فالآن كل شيء في أيديهم من إعلام وثقافة وتعليم ومؤتمرات وقوة وأمن وكل شيء، فيقولون: إن هذه فرصة ليجهزوا على المسلمين، ولكن الله ﷻ من ورائهم محيط: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق: ١٥-١٦] فيقول قائل لك: هل الله يكيد؟ أليس عيبًا أن يكيد الله؟ ولكنه تعالى بمن يكيد؟! وكذلك ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، فالمخادعة منهم أقبح شيء ولكنها من الله أجمل شيء؛ لأنها عدل.

فإذا قلت: (الحمد لله) فمعناها: لا يمكن أن يكون هناك نقص لله أبدًا.

مثلًا يقول قائل معترضًا: إن الثعبان يأخذ الفأر ويعضه ويسمه ثم يبلعه؛ منظر فظيع، أو الطفل الذي قطعت يده أو أصيب في حادثة، فلماذا ذلك؟

ما الذي تفهمه أنت في هذه الأحوال؟! إنما هذه فتن، الله تعالى يبتليك ليظهر ما بداخلك؛ فعلى من تعترض أنت؟ هل تعترض على

خالقك؟! وهل الآلة التي تزن بها الأشياء من حيث الرأفة والرحمة والقسوة والشدة إلا خلق الله لك؟!

لقد خلقها لك الأرحم منك، والأعلم منك، والأكرم منك، والأعدل منك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا هو معنى الحمد، حتى تجعل قلبك فعلًا عرشًا يستوي عليه المثل الأعلى لله عَزَّ وَجَلَّ.

فحين نتكلم عن حمد الثناء وحمد المدح نجد أن كل صفة لله وكل فعل من أفعال الله عَزَّ وَجَلَّ معناه حمد، مهما كانت هذه الصفة.

فهذا هو الدين كله من البداية للنهاية، وكل شيء يقال في الدين هو من خلال هذا - معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وإن قيل شيء في الدين وليس من خلاله؛ فهو باطل؛ وهذا هو النظام الذي سيأتي في الفاتحة. ثم تجد الناس تعرض عن هذا! كيف تصلي أنت بدون أن تعرف هذا وكيف تثبت الحمد لله وما هذا الحمد الذي تثبته؟! وما معنى (الحميد المجيد) ومعنى التشهد و(العظيم) و(سبحان ربي العظيم) ولماذا هي في الركوع؟! وما معنى أنك فقير والله هو الغني؟!

ولو أن قلبك لم ينفعل لهذا الكلام فلن يكون عرشًا لمثل الله الأعلى وبالتالي سيكون للشيطان إقبال وإدبار على أقل تقدير.

فالحمد نوعان أو قسمان: حمد الثناء والعبادة أو حمد المدح وهو إثبات صفات الكمال في القلب لله سبحانه وتعالى وعز وجل؛ فصفة العدل مثلًا تثبتها في قلبك، فهذا حمد؛ أليست هي صفة كمال والكمال معناه ألا يوجد نقص؛ لأن الحمد ضد النقص وضد الذم، فكل صفة

تثبتها لله في القلب فهذا يسمى حمد المدح والثناء والعبادة، وكذلك العزة والجبروت والملك والغنى، وكل صفة لله تثبتها من ناحية أنك تثنى على الله بها، فهذا يسمى حمد الثناء والعبادة أو حمد المدح.

أما إذا أثبت في قلبك مثلًا الرحمن الرحيم، العفو الغفار، البر المحسن، التواب، الكريم - وهي الصفة الجامعة لكل محاسن الله سبحانه وتعالى وعز وجل فهذه الأسماء أنت تثني على الله بها أي نعم، ولكن هذه الأسماء هي التي فيها النعم الظاهرة المحسوسة لكل الناس ويسمى حمد الآلاء أو حمد الشكر أو حمد النعم.

وكل صفات الله داخلة في الحمد؛ فلا تجد اسمًا لله ﷻ أو صفة كمال لله إلا وهو داخل في معنى الحمد، ولذلك الألف واللام تفيد الاستغراق.

وهذا الذي سنبينه إن شاء الله في فاتحة الكتاب، حيث يقع الحمد لله على مضمون أصول أسماء الله (الله، رب، رحمن، رحيم، مالك يوم الدين).

فسنعرف لماذا الحمد في افتتاحية الصلاة؟ ولماذا هو في الفاتحة؟ ولماذا أيضًا في القرآن وهو كثير؟

وكما قلنا: هناك صفات للنعم مثلًا: الرزاق، المنعم، المعطي، وهي الأسماء المتعلقة بالرزق، سواء أكان الرزق في الدنيا أم في الدين، أم في الآخرة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ [ص: ٥٤] فهذا الحمد يسمى حمد الآلاء وحمد النعم.

انتبه: ليس هناك اسم لله إلا وفيه نوعَا الحمد؛ فمثلًا (العزيز)؛ من

ناحية أنه صفة كمال، فأنت تثني على الله بها، وتثبت عزة الله في قلبك، وهذا اسمه حمد ثناء وحمد مدح وحمد عبادة، ولكن نفس العزة هي نعمة من الله عليك؛ لأنه هو تعالى الذي سيعطيك العزة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠].

إذًا فلا يمكن أن تحصل على العزة إلا من عند الله ﷻ، وهذه العزة يُعِزُّ الله بها أولياءه ويُذِلُّ بها أعداءه؛ فهي إذًا نعمة الله عليك، وهكذا.

وكما قلنا من قبل في اسم الله تعالى (الحميد) حين يقترن بـ(المجيد)، فنجد أنه برغم أن (الحميد) يشمل كل الصفات، لكن عند اقترانه بالمجيد، فهو يختص بالمحاسن والكرم، والمجيد يقترن بالعظمة والجلال والسعة.

أما إذا أتت (المجيد) منفردة، فهي تشمل كل الصفات من ناحية سعة الصفات وكثرة الصفات والجلال والكرم أيضًا كما شرحنا.

نذكر كلامًا من كتاب «طريق الهجرتين» لابن القيم، لعل القلوب أن تتأثر به، ولعل القلوب تستشعر عظمة أسماء الله تعالى وصفاته.

من كتاب ابن القيم «طريق الهجرتين»:

نأخذ معًا تقريرًا لهذا الكلام وعبارة جميلة لا أزيدُ عليها لابن القيم وفيها الكفاية بإذن الله، كي تعلم شيئًا عن الذي نقابله ونقرؤه من كتب العملاقين الكبيرين في ذكر معاني أسماء الله تعالى وصفات كماله وأفعاله المشرفة.

يتكلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الحمد في «طريق الهجرتين»، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأَمره - [فنجد أن كل شيء خلقه الله تعالى يحمد عليه، وكل أمر في الدين؛ في الطلاق، في الزواج، في الصيام، في الصلاة، في القتال، في الولاء، في البراء، الله تعالى يُحمد عليه، ويحمد على إنزاله القرآن] - بأن حمد نفسه في أَول الخلق وآخره، وعند الأَمر والشرع، وحمد نفسه على ربوبيته للعالَمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاةِ أَحدٍ من خلقه لحاجته إليه، [قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]]، وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأُولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه، فنوَّع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرقها أُخرى؛ ليتعرف إلى عباده ويُعَرِّفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبب إليهم بذلك، ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ١، ٢]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [فاطر: ١]،

وقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥]، وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم، والحكمِ لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكمِ لأهل معصيته بعقابه وإهانته، فقال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده - [نجد من يتعجب من هذا الكلام ويقول: هذا حمد الشكر، فهل يدخل أحد النار وهو يشكر؟! ولكن الحمد هنا هو إثبات الكمال لله؛ لأنهم لما دخلوا النار دخلوا وهم مقتنعون بأنهم أهل النار، وبأنهم أصحابها، وبأن هذا هو عدل الله فيهم. وبما أن العدل صفة كمال، فهذا حمد لله، فنجد أن الداخلين النار حتى هم داخلون بحمد الله وليس بشكر الله، وعليك أن تفرق بين نوعي الحمد الذي تثبته في قلبك فحين تقول: (الحمد لله) فماذا تعني؟ وهل إذا قلت: (الحمد لله) تكون قد قصدت الحمد على نعمة المال التي وهبها الله تعالى لك فحسب؟!] - فقال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، و﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠] وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟

بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٧٤، ٧٥]، وقال: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١]، وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم، وعلموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا مكذبين بآيات ربهم مشركين به جاحدين لإلهيته مفترين عليه، وهذا اعترافٌ منهم بعدله فيهم وأخذهم ببعض حقه عليهم، وأنه غير ظالم لهم وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده - [ليس بظلمه ونقصه حاشا لله، وإنما بعدله وحمده] - وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية.

وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به ولا إلى التعبير عنه، ولكن بالجملة: فكل صفةٍ عليا واسمٍ حسنٍ وثناءٍ جميل، وكل حمدٍ ومدحٍ وتسبيحٍ وتنزيهٍ وتقديسٍ وجلالٍ وإكرامٍ فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به ويخبر عنه به، فهو محامد له وثناءٌ وتسبيح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني به عليه خلقه، فله الحمد أولًا وآخرًا حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله ورفيع مجده وعلوّ جَدِّه، فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده، وهو حمد الصفات والأسماء.

والنوع الثاني: حمد النعم والآلاءِ - [ما أذكره لابن القيم هذا رقائق؛ وإن كان في الكلام صعوبة وليس فيه. ولكن العيب فينا وليس في أسماء الله ولا في معانيها، ولا في شريعة الصلاة، انظر إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل:٤٣] فهذه قاعدة. والآية واضحة فهي لم تؤمن بسبب ذنوبها السابقة،

ولكن لتؤمن يجب أن يكون هناك تأثير ودفعة ونهضة قوية، وكذلك نحن كم ابتدعنا وكم جهلنا، وكم ارتكبنا من ذنوب وخطايا، فالبدع والذنوب والخطايا تُمثل حُجُبًا على القلب من استيعاب أسماء الله؛ لأنه كما أقول لك: لو أنك استوعبت أسماء الله وتجلى الله عليك بحقائقها ومعانيها في قلبك - وخصوصًا في قيام الليل - لوجدت قلبك وقد بدأ يُفتح عليه من الفتاح العليم وبدأ يشرب حقائق الأسماء ومعانيها، ولن يحدث هذا طالما أننا لا نقف في الصلاة مطمئنين نتعجل انتهاء الصلاة فتجد مَنْ ينظر في الساعة ومن يمسح عرقه ومن يتعجل الشيخ، أما في صلاة القيام، فهذا هو التدريب، وهذه هي الوسيلة التي قدرها الله ﷻ للصحابة؛ لخير خلقه بعد الأنبياء والمرسلين، لخير القرون، فكانت الوسيلة صلاة القيام، فانتبه لما سنذكره لعل الله تعالى بفضله يرقق قلبك الذي قد ران عليه دَخَن المعصية وغَيْم الطباع والنفوس والذنوب والصدأ؛ فهل تريد أن يتحول قلبك - والذي هو عرش للشيطان، فهو مستوٍ عليه، أو على الأقل له إقبال وإدبار - بمنتهى البساطة إلى عرشٍ للمثل الأعلى لله سبحانه وتعالى وعز وجل نتيجة لتجلي الله بحقائق أسمائه وصفاته على قلبك؟ وهذا لا يتأتى دون اجتهاد، إنما الاجتهاد قيام الليل؛ فلن يتحول قلبك أبدًا من عرش للشيطان إلى عرش للمثل الأعلى لله تعالى إلا بقيام الليل، وإن كنت تريد لنفسك خيرًا فأرجو منك أن تنتبه لما سأذكره الآن لعلك تبكي ويرق قلبك بهذه الكلمات؛ لأنها رهيبة، فهي صعبة علينا ولكن لعملاق فاهم فهو يصب ماءً عذبًا من غدير؛ لأنه إنسان قلبه حيٌّ يقيم الليل.

وأنت تعرف المعاني الباطنة التي تتم بها معاني الصلاة كما يقول

الإمام الغزالي وهي ستة:

أولها: لا بد من إحضار القلب.

وثانيها: الفهم.

وثالثها: التعظيم.

والرابعة: الهيبة.

والخامسة: الرجاء.

والسادسة: الحياء(١).

فهذه ست مسائل صنفها الإمام الغزالي لتكون خاشعًا في صلاتك وكل هذا له كلام سيأتي إن شاء الله في فاتحة الكتاب وفي غيرها، وسنحاول أن نركز ونختصر؛ لأن المسألة يبدو أنها اتسعت؛ مع أن الذي أذكره هو منتهى الاختصار، ولكنه علم عالٍ جدًّا، فهذه هي الصلاة التي يريدها الله تعالى من الناس، وهذه هي الصلاة التي فرضها الله، وهكذا الإسلام مستواه عال فما عليك إلا أن تعلو أنت؛ لأن الإسلام لن ينزل إليك، بل أنت الذي تعلو له. فانتبه لما سيأتي، فهذا تنبيه على أحد نوعي الحمد وهو حمد الصفات والأسماء] - والنوع الثاني حمد النعم والآلاءِ، وهذا مشهود للخليقة بَرِّها وفاجرها مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه وسعة عطاياه وكريم أياديه وجميل صنائعه وحُسْن معاملته لعباده وسعة رحمته لهم وبره ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطرين وكشف كربات المكروبين وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين وابتدائه بالنعم

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٦١).

قبل السؤال، ومن غير استحقاق، بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى من أراده بأحسن الألطاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصته وعباده إلى سبل دار السلام، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع وحمايتهم عن مراتع الآثام، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروحٍ منه وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه وأعطاهم قبل أن يسألوه وتحبب إليهم بنعمه مع غناه عنهم وتبغضهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه، ومع هذا كله، فاتخذ لهم دارًا وأعد لهم فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وملأها من جميع الخيرات وأودعها من النعيم والحبرة والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم أرسل إليهم الرسل يدعونهم إليها، ثم يسر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضي منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدًّا بالإضافة إلى بقاءِ دار النعيم - [هذا الكلام لا يحتاج إلى شرح، وهذه البلاغة لا تحتاج إلى شرح، لا يحتاج إلا لحضور قلب] - وضَمِنَ لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرًا وإن أساؤوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات، وذَكَّرَهم بآلائه وتعرف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به؛ رحمة منه بهم وإحسانًا لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عما نهاهم عنه؛ حماية وصيانة لهم؛ لا بخلًا منه عليهم، وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم

بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال، وصرَّف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرفهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه، ويخاطبهم بألطف الخطاب ويسميهم بأحسن أسمائهم كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [البقرة: ١٨٦]، فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١].

- [وهذا هو دليل الاختراع والإنشاء؛ أصل الإيجاد، أما الدليل الثاني وهو دليل الرعاية والحكمة؛ ففي قوله تعالى:] - ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢].

- [يعني العيب عليكم إن أنتم فعلتم هذا] - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: ٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٤- ٢٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣- ٧٤]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ - [بمعنى هل بعد ذلك كله؟] -﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

[يقول ابن القيم]: فتحت هذا الخطاب، - [كأن الله تعالى يقول]: إني عاديت إبليس وطردته من سمائي وباعدته من قربي؛ إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بَنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم، فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب، وشدة لصوقه بالقلوب، والتباسه

بالأرواح وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة، وأعلم سبحانه عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل وأجل العلوم والمعارف؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧] - [لأن الكفر خراب للبيوت في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة، فهو تعالى لا يرضى لك الكفر ويفرح بتوبتك، ويريد أن يعطيك؛ لأنه المعطي المانع، وهو ذو الجلال والإكرام يريد أن يُكرِم وأن يُجل ﷻ، فلا يرضى لك الكفر وليس (لا يرضى منك)؛ لأن الكفر إرهاق لك] - ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧] - [فالله يرضى لك الشكر لأنك سيصيبك خير كثير في الدنيا والآخرة] - وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧]، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦-٢٨].

ويتنصل سبحانه إلى عباده من مواضع الظِّنَّة والتهمة التي نسبها إليه من لا يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السماوات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق

خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة ولا ليتعزز بهم كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح؛ كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]. وأمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦].

- [هل تتحسس هذا الخطاب؟ هل تتلمس في هذا الخطاب توددًا وتحننًا من الحنان المنان؟ فهو تعالى ملك، وهذه أوامره ونواهيه، ولكنه ليس الملك فحسب إنما هو الملك الحنان المنان الرحمن الرحيم، فإن لم يكن عندك ماء فعليك بالتيمم وهل هذا تعنت؟! بالطبع لا] - ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون

أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمدًا، بل هو الغني بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم. ومن المتعين على من لم يباشر قلبه حلاوة هذا الخطاب

- [كأن ابن القيم يتكلم علينا نحن الآن، فالقلوب لا تهتز، والآيات التي ذكرها ابن القيم هي فعلًا تحتاج إلى تعليق، فعليك أنت أن تلحظ الأسلوب، ولله المثل الأعلى كمن يُربي ابنه ويتودد إليه ويقول له: أنا ما فعلت ذلك إلا لمصلحتك أنت، فهذا الود والعطف من أين أتى به؟ كله من عطف الله تعالى ورحمته، وعلى الإنسان أن يتلمس هذه المعاني ويتحسسها من خلال هذه الآيات، فابن القيم يذكر هنا السبب في أن الناس لا تتأثر بهذا الكلام، وكما هو واضح أن معظم المسلمين في هذا الزمان لم تباشر قلوبهم حلاوة هذا الخطاب، إلا من رحم الله، والله تعالى ليس في حاجة لهذا كله، ولكن هو تعالى الحنان المنان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦].

- وجلالته ولطف موقعه، وجذبه للقلوب والأرواح ومخالطته لها أن يعالج قلبه بالتقوى وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرض إلى الأسباب التي يناله بها، من صدق الرغبة واللجأ إلى الله أن يحيي الله قلبه ويزكيه ويجعل فيه الإيمان والحكمة، فالقلب الميت لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوته - [وهذا ما نجده من أكثر أهل الزمان؛ فحتى الكلام عن الأسماء الحسنى وصفات الله تعالى لم يعد يؤثر في القلوب].

- ولا يتمتع بالحياة الطيبة لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومن أَراد مطالعة أُصول النعم فليسُم سَرْح الذكر في رياض القرآن، وليتأمل ما عدد الله فيه من نعمه وتعرف بها إلى عباده من أول القرآن إلى آخره، حين خلق أهل النار وابتلاهم بإبليس وحزبه، وتسليط أعدائهم عليهم وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوى؛ لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربته - [يعني: لِتَعْظُم النعمة على المؤمنين بمخالفة الشهوات ومحاربة الشيطان] - لله على أوليائه وعباده أتم نعمة وأكملها في كل ما خلقه من محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة.

- [لأن المحنة أو الابتلاء تنقلب في حقك نعمة إذا رزقك الله تعالى الصبر عليها فيرضى بها عنك ويُكفر بها من خطاياك؛ فشيخ الإسلام ذكر كلامًا عجيبًا في «المجلد الرابع عشر»(١)، هو يتكلم عن أحق ما قال العبد وعن بعض معاني الحمد وهو يواجه من ينسب النقائص إلى الله تعالى من الجهمية والمعطلة والمشبهة، فمادة الحمد هي أوسع المواد وأعم المواد، ولذلك أحق ما قال العبد هو الحمد فعلًا؛ فهو يشمل كل شيء عن رب العزة سبحانه وتعالى وعز وجل، أحق ما قال العبد؛ لأنه لا نقص لله تعالى أبدًا، فهذه هي المعاني، والبلية نعمة، فلا شيء في حق المؤمن إلا وهو نعمة والأحاديث بذلك شاهدة] - وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقدره - [فكل منحة ومحنة هي نعمة من الله ﷻ، فمثلًا النعمة في الذي ذريته كلها من الإناث أنه من الممكن ألا يدخله كل عمله الجنة وفي النهاية يدخل النار والله يعلم ما لا تعلم ويعلم من نفسك ما لا تعلمه، وتأتي يوم

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣١٢).

القيامة، ويقال لك: انظر ماذا فعلت؟ وتظهر أعمالك أمامك وتجد أمامك ذنوبًا لم تكن تعلمها، ولكن بفضل الله تعالى لو رُزقت الإناث وصبرت على بلائهن ضَمِنَ لك الرسول عليه الصلاة والسلام الجنة. فيُقدر الله تعالى له ذرية الإناث ليدخل بهن الجنة.

❍ مثال آخر:

رجل ضرير من الممكن أن يدخل ببصره النار، والله هو علام الغيوب، فابتلاه الله تعالى بهذا فصبر فدخل الجنة، إذًا صار هذا نعمة له، فلا شيء إلا وهو نعمة يُحمد عليها، إذًا لله الحمد ملء كل شيء علمته أم لم تعلمه. وهذا معنى الحمد لله] - وتفصيل ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قُوَى العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة. ومن استقرأ الأسماء الحسنى وجدها مدائح وثناءً تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كُنْهِها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها، ومع ذلك، فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرك بها الخواطر ولا هجست في الضمائر ولا لاحت لمتوسم ولا سنحت في فكرٍ.

ففي دعاء أعرف الخلق بربه تعالى وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ أَن تَجْعَلَ الْقُرْآن رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي**»(١).

وفي الصحيح عنه ﷺ في حديث الشفاعة لما يسجد بين يدي ربه

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وزيادة «وغمي» عند ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٣٩).

قال: «**فَيَفْتَحُ قَلْبِي مِنْ مَحَامِدِهِ بِشَيْءٍ لَا أُحْسِنُهُ الْآنَ**»[(١)]، وكان يقول في سجوده: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[(٢)]، فلا يحصي أَحد من خلقه ثناءً عليه البتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناءٌ لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر - [يعني ما علمناه من محامد الله كنقرة عصفور في بحر] - فإن قيل: فكيف تصنعون بما يُشاهد من أَنواع الابتلاءِ والامتحان والآلام للأَطفال والحيوانات ومن هو خارجٌ عن التكليف ومن لا ثواب ولا عقاب عليه؟ وما تقولون في الأَسماءِ الدالة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها؟ قيل: . . . .[(٣)]. بعد ذلك يبدأ ابن القيم يتكلم عن هذه الشبهات والرد عليها بكلام جميل وقيِّم جدًّا. كما هو أيضًا أطول وأكثر بسطًا وأوضح في كتاب «شفاء العليل».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، بلفظ: «**وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ**».

وأخرجه مسلم (١٩٣) بلفظ: «**فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ**».

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، بلفظ: «**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ...**».

(٣) «طريق الهجرتين» (ص١٣٠-١٣٧).

❁ والذي يَعْنينا الآن هو الذي ذكر عن نوعي الحمد:

حمد الثناء والعبادة أو حمد المدح في كل صفة لله سبحانه وتعالى وعز وجل، ثناء وعبادة ومدح لأن فيها حبًّا وتعظيمًا، فطالما أنها مع المدح، فهي حمد ثابت لله، وكلما تعرفت على الله ودرست أسماءه الحسنى وشرب ذلك قلبك اقترب أن يكون عرشًا حقيقيًّا لمثل الله الأعلى، فالمطلوب أن يشرب القلب معاني الأسماء، فإذا قال قائل: وما علاقة هذا بالصلاة؟ قلنا له: عليك أن تتقي الله؛ لأن الصلاة ما هي إلا هذا الكلام الذي نقوله الآن لك.

فمثلًا الحمد في الصلاة من أولها إلى آخرها، وها هو معناه الآن؛ وهو فيه كل صفات الله تعالى وكذلك الأسماء التي وردت في الصلاة.

ثم نختار من القرآن مثلًا آية الكرسي أو «سورة الكافرون» و«سورة الإخلاص» على سبيل المثال، وكيف يكون الفهم. ثم الأذكار التي في الركوع بعد أن تقول: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، وماذا بعد الركوع مثلًا: تقول: «**وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**» وكأنك تقول: يا رب لا يمكن أن تخلق شيئًا ينسب لك العيب فيه أبدًا مهما كان حتى ولو كان زلزالًا قد دمرني أنا وأولادي فأنا يا رب قد شهدت لك بالحمد فلا نقص لك أبدًا مهما حدث لي؛ فهذا هو معنى: «**وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ**»، فلا يمكن أن يصدر شيء عن الله إلا وهو شاهدٌ أن الكمال كله له.

وهذا معناه أن الحكمة على أبلغها وأكملها، وأن العلم على أتمِّه وأكمله ثابت لله ﷻ؛ وهذا معنى الحمد.

وهذا هو الواجب عليك أن تدخل به الصلاة.

تدخل الصلاة وأنت مكروب فما عليك إلا أن تقول: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**»؛ فهذا هو المطلوب، لكن تدخل وأنت - كما قال الشيخ الغزالي - حاضر القلب أولًا، وفاهمًا ثانيًا[1].

ولا أتكلم كل هذا إلا في الفهم، فالكلام في أسماء الله تعالى التي وردت في الصلاة مجرد بيان ومنهج ليس إلا؛ أما أنت فعليك أن تحاول تكرير هذه المعاني في صلاة القيام ولتجدن فتوحًا من الله ﷻ خصوصًا ساعة الأسحار؛ يقول الله تعالى في هذا الوقت: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[2] فمطلوبٌ منك في هذا الوقت أن تتضرع إلى الله أن يغفر لك ويسهل لك فهم أسمائه الحسنى... فأنا حتى الآن إنما أتكلم في الجزء الثاني ألا وهو الفهم الذي يكون بعد حضور القلب، ويأتي بعده التعظيم، ولكن في البداية ما معنى التعظيم وكيف يكون هذا التعظيم؟ نجد أن ابن القيم قد ذكر في كتابه «الوابل الصيب» علامة تعظيم الله العظيم سبحانه وتعالى وعز وجل ألا وهي أن تعظم أمره ونهيه، وهذا له تفصيل؛ وهو أن تعظم حرمات الله وتعظم شعائر الله وتعظِّم أمر الله؛ وكيف يكون هذا؟ يكون هذا - بالنسبة للصلاة - بأن تعظم أمر الله بالصلاة كالمحافظة على أوقاتها، وعلى كمال وضوئها، ونظافة الثوب والبدن والمكان، والقلب الذي هو أهم من كل هذا والذي عليك أن تطهره بالاستغفار والصدقات والاستعداد، وتحرص أيضًا على الصف الأول، وتحرص على أن تشهد الجماعات وتكبيرة الإحرام ونتخير الجمع الكبير والمحافظ على السنة؛

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٦١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فكل هذا هو تعظيم الله. ولكنك تقف في الصلاة وتقول في الركوع: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، ثم تخرج من الصلاة كما كنت فأنت لم تسبح الله ﷻ ولم تعظم الله، وقد خرجت من الصلاة كما دخلتها، فالمقصود أن تُعَظِّم الآمر الناهي، بأن تُعَظم أمره ونهيه، وموضوعنا هنا الآن هو تعظيم الصلاة، فعلينا أن ندرس هيئاتها وأحكامها وعلومها وأن نطلب معانيها ومعاني أذكارها، كذلك فاتحة الكتاب ما هي إلا الحمد وإيقاع الحمد على مدلول أصول أسماء الله تعالى وصفاته؛ فالمسألة كلها حمد لله سبحانه وتعالى.

وعليك أن تكون فاهمًا هذه المعاني ومستحضرها ومن لم يبك فليتباكَ؛ أي: يحاول أن يبكي ويرقق قلبه حتى يُفَهِّمَه الله، وإن لم تفعل هذا فستظل كما أنت. فلا بد أن تستعد بالتضرع إلى الله وأن تستغفر.

عليك أنت البيان العملي، ومن الممكن أن تقول: إن ما سبق صعب عليك؛ لكننا انتهينا من معظم الصعب، وحين نشرح الأذكار نجد معاني من الصعوبة فهمها مثلًا: «**سُبْحَانَ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»[1]، فهذه لم يُتوصل إلى معناها حتى الآن، ولعل الله تعالى أن يفتح علينا ونجد هذه الفروق الدقيقة بينها في أحد كتب العملاقين - ابن تيمية وابن القيم - أو يكون الله تعالى قد فتح على أحد من عباده المساكين المستضعفين المتضرعين فيقول لنا: ما معنى هذه الأربعة؛ فلا يصح أن أقول مجرد كلام؛ لأنه حين أتكلم عن أحدها، فسأتكلم بكلام جيد جدًّا ولكن حين أتكلم عن الآخر، فإني سأتكلم بنفس الكلام، إذًا

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

فأنا لم أفعل شيئًا.

مثل الفرق بين (الكريم والعظيم)، فلم أجد من يفرق بينهما مثلما فرقوا بين (العفو والغفور)، والحمد لله تبين الفرق وقد شرحناه جليًّا واضحًا.

ونجد في صيغ الافتتاح أن شيخ الإسلام كان يُقدم دعاء الافتتاح: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[1][2]. فلماذا كان يقول هذا الدعاء دون غيره من أدعية الافتتاح؟ لأنه ابن تيمية وهو يفهم أن الذكر أهم من المسألة، وحين يقول: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ**» فهو يفهم معناها جيدًا.

«**تَبَارَكَ اسْمُكَ**»، فكيف الحال بالمسمى؟! والحمد لله شَرَحنا «تبارك» و«بارك». وحين شرح ابن القيم هذه قال: والتبارك يشمل أو يجمع أو يتضمن نوعي الحمد، وهما حمد الثناء والعبادة والمدح، وحمد الشكر والآلاء والنعم، ويستدل بالآية: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

هناك كثيرون يسألون ماذا يقرؤون، وأنا أنصح بقراءة أول أربعين صفحة من كتاب «طريق الهجرتين وباب السعادتين» لابن القيم؛ لأن فيها معنى الغنى والافتقار، ومعنى الأول والآخر والظاهر والباطن.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٩) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفًا.
وأخرجه أبو داود (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه (٨٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «الفتاوى الكبرى» (٢/ ١٦٥).

وعليك أن تعلم أن الأصل في الموضوع كله شيئان هامَّان ألا وهما: أن تعرف نفسك وأن تعرف ربك؛ فمن عرف ربه بكمال العظمة عرف نفسه بتمام الذلة والصَّغار والحقارة، ومن يعرف ربه بكمال العظمة يجد نفسه أصغر من النملة، بل إن النملة بجانبه شيء كبير جدًّا حينما ينظر إلى عظمة الله ﷻ.

فمن عرف ربه بكمال العظمة فقد عرف نفسه مائة بالمائة بكمال الحقارة والصغار، ومن عرف ربه بكمال العزة عرف نفسه بكمال الذلة، ومن عرف ربه بكمال العلو والكبرياء عرف نفسه بكمال السُّفل وكمال الصِّغَر.

فالمطلوب أن تعرف أن نفسك لا شيء وكتاب «طريق الهجرتين» يتكلم عن هذا.

أما الفقر الاضطراري، فهو فقر الفلوس والصحة والعيال والمسكن والدنيا والأكسجين، وهو لا يد لك به. أما الفقر الاختياري، فهو الذي يكون في الدين؛ فأنت لتصلي وتخشع من الذي يعطيك الخشوع؟ الذي سيعطيك الخشوع هو الغني وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهذا هو الافتقار.

ولننظر إلى الركوع وهو يذكرنا بالمعنى نفسه لأنك لا يمكن لك أن تركع لغير الله تعالى، ولو فعلت هذا لكان في قلبك حنق على هذا الذي ركعت له، أما لو أن هذا الركوع وهذا الانخفاض والخضوع كان لله تعالى العظيم لعرفت ربك بكمال العظمة فالتسبيح الذي تقوله في الركوع ما هو إلا تنزيه مستمر لله لا يتوقف أبدًا، ولكن ما الذي يعينك على

هذا؟ يعينك عليه الركوع والانحناء، فالصلاة تعلمك الهيئة مع القلب مع اللسان وتعلمك كيف تعرف نفسك.

وكذلك ربك الأعلى وأنت تعرف فهو تعالى أعلى من الدول الكبرى ومن الأرض والسماوات العلى، والأعلى من كل شيء سبحانه وتعالى وعز وجل، وفي هذه الحالة أنت وجهك في التراب وتتأثر بالتراب في وجهك وتتذكر أصلك الذي من التراب فهنا كمال الذل وكمال السُّفل المقابل لربك الأعلى، وهنا تجد أن هذا المعنى قد استقر بداخلك ألا وهو: من عرف ربه بكمال العلو والكبرياء عرف نفسه وهذا هو الافتقار إلى الله.

ثم تقول في نفسك: إنني ما كنت لأصلي إلا بفضل المانع المعطي، وابن القيم يقول في هذا: إن أصل كل شيء في الدنيا والدين نابع من المعطي المانع ومصدره هذان الاسمان، فلو أعطاك الله الخشوع خشعت ولو منعك الله الخشوع لن تخشع، فالمسألة كلها دائرة على هذين الاسمين (المعطي المانع)[1]؛ لأن الاسمين لا يختصان بمسألة الرزق وما إلى ذلك فحسب، ولكن هذا في الدين أيضًا.

وكذلك الأول والآخر؛ فأنت ليس لك فضل في هذا العلم، خرجت من بطن أمك ليس عندك علم وأنت مذلول له. فهذا اسمه التعبد بالأول، وتوجد أيضًا عبودية بالآخر ولا يمكن أن تكون مثل الأولى؛ وهي أنه تعالى ذكرك قبل أن تذكره، ومهد لك السبيل قبل أن تعرف شيئًا، فهو (الأول) ومِن غيره لم تؤت علمًا ولم تعرف شيئًا، والأهم من ذلك

(١) «الفوائد» (ص٧٩).

(الآخر)؛ لأن أكثر الخلق يعبدون الله باسمه (الأول) بأن يطلبوا منه دائمًا ويقولون: أعطنا أعطنا فهو (الأول)، أما (الآخر) فهو: كيف تصل إليه؟ وكيف تتصل به؟ فتجدك قد صليت، وحصَّلت علمًا، لكن ما الغاية التي وصلت إليها؟ وما الذي أوصلته للناس؟

فعليك أن تقرأ أنت لتعرف معنى الافتقار، ومعنى الغِنَى لله ﷻ وتعرف المجهود الذي يُبذل.

معاني أدعية الاستفتاح

أيها الإخوة الأعزاء:

نهاية الصيغة الثانية من صيغ الاستفتاح: قولُه ﷺ: «**أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ**»، وفي رواية زائدة: «**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»[١]، «**تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»[٢].

«**أَنَا بِكَ**» ولا أكون إلا أن أستعين بك، لا أستطيع أن أحمدك إلا أن أستعين بك، لا أستطيع أن أشكرك إلا أن أستعين بك، لا أستطيع أن أتلو القرآن إلا أن أستعين بك، لا أستطيع أن أفهم القرآن إلا أن أستعين بك، لا أستطيع أن أعلم شيئًا عن النبي ﷺ إلا أن أستعين بك، لا أستطيع أن أتبع النبيَّ محمدًا ﷺ إلا أن أستعين بك، لا أستطيع تحصيل رزقٍ من الدنيا إلا أن أستعين بك، لا أحصل قدرًا في الجنة إلا أن أستعين بك، لا يكون شيءٌ أبدًا إلا أن أستعين بك، لا أستطيع أن أعبدك إلا بعونك؛ إلا أن أستعين بك.

«**وإليك**» أنا بك وكل ذلك يكون لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

ثم هذه الزيادة: «**لَا مَنْجَا**»: وهى النجاة؛ النجاة إلى بر الأمان

---

(١) أخرجه الشافعي في «المسند» (ص٣٥)، وعبد الرزاق (٢٥٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

والنجاة من الأهوال.

«لَا مَلْجَأَ»: فلا يقول: إني لا أنجو؛ أي نعم، ولكني أعتصم بهذا الحصن فيمنعني من كذا وكذا!! من عَدُوِّي، من الحرق، من التعذيب!!

فهذا هو الفرق بين المنجا والملجأ:

(فالملجأ): هو الحِصْنُ يُتَحَصَّنُ به، أما **(المنجا)**: فهو النجاة من عذاب النار مثلًا والابتعاد عنها بلا حصن أو خلافه؛ والنجاة من مكر الماكرين، ومن الأعداء.

فأنت بقولك: «**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا**» تقصد أن كليهما غيرُ موجودتين.

«مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ» وهي المعنى نفسه؛ فلا تحصل رحمة في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاستعانة بالله سبحانه وتعالى وعز وجل.

«تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» كان يقولها ﷺ في الفرض والنفل.

(تباركت): تعرضنا لشرحها سابقًا.

(وتعاليت): تعرضنا أيضًا لشرحها عند شرحنا لاسمه تعالى الأعلى.

۞ أنواع العلو الأربعة:

ونذكر أن «الأعلى» يتضمن العلو لكل الأنواع:

■ **فأول علو: علو الذات؛** فالله ﷻ فوق خلقه وليس فوقه شيء فهو عالٍ بذاته على عرشه استوى.

■ **ثم علو: القهر والبطش والغلبة؛** فهو أعلى في القوة، وأعلى في البطش، وأعلى في الغلبة.

وكان أبو سفيان يقول يوم أُحُد قبل أن يُسْلِم: اعْلُ هُبل، والرسول ﷺ يقول: «**أَلَا تُجِيبُوا لَهُ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**». فمعنى العلو: البطش والقهر والغلبة.

■ **ثم علو القدر:** فهو الأفضل وله الأفضلية والترجيح، كما يقال: الذهب أعلى من الفضة؛ أي أحسن من الفضة، فهو علو القدر.

■ **ثم علو التَّعَالِي:** وهو أخطر الأنواع لأن الناس يجهلونه؛ فهم يقولون: «تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ» ويجهلون معناها، وسنذكر كلام السلف الصالح والذين من غيرهم لن نفهم هذه الصيغ أبدًا وسنأخذ الصلاة والنصوص دون فهم المعاني، وهذا لا يليق بنا أبدًا.

ذكرنا من قبل أن التعاليَ أهمُّ شيء في العلو، وهو الذي يلزمنا الآن، فالتعالي هو: (علا عن)، وهي لم تأت في القرآن (علا عن)، إنما جاءت (تعالى).

ومثالها قول الله تعالى: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٦٣]، ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجنّ: الآية ٣].

فالتعالي هنا بمعنى: (علا عن كذا)، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح اسمه تعالى (الأعلى) وهو يشرح التعالي(١). (علا عن كذا) يقابلها في القرآن: (تعاليت)، إذًا (تعالى) هي أيضًا تنزيه لأن الله يتعالى عن هذا الحسبان، ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: الآية ١١٤] كيف لا يكون

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٦٠).

هناك رُسُل؟! و كيف لا يكون حسابٌ؟! أو لا يكون بعثٌ؟! فكيف هو ملك؟! هو الملك الحق؛ وكيف لا يكون أمرٌ ونهيٌ؟ والملك من أخص خصائصه أنه هو الذي يأمر وينهى فهو الملك الحق؛ ودون ذلك لا يكون ملكًا.

فتعالى الله عن هذا الظن وهذا الحسبان؛ يعني علا عن هذا الذي يقولونه؛ من أنه لا شريعة ولا بعث ولا حساب!!

﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَـمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: الآية ٦٣]؛ يقولون إن مع الله إله أو مع الله آلهة!! تعالى الله عن هذا؛ أي علا عن هذا الظن، وعلا عن هذا الحسبان.

التعالي مثل التسبيح، وكل صفات السلب لا بد أن تتضمن كمالًا:

والتعالي تنزيه ونفي السلب كالتسبيح، فقوله تعالى مثلًا: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: الآية ٥٢] تنزيه عن صفة الضلال والنسيان.

ولو أردت التسبيح فهو تنزيه عن كل صفات النقص مع الاستمرار، وأنك لا تنفي شيئًا إلا أن يتضمن ثبوت الكمال المقابل.

مثلًا: حين تقول إن النبي - عليه الصلاة والسلام - كان لا يسرق؛ فهل قال لك أحد أن النبي كان يسرق؟!

فالعدم أو السلب ليس كمالًا ولا مدحًا، فلا بد من تضمن السلب كمالًا.

فأنت حين تقول: «تعاليت»: فهذا سلب، أما الإيجاب فهو: «تباركت».

فتباركت وتعاليت هي: «سبحان الله وبحمده».

فهنا معنى (التعالي) أن الله علا عمَّا يقولون كقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجنّ: الآية ٣] فتعالى: أي علا الله عن كذا وعن كذا.

* ونضرب لذلك مثالًا -ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض- أنك إذا أردت مدح أحد من الناس قلت: إنه كثير الغيبة يغتاب الناس، فيقال لك: هذا ليس معقولًا أن يغتاب؛ فهو رجل أعلى وأكبر من أن يغتاب الناس، فلسانه أطهر من هذا، ومقامه أكبر من ذلك، وأعلى من ذلك، كأن يقال إن هذا الرجلَ عَلَا عن سفاسف الأمور هذه، فأنت قصدك بهذا الكلام أن تمدحه، ولكنك تسلبه هذه الصفة، وبذلك تكون قد أثبتَّ له كمالات بشرية.

فهذا هو التعالي أو التسبيح أو التقديس، والمادة كلها هكذا مع تنوعها.

* تجد آخر يريد أن يمدح رجلًا ويثبت له كمالات بشرية فيقول:

إن هذا الرجل لسانه جميل وينطق الجميل، أو رجل كريم، شجاع، سخي، جواد، بَرٌّ، طيب، يأمر بالعدل، على صراطٍ مستقيم، فهذا هو الحمد؛ لأن هذه محامد، كقوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٨] فهذه كلها محامد وإثبات كمالات بشرية.

ولكنك حين تنفي وتقول عنه: لا يغتاب، ولا تخرج منه العيبة؛ فهذا كله نفي، فأنت تَسْلُب وقصدك من هذا إثبات الكمال المقابل - ولله المثلُ الأعلى.

والدندنة التي في دروس الصلاة كلها حول هذا المعنى، ولكنه

لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

«سبحانه وتعالى»، أو «يا رب تباركت وتعاليت»:

«سبحانه وتعالى»: ما الفرق بين «سبحانه» و«تعالى» هذا تنزيه وهذا تنزيه، ولكن التسبيح تنزيه مستمر بلا توقف، ولا اصطدام... كما شرحنا.

فـ«تعاليت» معناها: علا عن كل نقص أو عيب أو أن يكون أحد مثله، يعني تعالى عن المثال والشبيه، فأنت تقول أنت يا رب تعاليت عن ذلك، وهذا إثبات الكمال لله.

وقلنا: إن أهم ما فيه أن الله ﷻ علا عن المثال وعن الشبيه، فحين تقول «وتعاليت» معناها أنه لا أحد مطلقًا مثلك يا رب، فهذا ليس ظني بك يا رب العالمين أن يكون أحدٌ مثلك.

فأنت تثبت لله هذا ومعناها في ذات الوقت أنك (تخفض) من كل أحد يتطاول فوق العبودية؛ فأنت تنسفه بقولك: (تعاليت) لأن الإله هو الله سبحانه وتعالى وعز وجل، فلا إله آخر، فأنت يا رب قد تعاليت عن ذلك علوًّا كبيرًا أن تخلق إلهًا، أو تجعل إله غيرك يُعبد.

فنجد هنا أن (تعاليت) هي سلب ولكن لإثبات كمالات لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

أما الأخرى فهي:

(تباركت) وكما ذكرنا من قبل أنها تجمع نوعي الحمد، كما ذكر ذلك ابن القيم في كتابه «طريق الهجرتين»، فما نَوْعَا الحمدِ؟

هما «حمد الثناء، وحمد العبادة أو الحمد المطلق» ثم حمد آخر وهو «حمد الشكر، حمد الآلاء، حمد النعم»[(١)].

واختر أي شيء يقع عليه بصرك، سواء كان شيئًا ملموسًا أو شيئًا مُقدرًا أو شيئًا في الشرع أو في الجزاء، وستجد أن هذا الشيء مليء بالحمد لله، وفى ذات الوقت مهما كان هذا الشيء فهو بقدر الله؛ فكل شيء يدل على وحدانية الله فهو حمد؛ والله تعالى يُحمد عليه.

وإذا فكرت في كل شيء فسيدلك على أن الحمد كله والكمال كله لله فتهتدي بهذا، لأنك ستجد أن الحكمة كلها، والعلم كله، والقدرة كلها لله سبحانه وتعالى وعز وجل، فتعبد الله وتخافه وتحبه، فإن عبدت الله حصلت على الجنات، وهل من نعمة أكبر من هذا؟!

«تباركت»: التبارك يجمع نوعي الحمد، إذًا فالتبارك بابه مَجَدَ، وقد ذكرناه أيضًا من قبل حين الحديث عن معنى اسمه تعالى: (المجيد) والذي قال هذا الكلام هو ابن القيم في «بدائع الفوائد» لما قال:

«تبارك من باب مَجَدَ»[(٢)]، فعَدِّد في الصفات وحدِّث ولا حرج عن صفات الله ﷻ، وكمالات الله؛ فهي سِعَةُ الصفات؛ فتجد القدرة مع القوة مع العظمة مع الجبروت مع الكبرياء مع العلو، فهي السعة وهذا اسمه (التبارُك) وهو لذات الله ﷻ، الحمد كله والآلاء كلها، والكبرياء كله، والعظمة كلها، والعلو كله، كل المجد والسعة في الصفات تجمعها كلمة (تباركت).

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص١٣٢).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٦٨٢).

واستدللنا على ذلك بورودها في كتاب الله، من أول سورة الأعراف إلى سورة الملك ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [المُلك: الآية ١] فتنظر إلى السياقات والسباقات واللحاقات وتفهمها، فتجد أن أحسن شرح للتبارك هو هذا.

مثلًا: في آخر سورة الرحمن ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرَّحمن: الآية ٧٨] في آخر السورة، لماذا؟

لأنك تجد في السورة: ذكر الجنَّات وما فيها؛ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمن: الآية ٤٦]، وكذلك ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرَّحمن: الآية ٦٢]، ثم قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرَّحمن: الآية ٧٨] في آخر السورة بعدما ذكر الآلاء كلها، القدر الكوني والتشريعي والجزائي وكل الحمد لله فجاء في آخر السورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ ولكن أي اسم؟ بالطبع الأسماء كلها وصفاته.

الدلالات الثلاثة لأسماء الله تعالى:

قد يقول قائل: إن كلمة «التبارك» شُرحت بأكثر من معنى ثم قيل إنها تجمع نوعي الحمدِ!

أقول لك: إن أسماء الله تعالى ليست مسألة رياضية. ولكن في الأسماء تنوع الدلالات، فتوجد أسماء لها **دلالات مطابقة**؛ وهى الأسماء التي تدل على ذات الله سبحانه وتعالى وعلى صفة الله؛ مثل اسمه تعالى (العظيم)؛ فهو يدل على «ذات الله»، وعلى «صفة العظمة»، فهذه هي «دلالة المطابقة أو التطابق».

ولكن توجد دلالة أخرى اسمها «**التضمن**»؛ وهي أنه لا يدل على الذات فحسب لأنه يتضمن الدلالة على الذات وعلى كل موجبات

العظمة، ويتضمن الدلالة على العظمة.

أنت حين تقول (العظيم) تدل على ذات الله «دلالة تضمن»، وتدل على عظمة الله وعلى صفة الله «دلالة تضمن» وتدل على الاثنين «دلالة مطابقة».

فحين تقول الدلالة ف (العظيم) يدل على أنه (الجبار) ويدل على أنه (الرحمن والرحيم) وهذا اسمه «**دلالة لزوم**» وتعرف دلالة اللزوم من أن العظيم تدل على الذات، وأسماء الله كلها قائمةٌ به (من لوازم) ذاته، فهي دلالة لزوم.

فالأسماء والصفات متداخلة ومن يعلم حدودها الله سبحانه وتعالى وعز وجل، فالمسألة ليست حسابية في أسماء الله تعالى.

وكذلك حين نقول: «سبحان ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة»، نجد أنه من الصعب جدًّا التفريق بين هذه الأربعة شديدة التقارب، ولكن نجتهد في فهم الفروق الطفيفة التي بينها والله المستعان، فمثلًا (سبحان الله وبحمده) فقد قلت كل شيء إجمالًا (أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته؛ سبحان الله وبحمده) وقد شرحناها من قبل.

وحين نقول: «تباركت وتعاليت» هي نفسها «سبحان الله وبحمده» ولكن من طريق آخر.

ولذلك مطلوب منك أن تتفكر في الصلاة في شيء من عظمة الله؛ في خلقك مثلًا.

وفي الركعة الثانية في إنزال الماء الذي تشربه، وفي الركعة الثالثة

تتفكر في النار التي تستخدمها في طهي الطعام وما إلى ذلك، ثم في الصلاة التي بعدها تتفكر في عظمة الأسماك وجمال الأسماك وجمال المخلوقات، وكلٌّ منا يتفكر في شيء، يعنى مثلًا الإلكترونات وكيفية حركتها، وهكذا في كل ركعة تتفكر في شيء واحد، لأنك لا يمكن لك أن تتفكر في العظمة كلها في ركعة واحدة، أنَّى لك بهذا؟!

وقد تجد إنسانًا يتحول من الكفر إلى الإيمان بآية واحدة، أو بمعنى حديث، أو معلومة واحدة عرفها عن الرسول ﷺ فكما يقول ابن القيم إن ما نشرحه الآن عن أسماء الله تعالى وصفاته هو كنقرة عصفور في بحر[1]، وأنا أنقل عن شَيْخَيِ الإسلام كنقرة عصفور في بحر مما قالاه، فأنت عليك الاجتهاد والاستعانة بالله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥] فالاستعانة لا تكون إلا بالله.

(تباركت وتعاليت):

فالتبارك: هو إثبات الحمد، إثبات كل شيء لله، وعظمة الله، وسعة الله، ورحمة الله؛ كل هذا في التبارك كصفة ذات، أما الفعل (بارك) فمعلوم أن الذي يُبارك يكون هو تبارك، ومن أجل هذا فلا أحد يبارك إلا الله سبحانه وتعالى وعز وجل وهي في ذلك مثلها؛ مثل «اللهم أنت السلام ومنك السلام» صفة الذات وصفة الفعل.

مثل: الرحمن والرحيم، فـ(الرحمن) للذات و(الرحيم) للفعل.

فحين تقول: يا رب تباركت؛ تذكر العظمة كلها والكبرياء والعلو والرحمة والكرم والمجد والحمد كله، وهو الذي أحق ما قال العبد،

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص١٣٦).

فتذكر كل ذلك.

فتعيش مع هذه الكلمة وتستحضر أيضًا توسلك باعتقادك بأن الله «تبارك» لتحصل على البركة، فأنت حين تقول «تباركت» فأنت تُثبت العظمة والهيمنة والجبروت والحمد كله لله ﷻ لأن التبارك يجمع نوعي الحمد. فأنت تتوسل باعتقادك هذا في الله ﷻ أن يعطيك البركة، وهل شيء أفضل من البركة.

قال سيدنا عيسى ﵇: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: الآية ٣١].

البركة من الله، وحين تجيء البركة بخفاء تكون من اسم الله اللطيف؛ ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٠].

كما حدث لسيدنا يوسف ﵇، وكان قد دخل البئر وخرج من البئر، وتعرض للفتن ودخل السجن وحدث ما حدث ثم فجأة وجد نفسه رئيسًا وسيقيم الدين ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٥] فمن كان يتخيل حدوث هذا.

فأحسن شيء وأنت في الصلاة أن يبارك الله صلاتك، لأنك لو اطلعت على الغيب لوجدت أن فلانًا يحمل أطنانًا من الحسنات ببركة الله ﷻ، وهو المجهود البدني نفسه، والكلمات اللسانية نفسها، لكن القلب باجتهاده، وحضوره، وتفهمه، وهيبته، وتعظيمه، ورجائه، وحيائه من الله ﷻ تجده يحمل أطنانًا من الحسنات، ورجل آخر يقف بجانبه لا يفهم شيئًا، ويخرج من الصلاة ولم يحصِّل من شيءٍ، ويمسك السبحة ويردد مجرد كلمات لا يعي منها شيئًا، وعيناه هنا وهناك!

فهذه هي البركة؛ بارك الله على فلان ولم يبارك على فلان.

فحين تقول: (تباركت)، عليك أن تستحضر أنك تتوسل إلى الله ﷻ باعتقادك بأن التبارك لله وحده لا شريك له، في أن يبارك عليك ولك وعلى أهلك. فـ (تباركت) هي الإثبات.

أما (تعاليت) فهي النفي أو السلب والسلب أيضًا يؤدي إلى الإثبات، إذًا فالتبارك مع التعالي يجعلك تتفكر في المجرمين الذين نسبوا النقائص لرب العالمين، والكلام الكثير الذي قالته الفرق -اليهود والنصارى والملحدون والعلمانيون والمنافقون- ثم تفكر في عظمة الله، وتذكر هذه العظمة وهذا التبارك، وتذكر هؤلاء المجرمين وما قالوه على رب العالمين، فتجد نفسك وقد أخبتَّ لله، وخشعت لله، وبكيت تواضعًا لله.

وهذا لا يحدث إلا لمن يفهم هذه المعاني.

(أستغفرك وأتوب إليك) الرسول لم يحرمك من الاستغفار في كل صيغ الاستفتاح:

وآخر هذه الصيغة (أستغفرك وأتوب إليك)، وأيضًا الصيغة الأولى كان فيها الاستغفار، وتأمل أنك أنت حتى الآن لم تقرأ الفاتحة.

تقول: (سبحانك)، (تباركت)، (تعاليت) أن أتجرأ عليك وأعصيك وأنت تراني؟! كيف فعلت ذلك؟ (أستغفرك وأتوب إليك). ووالله لو قلت هذا الكلام في الصلاة لوجدت نفسك وقد بكيت، وجرب ذلك في النفل وقيام الليل فهو ساحة التدريب لك، فتعيد فيها وتكرر (وتنوي الخشوع) لعل ربنا يكرمك، ولو أكرمك فسيغفر لك، ولو غفر لك فستجد أن الصدأ والران الذي على قلبك قد زال، وستجد نفسك حين

تقرأ الفاتحة قد أخبتَّ لله تمامًا، ورأيت فيها ما لم تر قبل ذلك.

فالرسول ﷺ في الصيغة الأولى لم يحرمك من الاستغفار وكذلك في الصيغة الثانية أيضًا لم يحرمك من الاستغفار.

الصيغة الثالثة

أما الصيغة الثالثة فمثل الصيغة الثانية ولكن دون: «**أنت ربي، وأنا عبدك**».

أقسام الربوبية: (القدري الكوني، والتشريعي، والجزائي):

ما معنى (أنت ربي)؟ يجب عليك أن تقسمها؛ أي تذكرها في القدري الكوني، والتشريعي، والجزائي، ولم أجد هذه التقسيمة عند ابن القيم ولا ابن تيمية، ولكن وجدتها عند الشيخ ناصر السعدي في «التفسير»، عملت بحثًا طويلًا في كتاب الله فوجدت كلمة الربوبية قد ذكرت بالتقريب (٩٧٣) مرة في كتاب الله، وقسمتها فوجدتها بين القدري الكوني والتشريعي والجزائي، فابن القيم وابن تيمية شرحا الإذن القدري والإذن الشرعي، فضًّا للاشتباك الذي في عقول الناس والخلط في المسائل القدرية نتيجة لأنهم لا يفرقون بين الإذن القدري والإذن الشرعي، لكن شرحها في الربوبية، فقد وجدتها عند الشيخ ناصر السعدي، وأيدها وجودها في كتاب الله (٩٧٣) مرة تقريبًا.

■ **القدري الكوني**:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القَمَر: الآية ٤٩]، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعَام: الآية ٧٣] فمثلًا: «أنا» قدري كوني، و«الملائكة» قدري كوني، والسماء

والريح والماء وكل فعل يقع قدَّره الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهذا هو القدري الكوني وهو الجزء الأول من ربوبية الله ﷻ، وما أكثر الآيات التي تتكلم عنها.

■ **والتشريعي:**

إنزال الكتب، وإرسال الرسل، والوحي؛ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السَّجدَة: الآية ٢].

■ **والجزائي:**

﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ۝٣٦﴾ [النّبَإِ: الآية ٣٦] ولكن الجزاء ليس في الجنة والنار فحسب، إنما أيضًا في القبر، وفي الدنيا، فكل مصيبة تحدث لك فلأنه لا مصيبة دون ذنب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشّورى: الآية ٣٠] فحتى المصائب في الدنيا مختصة بالقسم الجزائي.

فحين تقول (**أنت ربي**): **أي خلقني، وخلق الهواء، والأكسجين، والماء، ولساني ينطق ويتكلم** ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمن: الآية ٤]، والدماغ والمخ والقلب والمضغة في عمل دائم والعروق والشرايين والأوردة، والأجهزة التي في البدن، والروح، والفهم، كل ذلك **كوني**.

والتشريع الذي جاء من النبي - عليه الصلاة والسلام - وفهم القرآن والسنة والأحاديث؛ هذا هو **التشريعي**.

ثم بعد ذلك الجزاء المترتب على الأعمال؛ والحسنات التي سآخذها في الجنة وكم حسنة لي وكم سيئة، والأجور التي سأحصل عليها والعقاب، وهذا هو **القسم الجزائي**.

إذًا ف (أنت ربي) لأن هذه الثلاثة منك يا رب، فإما أن أعيش أنا في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة، في الدنيا قدري كوني وتشريعي وجزائي، وفى القبر جزائي؛ فتنة القبر، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام : «**فبي تفتنون وعني تسألون**»، يقال لك: «ما قولك في الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟».

ولكنك تجد أكثر مسلمي هذا الزمان من المصلين يُسأل فيقول: ها... لا أدرى، سمعتُ الناس يقولون شيئًا فقلته، فهذا كان في الصلاة يقول كل شيء دون فهم، وتجده لا يحضره كل بلاء وكل شهوات الدنيا إلا في الصلاة؛ لأنه غير فاهم للمعاني، فهذا نوع من الجزائي، ويقال لهم:

«**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ**» فالموحدون الدارسون لأسماء الله ولصفات الله تجد جزاءهم أنهم يعرفونه.

(أنت ربنا) فكل هذا منك يا رب، الجنة والنار، والجزاء من الربوبية، والملك من تمام الربوبية؛ لأنه من تمام الربوبية أن يكون هو الملك «ربّ الناس» وتمام الربوبية أن يكون هو ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [النَّاس: الآية ٢] وتمام الاثنين أن يكون هو ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النَّاس: الآية ٣].

بعدها تقول: (وأنا عبدك).

فهذه الصيغة مثل الصيغة الثانية ولكن بلا قوله: (أنت ربي وأنا عبدك)، ويزيد (اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك).

فتكون الصيغة كلها هي:

«وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا مسلمًا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملكُ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، أنت ربي وأنا عبدك»(١).

ولكن في زيادةٍ: **«اللهم أنت الملكُ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك»** فهذه هي الصيغة الثالثة.

○ شرح «اللهم أنت الملكُ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك»:

«اللهم أنت الملك» قد شُرِحَ معنى (الملك) من قبل.

ولكن علينا أن نتذكر أن الملك من أخص خصائصه الأمر والنهي، لأن من ملك بغير أمر ولا نهي فليس ملكًا، لذلك تجد ابن القيم وهو يشرح الفاتحة في «التفسير القيم»(٢) يقول: «إن الملك أولى بالعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والأمر والنهي، والخفض والرفع، والإكرام والإهانة، والقسط والعدل»، والجزائي يدخل في المُلك، فهو أولى بهذا.

---

(١) أخرجه الشافعي (٣٥).

(٢) (ص٣٧).

والملك يستلزم جميع الصفات، ولذلك في سورة الحشر يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: الآية ٢٣]، فحين تقول أنت (الملك)؛ فأول شيء يذهب إليه قلبك هو الشريعة - الأوامر والنواهي - فعليك أن تتخيل أن ملكًا يرانا الآن ويعلم كل شيء عنا ونحن عبيده ومماليكه، وأمرنا أوامر كثيرة، ففوجئت بأن أوامره ونواهيه أُخذت فأُلقيت، فما ظنك بهذا الملك، وإن كان ملكًا من ملوك الدنيا، فماذا يفعل؟!

فكلما ذكرت الملك فاذكر الشريعة، وإلا فأنت لم تفهم معنى الملك. فهل أنت تتحاكم في الشجار والنزاع بينك وبين امرأتك مثلًا إلى شرع الملك أم إلى شرع آخر؟! هل تتحاكم في مشاكل المساكن والشقق إلى شرع الملك أم إلى شرع من؟! هل تتحاكم إلى شرع الملك أم إلى المملوكين؟!

إذًا فلا ملك غيره، فهو (الملك الحق)، أما ملوك الدنيا فهم ملوك ممتحنون، امتحنوا بالجاه والرئاسة، امتحنوا بهذا السلطان ومحاسبُون عليه.

أسباب تنوع صيغ الاستفتاح:

لتنوع أنت وتنتقل من صيغة إلى أخرى، فاليوم مثلًا صليت بصيغة وغدًا بصيغة أخرى، وبعد شهرين بصيغة ثالثة وهكذا، وهي اثنا عشر صيغة من أجل أن تنوع في الصيغ ولا تثبت على صيغة واحدة؛ لأن الرتابة وإلف الكلمات تضعف قلبك عن تأثير معانيها فيه، ولذلك من رحمة الرسول ﷺ بالمسلمين التغير في الصيغ؛ فكلما وجدت أن هذه

الصيغة صارت مألوفة عندك، فعليك أن تنتقل إلى صيغةٍ أخرى وهكذا.

فأنت تقول: (أنا بك وإليك) يعني أحاول الصعود مرات ومرات وأنت المعين يا رب. فعليك بالعلم والإصرار والمثابرة؛ ففضل الله ليس محجورًا على أحد، ولكن بالاجتهاد وبذل الجهد في الفهم وإحضار القلب.

اللهم أنت الملك: بالألف واللام، وهى للاستغراق والعهد؛ ويستدل بهذا على أنه لا ملك آخر، وكل الملوك الآخرين هم ملوك ممتحنون، أما الملك الذي ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣] فهو ملك واحد. وهو من تناجيه الآن في دعائك وتقول له: (اللهم أنت الملك)، ثم تقف عندها وتكررها، وليس بالكلام بل بالمعاني التي ذكرتها آنفًا، وذلك بأنك تُثني عليه فهو الملك، وأنت تطلب المُلك منه فتقول له هب لي ملكًا، ولكن لتستعين به على عبادة الملك، وعبادة الله باسمه الملك أن تدعو الله بجميع أسمائه. فقد قلنا إن الملك يستلزم الشريعة والأحكام والتحاكم، وقد شرحنا من قبل كلمة (اللهم) ومعناها؛ يعني يا الله يا من لك كل الأسماء الحسنى، وصفات الكمال، ونعوت الجلال والأفعال المشرفة، لأن الميم في اللغة العربية علمٌ على الجمع؛ مثل: (هو) في الجمع (هُم)، (أنت): في الجمع (أنتم).

وإضافة الشيء إلى بعضه ضَمٌّ، أو لَمٌّ، وأمثلة كثيرة، وابن القيم له بحث طويل فعودوا إلى «تفسيره» في سورة الأعراف وسورة آل عمران في شرحه لكلمة (اللهم) فقد قال فيها قولًا جميلًا بليغًا، فأنت بهذه الكلمة تثني على الله وتقول: يا الله، فهي ثناء، ولكن (اللهم) كأنك تشرح وتقول يا الله يا من لك جميع الأسماء الحسنى، وصفات الكمال

ونعوت الجلال.

ولكن ما معنى (الله)؟

قد كنت أظنه علمًا فحسب بلا معنى؛ لأنه كما في قواميس اللغة الإنجليزية (Allah)، ولكن اقتنعتُ بما ذكره ابن القيم[(١)] من «سورة الأنعام» في أوائلها في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٣]، وقد فسرها البعض بتكلف كما هو مذكور في «تفسير ابن كثير»[(٢)]، وابن القيم هو الذي ذكر ذلك، فقالوا: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: الآية ٣]، ثم تقف، وتبدأ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٣]، فهل الله ليس في الأرض؟ فهو يفعل ذلك ليثبت علو الله سبحانه وتعالى.

لكن الآية فسرها ابن القيم وابن تيمية[(٣)] أن (الله) مشتقة من إلاهية الله (أي مألوه في السماوات والأرض).

فـ«ربّ الناس» تمامها ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [النَّاس: الآية ٢]، وهذه تمامها ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النَّاس: الآية ٣]. والإله هو المألوه والذي يستحق أن يُعبد لما له من الصفات.

وبعد ذلك تقول: «**أنت الملك**» فلا ملك غيره، وبعدها: «**لا إله إلا أنت**» وهو نفس الذي في سورة الناس وفي آيات كثيرة جدًّا من كتاب الله؛ فالذي يَملك هو الذي يُعبد، ومنتهى السخرية والتهكم والتحقير

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١١٦).

(٢) (٣/ ٢٤٠).

(٣) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٢٣).

والاستصغار مِن شأن مَن عَبَدَ مَن لا يملك شيئًا؛ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ﴾ [النحل: الآية ٧٣] إذًا فالذي ليس له مُلك لا يُعبد، ولذلك «اللهم أنت الملك» يأتي بعدها: «لا إله إلا أنت».

الفرق بين التسبيح والتسبيح بالحمد:

ثم يقول: «**سبحانك وبحمدك**» فما معناها؟

«سبحانك»: يعني من غير الممكن أن يصدر من الله غلط أو عيب، ولا أن يكون له ولد؛ وهذا مستحيل لأن الولد فقر، فالإنسان في حاجة إلى ولد، لأنه فقير إلى الولد، فالولد فقر، لكن الله هو الغني - (إثبات الكمالات) - إذًا تنزه الله عن هذا الذي قالوه، ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: الآية ٦٨]. (سبحانه هو الغني) تنزيه مع إثبات الكمالات.

والذي نريده ليس مجرد سلب النقص، وإنما إثبات الكمال المقابل، فحين تسبح الله عن اتخاذ الولد، فهو بُعد لا نهائي ولا يتوقف بين الله وبين اتخاذ الولد، إنما المعنى في النهاية ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ [يونس: الآية ٦٨]، إذًا أثبتَّ الكمال في غنى الله لما قلت: (سبحانه) وأثبتَّ التسبيح أيضًا لما قلت: (هو الغني) فلا غَنِيَّ غيره، وهذا هو معنى (سبحانك وبحمدك).

وفي النهاية: التسبيح إثبات التعظيم لله، ويقتضي التعظيم لله سبحانه وتعالى وعز وجل، وفي مقابله المحامد كلها، وهذا الذي نقوله وهو: كل شيء يخلقه الله فهو مليء بالحمد، ولا يمكن أن يكون فيه عيب؛ ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: الآية ٣]، فهل رأيت نقصًا في خلق الله تعالى؟! ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: الآية ٤]؛ يعني ارجع البصر مرة بعد

مرة، وليس معناها مرتين اثنتين! بل مرات كثيرة بلا نهاية؛ إلى أن تلقى الله، فأنت حين تقول: (سبحانك وبحمدك) فقد أثبتَّ كل شيء، كما لو قلت: (تباركت وتعاليت).

والإثبات كله هو الحمد، ولذلك فإن الحمد هو (أحق ما قال العبد).

ولذلك لما سئل رسول الله أي الكلام أفضل؟ بعد القرآن، فقال ﷺ: «**ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده**»(١). والباء في (وبحمده) للمصاحبة، ومعنى باء المصاحبة: أن تنزه ربك باستعمال واصطحاب المحامد، فهو الحكيم، وهو العليم.

الصيغة الرابعة

ويزيد في الصيغة الرابعة: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق وأحسن الأعمال، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وقني سيئ الأخلاق والأعمال، لا يقي سيئها إلا أنت**»(٢).

فهذه هي الصيغة الرابعة، وهو دعاء سهل.

فما معنى الخُلق؟

الخُلق: هو الوصف الذي صار خُلقًا للإنسان لا وصفًا له فحسب. فهذه هي الأخلاق، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم: الآية ٤] يعني هذه هي طبيعته، وهو ديدنه، والعظمة في خلق النبي ﷺ أنها هي القرآن. فمسألة الأخلاق معناها أن الصفات تكون ثابتة عندي.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣١).

(٢) أخرجه النسائي (٨٩٦)، والدارقطني (١١٣٩).

فأنت تسأل الله بهذا الدعاء أن يخلصك من الغضب وسيئ الأخلاق عند مواطن الاستفزاز، ومواطن التسرع والعجلة.

وهذا ليس مجرد ادعاء؛ فتجد الرجل يقول لك: أنا رجل ثابت وقل ما تريد؛ ولكن لا يقول هذا إلا كلامًا فهو إذا قيل له شيء لا يعجبه فسيفعل ويفعل؛ لأن به خلقًا سيئًا، فمن الذي يصرف عنه هذا الخلق السيئ إلا الله، وأنت عليك أن تبكي وتتضرع إلى الله ﷻ أن يهديك لأحسن الأخلاق ويصرف عنك سيئها، والكلام هنا عن حظوظ النفس، وليس في حقوق الله، ففي حقوق الله لا تهاون ولا تفاهم ولا كلام، فالغضب في حق الله واجب.

فكل إنسان يعتقد أن عنده القوة وعنده الحول - أي أن يتحول من شيء إلى شيء بنفسه وبقوته - فهو مغرور.

ولذلك تقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وهي من أعظم الأذكار ولذلك ابن تيمية يقول: «بها تحمل الأثقال وتكابد الأهوال وينال رفيع الأحوال»[(١)]، وضرب مثالًا عجيبًا عند شرحه لكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله)، فقال إن حملة العرش لم يطيقوا حمل العرش، فما الذي أعلمهم الله به وما كان أمر الله لهم؟

أمرهم أن يقولوا: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، فأطاقوا حمل العرش، فعلى الإنسان أن يعترف بأنه فقير عاجز.

فهكذا كل الصيغ عبارة عن دعاء من القلب، فقبل أن تقرأ الفاتحة تقول: (اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت)، تقولها

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٣٧).

وأنت تبكي لأنك داخل في الصلاة وأنت مفلس.

الصيغة الخامسة

وهي الصيغة التي يرجحها شيخ الإسلام:

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(١).

«سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك»؛ قد فهمنا معناها من قبل، وشرحنا التبارك على «تباركت وتعاليت»، أما هنا: (تبارك اسمك)، كما جاء في سورة الرحمن: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرَّحمن: الآية ٧٨].

فما معنى: (وتبارك اسمك)؟

انتبه... أنت تقول: (باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) فإذا كان ذكر اسم الله ﷻ لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، فكيف بالمسمى! فإذا كان هذا هو شأن الاسم فكيف بمسماه؟! كما يقول ابن القيم.

(تبارك اسمك) ومعناها: يعنى ما ذُكر اسمك على شيء قليل إلا

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي (٨٩٩)، وابن ماجه (٨٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
وأخرجه أبو داود (٧٧٦)، والترمذي (٢٤٣)، وابن ماجه (٨٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

كثره، ولا على خيرٍ إلا أنماه وزاده، ولا على شرٍّ إلا وأذهبه، ولا على شيطانٍ إلا ردَّه خاسئًا مدحورًا، ولا على ضِيقٍ إلا وسَّعه.

وانظر إلى معنى التبارك هنا وإضافة التبارك إلى اسم الله، فكيف بإضافة التبارك إلى المسمى؛ إلى الله ﷻ، ولا يضاف التبارك إلى النبي ﷺ، ولا إلى إبراهيم عليه السلام، ولا إلى عيسى عليه السلام، ولا إلى جبريل عليه السلام، ولا إلى خلق من خلق الله، وإنما هو لله ولأسماء الله.

وكل هذه معانٍ ينبغي أن يعايشها القلب، فهو ليس مجرد كلام، فلو أخذت اسمًا واحدًا لله سبحانه وتعالى وليكن مثلًا اسمًا يُنبئنا عن صفة واحدة مثل السمع: (السميع)، فتبارك اسمك هذا؛ فلا يُذكر على قليل إلا كثره، ولا على خير إلا زاده وأنماه، ولا على ضيق إلا وسعه، ولا على شيطان إلا رده خاسئًا مدحورًا؛ فالبركة كلها فيه، وهذا يُذكرك بذكر اسم الله تعالى على كل شيء وأنت تستعد للفاتحة وتقول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقبل أن تقولها تقول (تبارك اسمك).

وهذه الصيغة هي أهم صيغة، وهي التي يرجحها شيخ الإسلام ابن تيمية(١)، وقال إنها ذكرٌ كامل لله فهي تغنيني عن المسألة، لأن الذي شغله ذكر الله عن مسألته أعطاه الله أفضل ما يعطي السائلين، وقد عرفنا معنى (سبحانك): السلب كله يؤدي إلى التعظيم كله، (اللهم): جماع الأسماء والصفات، (وبحمدك): يعني الأسماء كلها توقيفية فلا تأتي بشيء من عندك، وأنت تتوقف عندها، وتصطحب التنزيه والتبعيد الذي لا يتوقف أسماء الله ﷻ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٣٩٤).

(سبحانك) كلها أسماء وصفات، (اللهم) كلها أسماء وصفات (بحمدك)، كلها أسماء وصفات، (وتبارك اسمك) كذلك، فانظر إلى ائتلاف المعاني، فالرسول ﷺ يعلمنا ذلك.

(سبحانك اللهم وبحمدك) هي للموحدين في الجنة، فالموحد سيتنفس في الجنة بالتسبيح؛ فهو في الجنة لن يترك طعامه ويسبح لأنه لا تكليف في الجنة ولكن عبادة لله، ولكن كيف تكون هذه العبادة؟ تكون العبادة في الجنة مثل النفس، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس في الدنيا، ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ بالتمني يعني لو تمنى شيئًا وجده أمامه، ولكنه يستمتع أكثر من ذلك بذكر الله في الجنة ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ﴾ [يونس: الآية ١٠] الحمد.. يعنى كل الحمد، كل الكمال، كل العظمة، كل الكرم، كل المجد، وكل المحامد الجديدة التي لا نعرفها والتي سيتعلمها النبي ﷺ يوم القيامة، وهذا في الجنة.

وهذه الصيغة قال فيها رسول الله ﷺ: «**إن أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»(١).

وسئل أي الكلام أفضل فقال: «**سبحان الله وبحمده**»(٢)، وفي حديث آخر قال: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(٣).

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣١).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٧).

وفي حديث آخر وهو صحيح، صححه الشيخ الألباني في كتابه «صفة صلاة النبي»[(١)]: ما أفضل الكلام يا رسول الله؟ قال: «**سبحانك اللهم وبحمدك، و تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»[(٢)] فأي هذه الصيغ أفضل؟ الثلاث؛ ولكن هذه تؤثر على قلوب الناس، والصيغة الثانية، لا تؤثر على آخرين لأنهم لا ينفع معهم الإجمال، لأنه غير فاهم للإجمال أصلًا فهو يريد التفصيل، فتقول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، وتجد آخر يريد أن يفهم أكثر فتقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك».

وحين تقول: (لا إله غيرك) فمعناها: لا مألوه غيرك، ومعناها: أنه لا يستحق العبادة غيرك، لماذا؟ لأنه لا أحد به هذه الصفات كلها إلا الله. فالمسألة كلها أسماء وصفات، والصلاة كلها أسماء وصفات.

الصلاة سبب للخروج من الفتن:

تأمل حين يصحو النبي - عليه الصلاة والسلام - فزعًا، ويقول - والحديث في «الصحيحين»: «**ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتُح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا...**»[(٣)] وفي كتاب الفتن من «صحيح البخاري» يقول: «**ماذا أنزل الله من الخزائن، ماذا أنزل من الفتن، من يوقظ صواحب الحجرات كي يصلين**»[(٤)]، يعني حين يصحو ويستيقظ

---

(١) (١/٢٥٨).

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٩٨)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (٧٠٦٩).

النبي ﷺ فزعًا من نومه، ثم يذكر شيئًا من الفتنة يقول: من يوقظ صواحب الحجرات، ومن هن؟! هن زوجات النبي ﷺ ولماذا يوقظهن بالليل؟ كي يصلين، ولماذا؟ من الفتن التي ستأتي وتتابع، وحُوت الشهوات الذي ابتلع الناس، فالفتن كأمواج البحر ولكنك تجد من يقول: أي فتن هذه؟ وأين هذه الأمواج؟ أمة محمد بخير، لماذا الصورة عندك سوداء؟! فهو يقول هذا لأن حوت الشهوات قد ابتلعه واستغرقه وأخذ كل جهده وكل تفكيره وكل وقته، وكل ما يملك، فلم يعد عنده وقت ليفكر في الدين، والفتن التي تُخرج الدين من الناس أو تكاد تخرجهم لا يُشْعَرُ بها كفتنة الأهل والمال، والولد والجاه، فمن ابتلعه حوت الشهوات فإنه يريد الحظوظ فحسب؛ فهو كمن يقول حرامٌ أكلناه حلالٌ أكلناه ولا يعنيه، فهو في بطن الحوت - حوت الشهوات - لا يرى شيئًا، أما من يرى فهو الذي يرى الفتن كأمواج البحر كسيدنا عمر، فتجد هنا أن الرسول ﷺ يقول: «**من يوقظ صواحب الحجرات كي يصلين**»، ولكنهن كن يصلين الصلاة الخاشعة التي يجب علينا أن نصلي مثلها.

معنى (تعالى جدُّك):

هذه الصيغة آخرها: (وتعالى جَدُّك) فما معناها؟ معناها سهل وفهمها سهل، نذكر قول الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: الآية ٣]؛ فما معنى هذه الآية؟

المعنى: أولًا: الجَد يعني الحظوظ، ذو الجد يعني ذو الحظ؛ ذو الجاه، ذو الوجاهة، ذو السلطة، ذو الحظوظ الدنيوية ولذلك (ولا ينفع ذا الجد منك الجد).

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: الآية ٣] وتعالى: يعنى علا عن كذا، يعني ارتفع شأن ربنا عن أن يتخذ ولدًا، لأنه ارتفع غناه، وتعالى غناه عن أن يكون محتاجًا للولد، وهذا معنى ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: الآية ٣]، وهذه هي عبارة الجن، فهم قالوا: كيف يتخذ الله تعالى ولدًا؟! وهل الله تعالى فقير إلى الولد ومحتاج مثل خلقه إلى الولد؟! حاشا لله أن يكون له ولد، فالله أجل وأعظم من هذا. علا عن هذا الحسبان، وعن قول هؤلاء المجرمين، فقد قطعت كل الطرق على أي نسبة للشر لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

إذًا معنى (تعالى جدك): أي ارتفعت عظمتك فوق كل عظمة، وقهر سلطانك كل سلطان، وتعالى شأنك، وهذا أيضًا كلام ابن القيم، أو عبارته، في كتاب الصلاة وهو يشرح (وتعالى جدك)[(١)].

وفى النهاية يقول (ولا إله غيرك) ومعناها: أي لا مألوه غيرك؛ أي: لا يستحق العبادة غيرك لما لك من صفاتٍ تُحب بها بغاية الحب، وبما لك من صفاتٍ يُخضع لك بها غاية الذل.

فليس هناك من له صفات يحب بها غاية الحب كما أنه ليس هناك من له صفات يخاف منه ويخضع له بها غاية الخضوع والذل إلا الله ﷻ.

فكل هذه الأذكار اسمها توحيد أسماء وصفات. وسيترتب عليها بعد ذلك (لا إله إلا الله).

---

(١) «الصلاة وأحكام تاركها» (ص١٤٢) قال: وتعالى جده أي: ارتفعت عظمته وجلت فوق كل عظمة، وعلا شأنه على كل شأن وقهر سلطانه على كل سلطان. فتعالى جده أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته أو في آلهيته أو في أفعاله أو في صفاته كما قال مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: الآية ٣].

الصيغة السادسة

مثلها، ويزيد في صلاة الليل: «**لا إله إلا الله**» ثلاثًا، و«**الله أكبر كبيرًا**» ثلاثًا[(١)].

ما الجديد في هذه الصيغة؟ تكرار (لا إله إلا الله) ثلاثًا. ولماذا تكرارها؟

أولًا: لأن هذا هو الثناء. ألم نذكر من قبل أن الثناء هو تكرار المحامد.

ثانيًا: لأن قلبك في الأولى ما زال به بعض الجلخ والران والصدأ وموانع الهداية، أو نوع رجس بسبب الذنوب ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: الآية ٧١]، فحين تقول: (لا إله غيرك) أول مرة وتتفكر فيها فستتذكر مثلًا عشرة في المائة من صفات الله أو خمسة في المائة من صفات الله التي تعرفها، فأنت طبعًا لا تحصي ثناءً على الله، وفي المرة الثانية تتذكر أيضًا عشرة في المائة، فتجد قلبك قد أخبَتَ أكثر لله، والمرة الثالثة (ولا إله غيرك) فتجد نفسك تقولها وقد انفعلت بها؟ وهذا هو المطلوب، تكرر (لا إله إلا الله) فتقولها ثلاث مرات ثم تقول:

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبر، ثم يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»، **ثم يقول**: «**لا إله إلا الله**» ثلاثًا، ثم يقول: «**الله أكبر كبيرًا**» ثلاثًا، «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه، ونفخه، ونفثه**»، ثم يقرأ. قال الترمذي: وقد تكلم في إسناد حديث أبي سعيد، وقال أحمد: لا يصح هذا الحديث.

(الله أكبر كبيرًا).

ما معنى «أكبر كبيرًا»؟ يعني لو كنت خائفًا من أن يؤذيك أحد هذه الليلة، فمن أكبر منه؟! الله أكبر منه. وإن حَكَمَ عليك بشيء فليس هو الذي حكم عليك لأنه صفر وأقل من الصفر فمن الذي أذن بذلك عدلًا منه ورحمة؟ الذي أذن بذلك هو الله سبحانه وتعالى وعز وجل، عدلًا منه ورحمة، وهل أنت أفضل من النبي؟!؛ إذ ضُرب على وجهه حتى غُشي عليه في مكة، فهذا لم يكن انتقامًا من النبي - عليه الصلاة والسلام - ولكن كان رفعًا للدرجات. إنما أنت تقول هذا تكفير للسيئات وأنا أيضًا لو صبرت على تكفير السيئات سآخذ أجرًا ثانيًا وثالثًا، وأيضًا من الممكن لهذه الدرجة أن تتابع وراءها الدرجات ومن غير هذه الدرجة لا يوجد تتابع لأنني كنت عند درجة ستة من عشرة، إنما لما ابتليت بكذا، وتوجهت إلى الله ﷻ وصبرت فانفتح الطريق وتعدى هذه الدرجة لأن هذا الابتلاء أخذ عليه أجرًا فصعد به للسابعة والسابعة مهدت له للثامنة، والثامنة مهدت له للتاسعة وفي الطريق إلى جزء من العاشرة، والعاشرة التي هي للنبي ﷺ وذلك على وجه التمثيل.

الصيغة السابعة

«الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلًا»(١).

لماذا بكرة وأصيلًا؟ هذه في القرآن كله كثيرًا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ...﴾ [ق: الآية ٣٩]، لماذا؟

لأن حمد النعم يكون ظاهرًا جدًّا، وكذلك حمد الثناء والعبادة؛ الحمد المطلق، لماذا؟ انظر مثلًا إلى الشمس فهي إن لم تشرق علينا فلن نجد ماءً باردًا نَقِيًّا نشربه، ولن يوجد أكسجين، ولا نباتات ولا شغل ولا كهرباء ستتولد؛ لأن النظام سيختلف والسنن كذلك ستختلف، وسيكون تعذيبًا فحسب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: الآية ٦٢] فهذا معناه أن حمد الثناء وحمد الشكر واضح هنا جدًّا.

فالله تعالى يقول: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: الآية ٩] يعنى أشد ما يكون الوضوح في الصباح وفي المساء ومسألة الليل والنهار خلفة واختلاف الليل والنهار، ما تعاقب الليل والنهار، فسبحان الله بكرةً وأصيلا.

فننظر من قال هذا الكلام؟ الذي قاله هو واحد من الأصحاب استفتح به فقال الرسول ﷺ: **«عجبت لها؛ فُتحت لها أبواب السماء»**.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠١) عن ابن عمر، قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ؛ إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا، فقال رسول الله ﷺ: **«من القائل كلمة كذا وكذا؟»** قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، قال: **«عجبت لها، فتحت لها أبواب السماء»** قال ابن عمر: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك.

فمن الذي أنشأ هذا الكلام؟ الذي أنشأه صحابي، ولماذا الملائكة حاولت أخذها ورفعها لله؟

فما الجديد الذي أتى به هذا الصحابي في هذه الصيغة؟ ونحن عندنا صيغ النبي ﷺ وهي أعظم وأعظم؟! من العلم أن هذه من صيغ النبي ﷺ أيضًا، فحين يقول الصحابي ذلك، والملائكة تبتدرها، والنبي ﷺ يُخبرنا بذلك، إذًا فقد أقرَّ هذه الصيغة.

فلماذا هذه العظمة كلها؟ لوضوح الحمد، فمن كان على قلبه حجب فإن (بكرةً وأصيلًا) تكفيه، وليس هذا هو السبب، إنما السبب أن الإنسان فعلًا حين يدعو بها تجده يقول: اللهم، اللهم، اللهم، ويقول: آمين، آمين، آمين، بلا حضور قلب فهذا دعاء نوم، أما إذا كان مضطرًّا نزل البحر وسيغرق فيه لأنه لا يجيد السباحة فلا يقول آمين هكذا بصوت ضعيف وهو نائم يتثاءب، إنما يقول: يا رب، بصوت كله خشوع وخضوع وبكاء وتضرع، وكأنه يقول أنا عبدك الفقير الذي ليس عنده من شيء، وأين أذهب من غيرك، فأنت الكريم، وستجده ينشئ كلامًا نابعًا من القلب.

وهذا هو الذي يقول الله تعالى عنه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: الآية ٢٢].

ولذلك أقول لك قل ما تريده في الدعاء حتى تتعلم صيغ النبي - عليه الصلاة والسلام - وستكون فيها أكثر خشوعًا من صيغ النبي - عليه الصلاة والسلام - وهذا من جهلك، وهذا أفضل من أن تقول صيغ النبي ولست خاشعًا فيها، فالإنسان حين يقول كلامًا من عنده فإنه يكون كلامًا

بتضرع وخارجًا من القلب لأنك محتاج إليه، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩] فانظر إلى أي شخص مضطر ماذا يقول في دعائه،

وقد سمعت عن امرأة مؤمنة، ونسأل الله ﷻ أن يثبتها وأن يصبرها، وأن يأجرها خير الأجر، فقد غرق ابنها عمره سنتان، وكانت تصلي المغرب بجوار الماء، فرأته وإخوته يخرجونه ميتًا من الماء، فتخيل امرأة تفاجأ بهذا المنظر أمامها، فصرخت قائلة: يا مُغيث، يا مغيث، ولم تزد على هذا، فأغاثها الله ﷻ، بالطبع ليس أنه أحياه مرة أخرى ولكن بأن ثبتها وصبرها، وإن كانت الصيغة هنا في ذلك الموقف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥٦] ولكن الذي يخرج من القلب، لأننا في مستوى الصفر ونريد أن نرتفع عن الصفر، فقل ما تريد في الدعاء، ولا تتوقف كذلك عن دراسة النصوص العظيمة التي أخبرنا بها الرسول ﷺ وعبد ربه بها ودعا ربه بها.

مراتب الناس في الصلاة

أيها الإخوة الأعزاء:

قبل أن نسترسل في شرح الأذكار التي وردت في افتتاح الصلاة، وأيضًا التي وردت في الركوع وفي الرفع من الركوع، وجميع أذكار الصلاة نذكر مراتب الناس في الصلاة، كما ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم «الوابل الصيب من الكلم الطيب»[1] يقول:

مراتب الناس في الصلاة من كلام ابن القيم:

◆ والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

«**أحدها**: مرتبة الظالم لنفسه المفرط: وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها».

وهذا النوع هو صلاة العامة: مرتبة الظالم لنفسه المفرط.

«**الثاني**: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار».

وهذه المرتبة؛ هي نحن أو أكثرنا إلا ما رحم ربي، فنذهب مع

(١) (ص٢٣).

الوساوس والأفكار؛ طبعًا كُلنا يريد أن يتخلص من المرتبة الثانية لأنها خطر، كلنا تقريبًا ذهب مع الوساوس والأفكار إلا ما رحم الله، وتتفاوت دركات الذهاب مع الوساوس والأفكار، ولكن هذا الموضوع من خلال قول النبي ﷺ: «**لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطيَ لما منعت**»[١] إذا كان الله قد خذلنا فمنعنا التوفيق؛ فكيف نخشع؟ على أي حال، هذه هي المرتبة الثانية، من أجل ذلك ذكرتها؛ لأني أراها مرتبتنا جميعًا؛ إلا ما رحم الله سبحانه وتعالى وعز وجل وهم قليل، وهذا من استقراء الواقع.

«**الثالث**: من حافظ على حدودها وأركانها» مثل الثاني ولكنه: «وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار». يعني مجاهدة؛ الشيطانُ يريد أن يستدرجه إلى المال، وإلى الوظيفة، وإلى زميله ماذا قال له، إلى امرأته ماذا قالت له، إلى مشاكل الأولاد، إلى أي شيء حاصل في الرغبة والرهبة وفروعهما، ثم الشيطان يصحبه ويستدرجه، وبالتالي فالنوع الثالث: يجاهد نفسه في دفع وساوس الشيطان «فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد».

فمثلًا: إنسان جاء إلى الصلاة، لكنه قادم من شجار؛ فهو مشغول جدًّا به، وأعصابه متوترة، وداخل الصلاة؛ هذه المشاجرة؛ تستحوذ على أعصابه وعلى أفكاره؛ كيف يرد الصاع صاعين، كيف وكيف وكيف.

والشيطان يقول له: اذكر ماذا قال لك؟ اذكر لقد قال لك كذا؟ اذكر قصده؟ اذكر نيته؟ اذكر كذا، اذكر عزوتك اذكر عزوته؟ ما الذي تفعله بعد الصلاة؟ وهكذا يقضي الصلاة كلها في ذلك، لكنه في جهاد يريد أن

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

يخشع في الصلاة، فهو في صلاة وجهاد، هذه هي المرتبة الثالثة؛ وهي مرتبة بعضنا ولا أقول: مرتبة جميعنا، إنما جميعنا بوجه عام إلا ما رحم الله في المرتبة الثانية: في الوساوس والأفكار، من أجل ذلك شرعنا في هذه الدروس: دروس الصلاة، إذًا الثالث هذا: في صلاة وجهاد.

«**الرابع**: من إذا قام إلى الصلاة: أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها»؛ يعني قلبه مستغرق؛ يعمل على استغراق المراعاة والحقوق، «لئلا يضيع شيئًا منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي» أي إلى إقامة الصلاة: وهو الإتيان بها كاملةً، كما شرحناها سابقًا، «وإكمالها واتمامها، قد استغرق قلب شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها».

هذا هو القسم الرابع وهذا قسم قد وصل إلى درجة عالية؛ لكنه ليس الأمثل.

«**الخامس**»: وهو الأمثل طبعًا «من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك» أي كالرابع «ولكن مع هذا قد أخذ قلبه، ووضعه بين يدي ربه ﷻ؛ ناظرًا بقلبه إليه»، وهذه درجة الإحسان: فإن لم تكن تراه فهو يراك «ناظرًا بقلبه إليه مراقبًا له ممتلئًا من محبته وعظمته».

انظر إلى القلب حين يمتلئ بمحبة الله؛ كيف يتأتى ذلك؟ «كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه»، هناك من ينزعج جدًّا من كلمة حجب، وهذه مع النوع الخامس فحسب، «فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قريرُ العين به».

«فالقسم الأول: مُعاقبٌ» وهو الذي يصلي؛ لكنها صلاة العامة التي نراها في زماننا هذا.

«والثاني: مُحاسبٌ» وهو أكثرنا؛ نعوذ بالله تعالى أن يعدل الله فينا، بل نسأل الله ﷻ أن يعاملنا برحمته وبفضله لا بعدله؛ إذ لو عاملنا بعدله لهلكنا.

«والثالث: مُكفرٌ عنه»؛ لأنه في صلاة وفي جهاد.

«والرابع: مُثابٌ»؛ قد نال الأجر، لم يؤد الفريضة فحسب، إنما أدى الفريضة ونال أجرًا فهو مُثاب.

«والخامس: مُقربٌ؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: الآية ١١]؛ مقربٌ من ربه لأن له نصيبًا مِنْ مَنْ جُعِلت قرة عينه في الصلاة، فمن قَرَّتْ عينُهُ بصلاتهِ في الدنيا؛ قَرَّتْ عينُه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة، وقرت عينه أيضًا به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله؛ قرت به كل عينٍ، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات».

فهذه الخمس مراتب كانت خاصة بالمصلين أي أقسام الناس في الصلاة، أما الآن في القلوب: هي تشمل كل القلوب؛ الكافر منها والمؤمن.

أنواع القلوب:

«**والقلوب ثلاثة: القلب الأول**: قلب خال من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلبٌ قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الهوية»، وهذا حال أكثرنا، «فللشيطان هنالك إقبال وإدبار ومجالات»، وهو نوع المجاهد، «بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان»، وهذا بالنسبة للمحسنين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤] فلا تعتقد أني أفتري، فالقلب الثالث قلبٌ محشو بالإيمان؛ اللهم اجعلنا منهم؛ بفضل هذه الدروس كوسيلة لله تعالى.

«قلب محشو بالإيمان قد استناره بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق، ولذلك الإشراق: إيقادٌ؛ لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التي حرست بالنجوم؛ فلو دنا منها الشيطان يتخطاها؛ رُجم فاحترق، وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان وفيه أنوارها» لهذا السبب هو عرشٌ للمثل الأعلى لله ﷻ، «فهو حقيق أن يحرس»، أي قلب المؤمن المحشو بالإيمان، «ويحفظ من كيد العدو فلا ينال منه شيء إلا خَطْفَةً».

[نسترسل مع باقي الأذكار التي وصلنا منها إلي «الصيغة السابعة» في صيغ الاستفتاح].

الصيغة الثامنة

«**الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه**» استفتح به رجل آخر فقال ﷺ: «**لقد رأيت اثني عشر ملكًا يبتدرونها أيهم يرفعها**»(١).

هذه الصيغة أيضًا؛ قالها صحابيٌّ، ولم يقلها الرسول ﷺ بل أقرها بعد ذلك، وعظَّمها ورفع شأنها؛ ليَذْكُرَ بها المؤمنون ربَّهم إلى يوم القيامة.

فالصَّحابي يقول: (الحمدُ لِلَّه) وقد فهمنا معنى الحمد وأنه يشمل النوعين: حمد الثناء والولاء والحمد المطلق، وأنه يستحيل أن يكون هناك خطأ أبدًا، ولكنه يقول حمدًا كبيرًا أم كثيرًا؟

(حمدًا كثيرًا)، لأنه يفهم أن الحمد: صفة كمال، فهذا حمدٌ لله، وتليه الرحمة وهذا حمدٌ ثانٍ لله، والجبروت صار حمدًا ثالثًا لله، والسلام حمدٌ رابعٌ لله، وهكذا في باقي صفات الله ﷻ،

فزاد هنا فقال: (الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا) فالله ﷻ هو الطيب، سنشرح معنى (الطيب) كما شرحها ابن القيم في: شرحه للتشهد: «التحيات لله والصلوات والطيبات» سيأتي وقت (التشهد) إن شاء الله.

فالله ﷻ هو: الطَّيب، كما جاء في الحديث: «**إنَّ الله تعالى طيب لا**

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠٠) عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ فَدَخَلَ الصَّفَّ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفَسُ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاتَهُ قَالَ: «**أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟**» فَأَرَمَّ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «**أَيُّكُمُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا**» فَقَالَ رَجُلٌ: جِئْتُ وَقَدْ حَفَزَنِي النَّفَسُ فَقُلْتُهَا، فَقَالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا، أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا**».

يقبل إلا طيبًا»[١]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠]، أي: الكلم الحق مائة بالمائة، والذي قيل مع حب كاملٍ وتعظيم كاملٍ؛ وهذا معنى (حمدًا طيبًا)؛ أي أنه خرج مني بمحبةٍ كاملةٍ وبتعظيمٍ كاملٍ عن علم، وأعني ما أقول، حمدٌ يصل لله ﷻ.

كأنه يريد أن يقول (حمدًا كثيرًا) يا رب من أعماق قلبي، مع تعظيمي لك، وحبي لك، فهو ليس حمدًا لصفة واحدة أو لاثنتين أو لثلاثة؛ إنما حمدًا كثيرًا لا نحصي ثناءً عليك، يخرج من أعماق قلبي طيبًا ومَنَّ الله عليه أي على هذه الصفة بأن بارك فيه (طيبًا مباركًا فيه) أليس كذلك؟ من الذي يبارك؟

الذي تبارك هو الذي يبارك، مثل الرحمن والرحيم؛ فالرحمن: صفة ذاتٍ، و الرحيم: صفة فعلٍ، كذلك تَباركَ: صفة ذاتٍ، وبارك والبركة: صفة فعلٍ، فهو يقول: (حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا) من الذي يبارك؟ الله سبحانه وتعالى، (وبارك على محمد وعلى آل محمد)[٢] إذًا محمدٌ فقيرٌ إلى طلبك البركة من الله عليه؟

وكذا عيسى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: الآية ٣١]، وهكذا، يعني أن البركة لا تكون إلا من الله.

فيقول: (كثيرًا طيبًا)، لأنه مقبول؛ إذ هو من أعماق قلبك وأنت صادقٌ فيه. (مباركًا فيه). استفتح به رجل آخر؛ فقال ﷺ: «**لقد رأيت اثني**

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٩٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم (٤٠٥) عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

عشر مَلكًا يبتدرونها أيهم يرفعها».

اثنا عشر ملكًا فرحون بها، يريد كل واحد منهم أن يرفعها، لماذا؟

أنا أريدك أن تعايش هذه الصيغ كما كان يعايشها السلف الصالح، وبالله عليك أريدك أن تتخيل؛ لماذا أعجبت الملائكة بهذه الصيغة؟ ويبادر الأول ليرفعها، وتتخيل هذا الملك وهو خلق من نور، ويسبحون بحمد الله ويقدسون له، فاستمعوا لهذه الصيغة فأعجبتهم؛ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: الآية ٥] ألا تستغفر الملائكة للذين آمنوا؟

فالملك حين يسمع ذلك منك؛ ما معناها؟ معناها أنه فهم لكنه معجب بأنها خرجت من رجل فيصعد بها إلى الله، يريد أن يُفرِح بها الله ﷻ.

وهنا قد يتساءل أحدنا: هل يفرح ربنا بكلامنا؟ ألا يفرح بالتوبة؟

فصفة الفرح ثابتة لله ﷻ، والنبي ﷺ أثبتها لله، وأخبر أن الفرح يكون بتوبة عبده، وقد يفهم البعض أن التوبة من المعاصي؟

فهل تفهم معنى التوبة في قوله تعالى ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التوبة: الآية ١١٧]؟ الله تاب على النبي لأنه قد سرق أو زنى أو اقترف مصيبة لا سمح الله؟ وهل التوبة لا تكون إلا بالمصائب؟

التوبة تكون من الدرجات، فكونك من أصحاب المرتبة الثانية في الصلاة هذه كارثة، فلو جاز اللَّطم لكنَّا لطمنا على مرتبتنا الثانية هذه، بعد أن علمنا المراتب الخمس للصلاة، فتجب علينا التوبة لنرفع مرتبتنا، ونرتقي لدرجة أعلى، فهذه تسمى توبة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التوبة: الآية ١١٧] أي ترقي درجات؛ وهذا هو التقديس:

ارتفاع الدرجات، فالله يفرح بالتوبة، والإنسان حين يرتفع قدره عند الله ألا يربح عند الله أعظم الأرباح؟ إذًا فالله يفرح للعبد، وهل يأخذ الله شيئًا، أو يكسب شيئًا؟ حاشا لله سبحانه وتعالى وعز وجلَّ، إنما الله يفرح لعبده المؤمن، والله يحب المؤمنين.

فهذا العبد المؤمن بعد أن كانت درجته ستة من عشرة، صارت ثمانية من عشرة؛ فارتفع وستزداد الحور العين وسيزداد النعيم والغِنى عِظَمًا؛ فيفرح الله له سبحانه وتعالى وعز وجل؛ ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧] لأنك أنت من تكسب وتربح عليه أعظم الأرباح.

فحين سمع الملك قول المؤمن؛ ابتدرها اثنا عشر ملكًا؛ كل ملك يريد أن يرفعها أولًا لينال الفضل.

هذا الكلام لا يعبر عنه والله، إنما هو يستشعر فحسب؛ تخيل كيفية صعود الملك إلى الرحمن فوق عرشه ليوصلها له؟ كيف سيوصلها؟ - يعلم الله ذلك - أما أنت فتصور كيف ابتدرها الملك، وكيف أخذها كأنه اختطفها، وصعد ليوصلها أولًا قائلًا: أنا سأشْرُف بها، فكل ملك منهم يتنافسون ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٦]، ويريد أن يرفعها لله، والله ﷻ يفرح بذلك، هل تتصور الكلام وتستشعره؟ فمهما أطلنا في العبارة وأحسنَّا فيها فلن تؤدي المعنى أبدًا.

فالرسول ﷺ يخبرنا بما حدث من الملائكة.

قد يتعجب البعض ويستغرب قائلًا: وما الذي حدث لكل هذا؟

هل دفع الصحابي ألف جنيه أو مائة ألف؟

لأن الواحد منا لو رأى شخصًا قام بدفع مبلغ مائة ألف جنيه؛

لاستكثر المبلغ وتعاظمه قائلًا: يا الله! لو كنت أنا صاحب هذا المال؛ لقمت أنا بتوزيعهم، ولصرت رئيس البلدة يا الله! ويعظم المائة ألف جنيه كأنه خلق سماوات وأرضين جديدة.

لكن الحقيقة؛ أنه لا شيء مما ذكر؛ إنما هي: بضع كلمات قالها الصَّحابي؛ لكن لعلَّ الملائكة رأت نورًا رهيبًا خرج مع لسان الرجل، فهو ينشئ كلامًا منفعلًا به نابعًا من قلبه ليس بتقليد ولا محاكة لأحد، إنما منفعل به يستشعره؛ فالملائكة سمعت هذه الصيغة.

وقائلها كان صحابيًّا جليلًا يفهم و يعي ما يقول، فالصحابة قوم خُلقوا للنبي - عليه الصلاة والسلام - خلقهم الله له: لينصروه، ويعزروه، ويُساندوه، ويحملوا هذه الرسالة ليبلغوها للنَّاس، فهو يقولها منفعلًا بها يفهمها فخرجت منه هكذا، فكان من فضل الله على هذا الرجل أن يأخذ أجرها و أجر من قالها إلى يوم الدِّين.

«الحمدُ لِلَّهِ حمدًا كثيرًا»: قلنا أنه نابع من الحب والتعظيم، (طيبًا مباركًا فيه) يطلب من الله أن يبارك فيه، وبالفعل قد بارك الله فيه، انظر لكلمة: (مباركًا فيه) فعلًا قد حصل، وقد باركت فيه فِعلًا، وكأن الله يقول: قد فعلت قد فعلت، والكيفية: أنها صيغة تقال إلى يوم الدِّين وهذا الرجل يأخذ أجرها.

فالخلاصة: هي مجرد كلمات، حتى نعلم ما الذي تبتدره الملائكة، وكيف أن هذه الأذكار ليست بالشيء الهيِّن.

الصيغة التاسعة

«اللهم لك الحمد؛ أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت قَيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت مَلِكُ السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، (أنت ربنا، وإليك المصير)[1]؛ فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، (وما أنت أعلم به مني)[2]؛ أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، (أنت إلهي)، لا إله إلا أنت، (ولا حول ولا قوة إلا بك)[3]»[4].

---

(١) زيادة «**أنت ربنا وإليك المصير**»: أخرجها محمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص١١٣)، وأبو عوانة في «المستخرج» (٢٢٣٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٥٠ رقم ١١٠١٢).

(٢) زيادة «**وما أنت أعلم به مني**» أخرجها البخاري (٧٤٤٢).

(٣) زيادة «**ولا حول ولا قوة إلا بك**» هي عن عبد الكريم بن أبي المخارق، أشار إليها البخاري بعد الحديث (١١٢٠) ولم يقصد إخراجها، كما ذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٥). وقد أخرجها النسائي (١٦١٩) من وجه آخر، ضعفه ابن حجر.

(٤) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ**، =

هذه تقال طبعًا في القيام، وهي من الصيغ الطويلة؛ التي تحتاج حضور القلب ووعيه وفهمه، فلا تدخل في الصلاة وأنت متعجل؛ لأن افتتاحك الصلاة بهذه الصيغة يمكن أن يأخذ منك عشر دقائق، قبل قراءة الفاتحة إن كنت ستقول هذه الصيغة وتفكر فيها أثناء قولها، وتعيد فيها، فإنك ستأخذ أجرًا لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

أولها كلمة (اللهم): وقد فهمنا أنها تعني: يا الله، يا من لك كل الأسماء الحسنى، وكل صفات الكمال ونعوت الجلال، والأفعال المُشرَّفة. لأن (الميم) جعلوها في العربية علمًا على الجمع.

ثم تقول: (لك الحمد) وقد علمت معنى الحمد فهو صفات الكمال. وتتفكر في المخلوقات، وتتفكر في قدر الله، وتتفكر في إنزال القرآن وعظمة القرآن والتشريع، وتتفكر في الجزاء، فالحمد في القدر الكوني والتشريعي والجزائي.

ففي القدر الكوني: حمد الثناء والعبادة وهو الحمد المطلق، وحمد النعمة.

وفي التشريعي: حمد الثناء والعبادة؛ على إنزال القرآن وعلى عظمة القرآن وهكذا. وحمد الشكر والآلاء والنِّعم.

وفي الجزائي: أليس العدل حمدًا أم ذمًّا؟ العدل حمد، فالنار عدل.

(اللهم لك الحمد): ما معنى لك الحمد؟ هل يمكن أن نقول: اللهم

= **وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ - أَوْ: لَا إِلَهَ غَيْرُكَ -**».
وفي رواية مسلم: «**قَيَّام**» بدلًا من: «قيم».

إن الحمد لك؟ ما الفرق بينهما؟

(اللهم لك الحمد): حصر واختصاص، لكن إن قلت: (اللهم إنَّ الحمد لك) فيجوز أن تعطف عليها وللنبي - عليه الصلاة والسلام - من ناحية اللغة؛ يجوز العطف كأن تقول: الحمد لك ولفلان، لكن حين تقول: (لك الحمد)؛ فلا يجوز لك أن تعطف عليها: ولفلان.

فقبل أن تقول: الحمد؛ صار الحمد كله لله، بقولك (لك).

ولا نقول: (لك حمدًا) بل (الحمد) فـ (أل) هنا للاستغراق: فكل خير مصدره الله ﷻ، وكل شيء يحمده؛ كل مخلوق أو جماد أو حيوان أو إنسان أو جن أو ملائكة؛ فاستغرقت (أل) كل هذا.

فالواجب عليك وأنت تقف بين يدي الله في قيام الليل بعد أن تقول: (الله أكبر) وقد وعيت معناها أن تقول (اللهم) وأنت تعي أن (اللهم): يا الله، وربنا يسمع ويرى، وتستشعر هذا كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

[شرح معنى: أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن]:

ثم تقول: «**أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن**» فما معناها؟

كلنا نعرف «سورة النور»؛ فيها ذكرٌ للظلمات وفيها ذكرٌ لنور الله؛ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: الآية ٣٥] فما الظلمات؟ دائمًا حين تحب أن تفهم الظلمات المعنوية والنور المعنوي، عليك أن تذكر الظلمات المادية أولًا حتى تفهم الظلمات المعنوية.

فالظلمات معناها: أنك لا تعرف ما الذي أُخذ منك، ولا ما أعطي

لك، ولا تعرف وجهتك، ولا في من قد تصطدم، فهي ظلمات لا وجود لنور يكشف لك الطريق للمستقبل ولسيرك، كذلك الظلمات المعنوية.

فالناس ترى منهم التعالي والتفاخر بأنواع الثياب والزينة المختلفة - ربطات العنق والبدلات بأنواعها وأشكالها - وحلاق يأخذ في الحلقة الواحدة الشيء الكثير، و لا يعلمون إلى أين يتجهون، أليست ظلمات؟

كالماشي في الظلمة لا يدري أين قد يصطدم، كذلك كل التشريعات الوضعية والطواغيت كلها ظلمات.

آداب دخول البيوت، آداب الاستئذان، آداب النكاح، آداب المعاملات، الآداب التي ذكرت، تزويج الأيامى و إعانتهم، وكل الذي ذكر في سورة النور، وآداب الحديث والتحكم في اللسان، وغض البصر وإخفاء الزينة وبيان ما تبديه المرأة إلا لكذا، هذا كله نور من الله ﷻ، يقابله الظلمات. فالظلمات معناها: تشريعات الطاغوت، والنور: هو الذي جاءنا من ربنا ﷻ.

فيقول لك: ابنك حين يكبر يستأذن؛ ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: الآية ٥٩]، والطفل الذي لم يبلغ الحلم منكم يستأذن ثلاث مرات، ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النور: الآية ٥٨]؛ نور من الله ﷻ.

وعن عطاء بن يسار، أن رسول الله ﷺ سأله رجل، فقال: يا رسول الله، أستأذن على أمي؟ فقال: «**نعم**»، قال الرجل: إني معها في البيت، فقال رسول الله ﷺ: «**استأذن عليها**»، فقال الرجل: إني خادمها، فقال

له رسول الله ﷺ: «**استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟**» قال: لا، قال: «**فاستأذن عليها**»(١).

انظر إلى الأدب وإلى النور، النور الصادر من مصدر واحد؛ وهو الله ﷻ، تريد نورًا فمن الله، ولذلك الشريعة الإسلامية نور كلها، نور كامل، هي ليست نورًا لأنها ستقودك إلى الجنة فحسب؛ بل هي نور يهديك لكيفية العيش في الدنيا دون حدوث رُجز، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدَّثر: الآية ٥].

(الرجس): بالسين هي موانع الهداية، التي هي العقوبات على القلب المتنوعة، وهي خمس وثلاثون عقوبة كلها اسمها رجس؛ كما ذكرها ابن القيم.

(والرَّجَز): بفتح الراء داء يصيب الإبل في عَجُزها، أي أن تجد الناقة غير قادرة على الوقوف قد أصاب رجليها الخلفيتين ارتعاش؛ فتقع مرة أخرى بعد الوقوف.

(والرِّجز): بكسر الراء: اضطراب واهتزاز وعذاب من الحاصل. ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سَبَأ: الآية ٥] فيه تردد رهيب ليس بمستقر ولا بمستوى واحد، إنما هو تردد يزيد ويقل فيه قلق واضطراب، غير أنه عذاب فهو يتلقى أيضًا ضربًا متسارعًا هنا وهناك وليس باتجاه واحد.

(والرُّجز): بضم الراء اضطرابٌ أَيضًا؛ لكنه اضطرابٌ معنوي في القلب، لأن الإنسان قد خُلق على الفطرة، وعلى التوحيد: أن يُوحد الله ﷻ حين يعرض له شرك وأبوابه وفروعه كلها تتصادم مع الفطرة ولا

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٦٣)، وأبو داود في «المراسيل» (ص٣٣٦).

تنسجم معها أبدًا، إذًا فهي ظلمات، فقال: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: الآية ٥].

فكل عادات الجاهلية والوثنية، وتشريعات القوانين الوضعية، وتشريعات الطواغيت؛ كلها ظلمات بعضها فوق بعض.

(أنت نور السماوات والأرض): كلمة (نور) هذه تفيد: أنه لا يمكن لشيء أن يسير على النهج الصحيح دون أن يتصادم بشيء آخر؛ إلا أن تكون على نور من الله ﷻ، يستحيل أن تسير الأرض منضبطة في مساراتها، أو الشمس، أو النجوم أو الأفلاك، أو أن ينضبط الإنسان، أو الجن، أو الملائكة إلا أن يكون من نور الله ﷻ؛ فبغير نور الله: ظلمات، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١].

وأنت حين تقول: (أنت نور السماوات والأرض): فيستلزم منك ذلك أن تستشعر وتردد: نعم يا ربي نعم يا ربي، وتكرر وتعيد الكلام على مسامع قلبك، فأنت الآن لست في موطن عرض محفوظك من كلام إنشائي، هل فهمت المعاني وتشربها قلبك حتى ترددها عن ظهر غيب؟ فأنت لبثت فيها نصف ساعة وأنت تقولها في قيام الليل حتى تعود نفسك! وهذا هو المطلوب إن كنت تريد أن تفلح وتصلح، وهذا هو السبيل الوحيد؛ وأقسم برب العرش العظيم غيرَ حانثٍ؛ ما من طريق آخر لتكون على علم بذلك؛ فلا بد منه.

وكيف صَلُحَ الصحابة؟ أليس بصلاة القيام مع الرسول ﷺ؟ هذا هو الصلاح وهذا هو الطريق؛ لا طريق غيره، هل تعتقد أنه ينصلح شأنك من

دون طريق صحابة الرسول؟ لا يمكن أبدًا، لن ينصلح أمر آخرها إلا أن يكون على هدي أولها.

)أنت نور السموات والأرض ومن فيهن): فأنت تتفكر فعلًا فيها وتقول: يا رب لا يمكن لي أن أجد نورًا إلا منك يا الله؛ فأنا أحتاج نورًا أمشي به. أحتاج أن يكون في لساني نور، فلا أكون كهذا الذي حين ينفعل يخرج من لسانه كلمات لا تليق، تدل على أن النور قد خبت، لذلك الإنسان يقول: «**اللهم اجعل في لساني نورًا**»(١)، وماذا يعني ذلك؟ أي كيف سيتكلم اللسان؟ بالنور، أي أنك في كل كلمة تكون مسددًا، لأنها على نور الله ﷻ.

واليد تبطش بالنور، فتصيب الحق، فهو يمشي على النور، وفي الرجلين النور، وفي القلب النور، وفي السمع النور، فحين تسمع الكلام؛ تفرق بين الخُبث و الكلام الغث وبين الكلام الطيب، فهو عنده نور وفرقان يفرق به بين الحق والباطل.

«واجعل في سمعي نورًا»(٢): وليس نورًا ماديًّا إنما هو نور معنوي؛ ومعناه: حين تسمع أذني صيغة تفهمها، فحين أسمع القرآن أتعرف على مطلوب الله ومراده، وكذلك حين أسمع فلانًا يتكلم أفهم كلامه.

«وفي بصري نورًا»: وليس المراد سلامة النظر، إنما المراد النور المعنوي، أن يتعرف على الشيء حين يراه وعلى الآيات التي فيها فهذا هو النور.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

فتستحضر هذه المعاني؛ فيا رب: أنا حين سمعت تلك الغوغائية في المشاجرة وأنا في الطريق لم أستطع الفهم، لأن النور نقص قليلًا في أذني، فأنَّى لي بالنور إن لم يكن منك أنت يا رب؛ أنت نور السماوات والأرض، إن لم ترزقني بالنور في أذني فلن يعطيني إياه أحد، فحين أسمع لن أفهم حتى تجعل في أذني نورًا وفي سمعي نورًا، وكذلك البصر فأنا قرأت الكلام لكن لم أفهمه، مر عليَّ الموقف أو المسألة صباحًا فلم تلفت نظري؛ لأني مُنعت النور، منعتني يا رب؛ فلا معطي لما منعت، منعتني النور فلم أبصر هذا الحدث في الصبح أو هذا القدر، أو هذا المخلوق، أو هذه الشجرة، أو هذه السمكة الجميلة؛ لأن البصر يريد نورًا؛ فأنت يا رب خذلتني ومنعتني؛ فأستغفرك وأتوب إليك، انظر إلى كل هذا الثناء على الله ﷻ قبل الفاتحة!

هل من أحد فعل هذا الكلام؟ الله المستعان. ربنا تب علينا قبل أن نلقاك.

معنى الحي القيوم:

(ولك الحمد؛ أنت قَيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن): قَيِّمُ، أو قَيَّامُ، أو قَيُّومُ، كلها مشروحة سابقًا، واختصارًا:

القيوم: لا يقوم شيء إلا بقيومية الله، الله ﷻ يقوم بنفسه ولا يقوم شيء إلا به، هو الغنيُّ وكل شيء فقير إليه، لا تتحرك ذراعك إلا أن يحركها الله، لا يتحرك بصرك إلا أن يحركه القيوم، لا يتحرك ذهنك وينشط إلا أن يُقيمه القيوم سبحانه وتعالى وعز وجل، لا تَسيرُ الأفلاك ولا تنضبط إلا بالقيوم سبحانه وتعالى وعز وجل؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ

وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٥].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرّعد: الآية ٣٣] وبالرغم من ذلك ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرّعد: الآية ٣٣].

فالمعدة لا تعمل ولا تستمر في عملها إلا أن يقيم الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك، والرئتان لا تتنفسان ولا تقومان بالوظيفة إلا أن يقيمهما الله على ذلك؛ لأنه القيوم، اللسان لا يتكلم بما يريد إلا أن يقيمه الله على ذلك لأنه القيوم، الجلد لا يقوم بوظيفته إلا أن يقيمه الله عَزَّ وَجَلَّ وإلا لانقطع الإحساس منه، الرجلان لا تمشيان إلا أن يقيمهما الله عَزَّ وَجَلَّ؛ هذا معنى القيوم.

لا يقوم شيء في أرضه ولا في سماواته إلا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرّعد: الآية ٣٣]. بما كسبت: أي بما تكسبه أنت وبما تعمله وما تنوي وتقول ومقصدك من هذا الكلام، ما علمك ومتى تعذر ومتى لا تعذر، ما مقدار أجرك، وما مقدار المصائب التي ستصيبك بذنوبك، وهل لك نصيب من مصائب أخرى لرفع الدرجات؟ أنواع؛ كل هذا من القيوم.

لذلك ابن القيم يقول: «الحي القيوم هما إليهما مرجع جميع أسماء الله وصفاته»(١).

فإذا أردت أن تختصر أسماء الله تعالى وصفاته؛ فقل: (الحي القيوم)، وبعض العلماء اختارهما، وقال إن اسم الله الأعظم هما: (الحي القيوم)؛ لأنه في ثلاث سور: «البقرة» و«آل عمران» و«طه»،

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٤).

والحديث: أن اسم الله الأعظم في هذه السور الثلاث[(١)]؛ فمن العلماء من قال: هو (الحي القيوم)[(٢)].

قطعًا؛ يلزم أن يكون اسم الله الأعظم في: الحي القيوم، وهذا لا يحتاج إلا لمجرد معرفتك بمعاني الحي القيوم.

ما معنى (الحي) في حق الله؟

ألست أنت أيضًا حيًّا؟ أليس الفأر حيًّا والضفدع حيًّا؟ لكن هذه الحياة تتفاوت حسب صفات الكمال.

مثلًا: أنت عندك قوة وشهامة، ولديك ذهن مستفيق وجمال، وتملك من صفات الخير ما تملك، ولديك إحساس، ولديك حياة؛ لكنَّك تنام وتغط في نوم عميق، فهذا نقص فصارت حياتك ناقصة.

لكن هو (الحي): بالألف واللام (للدلالة على الاستغراق) أي الحياة الكاملة؛ إذًا (الحي): الذي له كل صفات الكمال.

فتجد أننا حين نقول (لا إله إلا الله)؛ نثبت لله صفات الكمال كلها، وحين نقول (الحمد): أي الكمال كله ثابتٌ لله، ثم نقول هو (الحي): الذي له كل صفات الكمال.

وكذلك (سبحان الله وبحمده) و(تباركت وتعاليت)، فهذه من طرق مثل: (سبحانه وتعالى)، فهذه تؤدي إلى معانٍ وتلك تؤدي إلى معانٍ، والاثنتان لازمتان، ولو أفردت واحدة كسبحانه: فهي تؤدي إلى معنى

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٧٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٨٣ رقم ٧٧٥٨).

(٢) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني (١١/ ٢٢٤).

التعالي أيضًا، ولو أفردت تعالى: فهي تؤدي إلى معنى سبحانه كذلك، أما في حال اجتماعهما فكل واحدة تختص بمعنًى دون الثانية، وهكذا.

يقول النبي ﷺ: «**ولك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن**»،

فهل فهمت معنى (قَيِّم)؟ تذكر معنى (القيوم) وأنت قائم: من الذي وضع يمناي على يسراي؟

فتجيب: هذا القيوم، أي والله لا أحد غير القيوم، ستجد نفسك تبكي وتحزن من سوء تأدبك في حق الله تعالى، وستجد أنك تتذكر هذه المعاني وأنها سهلة جدًّا، وهذا هو معنى التضرع.

فما التضرع؟

ذكر الألوسي أنها مأخوذة من الضرع(١)، فما الضرع؟ ضرع البهيمة: حلبها لتعطيه اللبن، فتجد ضرع البهيمة ممتلئًا وتجدها مستسلمة لحلب اللبن صافيًا طازجًا ليس به ميكروبات بل هو مطهر من عند الله، ثقبان ينزل منهما المواد مكونة اللبن، فأنت حين تقطع الضرع لا تجد به لبنًا، إنما تجد به دمًا ومواد أخرى، أين ذهب اللبن؟ اللبن يكون طازجًا مائة بالمائة وقت اختراقه الضرع أعطى اللبن، كذلك الضراعة؛ ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: الآية ٥٥].

فتضرعًا: أن تقول بينك وبين الله: يا رب، وخفية: من الأعماق،

---

(١) «تفسير الألوسي» (٨/ ١٣٩) قال: تضرعًا أي ذوي تضرع أو متضرعين فنصبه على الحال من الفاعل بتقدير أو تأويل، وجوز نصبه على المصدرية وكذا الكلام فيما بعد وهو من الضراعة وهي الذل والاستكانة، يقال ضرع فلان لفلان إذا ذل له واستكان.

كما قال الصحابيُّ: «حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه» لأن هذا القلب كما قلنا هو عرش للمثل الأعلى لله سبحانه وتعالى وعز وجل؛ يحمل معرفة الله وأسمائه وصفاته، ويحب الله بها، ويريده بها، ويسعى للوصول له، وفي شوق إليه، هذه هي المعاني؛ هذه هي الضراعة: فلا يخرج القلب في هذه الحالة على اللسان إلا اللبن الطازج.

أما من في قلبه مرض يتلفظ طوال الوقت بالسب والقبح فلسانه مظلم بقدر النور الذي فُقد منه.

فهنا القيوم تذكر: أن لسانك يتحرك لأن القيوم حي لا يموت، وذهنك يفكر لأنه سبحانه قيوم، وكذا وقوفك وقيامك لأن الذي أقامك هو القيوم، فغيرك مشلول وغيرك نائم على ظهره من الغضروف لا يستطيع الوقوف أبدًا، هذا أقل شيء، فلا يمكن لذرة أن تتحرك ولا إلكترون ولا شحنة أو غيرها ولا عصب إلا بالقيوم، يجب أن تتصور الكلام حتى تستشعر مدى النعمة؛ فتقول: أنت قيم، وقيوم في رواية أخرى؛ لكن حين تقول: أنت قيم، تجد وقعها على قلبك أشد وطئًا؛ لأنك اعتدت على القيوم؛ لذلك سيدنا عمر كان يقرأ: (الحي القيَّام)؛ فحين أقولها في الصلاة أجدني متفاعلًا معها، وأتفكر فيها وكأننا أَلِفنا (القيوم) ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا من ضعف الإيمان؛ إذ ما معنى أنه أَلِفَ القيوم؟! وهل انتهت القيميَّة؟ فالمسألة في القيِّم والقيَّام.

فالقلب الذي تجلى أو تُجُلِّيَ عليه بحقائق أسماء الله ﷻ، واستقرَّت فيه بعض معاني وحقائق أسماء الله تعالى وصفاته يكون ممتلئًا بالمادة الذي إن استُحلب وهي فيه أخرج شيئًا صافيًا على الجوارح كلها، وخلع على اللسان قولًا سديدًا جميلًا طيبًا، وخلع على النفس صفات حسنة،

وصارت نفسًا غنية مستعلية بالله ﷻ، وصارت نفسًا كريمة، ولا تسأل عن لذة المؤازرة بين نفس الإنسان وقلبه. ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: الآية ٥٣].

فحين تكون النفس مطمئنة، تؤازر القلب وتكون رِدْءًا له في التقرب إلى الله، فإنَّ هذا الإنسان يجد لذة جميلة في الدنيا قبل الآخرة، لا تسأل عنها فإنما هي تُتَذَّوق، فلعل قلبك فعلًا صار عرشًا لمعرفة الله تعالى ومحبته وإرادته، فإنَّ هذا القلب يكون ملكًا صالحًا، فإذا صلح القلب خَلَع من صلاحه على النفس، وخلع من صلاحه على اللسان، وخلع من صلاحه على الجوارح كلها.

فالتضرُّع: هو أن يُستحلب القلب ويُستثمر، تُستثمر المادة الَّتي فيه فتضيء، لأنَّ فيه مثل المصباح يُزهر ويُشرق ويُضيء.

هذا القلب ليس قولًا إنشائيًا أو قولًا لغويًا ومجرد معان خيالية، بل هي حقيقة لمن عرفها، فالقلب فعلًا إذا استقرَّت فيه حقائق أسماء الله تعالى وصفاته، ثم جاء هذا الموحِّد يتضرع وجد قلبه قد أخرج كلامًا عجيبًا على اللسان، وصفات كريمة على النفس، وخضوعًا وانكسارًا وجمالًا على الجوارح، ونورًا وإشراقًا في الوجه، وهذه حقيقة.

وهذا هو معنى التضرع: (القلب أولًا يفهم عن الله سبحانه وتعالى وعز وجل وبعد ذلك تأتي كل التوابع).

فالتضرع: معناه استحلاب القلب واستثمار القلب. واللسان هو الآلة التي يخرج بها التضرع من القلب.

وبالنظر في الكلام الطيب الجميل لهذا الصحابي فإنه طهر قلبه وصلُح

أن يكون عرشًا لمثل الله الأعلى، لمعرفة الله ومحبته وإرادته - قلب الصحابي - فلما أنشأ كلامًا وتضرَّع واستثمر المادة الَّتي تجلَّت على قلبه عندئذ قال هذا الكلام الَّذي أخبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «**عجبت لها فُتحت لها أبواب السماء**»(١).

[أنتَ ملكُ السَّماواتِ والأرضِ ومن فِيهنَّ]، وفي رواية أخرى: «**ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن**»(٢).

انظر إلى هذه الصيغة! فكل المحامد وكل خير مرجعه إلى الله، وأنا مقتنع بهذا وأعظمك بهذا وأحبك من أجل هذا، وهناك محامد تجعلني أحبك كثيرًا أكثر من التعظيم، ومحامد أخرى تجعلني أعظمك كثيرًا أكثر من الحب، فالاثنان محبة وتعظيم.

فأنت تقول: (ولك الحمد أنت ملك) ما معنى الملك؟

أخَصُّ ما يتعلقُ بمالك الأمر، ومستلزمات الأمر والنهي أنه:

عليم، حكيم، عالم بما يأمر به وينهى عنه، وأن يكون هو النور، ويعز ويذل ويخفض ويرفع، أليس هذا الملك؟!

الحق:

(أنت الحق) والحق من أسماء الله، قد يتساءل البعض عن سبب شرحنا لأسماء الله تعالى، ولماذا لا نشرح في الصلاة؟! كيف لك أن تفهم هذا الكلام؟ أليس هذا في الصلاة؛ من كتاب الشيخ الألباني «صفة

(١) أخرجه مسلم (٦٠١).

(٢) أخرجه النسائي (١٦١٩)، وأحمد (٣٣٦٨). وأخرجه البخاري (١١٢٠) بلفظ: «**وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**».

صلاة النبي».

الحديث كلكم تعرفونه: «أنت الحق» ما معنى الحق؟

اختصارًا: كلمة (الحق) تدل على: إحكام وصحة، ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: الآية ٣] لا خلل أبدًا إذًا هو الحق.

لكن الخلل أن يكون لإنسان عشرة من الأولاد مثلًا، والكثير من المال، وسيارات وأنواع من المتع، ويجمع معها السلطة والجاه، والاستمتاع بها لكنه في النهاية يموت مثله مثل الرجل الفقير الذي يسكن في غرفة بسيطة ويعيش في فقر ويعاني من الضنك ومن الإذلال وكل ذريته إناث، ثم ماتا وتماثلا في الموت؛ لكن كان أحدهما مؤمنًا والآخر كافرًا، قد تقول: لكن المؤمن استمتع بالإيمان في الدنيا، ثم متنا وتساوينا ببعض؛ في هذه الحال لا يكون ربنا بحق حاشا لله، لو كان الموت لا يأتي بعده بعث.

فلا بد من أن يكون الموت محكمًا؛ لأنه لو لم يوجد بعث لم يكن ليوجد أيَّة إحكام في القدر؛ وعدم وجود الإحكام: عبث، حاشا لله تعالى.

هل عرفت الآن معنى الإحكام والصحة؟ وهذا معنى «أنت الحق»، والحق من أهم الأسماء التي هنا، والحق كاسمه السلام؛ يسقط على جميع الأسماء، فتقول: أنت المؤمن الحق، أنت الملك الحق، أنت العزيز الحق، أنت القدوس الحق، أنت النور الحق، أنت الحكيم الحق، وهكذا.

(أنت الحق ووعدك حق):

الحق هنا بـ(أل) وكل ما يليها مترتب على هذا الاسم، فهذا يعني: أنه لا حق غيرك، ثم الذي سيترتب من خلالك يكون أيضًا حقًّا.

(ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق)؛ ومعنى قولك حق ووعدك حق: أنه متحتم حصوله دون أدنى ريب أو شك، أي مائة بالمائة، و أنه لا يمكن إلا أن يكون صدقًا وإلا أن يكون عدلًا أو فضلًا، إذًا فالمسألة لا يوجد بها باطل أبدًا، ولا يوجد فيه خبر كذب أبدًا.

(والجنة حق، والنار حق):

حق لأن من دونهما لا تكون المسألة حقًّا، ويكون قد تساوى فيها المجرم بالمؤمن، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: الآية ٢٨].

(والساعة حق، والنبيون حق، ومحمد حق):

فكل هذا الكلام حق، لماذا النبيون حق؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥]،

ما معنى: خلقناكم عبثًا؟ أي أتركناكم هملًا دون أوامر ونواهي؛ فيكون الملك قد خلقك وتركك هكذا!

(الملك الحق) فالملك: معناها: الأوامر والنواهي.

والحق: الذي يحاسب على ما فعلوا، فيترتب على هذا: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: الآية ١١٤]. على الحسبان؛ أتظن به أنه خلقك دون أوامر ونواهي وشريعة وابتلاء واختبار؟

تعالى الله عن هذا الحسبان، فيمن تفكر هكذا؟ هذا الأمر قد يحدث منا نحن البشر وليس من الله؛ تعالى الله علوًّا كبيرًا.

فأنت يجب عليك اجترار هذه المعاني حتى يفتح الله عليك.

النبيون حق لأنه إذا لم يكن نبيون فقد خلقنا الله عبثًا وتركنا هملًا كالأنعام؛ ولو لم يرسل إلينا رسلًا ليعلمونا ويبلغونا أوامر الله ونواهيه كان الخلق عبثًا؛ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: الآية ١١٥]، أي بلا أوامر ونواهي؟

فالنبيون جزء من الحق لأنه لو لم يوجد نبيون لكان هذا خللًا في الحق، فيصير حقًّا ناقصًا وليس مائة بالمائة حاشا لله.

(ومحمد حق)، لما اختص محمد - عليه الصلاة والسلام - بالذكر؟ قد علمنا أن الأنبياء حق، وأنه لا بد من الرسل، لكن لماذا محمد ﷺ وحده؟ فسيدنا عيسى حق وكذا موسى حق؟

ذكر النبيين إجمالًا؛ ثم قال: ومحمدٌ حق:

أولًا: لأن ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١٠٨] فكلُّ الرسل قد بشرت به، فكونه يأتي ويبعث فهذا حق، لتكون بُشرى؛ فلو كان النبيون حقًّا فعلًا فلا بد أن يرسل محمد - عليه الصلاة والسلام - وقد أُرسل محمد عليه السلام، أليس هذا حقًّا إذًا؟

من جهة أخرى: الكتاب المهيمن؛ لا بد له من رسول، أليس محمد عليه السلام حقًّا إذًا؟

من جهة ثالثة: الإنباء عن الفتن القادمة وعن المستقبل والدجال

والروم؛ ففي «صحيح مسلم» ذكر للروم وما سيحدث بالتفصيل، إذًا أليس محمد عليه السلام حقًّا؟ ليس هذا فحسب.

ماذا عن المقام المحمود؟ وكيف يتأتى؟ إذًا أليس الكلام كله مرتبًا وحقًّا؟ والشفاعات الست أو السبع والثلاث التي زادهن الإمام الحافظ ابن حجر في كتابه «الفتح» صاروا تسعة للنبي - عليه الصلاة والسلام - فهذا حقٌّ.

(اللهم لك أسلمت): وليس أسلمت لك؛ لأنها يمكن أن تحمل معنى: أسلمت لك وللطاغوت، أما (لك أسلمت) أي لك أنت فقط، لا أعترف إلا بك أنت فحسب، أنت الله والباقي كله عبيد، أنا لا أسلم لعبد أبدًا، ولذلك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: الآية ٤٤]، مع سليمان وليس لسليمان.

(وعليك توكلت) وهذا دليل التوحيد؛ أن تتوكل على الله تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: الآية ٩] فلو كنت موحدًا حقًّا لتوكلت على الله، ولتثقن بالله أعظم ثقة، فليس عندك أسباب أبدًا في أن تحقق الخير؛ لا أسباب أبدًا؛ اجتهدت ومع ذلك عندك أمل في الله سبحانه وتعالى لأنك تثق في الله ثقة كبيرة بلا حدود، فهذا هو التوحيد.

فالتوحيد مبني على أسماء الله وصفاته؛ فقلبك صار عرشًا لمثل الله الأعلى؛ لمعرفته ومحبته وإرادته؛ فاقتنعت ورضيت بالله ربًّا، ووثقت بالله؛ فتوكلت عليه واعتمدت عليه.

وعليك توكلت وليس توكلت عليك، بعض الناس يقول: توكلت عليك يا رب وعلى غيرك، وعلى الأسباب، وعلى المال الذي يسندني،

وعلى رسولي، وعلى ابنى الذي يعمل لدى السلطات وعلى الاتصالات والعلاقات، وعلى حلاوة لساني التي أستطيع استمالة الناس به، وغيرها. أما في قولك: (وعليك توكلت) فالمعنى أن التوكل على الله وحده.

(وبك آمنت): وليس آمنت بك، انتبه لأسلوب الحصر.

(وإليك أنبت): الإنابة هي الرجوع السريع للحق، هناك عبارات كثيرة تؤدي معنى الإنابة؛ وهي أن تتوب من قريب، فبمجرد علمك بالحق ترجع إليه لا تتلكأ.

(وبك خاصمت، وإليك حاكمت): سبحان الله العظيم، على ماذا الخصومات اليوم بين الناس؟ هل هي خصومة في الدين؟

حتى الخصومات التي ما بين الشيوخ الآن هي على الجاه والرياسة! ويريدون أن يكونوا أكثر تبعًا! ليشار إليه بأن هذا هو السواد الأعظم، هذا هو الشيخ، هذا هو العالم، فلو أن أحدًا نافسه في هذا الأمر- الحظوظ الدنيوية والجاه والرياسة- وليس في العلم والأقران فإنه يحاول أن يحطمه تحطيمًا وأن ينال منه نيلًا! فالخصومة هنا ليست لله؛ إنما هي خصومة على حظوظ الدنيا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ألم أذكر بأن أسوء جيل هو الذي نعيش فيه الآن؟! وإذا كان هذا حال الشيوخ والدعاة في الغالب إلا من رحم الله، فكيف يكون حال الناس؟ الله المستعان، أما فيما مضى فكانت خصومة في الدين؛ لذلك كانوا أحباء يوالي بعضهم بعضًا رغم ما بينهم من خصومة.

(وبك خاصمت) أيضًا في الخصومة أستعين بك؛ ففي خصوماتي مع

الكافرين أنا بك أستعين، وفي خصوماتي مع المؤمن: كي لا أجور ولا أظلم، فإنك تستعين بالله وإلا سينتهي بك الحال في الظلمات ولن تسير على نور الرسول عليه الصلاة السلام.

(وإليك حاكمت):

الحاكمية؛ وقد جاء قبلها ذكر الملك والنور، فحين تجمع (أنه الحق، وأنه الملك وأنه النور) في هذه الصيغة تفهم حينها معنى: (وبك خاصمت وإليك حاكمت).

وفي رواية أخرى؛ جاءت هذه الزيادة: «**أنت ربنا وإليك المصير**»(١).

انظر إلى: (فاغفر لي):

إصرار الرسول على الاستغفار؛ لتغسل قلبك قبل أن تصل إلى الفاتحة.

«**فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت**»: هذه الصيغة وحدها نفهمها في الحديث عن آخر الصلاة إن شاء الله لأنها عظيمة جدًّا.

«**وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، أنت إلهي، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»: كان يقوله ﷺ في صلاة الليل.

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص١١٣)، وأبو عوانة في «المستخرج» (٢٢٣٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٥٠ رقم ١١٠١٢).

تكملة أدعية الاستفتاح

الإخوة الأعزاء:

الصيغة العاشرة من صيغ الاستفتاح

«اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

آخر هذه الصيغة أقرب ما يكون إلى (اهدنا الصراط المستقيم).

وبدأت بـ (اللهم) ومعناها: يا الله، وكأنك تناجي ربك بعد (التكبير) قائلًا:

يا الله يا من لك الأسماء الحسنى كلها، وصفات الكمال ونعوت الجلال والأفعال المشرفة، تلك هي كلمة (اللهم) فاستشعر ذلك المعنى بقلبك.

(رب جبرائيل) ما معنى رب؟ أي القادر المسيطر، الخالق، الرزاق، المشرع، المجازي، المهيمن، الملك، وتمام الربوبية أن يكون هو الملك.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(رب جبريل وميكائيل وإسرافيل) جماعة من الملائكة، ونقول (رب الملائكة والروح) ماذا نستفيد من هذا؟

مثلًا: أنت حين تسمع ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٦] فالعرش كريم، ذلك هو وصفه في القرآن، فكيف؟

* قلنا: إن الأرض ﴿أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٧] فالأرض كريمة وكل ذلك من كرم الله ﷻ، فكيف بالعرش وهو سقف الفردوس الأعلى، ألا يكون الكرم صفة له من باب أولى.

وإذا كانت الأرض التي هي متاع الغرور، وهي تنبت من كل زوج كريم، وكل ما تنبته لا يعدل شيئًا بالنسبة للجنة، فهي متاع غرور ما فيها لزوم الابتلاء، فالعرش أكرم من الأرض، وهو كريم، فكيف بكرم خالقه سبحانه وتعالى وعز وجل؟!

* والروح كما تعلم عن عظمة الروح، وعن قداسة الروح - جبريل عليه السلام - ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشّعراء: ١٩٣، ١٩٤].

ماذا تعلم عن الروح؟ ماذا تعلم عن عدد الملائكة؟

قال رسول الله ﷺ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ**». فكم عددهم؟ وكيف تكون قواهم؟ وكيف تكون قدراتهم؟ كل ذلك من ملك الله، وقد ذكرت بعض قدراتهم في القرآن، فما بالك بربِّ الملائكة سبحانه وتعالى.

فحين تقول: (رب الملائكة والروح) فكل ما خطر ببالك عن قوة الملائكة، وطاقات الملائكة، وعدد الملائكة، فكله منسوب لله ﷻ

فإنه ربهم، فكيف بالله تعالى.

* وحين تقول: (رب العرش الكريم) والعرش (مجيد وكريم وعظيم) كما هو وصفه في القرآن، فالأكرم هو الله، والأعظم هو الله، والأمجد منه هو الله سبحانه.

فالعرش هو سقف المخلوقات، وهو محيط بالمخلوقات، «**وما الكرسي في العرش إلا كحلقة في فلاة**»[1] الحديث صحيح (صححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة»)[2]، كحلقة في فلاة: أي كخاتم في صحراء، هذا الكرسي الذي وسع السماوات والأرض!! فكيف بالعرش؟!

لا تستطيع أن تتصوره، والمسافة من حلوان لشبرا الخيمة مثلًا لا تستطيع أن تتصورها، فكيف بالقاهرة أو مصر كلها، أو أفريقيا، وكيف بالكرة الأرضية، أو المجموعة الشمسية، أو السماء الدنيا، لا تستطيع أن تتخيل ذلك، فحين تسمع (رب العرش العظيم) تشعر بشيء رهيب بحق، أمر خارج عن حدود التصور.

لذلك عند التفكر في النجوم وأحجامها عليك أن ترجع لشرح اسم الله (العظيم) وقد شرحناه فيما سبق، فحين تتخيل تلك العظمة للنجوم وهي زينة للسماء الدنيا، فكيف بالعرش.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١) عن أبي ذر رضي الله عنه: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ**» في حديث طويل.

(٢) رقم (١٠٩).

فـ(رب العرش الكريم) تعظيم لله سبحانه، وكذلك حين تقول: (رب الملائكة والروح) فهو تمجيد وتعظيم لله ﷻ، فتتأمل الملائكة والروح وما عندهم من الطهارة، والقداسة، والجمال، والقوة، والعدد، فكيف بقدرة الله وكمالات الله ﷻ.

فتأمل!

النَّبي ﷺ يتوسل إلى الله ويثني عليه الخير كله، فيقول:

(اللهم) أي يا الله يا من لك جماع الأسماء والصفات والنعوت.

ثم (رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل)، نعلم أن جبريل عليه السلام قال الله عنه: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١]، فما بالك بربه، فذلك تعظيم من الرسول - عليه الصلاة والسلام - وثناء على الله ﷻ بما هو أهله.

(فاطر السماوات والأرض)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها»(١).

أنا الذي فطرتها، أي أنا الذي بدأت حفرها، لم يكن بئرٌ ولكن أنا من فكرت فيها وصممتها وقررت حفرها، وأنت لم تقم إلا سورًا حولها، فالفطر هنا يشير إلى بداية تنفيذ التقدير، لأن الخلق يتضمن (التقدير، والفطر، والبرء، والتسوية، والتصوير)، وهكذا، فالفطر هو مرحلة من مراحل الخلق، لكن هذه المرحلة تذكر الإنسان بالتوحيد؛ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ

---

(١) أخرجه القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (ص٣٤٥)، وفي «غريب الحديث» (٤/ ٣٧٣).

وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ...﴾ [الأنعام: الآية ٧٩] لماذا خص ذكر الفطر في ذلك الموقف؟ موقف إبراهيم في محاجاته قومه:

لأن أصل أصنام قوم إبراهيم كانت النجوم والكواكب، لذلك هو نظر في النجوم وقال: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦]، ولما طلع النهار أفل وغاب فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] والحب هنا المقصود به حب العبادة، وليس كحب الأولاد والمال، بل هو الحب المطلق الَّذي يأتي معه الذل المطلق فهذه هي العبادة.

ف ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦] فمن يأفل لا يصلح أن يكون لي إلهًا أبدًا، لأنه أفل وأنا في شدة واحتياج إليه فكيف أطلبه، كيف أجده؟! فلا يصلح أن يكون إلهًا، فسُقِطَ في أيديهم وأحيط بهم وما استطاعوا جوابًا، وكأنهم قالوا: هناك ما هو أكبر، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ [الأنعام:٧٧، ٧٨].

انظر للسياق هنا في قول إبراهيم عليه السلام كانت حجته عليهم غياب الكواكب، فلا يصلحون أن يكونوا آلهة، حين أحتاجها لا أجدها، فالإله لا بد أن يكون ربًّا، ولا يكون ربًّا إلا أن يكون مطلعًا على خلقه لا يغيب، (وسنفصل في ذلك عند شرحنا لفاتحة الكتاب).

◈ **إذًا توجد ثلاثة أصول للربوبية؛ وهي:**

الأصل الأول: إصلاح الشيء والقيام عليه - ولله المثل الأعلى - كرب الأسرة في قيامه على صغاره، إذا مرضوا عالجهم، وإذا سقطوا

أقامهم، ويقوم على صلاحهم وغذائهم ونومهم، وإذا غاب أو سافر جعل من يخلفه في عياله ويقوم عليهم.

الأصل الثاني: الإقامة على الشيء ولزومه بحيث لا تتركه أبدًا، فيكون دومًا محل نظرك، وذلك هو معنى ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٦].

الأصل الثالث: ضم الشيء إلى الشيء، تولد وأنت لا تعلم شيئًا ثم تُحَصِّلُ العلمَ شيئًا فشيئًا، من ناحية القلب،

وكذلك بدنك يزداد وزنه شيئًا فشيئًا ويكبر، فهذا معنى ضم الشيء إلى الشيء، وهذه هي الأصول الثلاثة للربوبية.

فحين نقول: (رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل) وقد عرفنا معنى الرب، ثم نقول: (فاطر السماوات والأرض) فنركز على الفطر، أي المرحلة التي لم يكن بها مخلوق أبدًا، فبأي حق تعبد فلانًا من دون الله، أو تعبد النجم الفلاني من دون الله، فكل ذلك لم يكن موجودًا، فالفطر معناه أنه لا شيء بعد، ولم يبدأ مشروع الخلق بعد، وقد كان هناك خمسون ألف سنة بين التقدير والفطر.

للأسف أنت لا تفرق بين (الخالق، والبارئ، والفاطر، والمصور) وتتخيل أنها بمعنى واحد، لكن ثمة فرق كبير بين الخلق والفطر.

هل كان هناك أحد مع الله في تلك الفترة؟ لم يكن هناك أحد. فكيف تعبد أحدًا من دون الله؟!

لذلك حين نقول (فاطر السماوات) فكلمة فاطر معناها أن من حقك أن تُوَحَّدَ فلا يُشْرَكَ بك أبدًا، ومن حقك أن تُعْبَدَ فلا يُكْفَرَ بك.

(عالم الغيب والشهادة):

المعروف أن تقول: عالم الشهادة أولًا ثم الغيب.

انتبه! حين أقول لك ذلك الرجل يعلم الظاهر والمتخفي، فبذلك قد مدحته، أما بالنسبة لله ﷻ فيستوي عنده الغيب والشهادة، فالغيب عندك أنت فحسب، لكن عند الله يستوي الغيب مع الشهادة، فلا يوجد غيب عن الله؛ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: الآية ٣].

(عالم الغيب والشهادة) أثبت كمال العلم لله ﷻ، وقد قلت قبلها (فاطر السماوات والأرض)، فيكون الخلق بذلك صدر عن الحق أي صدر عن العليم الحكيم.

فهو العليم: وجميع الحاجات الطارئة الَّتي تظهر لك طارئة عندك أنت. لكن الله عالم بها من قبل وقوعها فهو عالم للغيب والشهادة.

هنا اقتران الفطر بعالم الغيب والشهادة، إذًا ذلك الكون صدر عن العليم الحكيم، لأن كل غايات الأشياء ونهايات الأشياء معلومة عند الله ﷻ.

فإذًا الخلق هذه هي بدايته، ولا يمكن أن يكون به نقص ينسب إلى الله أبدًا، فذلك هو الفرق بين (الفطر الذي هو البداية) وبين (عالم الغيب والشهادة).

والفطر البداية، والغيب سيأتي إلى يوم القيامة ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: الآية ١٠] فمن قدر فيها أقواتها في أربعة أيام هو من سيخلق لها الآكلين، فمن خلق الخلق قدر فيها الأقوات، والذي خلق الذكور هو من خلق الإناث، والذي شرع المثنى والثلاث والرباع هو

الذي خلق الإناث أكثر من الذكور، وهو الذي يعطي للذكور قوة تكفي المثنى أو الثلاث أو الرباع، ولا يعطيهم جميعًا ذلك، فالمسألة بقدر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: الآية ٤٩] فهو الرب لا باطل عنده أبدًا سبحانه وتعالى، قوله الحق وخلقه حق كله بمنتهى الإحكام.

ومعنى (الحق) في اللغة في «مقاييس ابن فارس»: إحكام الشيء والصحة فيه.

ثم قال: «**أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون**».

ذكرت في القرآن تقريبًا خمس عشرة مرة؛ مسألة الحكم بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، ومسألة إنباء العباد فيما كانوا فيه يختلفون، والفصل بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، والقضاء بين العباد فيما فيه يختلفون.

ولو سئلت لماذا يبعث الله الناس بعد موتهم؟ فعليك أن تقول: ليقضي الله بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

تقولها وأنت واثق تمام الثقة أنك تقول الحق؛ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، هذه الحكمة الأولى من البعث. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: الآية ٣٩]، هذه الحكمة الثانية ليعلم كل مبطل أنه كان كاذبًا.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: الآية ٢٨]، فالكفار يعرفون يوم القيامة أنهم كانوا يكذبون على أنفسهم بمكر الله بهم.

لذلك حين تسأل لماذا يبعثنا الله؟ فعليك أن تكون إجابتك: ليحكم بيننا فيما كنا فيه نختلف، والحكم ليس سؤالًا فحسب، وإنما رحلة تبدأ من الموت وفتنة القبر والبعث في يوم مقداره خمسون ألف سنة، إلى الجنة والنار؛ فالحكم وما يترتب عليه، وتخيل حين تقرأ هذه الآية من سورة البقرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

إذا عرفت معنى هذه الآية عرفت عظمة القرآن الكريم، وخسرانك المبين إذا فاتتك هذه المعاني.

كيف يريهم الله أعمالهم حسرات يوم القيامة؟ جاء في حديث الشفاعة الطويل ما يفسر الآية، ومن وضع ذلك الحديث في تفسير الآية هو ابن تيمية رحمه الله، يقول الحديث: «**إن الله تبارك وتعالى يوم القيامة يصور لكل قوم معبودهم، فمن كان يعبد الصليب مشى وراءه، فيتساقطون في النار**»[1]، هذه النار ليست نار جهنم، إنما هي نار أخرى، وذلك حتى يريهم الله أعمالهم حسرات؛ فعابد الصليب يتشبث بالصليب وهو في حال أشد ما يكون احتياجًا لمعبوده، فيرى معبوده أمامه ويظن أنه منقذه فيتعلق به فيطرحه في جهنم، وهكذا حال كل مشرك مع معبوده، ومن كان يعبد الشمس تتمثل لهم الشمس، وهكذا.

وما زال أمامهم الصراط والحساب والكلاليب والحسك، فهذا هو

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

تفسير الآية كما فسرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، فكل من تعلق بشيء دون الله، وكل من عبد غير الله، وَكَلَهُ الله إليه.

كمن يتعلق بوزير أو ذي سلطة أو جاه أو سلطان، يأتي في تلك العرصة يوم القيامة فيمثل له معبوده، ويقال له: ها هو من تعلقت به هل هو منقذك اليوم؟ وفي تلك اللحظة، وهو أشد ما يكون احتياجًا إليه يأخذه ليلقي به في النار، وتلك هي الحسرة الحقيقية.

(أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) فالكفار يعلمون أنهم كانوا كاذبين، وهؤلاء المجرمون يريهم الله بصيصًا من النور لكنهم يستكبرون للحفاظ على حظوظهم من الدنيا، فيقنع نفسه أنه على حق، ثم يوم القيامة يعلم أنه كان يكذب على نفسه، فمن مكر الله به صار يعتقد أن ذلك الكذب هو الحق، لكنه سيعرف يوم القيامة أنه كان يكذب على نفسه.

فالهدف من البعث هو كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: الآية ٣٩]، فهذا هو الهدف والغاية والقصد.

◈ **تنبيه: سبب تكرار هذه المعاني: الفهم والاستيعاب؛**

فالفهم هو مرحلة من ست مراحل مطلوبة منك وهي:

(إحضار القلب، والفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء) كما ذكرها أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ[(١)].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٦١).

فـ (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون):

هذا بيان عياني مشترك لجميع الخلائق يوم القيامة. ويوجد بيان آخر معنوي خاص بالمؤمنين وهو: (اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك).

المسألة فيها صراع بين الحق والباطل، وهناك اختلاف بين أهل الحق وأهل الباطل وأنت تدعو أن يهديك إلى الحق؛ (اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

انظر إلى التوسل إلى الله سبحانه بما هو أهله.

وذلك مثل قولك: (يا رب ارزقني فأنت الرزاق، واعف عني فأنت العفو تحب العفو، وأكرمني فأنت الكريم، وانصرني فأنت الملك العظيم، وطهرني من الذنوب والخطايا فأنت القدوس).

هذا هو التوسل؛ فالنبي ﷺ يتوسل إلى الله طالبًا للهداية؛ فيتوسل بأن الله يهدي من يشاء، فيثبت كمال الملك لله وكمال الربوبية لله، فيتوسل بـ (إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

ولك أن تذكر آية «سورة الزمر»؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٥].

كيف بك وأنت تتصور حال النَّبي ﷺ في مواجهة هؤلاء الناس، تخيل النَّبي ﷺ وهو يدعو الناس، وهذا الدعاء في صلاة القيام، ففي النهار للنَّبي ﷺ سبح طويل؛ ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾ [المزمّل: الآية ٧] وهو في الدعوة يجد تعنت الكافرين ويجد إيذاء كثيرًا منهم، فكيف يكون وقع الكلمات على قلب الرسول ﷺ، وقلب الرسول هو أجمل

وأوسع وأكرم وأمجد عرش، فهو أعرف الناس بربه، وأتقاهم لربه، وأعبدهم لربه، وأحبهم لربه ﷺ، فتصور حين يسمع الرسول هذا من أغبياء بني آدم لو كان إنسانًا آخر مكان الرسول ﷺ ماذا فعل؟ من الممكن أن يتشاجر، أو يحاول ارتكاب شيء يفرغ به طاقته، ويكون سريعًا جدًّا في الغضب.

ولكن الآية الَّتي بعدها: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزُّمَر: الآية ٤٦] تكون كالبلسم على قلب النَّبي ﷺ ليتحمل أذاهم. فجعلها في الافتتاح لأنه أفهم الناس بكلام الله ﷻ.

الصيغة الحادية عشرة

كان النبي ﷺ أول ما يدخل في الصلاة (صلاة القيام) وبعد تكبيرة الإحرام: يكبر عشرًا، ويحمد عشرًا، ويسبح عشرًا، ويهلل عشرًا، ويستغفر عشرًا.

ويقول: «**اللهم اغفر لي واهدني وارزقني [وعافني]**» عشرًا، ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الضيق يوم الحساب**» عشرًا[(١)].

كان يكبِّر عشرًا، أي يقول: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر... فيتمها عشرًا).

تأمل فائدة التكرار؛ زيادة الثناء وكذلك الارتقاء بالقلب من الدنيا للآخرة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٦٦)، والنسائي (١٦١٧)، وابن ماجه (١٣٥٦)، وأحمد (٢٥١٠٢).

ما الَّذي يشغلك حين تدخل في الصلاة؟ الرغبة والرهبة والتشويش بالدنيا، فتقول (الله أكبر) ثم تتأمل ما الذي يشغلك وتقول (الله أكبر)، ثم تتفكر في عظمة الله وتقول (الله أكبر) أي أن الله أعظم بكثير مما تفكر، وهكذا. فلا فرصة للتشويش. وهذا التكرار ثناء على الله ﷻ بما هو أهله. والثناء معناه (تكرار المحامد).

وكان الرسول ﵇: (يحمد عشرًا). فيقول: (الحمد لله، الحمد لله... حتى يتمها عشرًا)، وفي كل مرة ترتقي بقلبك في معاني الحمد وقد فهمنا معناه.

(ويسبح عشرًا، ويهلل عشرًا)، ومعنى يهلل أي يقول: (لا اله إلا الله).

(ويستغفر عشرًا).

فالنَّبي - عليه الصلاة والسلام - يريد تحصيل الخير كله في هذا الدعاء، وكان يقرأها على مكث (تقريبًا نصف ساعة) ويقول بعد ذلك: «**اللهم اغفر لي واهدني وارزقني**» وفي روايةٍ زيادةُ: «**وعافني**» عشرًا.

فيحصل الخير كله بهذا الدعاء، وكأنه أثنى على الله ﷻ بما هو أهله في التكبير عشرًا، والتحميد عشرًا، والتسبيح عشرًا، والتهليل عشرًا، والاستغفار عشرًا، ثم يدعو - عليه الصلاة والسلام؛ لأن المانع من استجابة الدعاء الذنوب والمعاصي، فأزالها بالاستغفار ﷺ، وأي استغفار بعد أن ذكر الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم دعا الله ﷻ فقال: «**اللهم اغفر لي واهدني وارزقني**»، وفي رواية: «**وعافني**» عشرًا.

ثم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الضيق يوم الحساب) عشرًا.

جرب حفظ تلك الصيغة والصلاة بها، وهي لا تحتاج إلى شرح لأن كل جملة تكرر عشرًا.

وأنا حقًّا أدعوك لهذه الصيغة في قيام الليل، وذلك لمسألة التكرار بها، فتمهل في الكلام وحاول أن تتدبر الكلام، وتتدبر (الله أكبر، والحمد لله، والتسبيح، والتهليل، والاستغفار، ثم: اغفر لي واهدني وارزقني، ثم: اللهم إني أعوذ بك من الضيق يوم الحساب).

الصيغة الثانية عشرة

«**الله أكبر**» ثلاثًا، «**ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة**»(١).

(الله أكبر) ثلاث مرات، ثم (ذو الملكوت، والجبروت، والكبرياء، والعظمة)، نؤجل هذه الصيغة؛ لأن الفرق بين الكبير والعظيم لم يفتح علينا فيه حتى الآن بالرغم من وجود النصوص والآيات والأحاديث، فننتظر الفتح من الله ﷻ، ولكن نستطيع أن نلقي بعض الأضواء.

■ **أولًا: ما الملكوت؟**

* **ذكر الملكوت في أربعة مواضع في كتاب الله ﷻ:**

١- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٨٥]، فكل إنسان مطالب بالنظر في الملكوت، فما الملكوت؟!

٢- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٤)، والنسائي (١١٤٥)، وأحمد (٢٣٣٧٥).

ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: الآية ٧٥]، انظر للسياق، وما فكر به إبراهيم عليه السلام في مسايرة القوم أو مجاراتهم حتى يصل بهم إلى طريق مسدود، فقال هذا الكوكب ربي، هو بالطبع لم يصدق ذلك من داخله لكنها مجاراة لمن حوله؛ (فالتفكر في تلك الأمور وفي أسرار الأشياء، وفيما تدل عليه، وما تشتمل عليه وما غايتها، والسنن التي تحكمها، هذا هو الملكوت) فالملكوت هو أسرار الأشياء.

٣- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: الآية ٨٣].

٤- ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون: الآية ٨٨].

ماذا تعني (ملكوت كل شيء)؟

ترجح لدي والله أعلم من هذه الآيات أن معناها: بيد الله عز وجل أسرار كل شيء.

مثلًا: الدبابة لها ملكوت كـ (أسرار البنزين، وغرفة الاحتراق، والعسكري الَّذي يسوقها، والضابط الَّذي يعطي الأوامر، والحديد الذي بها، والإشارات الكهربائية، كل ذلك مبني على ذرات وإلكترونات ونيترونات وبروتونات)، كل تلك أسرار لا يملكها سوى الله سبحانه وتعالى، فبيده ملكوت كل شيء.

ومثلًا: وأنا أحاول أن أجتهد حتى أفهم قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه: الآية ٩٧] أنا أفهمها كمهندس يفهم بالكهرباء ويعمل بها، أن الشخص إن كان جسمه مختلًّا كهربيًّا ووقف

على عازل خشبي وحاول شخص الإمساك بك شعر بالكهرباء، فسيطلب منه ألا يلمسه.

فالإنسان كل جسمه عبارة عن ذرات، والذرات هي نواة حولها إلكترونات، والكهرباء عبارة عن بعض إلكترونات في المدار الأخير تخلت عن الذرة وسارت في السلك، مترددة في التيار المتردد ومستمرة في التيار المستمر، فجسدك كله ذرات وإلكترونات فكيف تستعلي على ربك، فببعض اللخبطة في كهرباء الجسم يحق لك أن تقول لا مساس.

كذلك الجلد توجد فيه طبقة تحمي الإنسان من الشعور بالمؤثرات الخارجية، فلو حرقت هذه الطبقة الخارجية فسيشعر بالألم الشديد ولا يستطيع إنسان أن يلمسه.

تخيل النفخ في الكير عند الحداد والنار المتوهجة والشرار المتصاعد، وحجم الشرار الضخم، ثم أُلْقِيَ إنسان فيه، ماذا يكون شعورك وأنت ترى ذلك؟

ستمتعض وتتألم وأنت ترى مفصلات الأصابع وقد انكمشت، فتشعر بالخوف والرهبة من إلقاء إنسان في فرن كهذا، وتتأثر جدًّا بهذا المشهد، ولكن حين نتكلم عن نار جهنم بالساعة والساعتين، يُقال لك: إن رحمة الله واسعة، معنى ذلك أنه لا يقين، فهو قد رأى بالفعل فرن الحديد والصلب، ورأى الناس والمسبك لذلك هو ممتعض ومتأثر جدًّا، ولكن النار والتي هي بمقدارها سبعين مرة على الأقل، لا تأثير لها عليه، وكأنه لم يستمع إلى شيء، وذلك دليل على عدم وجود يقين بالقلب، لذلك نحن نحاول إحياء اليقين بالقلب عن طريق أسماء الله تعالى ومعايشة

القرآن والمدارسة وما إلى ذلك.

فعلى الإنسان أن يجاهد ويجتهد حتى يصل إلى إحضار قلبه وإلى إفهامه هذه المعاني.

فيكون الملكوت هو أسرار الأشياء، وزمام الأمور. فكل شيء زمامه بيد الله ﷻ؛ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هُود: الآية ٥٦].

■ **ثانيًا: ما الجبروت؟**

يقال نخلة جبارة أي طويلة، وهي من العلو، واسم الله الجبار جاء بين العزيز والمتكبر؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحَشر: الآية ٢٣].

وكنا نقول في الدعاء: (واجبر كسرنا)، وللمكسور الجبيرة؛ إذًا فالجبار هو الذي يصلح ما انكسر مهما عظم ذلك المكسور، حيثُ لا يقوى غيره على هذا الإصلاح ليعيده لأصله.

فمن ذا الَّذي يقوى على إصلاح القلوب المنكسرة؟ لا أحد إلا الله ﷻ، فهو ذو الجبروت، فالجبروت وجه من العظمة، أين العظمة؟ العظمة في إصلاح ما انكسر، ولا يقوى على ذلك إلا الله ﷻ.

لو انشق جبل مثلًا، وكما نعرف أن تلك الجبال وجودها يضغط على الأرض لما لها من أوتاد، وقواعد، لها أربعة أضعاف ونصف من ارتفاع الجبل، فالجبل بقدر ارتفاعه له جذور في الأرض، فحين يدمر يخف وزنه، فيزداد الماء من تحته، فيحدث اختلال في اتزان الأرض وبالتالي يمكن أن تميد الأرض، أو تجنح، وقد تحدث أشياء كثيرة، ولكن عند الجبار كل ذلك لا شيء.

فالقادر على الهيمنة وعلى الإعادة إلى ما كان عليه وأحسن هو الله (ذو الجبروت والعظمة) سواء من ناحية الإصلاح أو من ناحية أنه هو العزيز الجبار المتكبر، وهذا الكلام نؤجل شرحه لما بعد، فسيمر علينا في الركوع والسجود أيضًا.

■ **ثالثًا: ما الكبرياء؟**

ذكر في كتاب الله ﷻ، وتستطيع أن تفهمها بسهولة في الآية: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس: الآية ٧٨].

وما معنى الكبرياء في الأرض؟ الكبرياء هنا بالنسبة لقوم فرعون، ويقصدون به الرئاسة والسيادة. وكان فرعون هو حاكمهم وإلههم ورئيسهم الذي كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: الآية ٢٤]، ويقول: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥١]، فهذه هي الرئاسة والجاه، وكل من عنده مرض الجاه والرئاسة فهو لديه شعبة من كفر فرعون. وليس كفرًا أكبر مخرجًا عن الملة لكنه شعبة من كفر فرعون. فكل منهم يريد أن يكون الرئيس الذي يشار له بالبنان وأن يكون صاحب الجاه أو السلطان ويمشي منتشيًا، وهذا شعبة من كفر فرعون والعياذ بالله.

فالكبرياء في آية يونس معناه: (العلو والشرف على من سواهم) فلا أحد أعلى منهم.

لذلك حين فرق شيخ الإسلام بين الكبرياء والعظمة قال: «**الكبرياء**

رداؤه والعظمة إزاره»[(١)]، فمن الأعلى بالنسبة للإنسان؟ (لأن هذا على وجه التمثيل كما شرحنا سابقًا) فالرداء بالنسبة للإنسان هو الأعلى، والإزار هو الأسفل، «**فمن نازعني واحدا منهما**..»[(٢)].

فأنت تريد أن تنازع الله في ردائه أي في كبريائه؟ فأنت في النار، وتريد أن تنازع الله في إزاره أي في عظمته؟ فأنت في النار، كالذي ينازع إنسانًا في ردائه وإزاره.

وهذا على وجه التمثيل - ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض - كما جاء في الأثر: «سبحان من لبس المجد وتعطف به»[(٣)]، إذًا فالكبرياء هنا أعلى من العظمة، هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية.

■ **رابعًا: ما العظمة؟**

بمعنى (العظيم) وهي دلالة على مجموعة أسماء لله ﷻ: (الجلال، الجبروت، والسعة والكبرياء، والعلو) فهي معاني متضمنة.

لكن حين نقول (الكبير) فهي ليست دلالة على عدة أسماء مثل العظيم، فالعظيم يدل على عدة أسماء ولكن (الله أكبر كبيرًا) دلت على شيء ثان.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٧٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ**».
وأخرجه مسلم (٢٦٢٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**».

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤١٩)، بلفظ: «سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ المَجْدَ وَتَكَرَّمَ بِهِ» بإسناد ضعيف.

قد نكون قد قصرنا في معاني تلك الصيغة ولكن أنت يمكن أن يفتح الله عليك، وكل تلك المعاني التي قد ذكرناها هي كنقرة عصفور ببحر كما قال ابن القيم[(١)]. لكننا نحاول فك بعض طلاسم قلوبنا.

إذًا (ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة):

كلها تؤخذ على أنها العظمة والعلو والقهر؛ كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: الآية ٣].

لقد كان في نيتي أن أبدأ في أذكار الركوع، والرفع من الركوع، والسجود؛ ولن تأخذ وقتًا بإذن الله؛ لأنها أذكار مكررة شرحناها من قبل، ولكن ما سيستغرق منا وقتًا هو (بيان الحكمة من الهيئة).

فلماذا وأنت قائم تقرأ الفاتحة والقرآن؟ وحين تركع يكون التعظيم - «**وأما الركوع فعظموا فيه الرب**»[(٢)] - لماذا؟

ج: لأنه عبارة عن خضوع، فمن عرف ربه بالعظمة الكاملة عرف نفسه بالخضوع الكامل، فجسمك وهيئتك بالركوع هي الَّتي تذكرك بقدر نفسك وضعفها أمام قدرة الله، لأن العظيم أن تعرف ربك بالعظمة الكاملة، كما مر بنا في شرح اسم الله (العظيم) فتذكر عظمة الله في إنزال الماء، وفي خلقك من نطفة، عظمته سبحانه في النار، في الأشجار والزرع، وكل الكون بجبروت الله واقتدار الله يشترك في إنبات تلك الشجرة، كل عود برسيم أو حلبة يشترك الكون كله في إنباته علميًّا.

فالهيئة تساعد على التعظيم، فأنت في حالة خضوع كامل، فتتناسب

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الهيئة مع الأذكار مع التعظيم؛ (فأما الركوع فعظموا فيه الرب).

ثم **نذكر السجود**، فنجد سفلًا كاملًا وانحطاطًا كاملًا، لذلك لا ترفع اليد حين النزول للسجود، لأنهما تنحطان إلى السفل، أنى لك أن ترفعهما، فبعد القيام والاستفتاح وما قد فهمته به والفاتحة والقرآن والركوع والخضوع والرفع من الركوع أنت الآن تتهيأ لأعظم الأركان في الصلاة وأشرفها، وهو السجود، وكأن كل ما مضى هذا كان مقدمة للسجود، فكيف لك أن ترفع يديك، فأنت تتهيأ للنزول، فتنزل باليدين قبل الركبتين، ثم الركبتين ثم الوجه، وهكذا حال السجود.

هذه الهيئة تدل على مدى انخفاض وسفل الإنسان أمام علو الله ﷻ، فالهيئة تذكرك بعلو الله حتى تذكرك بانخفاض قدرك.

فها قد اجتمع اللسان مع القلب مع الجارحة. وهكذا حتى نصل إلى آخر الصلاة، الَّذي هو جلسة التشهد والتي تسمى جلسة العبيد والتي دومًا ما أذكر بها، فما جلسة العبيد؟

حين تدخل على ملك، فتثني عليه بما هو أهله، وتحييه بما هو أهل له، ثم في النهاية تجلس منكسرًا تطلب مسألتك، فتلك تسمى جلسة العبيد.

يقول قائل: في التحيات أنا لا أطلب، فكلها ثناء على الله؟

ج: حديث فضالة بن عبيد: «**إذا سأل أحدكم ربه، فليثني عليه بما هو أهله ثم ليصلي علي، ثم ليتخير من الدعاء ما شاء**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٦)، والنسائي (١٢٨٤)، وأحمد (٢٣٩٣٧) عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، بلفظ: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ =

إذًا تثني على الله بما هو أهله في جلسة العبيد، ثم تصلي على النبي ﷺ، ثم تطلب ما تشاء، والنبي ﷺ يقول: «**فليتخير من الدعاء ما يشاء**»(١) حتى يخرج الدعاء من القلب، وتتضرع وتطبق وتعايش معاني التضرع التي مرت بنا، ففي آخر الصلاة يكون قلبك قد صار عرشًا للمثل الأعلى لله ﷻ.

معرفته ومحبته وإراداته، فحين تدعو تدعو بإخلاص وتضرع، بعد ما عايشته من معاني الفاتحة والأذكار والركوع والسجود، تكون قد خشعت، فتطلب من الملك وأنت منكسر في جلسة العبيد، وأنت تشير بالتوحيد بإصبعك متخيرًا من الدعاء ما تشاء، ولك أن تطيل في الدعاء كيفما تريد خصوصًا في صلاة القيام.

ثم تسلم وتختار اسمه تعالى السلام؛ لماذا؟

لأنك كنت بين يدي الله في حصن حصين وحرز أمين مكين، فلقد كنت بين يدي الملك، وما من أحد يستطيع أن يتمكن منك، ولا الشيطان

= اللَّهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَجِلَ هَذَا**»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ - أَوْ لِغَيْرِهِ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**».

(١) ورد هذا اللفظ في حديث التحيات: أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو**».

لكن في حالة لو كنت فعلًا متأثرًا ومعايشًا لما تحدثنا عنه من المعاني، وأنت ستخرج من الصلاة لمخالطة الناس والأخلاق الرديئة، والنساء الكاسيات العاريات، والبلاء من كل حدب وصوب، فمن الذي يسلمك من هذا كله؟ إنه السلام. فكأنك تطلب الهدية الكبيرة والمنحة والأمان من الله (بسم الله السلام) فيما ستستقبله في الدنيا بعد انصرافك من الصلاة، فحين ترجع إلى الصلاة مرة أخرى لا يكون إلا صغائر يكفرها الوضوء والصلاة.

أذكار الركوع

أيها الإخوة الأعزاء:

ما زلنا نحاول أن نفهم الأذكار التي وردت في الافتتاح والفاتحة وفي القرآن بعد الفاتحة، وفي أذكار الركوع، وفي أذكار الرفع من الركوع، وفي أذكار السجود وبين السجدتين، وفي التشهد إلى أن ينتهي المصلي من صلاته بالتسليم.

وهذا هو النصف الأول.

والنصف الثاني: هو أن يجتهد كل منا في صلاة القيام حتى يمن الله ﷻ عليه بالخشوع، وباستثمار هذا الفهم تستطيع أن تتشرب هذه المعاني فعلًا، فلا يكفيك أن تفهم فحسب، ولكن عليك (إحضار القلب ثم التفهم بمحاولة واجتهاد، ثم التعظيم والهيبة والرجاء والحياء)، فهي ست مراحل كما ذكرها الغزالي[١].

نبدأ في أذكار الركوع، بعد أن انتهينا من أذكار الاستفتاح:

وقبل ذلك نذكر عبارة لابن القيم من كتابه (الصلاة) كمقدمة لهذه الأذكار، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٦١).

شُرع للراكع أن يذكر عظمةَ ربه في حال انخفاضه هو وتطامنه وخضوعه، وأنه سبحانه يوصف بوصف عظمته عما يضاد كبرياءه وجلاله وعظمته، فأفضلُ ما يقولُ الراكع على الإطلاق: «سبحان ربي العظيم» فإنَّ الله سبحانه أمر العباد بذلك، وعين المبلغ عنه السفير بينه وبين عباده هذا المحل لهذا الذكر لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: الآية ٧٤] قال: «**اجعلوها في ركوعكم**»(١)(٢).

- وإن كان في سند هذا الحديث كلام، فالصحيح هو قول الرسول ﷺ: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**»(٣).

وأبطل كثير من أهل العلم صلاة من تركها عمدًا - أي من ترك سبحان ربي العظيم - وأوجب سجود السهو على من سهَا عنها، وهذا مذهب الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الحديث والسنة، والأمر بذلك لا يَقْصُر عن الأمر بالصلاة عليه ﷺ في التشهد الأخير، ووجوبه لا يقصر عن وجوب مباشرة المصلي بالجبهة واليدين، وبالجملة فسرُّ الركوع تعظيم الرب جل جلاله، بالقلب والقَالب والقول، ولهذا قال النبي ﷺ: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**».

هذا هو الذي ذكره ابن القيم عن الركوع(٤).

فما الأذكار الثابتة عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كما ذكرها

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) «الصلاة وحكم تاركها» (ص٢٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) «الصلاة وأحكام تاركها» (ص١٤٥ - ١٤٦).

الشيخ الألباني في كتابه: «صفة صلاة النبي ﷺ» بعنوان: (أذكار الركوع):

«كان يقول ﷺ في هذا الركن أنواعًا من الأذكار والأدعية تارة بهذا وتارة بهذا».

أولًا: هل كان رسول الله ﷺ يذكر الله ﷻ بصيغتين، وثلاث أم هي صيغة واحدة يكررها؟ هذه مسألة فيها خلاف.

ابن القيم رحمه الله خطَّأ من قيد التسبيح في الركوع بثلاث مرات(١).

وعلي أي حال فهي ثابتة للشيخ الألباني وصححها(٢) (يقول رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارقطني والطحاوي والبزار والطبراني في «الكبير» عن سبعة من الصحابة).

ويقول المعلق على الكتاب: (وفيه ردٌّ على من أنكر ورود التقييد بثلاث تسبيحات، كابن القيم وغيره).

يقول الشيخ الألباني رحمه الله:

«كان يقول ﷺ في هذا الركن أنواعًا من الأذكار والأدعية تارة بهذا وتارة بهذا.

---

(١) قال في «الصلاة وأحكام تاركها» (ص١٥٤): وأما حديث تسبيحه في الركوع والسجود ثلاثًا فلا يثبت، والأحاديث الصحيحة بخلافه، وهذا السعدي مجهول لا تعرف عينه ولا حاله. وقد قال أنس أن عمر بن عبد العزيز كان أشبه الناس صلاة برسول الله ﷺ وكان مقدار ركوعه وسجوده عشر تسبيحات.

(٢) قال في «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٢/ ٦٥٠): فيه أحاديث كثيرة يدل مجموعها على ثبوت تَقْييده بثلاث. خلافًا لابن القيم. (ثم ذكر الأحاديث الواردة فيه).

- الحديث الأول: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارقطني:

أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه: (سبحان ربي العظيم) (ثلاث مرات).

- وكان أحيانًا يكررها أكثر من ذلك.

- وبالغ مرة في تكرارها في صلاة الليل حتى كان ركوعه قريبًا من قيامه.

- وكان قرأ فيه ثلاث سور من الطوال: البقرة والنساء وآل عمران يتخللها دعاء واستغفار كما سبق في «صلاة الليل»... انتهى[١].

الصيغة الأولى

«**سبحان ربي العظيم**» (ثلاثًا).

شيءٌ عجيب، انظر لو سلمنا أنه قرأ «سورة البقرة» فحسب، ثم ركع بقدر قيامه، ماذا كان يقول - عليه الصلاة والسلام -؟ كان يقول: «**سبحان ربي العظيم**» ويكررها[٢].

هل أدركتم الآن سر إصراري على قيامكم لقيام الليل؟

لما شرحنا اسم الله (العظيم) قلت إن هذا كنقرة عصفور في بحر، لأنه مجرد ذكر بعض عظمة الله، أما عظمة الله ﷻ على الكمال فلا

(١) «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٢/ ٦٤٩ - ٦٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٨٦)، والترمذي (٢٦١)، وابن ماجه (٨٩٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وأخرجه النسائي (١١٣٣)، وابن ماجه (٨٨٨) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

يحصيها إلا هو ﷻ.

وإذًا فرسول الله ﷺ يركع، فلو قرأ سورة البقرة، فكم الوقت الذي استغرقه؟

نصف ساعة مثلًا، طبعًا هو قرأ الثلاث الطوال[1]، لكن نفترض أنها سورة البقرة فحسب، فهل أنت تتخيل أنك ركعت نصف ساعة؟!

أنت لو لم تركع إلا عشر دقائق فحسب تكسر ظهرك، والمعتاد المتمرس لا يظل أكثر من ذلك.

وكان الرسول يهصر ظهره ﷺ[2]، يعني يجعله أفقيًّا على ميزان الماء، فأخذ الوضع الذي فيه تعظيم الرب من ناحية الهيئة، والهيئة تَحُثُّ الإنسان على أن يعظم الله بالقلب مع اللسان، وخط الهيئة عامل مساعد، يذكرك بصغرك وحقارة شأنك وذُلِّكَ. لماذا؟

لأنك ذكرت الله بعظمته وباسمه تعالى العظيم، وعند إذٍ ذللت وحقرت نفسك، وصغرت من نفسك وخضعت لله غاية الخضوع، لأنك تقول: (سبحان ربي العظيم).

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢) عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ «الْبَقَرَةَ»، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ «النِّسَاءَ»، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ «آلَ عِمْرَانَ»، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ.

(٢) أخرجه البخاري (٨٢٨) عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

والسؤال: في أي شيء أتفكر حين أقول: (سبحان ربي العظيم)؟ وهل أستطيع أن أستعيد كل ما استمعنا إليه من عظمة الله؟

(الشجر- النجوم - الأفلاك - الكواكب - الشمس - القمر- خلق الإنسان - الأسماك - الدواب - الأكسجين- يُبدئ الخلق ثم يعيده - الماء - الأنهار - البحار - الزلازل - البراكين - السنن - القوانين) كل شيء يذكرك بعظمة الله ﷻ.

فهل تذكر أنت كل ذلك في تسبيحة واحدة؟! لا؛ إنما في كل تسبيحة تذكر شيئًا.

وانظر إلى الرسول ﷺ كم مرة يسبح، يسبح بقدر قراءته «سورةَ البقرة» و«النساء» و«آل عمران».

عدد آيات «سورة البقرة» (٢٨٦)، و«آل عمران» (٢٠٠)، و«النساء» (١٧٦)،

يعني قرابة (٦٠٠) آية وأكثر، والمسافة التي بين التسبيحة والتسبيحة قدر (آيتين)، إذًا يسبح تقريبًا حوالي ثلاثمائة وخمسين تسبيحة يتخللها استغفار ودعاء في الركوع.

ونحن طبعًا نقرأ الصيغة هكذا دون تأمل!!

فحاول تصور: (سبحان ربي العظيم) وأحضر قلبك في كل منها، وانظر كيف يكون حالك.

ولو أنك قلت: (سبحان ربي العظيم) فذكرت الزراعة والنباتات صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، وذكرت هذه الآيات كلها فإن

صارت لا تؤثر بقلبك فانتقل إلى الأفلاك، ثم انتقل إلى خلقك أنت والعروق والكهرباء والقلب والرئتين، وهكذا، هذا معنى التسبيح بعظمة الله، كما جاء في كتاب الله ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: الآية ٧٤]، ولماذا لا نقول: (سبحان اسم ربي العظيم)؟ فما معنى ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: الآية ٧٤]؟

جاء عن الله ﷻ (سبِّح اسم) وأيضًا (سبح باسم)، تأمل: أنت عندما تؤمر بالتسبيح (باسم ربك العظيم) فإذا كان الاسم مسبحًا، فكيف بالمسمَّى «وهذه قاعدة».

فإذا كان العرش كريمًا، فكيف بكرم خالقه، وإذا كان العرش مجيدًا فكيف بمجد خالقه. وهذه هي القاعدة.

كذلك (تبارك اسمك) فكيف بتبارك المسمَّى سبحانه وتعالى وعز وجل، فتكون قد وصلت القمة بأن تقول (سبحان ربي العظيم).

تصور هذا المعنى ثم تذكر عظمة الله كما يوصلك إليها اجتهادك، واحد مثلًا يفكر في القدر، وواحد يفكر في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: الآية ٣٣]، قيوم على كل إنسان، على كل خلية، على كل جهاز، العالم كله يسير بقدر الله تعالى، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وواحد يفكر في عظمة الأفلاك والنجوم، شيء يحير؛ هذه الأفلاك والنجوم وحجمها لا يتصور فكيف بسماء الدنيا، فكيف بالثالثة إلى أن تصل إلى العرش؟

وهكذا تظل تتفاعل مع عظمة الله، وكما قلنا قلبٌ أشرب معنى اسمه

تعالى «العظيم»، وهل العظيم يدل على معنى واحد كالغفور مثلًا أو كالرحيم؟ لا، وإنما يدل على أسماء كثيرة له ﷻ، يدل على جمع كبير من أسماء الله «عظمته، وجلاله، وكبريائه، والسعة، والعلو، والمجد»، كل ذلك يربي فيك العظمة، ثم هو يختم بهذه الصيغة: «سبحان ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة».

تأمل لو أن هذا الاسم «العظيم» من أسماء الله تشربه قلبك فعلًا؟

أنا أَعَنْتُكَ وتعاونت معك على البر والتقوى وذكرتك بعضًا من معنى العظيم، وأنت عليك دور كبير باجترار المعاني، والتفكر فيها وحدك، ومع أهلك أيضًا، ومع أصحابك، والنظرة تكون عبرة، وتستمر في التفكير؛ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٤]. . . الآيات.

إذًا فقلبك يتشرب معاني العظمة، فيأتي التضرع، وهو من الضرع: كأنك تعصر القلب ثم يخرج في اللسان ويظهر على الجوارح، والقلب يصير في النهاية صالحًا لكي يكون عرشًا يستوي عليه «معرفة الله ومحبته وإرادته» أي صفات الله ﷻ، وهو ما يسمى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [الرُّوم: الآية ٢٧]،

والكثير لا يفهم معنى المثل الأعلى.

وشرحها ابن القيم يقول: «المثل الأعلى لله معرفته ومحبته وإرادته»[1]. أين معرفته؟ في قلب ابن آدم.

وأين محبته؟ في قلب ابن آدم.

---

(١) «الفوائد» (ص٢٧).

والإرادة أن تريد الله تعالى وتريد وجهه ﷻ. أين؟ في قلب ابن آدم.

فالقلب لو أشرب هذا بالفعل نضح بما فيه، أي نضح على اللسان وفي الهيئة.

عليك أن تذكر لو كنت راكعًا بهذه الهيئة لغير الله، كم تشعر بالذل وبالهوان؟

إذًا تشعر أن الركوع شيء خطير، لا ينبغي أن يكون لأحد أبدًا إلا للعظيم سبحانه وتعالى وعز وجل، هذه الهيئة، والقلب تشرب عظمة الله، واللسان يقول: (سبحان ربي العظيم).

هذا الكلام لا يشرح، ولذلك ابن القيم لم يشرحه، وإنما تتذوقه في صلاة القيام حين تقول مائتي مرة أو ثلاثمائة مرة: (سبحان ربي العظيم) وأنت تفهم المعاني.

(سبحان ربي العظيم)؛ العظيم فهمناه، وفهمنا شأن عظمة الله، وأنه اسم جامع لصفات متعددة لله ﷻ.

فما معنى سبحان؟ وستأتي (سبحان ربي الأعلى) وكذلك (سبوح قدوس)،

سبحان: أي تنزيه مستمر وتبعيد، كسبح في الأرض.

بين من التنزيه المستمر؟ بين الله ﷻ وبين كل نقص، وبين كل عيب، وبين كل ذم.

والتفصيل هذا في كتاب الله تعالى، راجع مادة سبحان والتسبيح، ومادة الحمد، ستجد تفسير ما أذكره، ودون البحث والمراجعة وقيام

الليل لن تستفيد شيئًا، فأنت عليك دور كبير جدًّا.

راجع التسبيح في القرآن، وذكر الحمد، لتعرف أين العيوب والنقائص التي نسبها إليه خلقه أو السفهاء من خلقه، وأغبياء بني آدم ونفاها القرآن.

مثلًا: لما عبد اليهود العجل، كيف أبطل الله إلهيته؟

قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: الآية ٨٩]، ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٨]، أليس هذا نقصًا؟ بلى، فهل من الممكن للناقص أن يكون إلهًا؟

بل قلنا: إن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يعبد، لماذا؟ لما له من صفات الكمال، التي تجعله يُحب بغاية الحب، ويذل له بغاية الذل والخضوع.

فكيف يكون عنده نقص ويحب غاية الحب، ويذل له غاية الذل، كيف؟ فهذا لا يكون إلهًا.

كل الكلام حول إثبات الكمال لله، وتنزيهه سبحانه وتعالى من أي نقص يشين من هذا الكمال.

سبق وقلنا أن التسبيح تنزيه عن النقص، وتنزيه عن النقائص، وتنزيه عن العيوب، وتنزيه عن الشر، وتتويج هذا التنزيه بأن تقول أنه سبحانه له الكمال كله، وله الحمد كله.

وحين تقول: (الحمد لله)، (ولك الحمد) تتوج (الحمد لله) بأنه (سبوح) لأن الاثنين مع بعضهما تفاعل؛ إثباتٌ ونفي.

تأمل وأنت تذكر عظمة الله ﷻ، عدة صفات لله في العظيم، مع الخضوع الكامل، وأنت في ركوع وخضوع، والهيئة تشرح لك ما معنى الخضوع: لمن حقه أن يخضع له غاية الخضوع، خشوع وخضوع، ظهرك أفقي، وعيناك إلى مكان السجود، وشكل معين في فقه الصلاة، وأحكام وردت، تضع الأصابع وتفرق بينها، وتباعد بين منكبيك وجنبيك، وهيئة معينة منضبطة، فلمن الخضوع؟ للملك العظيم سبحانه وتعالى وعز وجل، وأنت الحقير الذليل هكذا تشعر أنك لا شيء، تمام الخضوع بعد أذكار الافتتاح، وبعد الفاتحة، وبعد الاستماع لكتاب الله بحسب ما تيسر.

◈ **تلخيص:**

عليك أنت بذل الجهد في صلاة القيام، وفي مراجعة كتاب الله مواضع التسبيح ومواضع الحمد وكما قلنا (سبحان ربي العظيم) هل العظمة اسم واحد لله أم عدة أسماء جامعة؟ قلنا، لها عدة أسماء جامعة، تذكر منها ما شئت، ثم الكمالات لله والخضوع كله لله والذل كله لله، كيف نثبت الكمال كله لله؟

تقول «سبحان» وهي كلمة يُحَاشى بها ربنا عن السوء، فهي في النهاية تعظيم، وكما قلنا التسبيح يؤدي إلى المقابل وهو التعظيم، والتعظيم يؤدي إلى المقابل وهو التسبيح.. فأنت تثبت العظمة كلها لله، فأي نقص ينسب إلى الله سبحانه وتعالى وقد نفيت عن الله كل نقص؟! فلا نقص أبدًا، فهي العظمة.

إذًا فالتسبيح يؤدي إلى الكمال في العظمة، والكمال في العظمة يؤدي

إلى الكمال في التسبيح.

في النهاية: أنت تذكر عظمة الله على الكمال، وتعتقد أنك لن تحصيَ عظمةً لله أبدًا، وإنما تذكر منها ما يتيسر.

من القيام إلى الركوع تقول: (الله أكبر)؛ فما المراد بالتكبير؟

تنبيه: من القيام إلى الركوع ماذا نقول (الله أكبر) تجديد العهد بها باستمرار في الصلاة،

(الله أكبر) يعني أكرم وأعظم، بالطريقة التي شرحناها في الدرسين الماضيين.

ولذلك نقول: إذا غلبك الشيطان عند قراءة القرآن فأطال الإمام مثلًا، وصوته غير مؤثر لا تشعر أنه يخشى الله، ولن يستطيع أن يجذب قلبك إليه، فشردت مثلًا، واستطلت القراءة، ومللت بعض الشيء، فتلك مصيبة وكارثة!

فما الذي يعينك أن ترجع إلى الأصل، وهو أن تقف بين يدي الله ﷻ، الذي يعينك على هذا أن تقول (الله أكبر) يعني أكرم.

فإذا شردت في النقود، في المنكح، في المشرب، في المطعم، في الأصحاب، في الجيران، أو كانت عندك رغبة في الدنيا أو غير ذلك. فتقول الله أكبر أن أنشغل برغبة ورهبة في الدنيا، أي شيء في الدنيا رغَّبك أو أرهبك فمن أكرم من الذي رغبك؟ من الذي أكرم منه؟ الله سبحانه وتعالى، ومن أعظم من الذي رهبك؟ الله سبحانه وتعالى، فعليك أن تستحي منه.

انظر إلى حال أهل هذا الزمان، وهو في الصلاة ينظر في الساعة، أو

يتثاءب قائلًا: (الله أكبر)، فهل هذه صلاة؟!

عليك أن تقول «الله أكبر» بالمعاني التي ذكرناها.

الصيغة الثانية

«**سبحان ربي العظيم وبحمده**» (ثلاثًا)[١].

ما معنى (وبحمده): في الحديث: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان (سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[٢].

ذكرنا فيما سبق معنى (سبحان ربي العظيم) وهنا يقول: (سبحان ربي العظيم وبحمده).

ما معنى الواو؟ وما معنى وبحمده؟

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: الآية ٩٨] قلنا: إن الحمد هو أن يكون الكمال كله لله، ولا يمكن أن يوجد نقص، فإذا انتفى النقص قابله الكمال لله ﷻ وهذا هو التسبيح بحمد الله إجمالًا.

أما التفصيل فارجع إلى كتاب الله في مواطن التسبيح، ومواطن الحمد، وقد ذكرنا أشياء من ذلك عند شرحنا التسبيح.

قوله: (سبحان ربي العظيم وبحمده):

س: العظمة حين يذكر معها الحمد، فما معنى (الحمد)؟

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٠) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ج: أي الكرم، والتذكير بنعم الله ﷻ.

* الحمد يشمل كله (حمد الثناء، وحمد العبادة) و(حمد الالآء والشكر والنعم).

س: وحين يقترن الحمد بالمجيد أو بالغني أو بالعظيم فبماذا يكون خاصًّا؟

ج: يختص بنعم الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

س: هل النعم هذه هي المطعم والمسكن والمنكح والمشرب والملبس فحسب؟

ج: «لا» فما من شيء إلا وفيه نعمة من الله على الإنسان، حتى الحجر في الجبل.

س: يقال هذا حجر وصخرة أيُّ نعمة فيه؟

ج: نقول الأرض ما جاءها قرار ولا اتزان إلا بهذه الأحجار، لا شيء مخلوق عبثًا أبدًا، فكل شيء فيه نعمة عليك أنت، لأن الله ﷻ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: الآية ١٣].

وهذا الحجر يخفي حشرة من الحشرات مثلًا، وهذه الحشرة تأكل حشرات أخرى، هذه الحشرات الأخرى لو لم تؤكل ولو لم تبد بجنود الله، لجاءت إليك وأكلت طعامك، فالمسألة اتزان الأمم.

فلا شيء في الأرض أبدًا إلا وفيه نعمة عليك أنت!!

* وعلاوة على ذلك معنى قولك (وبحمده) قلنا إنها أخص بالكرم، أما الحمد شامل لكل شيء بما فيه العظمة والعلو والكبرياء والمحامد،

ولذلك الحمد أحق ما قال العبد.

يقول: (سبحان ربي العظيم وبحمده) وهذا يشمل كل شيء، يقولها ثلاث مرات.

الصيغة الثالثة

«سبوح قدوس رب الملائكة والروح»[(١)].

شرح معنى سبوح:

س: ما معنى (سُبُّوح)؟

ج: يعني مُسبَّح «صيغة مبالغة» (سُبُّوح): الذي يستحق أن يُسبَّح، سبحهُ خلقهُ أم لم يُسبحوه.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] وقع عليه التسبيح من كل شيء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤] كل ذرة تسبح بحمد الله.

فحين تقول (سبوح):

- فهو الذي يستحق أن يسبَّح.
- ويسبِّحُ بحمده كلُّ شيء.

فما معنى يسبح بحمد الله؟

ج: يعني كل شيء يجأر، ويرفع صوته ولكن لا نفقه ذلك بحمد الله ﷻ، يسبح بحمد الله يعني ذلك أن يشهد شهادة حال على الأقل أن الله ﷻ محمودٌ في قدره، محمودٌ في صفته، محمودٌ في فعله، محمودٌ في

(١) أخرجه مسلم (٤٨٧) من حديث عائشة ﵂.

ذاته، وهكذا.

س: ماذا تعني سبوح؟

ج: التسبيح المستمر، وما الذي يكون بغير التسبيح؟ ربنا سُبُّوح وكل شيء يسبح بحمد الله، وماذا يحدث للذي لا يُسَبِّح له؟ يغرق!! فقد ذكرنا أن التسبيح كالسباحة على الماء، إذا توقفت عنها غرقت!!

فربنا سبحانه وتعالى هو (السبوح) فمن سبَّحه نجا، ومن لم يسبِّحه سقط وغرق، هو (السبوح) تريد أن تنجو في الدنيا والآخرة، فلا بد من التسبيح، لأنه السبوح وهذا حقه، وإن لم تسبحه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]. مثلًا:

- معدتك تسبح بحمد الله ولكنك لا تفهم! تسبيح قولي أو حالي هذا يعلمه الله عز وجل، ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

- رئتاك تسبحان بحمد الله، عظمك يسبح بحمد الله، وسيأتي ذلك في الصيغ أيضًا أن العظم يخشع، وأن الأعصاب تخشع، وأن المخ يخشع ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

فهل معنى سبوح أن تنزهه وتتوقف أم تستمر؟ بل تستمر، سبحته اليوم وتستريح غدًا؟ لا؛ لا بد من الاستمرار لأنه (السبوح) فالسبوح يتضمن أشياء ومعاني كثيرة.

عندئذ الإنسان يذكر نفسه بالضعف، وأنه يغفل كثيرًا، ويُنَسَّى كثيرًا، ففي أوقات كثيرة لا يسبح الله أو يصحو من نومه متأخرًا فلا يسبح الله في أذكار الصباح مثلًا أو في أذكار المساء، فغفل ونام، ماذا يفعل؟ وقد قلنا إن التوقف عن التسبيح، يغرق ويسقط في نار الدنيا والآخرة، **فما الحل؟**

ج: الحل: في التعبد لله باسمه (القدوس).

شرح معنى قدوس:

س: ما معنى (القدوس)؟

ج: القدوس: الطَّاهر الذي له الكمال في الطهارة.

لا يمكن أن تحدث طهارة في الكون كله، إلا وهي أثر من آثار اسمه تعالى القدوس، فهو الطاهر ذو الطهارة المطلقة «وصفًا وملكًا وفعلًا»، نرجع للقاعدة التي ذكرناها: (اللهم أنت السلام ومنك السلام).

فهو (القدوس) فإن أردت أن يقدسك الله ﷻ أو أردت أن تُقدَّس، فما لك من طريق إلا أن يقدسك الله لأنه هو (القدوس) فلو غرقت وسقطت وتركت التسبيح فترة، فاذكر أنه هو الله سبحانه وتعالى وعز وجل (القدوس) الذي يقدس من شاء من خلقه سبحانه وتعالى.

فبترك التسبيح يتلوث الإنسان، ويقل قَدْرُه، وتقلُّ منزلته، وقد يغرق في الدنيا، والغرق في الدنيا كالغرق في **المسائل المادية**، يظل عائمًا سابحًا على الماء، فالسباحة استمرار فوق سطح الماء، ولكنه قد يضعف ويغطس إلى أن يتقوى، أو يستريح أو يجدد الطاقة ويجدد العزم ويجدد التدريب، وهذا المادي.

والمعنوي؛ (سبوح) أي: يظل يسبِّح وينزه الله سبحانه وتعالى، بحسب صياغات القرآن الموجودة، وتفاصيل التسبيح، الإنسان ضعف ضعفًا معنويًّا بأن ترك التسبيح فترة أو سبح الله دون خشوع قلب، ومن غير استحضار المعاني.

معنى ذلك أنه سيستغرق في الفتن، وما الفتن؟ حوتُ الشَّهوات.

ما الذي جعله يغرق في الفتن؟ أنه ترك التسبيح، والحل أن الله هو (القدوس).

* ولذلك الراجح في قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]:

أي: (نقدس أنفسنا لك) يعني نعبدُ الله ﷻ، فنترقي في العبادة، لأن الذي يليق بمقام (القدوس) أن نكون أعلى من ذلك، وهذه هي توبة النبي ﷺ أنه كان يتوب في اليوم مائة مرة[1]؛ لماذا؟ لكي يرفع من درجاته عند الله، لأن الله هو (القدوس) فالذي يليق بمقام القرب منه أن تقدس نفسك؛ وبأي شيء تقدس نفسك؟

أولًا: بعبادة الله، بتسبيح الله، فلو وقفت التسبيح قليلًا، أو نسيت، أو غفلت، أو ضعفت، فما يعالجها؟

(القدوس)؛ فتسأله أن يقدسك بما ألمَّ بك.

ثانيًا: هو القدوس فمن حقه أن تتقرب منه، فكيف تتقرب منه؟

يلزمك أن تعبد الله أكثر، وأن تترقي في العبادات أكثر.

وأسماء الله تتذوق وتستشعر في صلاة القيام.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: **«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**. **وفي لفظ آخر ذكره: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**.
وأخرج البخاري (٦٣٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»**.

شرح معنى: ربُّ الملائكة والرُّوح:

* (سبُّوح قدوس) ثم تذكر وتؤكد هذا المعنى فتقول: (ربُّ الملائكة والرُّوح).

وما معنى (ربُّ الملائكة والرُّوح)؟

شرحنا هذا الكلام في (أذكار الافتتاح) عند شرحنا لدعاء (رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل).

وذكرنا أنه حين تذكر طهارة الملائكة، فكيف بطهارة خالق الملائكة، أو كيف بطهارة القدوس سبحانه وتعالى وعز وجل؟!

وانتبه فكما ذكر الإمام أحمد: «حظك من الإسلام على قدر حظك من الصلاة، ورغبتك في الإسلام على قدر رغبتك في الصلاة»[١].

ومعنى الطهارة: البعد والمباعدة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وما المقصود بالبعد والمباعدة؟ إن كان بجوار الإنسان قذر أو دنس، ثم أراد أن يبتعد عن هذا الدنس، فكيف يبتعد عنه؟

يقول لابنه مثلًا: تعالَ أبعِد عني هذا الدنس، وهو أيضًا ابتعد عنه، فهذا اسمه بعد ومباعدة.

قال تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٥٦] فمعنى الطهارة: «بعد ومباعدة».

(فأنت تنزه الله عن كل عيب ودنس ونقص، بعدًا ومباعدةً، وكلما نزهته تزداد تنزيهًا لأن الله مقامه أعلى وأعلى).

---

(١) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٣٥٤).

ولذلك الملائكة يقدسون أنفسهم: يعني يطهرون أنفسهم لله ﷻ، من ماذا؟ وهل عند الملائكة دنس أو رجس؟!

لا دنسَ أبدان، ولا دنسَ ثياب، ولا رجسَ في القلوب، فما معنى نقدس لك؟

التقديس مثل التوبة رفع للدرجات مثل قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التوبة: الآية ١١٧]، فهذا رفع للدرجات.

وقد وفَّى ﷺ كمال العبودية لله، والذي يليق بالله أعلى، فيجتهد قدر طاقته ببذل أقصى ما في وسعه، هذا هو الذي يليق بجناب الله العظيم، وهذه هي التوبة، وهذا هو التقديس لله ﷻ.

فالإنسان يترقَّى في العبادة فإن كان يصلي مثلًا في قيام الليل ركعتين بعشر آيات، يترقَّى لعشرين آية، ثم يترقى لمائة، حتى يكتب من القانتين، يترقى لله على الدوام، وكل هذا تقديس.

س: ما أنواع التقديس التي تقدس بها نفسك، أو التي يقدس الله ﷻ بها عباده؟

ج: على سبيل المثال: الطهارة، الوضوء، الصلاة، الاستغفار، وأعلاها القتال في سبيل الله.

أعلى أنواع التقديس القتال في سبيل الله:

هناك إشكال كبير حُلَّ بفضل الله بفهم اسميه: (الملك، القدوس)، فالإنسان الذي ذهب ليحارب في سبيل الله خاف من الدبابة ومن الطائرة ففر فتبعه العدو، وقتل، فهو في النَّار لأنه أعطى العدو دبره وفرَّ؛ ﴿فَقَدۡ

بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: الآية ١٦].

فَسِرُّ ذلك: أن الله ﷻ هو الملك، وأنت جندي من جنود الملك، كيفَ تجري أمام الجنود الكفار؟ كيف تفر أمام جنود أعداء الله؟ وأنت من جنود الملك؟!

يقول خائفٌ من الدبابة أو الطائرة أو الأسلحة وأنا ضعيف وسوف أُقتل، نعم تقتل كصاحب يس؛ ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

فأنت ستقتل في سبيل الملك؟ للملك؛ فمن ماذا تخاف؟

فلا بد أن تظل مقدامًا إلى أن تقتل، وأن يكون كل الذي تتمناه أن تقتل في سبيل الله، فلماذا تفر؟ تقتل يعني تقدس نفسك لله ﷻ، وهو (القدوس) يُقَدِّسُك فيدخلك الجنة.

س: كيف ندعو الله ﷻ باسمه القدوس؟

كلُّ اسمٍ من الأسماء له دعاء، سبوح له دعاء باسمه (السبوح)، قدوس له دعاء باسمه (القدوس).

الدعاء باسمه القدوس:

- **دعاء المسألة:** اللهم طهرني، اللهم خفف أرواحنا بإراقة دمائنا في سبيلك، ودعاء المسألة يتضمن دعاء الإخلاص.

- **ودعاء الثناء والعبادة:** (أنت الملك القدوس).

كل ما في دين الله هو اتباع للرسول ﷺ وهو نوع من التقديس، الصلاة تقديس، الوضوء تقديس.

◈ وهناك ثلاثة أنواع في التقديس:

- تقديس شرعي.
- تقديس قدري كوني.
- تقديس جزائي.

س: ما التقديس الشرعي؟

* أن كل شيء تتبع فيه النبي ﷺ هو تقديس شرعي.

* كل شيء تحاكي فيه النبي - عليه الصلاة والسلام - تطهير لنفسك تطهيرًا شرعيًّا.

- كالوضوء، قطرات الماء تكفر الذنوب، فالوضوء كفارة، والكفارة تطهير، فالوضوء تقديس شرعي.

- والسيف محَّاءُ الخطايا، فأكثر شيء يطهر العبدَ القتالُ في سبيل الله.

- المواظبة على الصلاة.

- الصدقة؛ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: الآية ١٠٣]، ليس تطهيرًا فحسب بل وتزكية ورفعة، والتطهر ليس من النجاسات. انتبه لهذه القاعدة:

إذا ورد تطهرهم وحدها فهي تتضمن التزكية، وإذا ورد تزكيهم وحدها فهي تتضمن التطهير.

وهنا اقترنا - (تطهرهم وتزكيهم) - فيكون المعنى (تطهرهم) يعني من الذنوب والمعائب، (وتزكيهم) ترفع درجاتهم.

* أما تطهرهم وحدها دون اقتران، فتكون بمعنى التطهير من الذنوب والرفعة والترقي للدرجات فتتضمن التزكية، وكذلك التزكية وحدها تتضمن التطهير. هذه مسألة يُنْتَبَهُ لها؛ (الأسماء حين تجرد وحين يُقرن بعضها ببعض).

مسألة التقديس بالنسبة للإنسان تعني التطهير:

وقلنا: إن أول نوع من أنواع التقديس التقديسُ الشرعيُّ وهو كل الدين.

- رمضان إلى رمضان كفارة. فالصيام تقديس.

- والحج تقديس لأن فيه مغفرة الذنوب.

- والاستغفار تقديس، والتسبيح تقديس، «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»(١). رواه البخاري في غير موضع.

- افتتاح الصَّلاة؛ «**اللهم باعد بيني وبين خطاياي، اللهم نقني من خطاياي، اللهم اغسلني من خطاياي**»(٢).

كل هذا تقديس شرعي، فالعبادات كلها تقديس.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ، سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «**أَقُولُ: اللهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ**».

- والشريعة المغيبة أعظم تقديس، فالحدود تقديس؛ (إنِّي زنيتُ فطهِّرني): هكذا قالت للرسول ﷺ[1]، طهرني يعني (قدسني)، إذا فإقامة الحدود تقديس.

اسمه «تقديس شرعي»، على مستوى (الشعائر) وعلى مستوى (الشرائع).

(إنَّ صلاتي ونسكي) شعائر، (ومحياي ومماتي) شرائع.

إذًا كل العبادات شعائر، وكل الشرائع وحدود الله ﷻ، والتحاكم إلى الله، كل هذا «تقديس شرعي».

لو فرضنا أن إنسانًا لا يُسبِّح ربه كثيرًا، ولا يستغفر كثيرًا، ولا يريد أن يقدس نفسه إلا بالصَّلاة فحسب، وهذا هو حالنا نحن، أقل من الحد الأدنى؟

فيأتي التقديس القدري، **وما التقديس القدري؟**

- المصائب التي نزلت علينا لماذا حلَّت بنا؟ لأنك لم تقدس نفسك تقديسًا شرعيًّا، إذًا تستحق أن تقدس تقديسًا قدريًّا، تأتيك المصائب، كل المقدرات عليك تطهير وتكفير للسيئات.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٥) عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنَ الْأَزْدِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ: «**وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ**» فَقَالَتْ: أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: «**وَمَا ذَاكِ؟**» قَالَتْ: إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فَقَالَ: «**آنْتِ؟**» قَالَتْ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهَا: «**حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ**»، قَالَ: فَكَفَلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ، قَالَ: فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**قَدْ وَضَعَتِ الْغَامِدِيَّةُ**»، فَقَالَ: «**إِذًا لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيرًا لَيْسَ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ**»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِلَيَّ رَضَاعُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ، قَالَ: فَرَجَمَهَا.

إذًا هناك تقديس شرعي وتقديس قدري كوني.

إنسان نزلت به المصيبة فلم يقل: (إنا لله وإنا إليه راجعون) فيطهر نفسه، ويأخذ أعظم منها في الدنيا والآخرة، ويصبر؛ «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[(١)]، ولا يجزع ولا يتسخط.

لكن إن تسخط ما نفعه التقديس الشرعي ولا التقديس القدري؛ فيأتيه **التقديس الجزائي؟**

- عذاب القبر ومشاهد القيامة فزع وغيره.

- والنار يظل فيها خمسة أو ستة أيام مثلًا، واليوم بألف سنة، يمكث خمسة آلاف سنة.

كل هذا تقديس، لأن المكان الذي سيذهب إليه بجوار رب العالمين، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القَمَر: الآية ٥٥]، اسمه «حظيرة القدس»، فالجنة اسمها «حظيرة القدس»، فكيف تدخل الجنة ولم تقدس نفسك؟!

◈ **فالخلاصة أن التقديس ثلاثة أنواع:**

شرعي قصرت فيه، فتأتيك المصائب فيصير تقديسًا قدريًّا، ولا مصيبة إلا بذنب، فإن سخطت أتاك التقديس الجزائي، وهذا التقديس بالنسبة للعبد.

التقديس بالنسبة لله ﷻ؛ كيف يقدسنا الله ﷻ؟

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ [الجُمُعَة: الآية ١]، ما الذي أتى بعدها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجُمُعَة: الآية ٢].

إذًا فما فائدة الشرع كله؟

تقديس؛ لأنَّه هو الملك القدوس، فهو الملك لا بد أن يأمر وينهى، وهذا الأمر والنهي تقديس لله حتى تجاوره في حظيرة القدس.

فهو قدوس في نفسه ﷻ (صفةً)، ويقدس من شاء من خلقه (فعلًا)، فهو الذي يملك التقديس، وصفته في ذاته القدوس.

فالقاعدة: اللهم أنت السلام (صفة) ومنك السلام (فعلًا).

وبعد (سبوح قدوس) تقول: (رب الملائكة والروح):

(الروح): روح القدس جبريل عليه السلام، خلقه الله ﷻ وهو روح القدس، روح الطهارة، وهو الذي يأخذ الكتاب المقدَّس للناس، المطهر للناس، الكتب السماوية والرسالات السماوية بالوحي.

فهو معظَّمٌ عند الله، له ستمائة جناح[1]، سد الأفق لما جاء النبيَّ ﷺ[2]، ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: الآية ١] فخلقه عظيم، فكيف بخالقه سبحانه وتعالى وعز وجل؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) سُئل زِرُّ بْنُ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النّجم: الآية ٩]، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ، «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ».

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧) عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ [التّكوير: الآية ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النّجم: الآية ١٣] قَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ**».

فحين تقول (رب الروح) يقشعر جسمك وتخاف وتخبت لله؛ لأن عظمة الروح - جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ - لا تتصور فكيف بعظمة خالقه؟

قسمنا الطهارة إلى مادية ومعنوية:

- المادية التي تسمى بالدنس؛ كأن يكون في الثوب مثلًا أو البدن أو المكان الذي تصلي فيه أدناس.

- أما القلب فطهارة معنوية، به الرجس الذي هو موانع الهداية، موانع الفهم، حُجُبٌ توجد على القلب وهي درجات ودرجات، كل شيء يحجب بين القلب والدرجة العليا التي تليق بالله عَزَّوَجَلَّ اسمه حجاب، مهما كان رقيقًا، حتى ولو كان غيمًا كما ذكره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّه لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١)، هذا تقديس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يقدس نفسه لله، وأعظم تقديس للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحرب، ولذلك في غزوة أحد لما كسرت رباعيته، وجرح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخلت حلقة المغفر في وجنته الشريفة(٢)، نزعها عنه أبو عبيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكسرت سنه(٣)، فكان يبرزها دائمًا، يتشرف بها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لأنه كسرت سنه في سبيل الدفاع عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الضرب والقتال والدم، من الذي يقدس نفسه بالدم لله؟

محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والملائكة ينظرون، زعماء الملائكة ينظرون وقد قالوا من قبل: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٠٣)، ومسلم (١٧٩٠).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» (٩١)، والبزار (١/ ١٣٢ رقم ٦٣).

لَكَۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠]، فقال الله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٠] لم يكونوا يعلمون أن منهم من سيقدس نفسه لله بإهراق الدم في سبيل الله، ومن على ذروتهم؟ أعظم خلق الله محمد ﷺ.

(ربّ الملائكة والروح) يتبين لك طهارة الملائكة، ومع ذلك يقدسون أنفسهم لله، كيف ذلك ولا دنس ولا رجس منسوب إليهم، إنما تطور وترقي واجتهاد في العبادات، مثلُ النبي ﷺ فهل كان عند الرسول - عليه الصلاة والسلام - رجس أو دنس حاشا لله؟! قال الله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَتْح: الآية ٢]. فترْقَى في الدرجات لأن الذي يليق بالله أعلى، حتى لو استمر على هذا فاستمراره تقديسٌ، يقرب نفسه من الله، يقدس نفسه إلى الله، يترقى في معارف الكمال البشري إلى الله ﷻ؛ لأنه صاحب الوسيلة والفضيلة.

هذا دعاء الله باسمه (القدوس):

- دعاء المسالة.

- ودعاء الثناء (أنت الملك القدوس).

- ودعاء عبادة باتباع الرسول ﷺ في كل شيء، وتنزيه الله ﷻ عما نسبه خلقه إليه من الشر والعيوب والنقائص.

و(القدوس) في الوقت نفسه تنزيه، وهو في الوقت نفسه إثبات للطهارة المطلقة، لا يُطَهَّرُ من شيء فهو القدوس.

◈ **تنبيه: كل اسم من أسماء الله إن أحرزت بعضًا من معانيه وجعلت قلبك يتشربه:**

- فسينصلح أمر هذا القلب بإذن الله ﷻ.

- وسيتحلى لسانك بحلية الأدب، والجمال في القول، وسيتخلص لسانك من الفحش والبذاءة في القول.

- وليخعلن قلبك هذا إن أُشْرِبَ شيئًا من أسماء الله على جوارحك تعظيمَ الله، والخشوعَ لله ﷻ.

- وليجعلن سمتَك سمتًا عظيمًا.

- وليجعلن لك هَيْبَةً في قلوب الناس، وعند الناس.

فاجعل قلبك يتشرب أسماء الله، وهذه منة من الله لا يأخذها إلا من احترمها وتعايش معها وتدبر الأسماء في صلاته في قيام الليل.

(سبوح قدوس رب الملائكة والروح):

تقرأ في «سورة النبأ» قولَهُ ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: الآية ٣٨] ذلك من تعظيم ربنا ﷻ وتوحيده، وذلك ذكرٌ للشفاعة، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ [النبأ: الآية ٣٨]: جبريل هذا المخلوق العظيم، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: الآية ٣٨] ولا يستطيعون الكلام ولا يملكون منه خطابًا، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: الآية ٣٨].

فحين تقول: (رب الملائكة والروح):

- فإنك تعظم ربك بهذا تعظيمًا كبيرًا.

- ثم الملائكة تقول: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، فهم يسبحونه ويقدسونه بالليل والنهار لا يفترون.

إذًا (سبوح قدوس) لها وجوه كثيرة، ثم (رب الملائكة والروح) فيها:

- وجه التعظيم.

- ثم فيها وجه الربط بين (سبوح قدوس) وقول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

- ثم فيها تهييج للإنسان كي يسبح الله وكي يقدسه؛ لأن الإنسانَ أحوَجُ من الملائكة للتسبيح والتقديس.

كما يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٥٦]، إذًا أنتم أحوج إلى الصلاة على النبي ﷺ لماذا؟ لما أصابكم ببركة رسالته ويُمن سفارته ﷺ.

الصيغة الرابعة

«سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي»، رواه البخاري ومسلم(١).

سيتم شرح هذه الصيغة في أذكار السجود إن شاء الله فانظرها هناك.

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ.

الصيغة الخامسة

«**اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت، أنت ربي خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي** - وفي رواية: **وعظامي**[(١)] - **وعصبي، وما استقلت به قدمي لله رب العالمين**»[(٢)].

(اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت):

(بك آمنت، ولك أسلمت) تردُ كثيرًا، وسيأتي لها مواضع بإذن الله.

لكن أذكر بما قاله شيخ الإسلام في المجلد السابع في «الفتاوى» أو في «كتاب الإيمان» في مسألة الإيمان والإسلام وفيها كلام طويل.

(وبك آمنت، ولك أسلمت):

على الأقل خذ (بك آمنت) في القلب و(لك أسلمت) في العمل.

﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النِّساء: الآية ٦٥]: أسلمت لكل الشريعة، لكل الأوامر والنواهي، هذا معنى بسيط نذكره الآن.

---

(١) أخرجها أبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (١٠٥٠).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ... وَإِذَا رَكَعَ، قَالَ: «**اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي**».

زيادة: «**أنت ربي**» أخرجها الترمذي (٣٤٢٣)، وعبد الرزاق (٢٩٠٣)، وأحمد (٩٦٠)، وابن خزيمة (٦٠٧).

وزيادة: «**وما استقلت به قدمي لله رب العالمين**» أخرجها أحمد (٩٦٠)، وابن خزيمة (٦٠٧)، وأبو عوانة (١٦٠٨).

وفي رواية الزيادة: (أنت ربي خشع لك سمعي):

الخشوع ذكرنا سابقًا معناه: السكون والانخفاض؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فُصّلَت: الآية ٣٩] فمعنى خاشعة: لا تهتز ولا ترتفع، إذًا فمعناه السكون والانخفاض.

س: ما علاقة السكون والانخفاض بنفسك أنت؟

ج: أنت داخل الصلاة تكون مشوشًا وعندك حركة رهيبة، في المال، وفي العيال، وفي الجيران، وفي كل شيء تشويش، فنفسك غير ساكنة أبدًا، والمطلوب منك أن تكون ذا نفس ساكنة لله ﷻ، فهذا هو الخشوع؛ أن تكون ذا نفس ساكنة ومنخفضة لله ﷻ.

(اللهم): أي: يا الله، يا من لك الأسماء الحسنى وصفات الكمال ونعوت الجلال، كل ذلك مدحٌ وثناء عليه ﷻ بما هو أهله.

(أنت ربي خشع لك سمعي وبصري):

ما معنى خشوع السمع؟ أي سكن وخضع، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعرَاف: الآية ٢٠٤]: يعني لا تسمع إلا هو، فرغ سمعك لله ﷻ، فسمعي يا رب لا ينشغل بشيء آخر، أنا أستقبل الآن كلامك، وأنا الآن راكع أستقبل ما يأتيني من عظمتك، فلا أسمع إلا بك، ولا أرى إلا بك.

وهذا المعنى في الحديث: «**وَمَا يَزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِل حَتَّى أُحِبَّه، فَإذا أَحبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبصِرُ بِهِ**»[1].

فخشوع السمع معناه السكون، فلا يتحرك ولا يتشوش بأي شيء

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كان، ولا ينشغل إلا بما يأتي عن الله سبحانه وتعالى وعز وجل، كما تقول للإنسان - ولله المثل الأعلى - «كُلِّي آذان صاغية»؛ أي لا أنشغل بشيء آخر، لأنك من الممكن أن تحدث إنسانًا وهو يقرأ في جريدة منشغلًا بها، كأنما يستهزئ بك.

فأنت الآن راكع تقول: يا رب؛ (خشع لك سمعي).

كل معلومة تدخل إلى القلب، إما أن تراها بعينك، وإما أن تسمعها بأذنك؟ إذًا فالسمع والبصر هما مَدْخَلَا القلب، وثَمَّةَ مداخل عن طريق الإحساس.

إنسان مثلًا يتلمس بيديه ويشعر بالحرارة فيعلم أن الجو مثلًا حار أو الجو بارد وما إلى ذلك، فأنت تقول: خشع لك سمعي وبصري، وماذا أيضًا: (ومخي)، والمخ هو الذي يحرك كلَّ شيء في الجسم، الجهازَ العصبيَّ كلَّه. ثم (وعظمي)، العظم فيه قوة الإنسان، وفي رواية: (وعظامي).

ثم تقول: (وعصبي، وما استقلت به قدمي لله رب العالمين)، يقول: يا رب جسمي كله خاشع لك، فكل خلية خاشعة. والإنسان حين يتأثر بحادثة يقول: (أعصابي انفرطت، وجسمي كله ساب)، صِرْتُ لا أرى إلا المنظر الذي أمامي، ولا أستطيع التفكير في شيء آخر؛ ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٣] فلا أريد الانشغال بشيء آخر، يا أخي من أولى بذلك؟! أليس الله ﷻ؟!

كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول هذا الكلام حقًّا وصدقًا وإخلاصًا ويقينًا، فالنبي ﷺ يعرف ما يقول ويصدق به، فإياك إياك أن

تقول: (خشع لك سمعي وبصري)، وأنت مشغول بمن إلى جوارِك، أو تعبث بمنديل ثم تقول (خشع بصري) وأنت تنظر يَمْنَةً ويَسْرَةً، وتتسمَّعُ كلامَ من خلفك. فحين تقول هذا الكلام اجتهد واستح من الله ليكون ما تقوله حقًّا.

هذه الصيغة تكشف الإنسان وتجعله يستحي من نفسه، فكن حريصًا حين تقول هذه الصيغة لئلا تكون كذابًا فهو علام الغيوب؛ يعلم السر وأخفى سبحانه وتعالى وعز وجل.

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٨٤]، طبعًا هذه منسوخة، لكن ليس معنى كونها منسوخة أنها بلا معنًى أو أنها حذفت أو ألغيت. فأعمال القلوب أخطر من أعمال الجوارح، وأخطر من أعمال اللسان، فالقلب الذي به غل أو حقد أو كره للمسلمين وفيه حب لليهود والنصارى يُحَاسَبُ على ذلك، كذلك الخشوع يحاسبك الله عليه، فيجب عليك الخشوع لله رب العالمين.

الصيغة السادسة

«اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، وعليك توكلت، أنت ربي خشع سمعي وبصري ودمي ولحمي وعظمي وعصبي، لله رب العالمين»[(١)].

(وعليك توكلت): التوكل هذا دليل التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ

(١) أخرجه النسائي (١٠٥١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، و(١٠٥٢) من حديث محمد ابن مسلمة رضي الله عنه.

﴿إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: الآية ٩].

ماذا تعني: (أنت ربي)؟ ثلاثة أقسام:

- قدري كوني.
- تشريعي.
- جزائي.

ما معنى قدري كوني؟ أي ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٢]؛ الأكسجين، والماء، والزوجة، والعيال، والمال، الدنيا كلها ملك لله.

ما معنى التشريعي؟ هو الدين والوحي.

ما معنى الجزائي؟ أنه لا أحد يقدر أن يعذبني في القبر أو يعذبني يوم القيامة أو يمنع عني مغفرة الله ورحمة الله أبدًا إلا أن يكون الله قد أذن بذلك؛ هذا معنى (أنت ربي).

إذًا فكل شيء تريده في الدنيا، والدين، والآخرة فهو من الرب سبحانه وتعالى وعز وجل!

فكيف تخضع لغيره، وكيف تتوكل على غيره.

(خشع سمعي وبصري ودمي ولحمي):

هنا يزيد (الدم واللحم)، وتفصيل أكثر: (وعظمي وعصبي لله رب العالمين).

فحين تقول: (أنت ربي) وبعد الأذكار، والفاتحة، وهيئة الركوع تقول هذا الذكر، في الذكر الأول قال الرسول ﷺ: «وما استقلت به قدمي»، وهنا ذكر كل شيء، ولم يقل: (وما استقلت به قدمي)، إنما

قال: «سمعي وبصري ودمي ولحمي وعظمي وعصبي لله رب العالمين».

فالخشوع معناه كما قلنا أَلَّا يشغلك شيءٌ غير الله، سكنت النفس فأصبحت لا تستقبل إلا عن الله سبحانه وتعالى وعز وجل.

الصيغة السابعة والأخيرة

«**سبحان ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة**» وهذا قاله في صلاة الليل(١).

سنتعرض لهذه الصيغة إن شاء الله فيما بعد.

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والترمذي في «الشمائل» (٣١٤)، والنسائي (١٠٤٩)، وأحمد (٢٣٩٨٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مقدمة في معاني أذكار الرفع من الركوع

نستعرض كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرفع من الركوع من «كتاب الصلاة»:

(ثم يرفع رأسه عائدًا إلى أكمل حديثه، وجُعِلَ شعار هذا الركن حمد الله والثناء عليه وتحميده، فافتتح هذا الشعار بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده»، أي: سمع قبول وإجابة)[1].

والمقصود بالسمع هنا: (سمع قبول وإجابة) فالله يسمع كل شيء وكل إنسان في العالم.

- قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٤﴾ [يوسف: الآية ٣٤] سمع إجابة، وعلم إجابة.

- قال المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ [المائدة: الآية ٧٦] يعني يستجيب لك فيما تريده، وغيره لا يملك لك ضرًّا ولا نفعًا، فالله هو السميع العليم، حين تطلب يعطيك فورًا إن شاء، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: الآية ١٣٧] معناها رجاء سمع الإجابة، أما أن تقول: (إن الله يسمع) فهو يسمع كل شيء؛ يسمع الكافر ويسمع المؤمن.

---

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (ص٢٠٧).

- فتفسير (سمع الله لمن حمده): اتفقوا على أنها سمع قبول، أي قَبِلَ الله ثناءك عليه في الركوع، ودعاءك له، وعبادتك له بعد الخفض الذي كنت فيه والركوع.

اربط هذا الكلام بالأذكار التي قلتها في الركوع، وهل خشعت فيها أم لا؟

حمدت ربك فيها أم لا؟ لأنها كلها حمد؛ التسبيح حمد، والتقديس حمد، والتعظيم حمد، والتمجيد حمد، والتحميد حمد، والثناء تكرار الحمد، وكله في النهاية حمد.

(سمع الله لمن حمده)، الكلام الذي قلته حمد، سَمْعُ الله سَمْع العلم، يعلم السر وما أخفى ويعلم قلبك وما الذي جرى فيه، فإن وجد الله ﷻ قلبك حاضرًا فقد سَمِعَ سَمْعَ قبول وإجابة فعلًا، وإن لم يكن حاضرًا فلا قبول ولا إجابة بل تُرَدُّ عليك، والله تعالى أعلم.

[ثم شفع بقوله: ربنا ولك الحمد ملء السماوات والأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد](١).

هذه الصيغ ستعاد على التمام والتحقيق في الاعتدال من الركوع.

لكن نذكر قول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ على وجه السرعة بعبارته السديدة الجميلة:

[ولا يهمل أمر هذه الواو في قوله: «**ربنا ولك الحمد**»؛ فإنه قد ندب الأمر بها في «الصحيحين»، وهي تجعل الكلام في تقدير جملتين قائمتين

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٧٧١).

بأنفسهما][(١)(٢)].

كأن (ربنا) جملة، (ولك الحمد) جملة، كقولنا: (له الملك) هذه جملة والثانية - (وله الحمد) - تختلف عن قولك: (له الملك والحمد) لأنها جملة واحدة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

[وهي تَجعلُ الكلامَ في تقديرِ جُملتينِ قائمتينِ بأنفُسِهما، فإنَّ قولَه: (رَبَّنا) مُتَضَمِّنٌ في المعنى: أنتَ الربُّ والملِكُ القيُّومُ الذي بيَدَيْهِ أَزِمَّةُ الأمورِ وإليهِ مَرْجِعُها، فعطف على هذا المعنى المفهوم من قوله (ربنا) قوله (ولك الحمد) فتضمن ذلك معنى قول الموحد (له الملك وله الحمد).

ثم أخبر عن شأن هذا الحمد وعظمته قدرًا وصفةً فقال: (ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد) أي: قدر ملء العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما، فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود، وهو يملأ ما يخلقه الرب تبارك وتعالى بعد ذلك مما يشاؤه، فحَمْدُهُ قد ملأ كلَّ موجود، وملأ ما سيوجد، فهذا

---

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (ص٢٠٧).

(٢) ورد بلفظ: «**ربنا لك الحمد**». أخرجه البخاري (٧٢٢، ٧٣٣)، ومسلم (٧٧٢).
وورد بلفظ: «**ربنا ولك الحمد**». أخرجه البخاري (٦٨٩، ٧٣٤، ٧٣٥، ١٠٤٦)، ومسلم (٣٩٢، ٤١١،
وورد بلفظ: «**اللهم ربنا لك الحمد**». أخرجه البخاري (٧٩٦)، ومسلم (٤٠٤، ٤٠٩، ٤١٤).
وورد بلفظ: «**اللهم ربنا ولك الحمد**». أخرجه البخاري (٧٣٤٦).

أحسن التقديرين.

وقيل: ما شئت من شيء وراء العالم فيكون قوله بعد: للزمان على الأول، والمكان: على الثاني.

- ثم أتبع ذلك بقوله: (أهل الثناء والمجد)(١) فعاد الأمر بعد الركعة إلى ما افتتح به الصلاة قبل الركعة: من الحمد والثناء والمجد.

- ثم أتبع ذلك بقوله: «**أحق ما قال العبد» تقريرًا لحمده وتمجيده والثناء عليه، وأن ذلك أحق ما نطق به العبد.**

- ثم أتبع ذلك بالاعتراف بالعبودية، وأن ذلك حكم عام لجميع العبيد.

- ثم عقَّب ذلك بقوله: «**لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ**».

وكان النبي ﷺ يقول ذلك بعد انقضاء الصلاة أيضًا، فيقوله في هذين الموضعين؛ اعترافًا بتوحيده، وأن النعم كلها منه، **وهذا يتضمن أمورًا**:

أحدها: أنه المنفرد بالعطاء والمنع.

الثاني: أنه إذا أعطى؛ لم يُطق أحد منع من أعطاه، وإذا منع؛ لم يُطق أحد إعطاء من منعه.

الثالث: أنه لا ينفع عنده، ولا يخلص من عذابه، ولا يدني من كرامته، جدود بني آدم وحظوظهم، من الملك والرئاسة والغنى وطيب العيش وغير ذلك، إنما ينفعهم عنده؛ التقرُّبُ إليه بطاعته، وإيثار مرضاته.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٧، ٤٧٨).

ثم ختم ذلك بقوله: «**اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**»، كما افتتح به الركعة في أول الاستفتاح، كما كان يختم الصلاة بالاستغفار، وكان الاستغفار في أول الصلاة ووسطها وآخرها، فاشتمل هذا الركن على أفضل الأذكار وأنفع الدعاء؛ من حمده وتمجيده والثناء عليه، والاعتراف له بالعبودية والتوحيد، والتنصُّل إليه من الذنوب والخطايا. فهو ذكر مقصود، في ركن مقصود، ليس بدون الركوع والسجود]. انتهى[(١)].

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (ص٢٠٧ - ٢٠٩).

شرح معاني أذكار الرفع من الركوع

أيها الإخوة الأعزاء:

قد انتهينا من أذكار الافتتاح ثم شرحنا شرحًا قصيرًا بعض أذكار الركوع، وأجّلنا بعضها.

ثم شرعنا في شرح بعض أذكار الرفع من الركوع، وهذه الأذكار تدور حول (الحمد)، ولذلك يقول الإمام أو المنفرد: (سمع الله لمن حمده) مع أنَّ شعار الانتقال من ركن إلى ركن هو (الله أكبر) إلا في الاعتدال من الركوع، فيقول: (سمع الله لمن حمده)(١) وهو سمع إجابة؛ لأن الله ﷻ يسمع الكفار، ولا يستجيب لهم، ويسمع بعض العصاة، ويؤجل الاستجابة لهم، أو لا يستجيب لهم، ولكنه ﷻ يسمعُ الموحدين، فيستجيبُ لهم إما في العاجل وإما في الآجل، فهذا سمع إجابة كما أخبرنا بذلك صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

معنى (سمع الله لمن حمده):

ما معنى (سمع الله لمن حمده)؟

وأنت في الركوع ماذا كنت تفعل؟ كنت تحمد الله، والآن بعد الرفع

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٩)، ومسلم (٣٩١).

من الركوع ما الذي يُطلب منك؟ أن تحمد الله.

وفي افتتاح الصَّلاة ما الذي فعلته؟ حمدت الله.

(الله أكبر) هي حمدٌ لله، (الله أعظم) هي حمد لله، (الله أعلى) حمدٌ لله، (الله أكرم) حمدٌ لله.

* كل ما يُثْبتُ لله ﷻ من صفات الكمال ونعوت الجلال، فهو حمدٌ لله، والحمدُ بخلاف الذم.

(ونثبت الحمد) من طريقين:

- إما من طريق الإثبات بأن الله ﷻ هو العزيز الجبار المتكبر، وهكذا.

- وإما من طريق نفي النقائص والعيوب والشرور:

١- من طريق الإجمال كالتسبيح.

٢- أو من طريق التفصيل كما جاء في كتاب الله ﷻ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: الآية ٥٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النِّساء: الآية ٤٠]، وهكذا.

فإن سبحنا الله ﷻ فالهدف من التسبيح هو (التحميد)، فالتسبيح أن تنفي النقائص عن الله، ولا نقائص تنسبُ لله؟ فإذًا التسبيح هدفه في النهاية تعظيم الله ﷻ، بإثبات المحامد له.

وكونك تحمدُ الله فهذا هو الحمد، بطريق الإثبات وبطريق النفي، وعند جمعهما فإنه يكون أفضلَ الكلام عند الله؛ ألا وهو: (سبحان الله وبحمده).

فدائمًا نذكر الحمد، كل ما يقال عن ربنا ﷻ لا نقص فيه أبدًا فهذا هو الحمد، وهو ضد الذم

وإن أردت أن تسقط هذا الكلام الإجمالي على التفاصيل، لكي تستطيع أن تستوعبه أكثر وأكثر فعليك بمراجعة القرآن العظيم، وبمواضع ذكر الحمد فيه، وهذا الذي سنفعل بعضه إن شاء الله عند تعرضنا لشرح «الفاتحة» لأنها أم الكتاب، وعند تعرضنا لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: الآية ٢].

هنا عند الرفع من الركوع (سمع الله لمن حمده):

فهذا تنبيه للرُّكَّع، والقائمين من الركوع، أن يعلموا أنهم كانوا يحمدون الله، فإن كانوا قد أحضروا قلوبهم، وتفهموا معاني الحمد، وعظموا الله بها، وخشعوا لله بها، وأثمرت لهم الهيبة والرجاء والحياء من الله ﷻ، عندئذٍ يسمع الله ﷻ لهم سمع إجابة.

ونحن نعلم أن الركوع به أذكار، وأيضًا به أدعية، ولكن الأولى في الركوع تعظيم الرب؛ «**أما الركوع فعظموا فيه الرب**»[(١)]، ولكَ أن تدعوَ بعد الركوع، وهذا لا يمنع ولا يكره، وقد يندب الدعاء بعد الركوع، لكن الأولى في الركوع تعظيم الرب، وكيف تعظمه؟

هل لا بد أن تقول العظيم؟ كلَّا، فكل إثباتٍ لمحامد الله ﷻ وبها التسبيح فذلك هو التعظيم.

فالتسبيح ما هو في النهاية إلا تعظيم، وإثبات محامد لله، وشرحناه

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس ﵄.

تفصيلًا، أما السجود فالأولوية للدعاء والأذكار بعد ذلك؛ «**وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء، فَقَمِنٌ**(١) **أن يُستجاب لكم**».

فهنا في الرفع من الركوع (سمع الله لمن حمده):

دائما نُذَكِّر بمعنى الحمد، وهل ننتهي من الحمد، فأنتَ خُلقت لتحمد الله ﷻ؛ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: الآية ٥٢] يوم القيامة، فالحمد لا نملُّه أبدًا، ونذكر دائمًا بمعاني الحمد.

لو ذكرت أربعة مواضع في كتاب الله ﷻ في ذكر الحمد في: (سورة النحل ولقمان والعنكبوت والزمر):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: الآية ٧٥، لقمان (٢٥)، الزمر (٢٩)].

أو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٣].

عند الاتهامات الشديدة الرهيبة من العلمانيين والملحدين والكفرة المجرمين، بل عند أسئلة الأطفال البريئة لماذا فعل الله كذا؟ لما قدر الله كذا؟ لماذا قضى الله بتخليد الكافر في النار؟ عذابٌ رهيب، يصطرخون فيها، ومع ذلك يخلد، فلم لم ي رَحِمَهُ اللهُ، ولو بعد ألف سنة، ولو بعد مليار سنة، تخليد في النار، شيءٌ عجيب؟ فكيف ترد؟

الرد شديد الوضوح في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٢] في سياقاتها كما ذكرنا، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: الآية ٧٥] لماذا؟

الحجة قائمة، وواضحة، ولا حجة للكافر، ولا حجة للمشرك أبدًا،

---

(١) قَمَن بفتح القاف والميم، ومعناه: حقيق وجدير، ويقال: قَمِنَ، بكسر الميم، وقَمَين، بالفتح، مصدر وغيره نعت، يثنى ويجمع.

بل سيعلمون؛ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: الآية ٣٩] فكل هذه من ظنون السَّوْء بالله رب العالمين، حاشا لله.

فالحمد هو أهم ما في صلواتنا وأهم ما في أذكارنا وأهم ما في دعائنا، بل: «**أفضل الدعاء الحمد لله**»(١).

والحمد كما ذكرنا هو: (كل صفة كمال مضادة للذم والنقص تسمى حمدًا)، وقسمناه إلى قسمين:

القسم الأول: حمد ثناء وعبادة.

والقسم الثاني: حمد نعم وآلاء وشكر.

وذكرنا فيما سبق أنه ما من شيءٍ في الأرض ولا في السماوات إلا ويتضمن الحمدين، ما من شيء إلا وهو مليء بنوعي الحمد، كل شيء تقع عليه عيناك في الدنيا أو في الآخرة حتى النار؛ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٥]، لماذا؟

لأن هذا الشيء الذي تنظر إليه: كل شيء - الهواء، الطين، الماء، الشجر، النجوم، الشمس، القمر، الأفلاك، الزلط، الإسمنت، الحديد - كل مادة أو كل شيء تذكره مليء بحمد الله ﷻ، وما صُمِّمَ شيء فيه وما قدر فيه من شيء إلا وهو يثبت الكمال لله، والعظمة والمجد والقوة لله ﷻ، وفي الوقت نفسه هو نعمة من الله عليك، فثمة نعم ظاهرة ونعم باطنة، فأما الظاهرة فهي التي يعرفها الناس بالنعم، وكأن النعم انحصرت فيها!! كلَّا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠).

فمثلًا: نعمة المنكح والمطعم والمشرب والملبس والمسكن والصحة وما إلى ذلك (النعم الظاهرة).

أما (النعم الباطنة) فما من حجرٍ في جبل إلا ولله فيه نعمة عليك، لأنه يساعد الكون كله كوحدة واحدة في استقرار الأرض مثلًا، وفي مسألة خلق المياه وإعادتها: ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: الآية ٤]، وفي مسألة الزراعة والرصيد المبارك فيه بالقوت للأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصّلت: الآية ١٠].

فما من شيء إلا وفيه نعمة عليك مهما كان هذا الشيء، حتى في الأقدار، ليس الماديات وحدها.

فالناس يظنون أن النعم ظاهرة فحسب كالمال والصحة وكل ذلك يدور في فلك النعم الدنيوية، رغم أن النعم الدينية هي أهم وأعلى.

◈ **القاعدة:**

ما من شيء في الأرض ولا في السماء إلا وفيه لله نعمة عليك، إذًا فكل شيء مليء حمدًا بنوعيه، حمد الثناء والعبادة، وحمد الشكر والنعم والآلاء. وإن بحثت في أي شيء كان لوجدت أفعال الله ﷻ تدور بين (الحكمة والرحمة والمصلحة والعدل) وذلك كله كمال لله وإحسان للخلق، حكمة ومصلحة ورحمة من الله لخلق الله، إذًا فكل شيء مليء حمدًا ويجأر بالحمد لله لأن الكمال كله لله سبحانه وتعالى وعز وجل.

فحين تعجب بقوة فلان، أو بجمال فلان، أو بأي كمال أو مقاييس كانت، سواء في الدين أو في الدنيا، فتذكر أن هذا الكمال بالطريق الأولى ثابت لله، فتقول: الحمد لله.

ولذلك (الحمد هو أحق ما قال العبد)؛ كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[١]، فإن كنا لا نعرف معنى الحمد فأليست هذه مصيبةً؟!

ولذلك أكرر دائمًا معنى الحمد:

- انظر في أول الصلاة تَجِدِ الحمد، وفي أول الفاتحة تَجِدِ الحمد.

- وانظر في أول الخلق تَجِدِ الحمد؛ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: الآية ١].

- وفي أول الفَطْرِ تَجِدِ الحمد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فَاطِر: الآية ١].

والحمد يشمل التكبير، يشمل التعظيم، يشمل التقديس، يشمل التسبيح، فالحمد أعم. ويستلزم الثناء والحب، فإن ذكرت محامد لله أو مدائح لله ثناءً فحسب دون حبٍّ فلست حامدًا لله، وإن ذكرته بحب دون ثناء فلست حامدًا لله.

فالحامد لله يجب أن يذكر هذه الكمالات بحب وثناء أو بحب وتعظيم كما ذكرنا.

الصيغة الأولى

«ربنا ولك الحمد».

١ - حين يقول الإمام وهو يرفع من الركوع: (سمع الله لمن حمده) فإنه يقول هو والمأموم: (ربنا ولك الحمد)، وكما ذكرنا من قبل أهمية

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢١٢).

«الواو» عند ابن القيم.

(ربنا ولك الحمد)؛ **ما معنى (ربنا)؟**

- (ربنا)؛ أي يا من خلقتنا، ولك ملكنا، ورزقتنا، وأحييتنا، وتُمِيتُنَا فتحاسبنا، وأنت قائم على كل نفس بما كسبت، وأنت الحي القيوم، وأنت وأنت.. وتعدد معاني الربوبية لله ﷻ.

- (ربنا)؛ لا أحد لي غيرك، فحين تقول (ربنا) اذكر طعامك، واذكر شرابك، واذكر امرأتك، واذكر صحتك، واذكر ملبسك، واذكر مسكنك، واذكر وظيفتك، واذكر دنياك كلها، ثم اذكر دينك من الذي شرع لك هذا، من الذي علمك هذا الدين، من الذي حَفَّظَكَ من كتاب الله، اذكر بعضًا من هذه المعاني في كل ركعة.

- (ربنا)؛ اعتراف بالربوبية من أعماق قلبك.

ثم لا تكتفي بالربوبية، فتقول: (ولك الحمد)، ولا تقول: (الحمد لك) فقد يكون لك ولغيرك، فالتقديم والتأخير يفيد الحصر والقصر، فلك الحمد وحدك لا شريك لك.

والواو في (ولك الحمد) جملة ثانية، كما تقول: (له الملك وله الحمد)، وهذا غير أن تقول: (له الملك والحمد) كأنها جملة واحدة، فهنا فرَّعت جملتين؛ (ربنا) جملة، (ولك الحمد) جملة ثانية.

يجب أن تتفهم هذه المعاني وأن تطلب من الله أن يعينك على فهمها.

الصيغة الثانية

وتارة يقول: «**ربنا لك الحمد**»:

(ربنا): ربوبيتك واضحة الظهور أمامي، فما أتيت مكانًا إلا بفضلك، وقفت بين يديك برحمتك، كيف أتنفس وأعيش، الربوبية واضحة لك في الدنيا والدين، فأنت تستغل معارفك عن ربوبية الله ﷻ لكي تثبت بيقين أن الحمد كله لله!! وهذه طريقة أخرى. فذكر (الواو) له معنًى، وعدم ذكرها له معنًى.

(ربنا لك الحمد) أي تناديه ﷻ وتناجيه، وتقول له (ربنا) أي أنا معك، لا أرتاح بعيدًا عنك.

لك الحمد كله. (لك الحمد) فقد فعلت كل شيء، سبحت، وقدست، وكل شيء في كلمة لك الحمد، كما رأينا في حديث افتتاح صلاة القيام: «**اللهم لك الحمد أنت نور السماوات الأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن**»(١)

فكل عبارة بها (لك الحمد)، وفي النهاية: (أنت الحق).

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

الصيغة الثالثة والرابعة

وتارةً يضيف إلى هذين اللفظين قوله: (اللهم)؛ «**اللهم ربنا ولك الحمد**»، «**اللهم ربنا لك الحمد**»(١).

- تقول: (سمع الله لمن حمده) وتُسمع بها نفسك، فلو أنك تستحضر سمع الله لك!

سبحان الله العظيم... فلتنظر نفسَك في هذا الموقف!

تعترف وتذكر نفسك وترتعد لاستحضارك معنى (سمع الله لمن حمده)، ويجب أن تكون حاضر القلب، لأن رَبَّنَا يسمعك سمع إجابة، فهل يكون ذلك باللسان فحسب دون القلب؟! كيف لك هذا؟

معنى (اللهم ربنا ولك الحمد):

- (اللهم)؛ يا الله يا من لك الأسماء الحسنى كلها، وصفات الكمال كلها، ونعوت الجلال كلها، والأفعال المشرفة كلها، والذات الأقدس، يا من لك كل ذلك، فهي إثبات.

- تناجي الله ﷻ فتقول (اللهم). وفي الجنة ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: الآية ١٠]: (اللهم) تكفي، فهي إثبات، لكن أزيد الإثبات فآتي

---

(١) ورد بلفظ: «**ربنا لك الحمد**». أخرجه البخاري (٧٢٢، ٧٣٣)، ومسلم (٧٧٢).
وورد بلفظ: «**ربنا ولك الحمد**». أخرجه البخاري (٦٨٩، ٧٣٤، ٧٣٥، ١٠٤٦)، ومسلم (٣٩٢، ٤١١).
وورد بلفظ: «**اللهم ربنا لك الحمد**». أخرجه البخاري (٧٩٦)، ومسلم (٤٠٤، ٤٠٩، ٤١٤).
وورد بلفظ: «**اللهم ربنا ولك الحمد**». أخرجه البخاري (٧٣٤٦).

بها عن طريق النفي؛ (سبحانك اللهم) فأنفي كل نقص، فليس عنده إلا الكمال، فنفيُ أيِّ كمالٍ كان يجعله نقصًا. مثلًا: نفي الرحمة، نقول: له العظمة، والجبروت، والاقتدار، والملك، والملكوت، والكبرياء، وتعدد الصفات، ولم نقل الرحمة مثلًا، فهو له محامد كثيرة، لا نقص في محامده، لكن محمدة الرحمة لم تذكر، فيكون ثمة نقصٌ في المحامد.

وحين نذكر (التسبيح) فالمعنى ألَّا نقصَ أبدًا، فالتسبيح إثبات للحمد.

وكان يأمر النبي بذلك فيقول - عليه الصلاة والسلام: «**إذا قال الإمام: (سمع الله لمن حمده) فقولوا: (اللهم ربنا لك الحمد)؛ فإنه من وافق قولُهُ قولَ الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[(١)].

قد يوسوس الشيطان للإنسان عند سماع هذا الكلام فيقول له: كل مُصَلٍّ في صلاة الجماعة يقول: (سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، أو ربنا ولك الحمد، أو اللهم ربنا لك الحمد، أو اللهم ربنا ولك الحمد) والملائكة تقول أيضًا؟ فأين هم الملائكة؟

- «**الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه**»؛ استفتح بها رجل، فقال ﷺ: «**لقد رأيت اثني عشر ملكًا يبتدرونها؛ أيهم يرفعها**»[(٢)].

- وكذلك في الرفع من الركوع، قال رجل وراء النبي ﷺ: ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه؛ كما يحب ربنا ويرضى، فقال - عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩٦)، ومسلم (٤٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٦٠٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الصلاة والسلام - بعد الصلاة: «**من المتكلم آنفا؟**» قال: أنا. قال: «**رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أولًا**»[(١)].

فالملائكة ليس منهم الحفظة فحسب، بل من الملائكة السَّيَّاحُون في الأرض ينظرون الحامدين والمسبحين، فأنت معك الملائكة.

يقول أحد: من المؤكد أنه في مرة قلت: (ربنا ولك الحمد) وافق قولي قولَ الملائكة، إذًا فليس عندي ذنوب؟!

أولًا: المغفرة في الحديث هي لما دون الكبائر، «**غفر له ما تقدم**»؛ أي ما دون الكبائر، وهناك صغائر مع الإصرار عليها تتحول إلى كبائر، والاستغفار يزيلها.

ثانيًا: المغفرة هنا مشروطة، ومشروطة بحسب استحضار القلب، واستحضار المعنى، وثمرة المعنى، واستحضار المعنى وهو التعظيم لله، والهيبة من الله ﷻ، والرجاء برحمة الله، والحياء من الله.

(والثمرة أي المغفرة) كل ذكر بحسبه، تعظيم الله ﷻ، والهيبة من الله، والرجاء والحياء - كما ذكرها أبو حامد الغزالي رحمه الله - وهل الهيبة هنا تغني عن الخوف؟ نعم.

ولماذا لا نقول الخوف؟ وما الفرق بينهما؟

قد تخاف من الثعبان ولكنك لا تهابه، فالخوف مشروط بالسلطان، تخاف من سلطان له بعض العظمة فأنت تهابه، كذلك من الممكن أن تحب النبي ﷺ وتهابه، (من رآه بديهة هابه، ومن عرفه مخالطة

(١) أخرجه البخاري (٧٩٩) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه، دون زيادة: «كما يحب ربنا ويرضى»، وأخرجها أبو داود (٧٧٣)، والترمذي (٤٠٤)، والنسائي (٩٣١).

أحبه)، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فالهيبة خوف وتعظيم.

أولًا: (التعظيم)، ثم يدخل معه (الخوف) فتكون (الهيبة)، وبعد ذلك له رحمة واسعة (الرجاء)، وبعد ذلك الرقابة لله (الحياء)؛ لأنه يراك ويسمعك، ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٥]، (سمع الله لمن حمده).

إن استحضرت هذه الست - [١- إحضار القلب، ٢- التفهم بمحاولة واجتهاد، ٣- التعظيم، ٤- الهيبة، ٥- الرجاء، ٦- الحياء] - وافق قولُك قولَ الملائكة بإذن الله (فيغفر لك ما تقدم من ذنبك).

انظر إلى الهدايا التي يمنحها ملك الملوك في الصلاة لعبيده ولعباده الموحدين.

الصيغة الخامسة والسادسة

وكان ﷺ تارة يزيد على ذلك:

٥- إمَّا بـ «**مِلْءَ السَّماواتِ ومِلْءَ والأرضِ، ومِلْءَ ما شِئتَ مِن شيءٍ بعدُ**»[1].

٦- وإمَّا بـ «**ملءَ السماوات وملءَ الأرض وملء ما بينهما، وملءَ ما شئت من شيءٍ بعدُ**»[2].

ما الفرق بين الصيغتين؟

(ملء السماوات والأرض) هذا إجمال، وإذا أردت أن تفصل فعليك

(١) أخرجه مسلم (٤٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٨، ٧٧١).

أن تقول: (ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما).

ما الذي بين السماء والأرض؟

أنا وأنت، والملائكة الذين ينزلون بالعذاب، والملائكة الذين ينزلون بالرحمة، والملائكة السياحون، والمطر، والدعاء الصاعد، والأقدار التي تنزل؛ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: الآية ٤].

كل ما يحدث بين السماء والأرض (الدول، والقارات، والمال، والرحمة، كلُّ الإذاعات، والتلفزيونات والموجات، والأثير، وطبقة انعكاس الموجات، وطبقة الأوزون، والمجرات، والأرض نفسها لا شيء في المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية بين السماء والأرض، وهناك مائة ألف مليون مجموعة شمسية في مجرة واحدة، كل ذلك بين السماء والأرض، وهناك ألف مليون مجرة أخرى، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذّاريَات: الآية ٤٧]؛ كل هذا بين السماء والأرض!!

فـ(ملء السماء وملء الأرض) إجمالٌ، و(ملء السماء وملء الأرض وملء ما بينهما) تفصيل، فالإنسان يفصل، ويُذكِّر نفسه بالتفاصيل.

ما معنى: (وملء ما شئت من شيء بعد)؟ شرحناها سابقًا؛ أي: يا رب، كل شيء تخلقه بعد لا بد أن يكون ممتلئًا بالحمد، وليس فيه نقص، فالله لا يخلُق شيئًا فيه خلل أو قصور أو نقص، فكل شيء يخلقه الله أو يقدره الله ﷻ لا خلل فيه ولا نقص، فهو مليء بالحمد.

(ما شئت): أن تخلقه ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص: الآية ٦٨]، في خلقه للدجال حمد، الدجال من ناحية خلقه وتقدير أمره حمد من

آلاف الوجوه، أما من ناحية الشر بأنه سيخرج، فلا ينسب إلى الله بل إلى مخلوقات الله، وهكذا لا يوجد شيء ناقص أبدًا.

وكذلك تعني أن خارج ما في هذا العالم كذلك مليء حمدًا، الله ﷻ كتب في كتابه لما قضى أمر الخلق فهو عنده موضوع على العرش، «**ورحمتي تسبق غضبي أو تغلب غضبي**»(١)، فالرحمة سبقت الغضب، فـ (ملء ما شئت من شيء بعد) إما خارج هذا العالم أو بعد الآن في الزمان، لا يمكن أبدًا أن يصدر عن الله شيء إلا وهو مليء بالحمد، أي لا نقص به؛ وهذا التسبيح، مُلء بالكمال والحمد والمجد.

الصيغة السابعة

وتارة يُضيف ﷺ إلى ذلك قولَه: «**أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(٢).

ما معنى قولِه - عليه الصلاة والسلام : «أهل الثناء والمجد»؟

(الثناء): يعني تكرار المحامد، من الثني، (كأن تأتي بورقة وتثنيها فتكون ورقتين، هذا تمثيل المعنى).

فالثناء تكرار، والرسول عليه السلام وقف مرة يقول: «**لربي الحمد، لربي الحمد**»؛ يكررها إلى ما شاء الله(٣)، هذا التكرار هو الثناء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٨).

(٣) أخرجه النسائي (١٠٦٩)، وأحمد (٢٣٣٧٥) بلفظ: ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَكَانَ قِيَامُهُ نَحْوًا مِنْ رُكُوعِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: «**لِرَبِّيَ الْحَمْدُ لِرَبِّيَ الْحَمْدُ**».

والتكرار عند الإنسان إن قيل له: (أنت رجل محسن) فلا بأس، لكن لو قيل له: (أنت رجل محسن، أنت رجل محسن، وكررها) لقال له: يكفي مرة، وهذا عند الإنسان.

أما لله فمهما مدحت ربك وكررت وأثنيت فلن تحصي ثناء عليه، ومهما أثنيت فهو كنقرة عصفور في بحر، وهذا معنى أهل الثناء.

ولا أحد أهل للثناء غير الله، أما ثناء المخلوق فهو نسبي يليق بالمخلوق، فتثني على الله ﷻ ولو ظللت مليار سنة تثني عليه فلن تحصي ثناء على الله ﷻ.

تقول: (أهل الثناء) بالألف واللام لأنه فعلًا (أهل الثناء).

(أهل الثناء والمجد): خَصَّ من الثناء (المجد).

(والثناء) أقرب هنا إلى (الحمد)، (والمجد) هو المجد.

فـ(أهل الثناء والمجد) أقرب إلى (حميد مجيد)، وأقرب إلى (ذو الجلال والإكرام)، وأقرب إلى (غني كريم)، وأقرب إلى (له الملك وله الحمد)، خطان أثبتناهما في أسماء الله ﷻ من باب التقسيم، لفهم الأسماء ولاستيعاب معناها، أو أكبر قدر مُمْكِنٍ للبشر من معانيها.

(أهل الثناء والمجد) المجد من المجيد، والمجد يدور حول السعة، وهي سعة العظمة والجلال، مهما وصفت في عظمة الله، وكررت وأثنيت فهو كنقرة عصفور، لأنه (المجيد) وله المجد وهو سعة العظمة.

والثناء هنا تكرار، كم اسمًا لله المعروفة، (تسعةٌ وتسعون اسمًا) وغيرها غير معروف لا يحصيه أحد، لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى

وعز وجل، (تعينًا أو كثرةً).

(أهل الثناء): التكرار، كل صفة لله (الكمال فيها ما سعته؟ والرحمة ما سعتها؟ المجد في الرحمة ما سعته؟) تختلف عن قولك (الصمدية في الرحمة) فمعناها الكمال بالرحمة، (العزة ما سعتها؟)،

أما الصمدية بالعزة فهي الكمال في العز، لا عزة بعد ذلك في الأرض مهما تصورت من عزة فهي داخلة في العزيز، فالصمدية في العزة أي الذي انتهى عزه، لكن حين تقول (مجده في عزه) فهذا يشير إلى سعة العزة، هل تأملت الفرق بين السعة وبين الكمال في الصفة الصمدية!!

فالمجيد والصمد أسقطناهما على العزة!! سعة العزة، هذا هو المجد.

كما بينا أن المجد يجمع أسماء كثيرة ومعاني كثيرة (المجيد والعظيم).

(أهل الثناء) تكرار المحامد، (والمجد) هو السعة، فكل محمدة استعملها في الثناء، المجد في العزة، المجد في الرحمة، المجد في الكرم، المجد في الجبروت، المجد في الملكوت، وهذا معنى (أهل الثناء والمجد).

وكل هذا جاء في الافتتاح؟ نعم، أنت تدخل على مناجاة الله ﷻ، بمائة طريق من خلال هذه الأذكار.

يدخل أحد من الطريق الأول؛ (الله أكبر وكبيرًا والحمد لله كثيرًا).

والثاني من طريق: (سبوح قدوس رب الملائكة والروح) فينتفض جسمه حين يذكرها.

والآخر من طريق: (أهل الثناء والمجد)، فالثناء تكرار المحامد: (العزيز والرحيم، والغفار والغفور، والجبار والمتكبر، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، الخالق البارئ المصور، الرحمن الرحيم، البر المحسن التواب العفو، وغيرها من الأسماء والصفات، الحي الذي لا يموت، المحيي المميت، المقدم المؤخر، الأول والآخر والظاهر والباطن، الغني).

وكل هذا اسمه ثناء أي تكرار، تقول هذه الأسماء وتعيدها ثانية، وتقولها وتعيدها ثانية، وتدمج هذا الاسم مع ذاك الاسم، تدمج الأسماء بعضها في بعض، مثلًا: تجعل الغني مع الحميد وليس مع الكريم فيعطيك كمالًا آخر تمامًا، تجعل العزيز مع الغفار، وكذلك مع الغفور وكذلك مع الرحيم، وكُلُّ اسمين لهما معنًى مختلف، كل هذا ثناء وتكرار للمحامد، فالثناء تكرار.

أما (المجد) فمعناه السعة، كل حمد، كل صفة لله تعالى، كم تبلغ سعتها؟ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦].

عرفنا أن المجد يدور حول السعة، والسعة خصوصًا في صفات العظمة والجلال والإكرام.

لكن حين يكون الثناء مع المجد، فالمجد خاص بالعظمة.

ما معنى: (لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)؟

للأسف كلٌّ منَّا يفسرها على المال، فيا رب لو أعطيتني ألف جنية فلا

أحد يمنعها عني أبدًا، وإن كان ربنا ﷻ قدر على أن يرزقني بكذا من المال فلا أحد يقدر أن يمنعني، ولو منعني فلا أحد يستطيع إعطائي، فالمسألة كلها إسقاط على المال، وما المال إلا فتنة.

فالعبرة والمعنى في الدين، وهذان الاسمان - المعطي المانع - أصل الأصول، من ناحية أننا نريد أن يوفقنا الله ﷻ، في فهم الأذكار، فلو خذلنا الله فوالله العظيم لن نفهمها أبدًا، لأنه لا مانع لما أعطيت.

ولذلك سيدنا النبي ﷺ يقول لسيدنا عمر رضي الله عنه لما سأله للمرة الثالثة عن «آية الكلالة»: «لن تفهمها»[1]، وقال عمر رضي الله عنه: «فعلمت أني لن أفهمها»، ومات بغير أن يفهمها، لأنه (لا معطي لما منعت)، ومن الذي يعطي الفهم؟ (المعطي)، ومن الذي يمنع الإنسان الفهم؟ (المانع).

فالعبرة كلها في الدين: عندك دين؟ أعطاك الله ذلك، ليس عندك دين؟ منعك الله ذلك.

وما التوفيق؟ ألا يدعك الله لنفسك.

وما الخذلان؟ أن يكلك الله إلى نفسك.

بأسلوب أبسط:

أنت تقول: يا رب وفقني يا رب وفقني، فما التوفيق؟ يعني ألا يتركك الله لنفسك!

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٩١٩٤)، وسعيد بن منصور في «التفسير» (٥٨٧)، عَنْ طَاوُوسٍ قَالَ: أَمَرَ عُمَرُ حَفْصَةَ أَنْ تَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْكَلَالَةِ، فَأَمْهَلَتْهُ حَتَّى إِذَا لَبِسَ ثِيَابَهُ سَأَلَتْهُ عَنْهَا، فَأَمْلَاهَا عَلَيْهَا، وَقَالَ: «**مَنْ أَمَرَكِ بِهَذَا، أَعُمَرُ؟ مَا أَظُنُّ أَنْ يَفْهَمَهَا، أَوَلَمْ تَكْفِهِ آيَةُ الصَّيْفِ؟**». (وهو إسناد ضعيف). راجع تفسير ابن كثير.

يا رب: اعمل لي كذا، وأدخلني هنا، وأخرجني من هنا، أنت رسمت الخطة، فماذا تركت لربك؟ إنما عليك أن تطلب التوفيق من الله ﷻ، فإن لم يدعك الله ﷻ لنفسك فقد وفقك، وإن تركك لنفسك فقد خذلك تمامًا.

(لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت):

«التوفيق والخذلان» أساس في الدين فمن وفق في صلاة القيام فمن الله، ومن لم يُوفق فقد خُذل وقد تركه الله لنفسه.

لماذا مكر الله به؟ لذنبه، وشرحنا هذا في بعض أنواع المكر، كيف يمكر الله ﷻ بأوليائه؟ أنواع كثيرة جدًّا من المكر، يعرضك لفتنة لا طاقة لك ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: الآية ١٤] هل ترسب فيها بمكر الله ﷻ؟

(لا مانع لما أعطيت) أنت تريد فهم الأذكار، لن تفهمها إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى وعز وجل، تريد حفظ القرآن، لن تحفظه إلا أن يوفقك الله، فلماذا لا يوفقني ربي كما وفق الآخرين؟ (لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)، هذا هو الأصل طيب لماذا؟ بذنبك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

هنا العطاء والمنع أصل الأصول، بعدما اجتهدت في أذكار الافتتاح، واجتهدت في فاتحة الكتاب، وفي القرآن، وفي التكبير وهو شعار الانتقال من القيام إلى الركوع، وفي تحميد الله ﷻ بالتعظيم، وبعد الرفع من الركوع، وأذكار الرفع. ثم تقول: يا رب، ما فات من قراءة

الفاتحة، والافتتاح، والركوع، لم أفهم شيئًا، أنا أردد بلساني فحسب!!

يا رب: إن مننت علي فسأفهم، وإن منعت عني عطاءك فسأكون مثل الحصير والسجاد الذي أقف عليه.

استحضر هذا الذي ذكرته الآن، وأنت تقول هذه الصيغة بعد الرفع من الركوع في الصلاة، عليك أن تتذكر هذا.

لذلك ذكرنا من قبل أن من أذكار الاستفتاح المهمة لأهل هذا الزمان: (اللهم باعد بيني وبين خطاياي) ولا تقوله باللسان بل لا بد أن تَعِيَ ما تقول.

الأمر خطير فكما ذكر الامام أحمد: «إن حظك من الإسلام على قدر حظك من الصلاة، وإن رغبتك في الإسلام على قدر رغبتك في الصلاة»(١).

إذًا (لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت) عبارة من أخطر العبارات، وفيها التوحيد كله، ولا مانع من إدخال المال والدنيا، الدنيا داخلة فيها، لكن الدنيا كلام فارغ أخذتها أم لم تأخذها فأنت مبتلًى بالغنى أو مبتلًى الفقر.

الأهم كيف تتصرف مع الفتنة؟ هل توفق أم تخذل؟

ما معنى (ولا ينفع ذا الجد منك الجد)؟

(الجد): الحظ؛ الجاه والرئاسة والمنصب.

وأصحاب الحظوظ مثلًا كقارون؛ ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ

(١) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٣٥٤).

لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القَصَص: الآية ٧٩]، والجد الحظ.

هل هذه الحظوظ تنفع عند الله؟

نعم المال ينفع عند الله، لبناء المساجد ورعاية الأيتام والمشردين، ما أحوج المسلمين إلى ذلك، فالمال ينفع (عند الله).

وتقول (ولا ينفع ذا الجد منك الجد)؛ يعني ذو الجد جَدُّهُ لا ينفعه من الله، فإن أراد أن يضرب إنسانًا فلا ينفعه سلطانه، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾، أما لو استعمل حظه لله فنفعه عند الله، ويكون نِعْمَ الحظُّ والمالُ هو؛ إذ نفعك الله به، ونجحت في الابتلاء والاختبار وصرت محسنًا، ولم تعبد المال بل أنت والمال عبيد لله، وهذا هو المطلوب.

أما أن تأخذ المال والسلطة وتنفرد بعيدًا عن الله ﷻ، وتريد أن تنتفع بالمال، فلن ينفعك؛ (ولا ينفع ذا الجد منك الجد).

كل هذا توحيد، والصيغ لو رتبت بينها وبين بعض وأعدت تركيب جزيئات قلبك بحسبها لَتُفْلِحَنَّ إن شاء الله.

لأن جزيئات القلوب تترتب بحسب التوحيد، التوحيد كالمغناطيس الذي يمر على قطعة الحديد فيمغنطها، ما معنى يمغنطها؟ كتلة الحديد ليست صماء، بل مليئة بالفراغات ومن الممكن أن تنضغط بضغطة واحدة، كذلك القلب: أي قلب الروح، وليس قلب المضغة الأذين والبطين والدم والشريان، فالقصد القلب المتعلق بالروح، فالتوحيد يعيد ترتيب جزيئاته كما يعيد المغناطيس ترتيب جزيئات الحديد فيجعل كل قواها في اتجاه واحد.

فالتوحيد يعيد ترتيب جزيئات القلب لتعمل في اتجاه واحد، وهو المَغْنِيُّ بقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ [التوبة: الآية ٢٤] تأمل؛ «و» وليس «أو»؛ للجمع.

فإذا كانت محبة الوالد، ومحبة الولد، ومحبة الأخ، ومحبة الزوج، ومحبة العشيرة، ومحبة الأموال، ومحبة التجارة، ومحبة المساكن، اجتمعت كلها فأصبحت مضادة لمحبة الله ورسوله وجهاد في سبيله (فتربصوا)، انتظروا حتى يأتي الله بأمره.

الصيغة الثامنة

«ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، [اللهم] لا مانع لما أعطيت [ولا معطي لما منعت] ولا ينفع ذا الجد منك الجد» رواه مسلم[1].

الصيغة الثامنة الجديد فيها (أحق ما قال العبد):

فما أحق ما قال العبد؟ الحمد... لماذا؟

- لأنه لا شيء إلا وهو مليء بالحمد لله، إذًا فالحمد هو (أحق ما قال العبد).

- الحمد ملء كل شيء؟ نعم فـ (أحق ما قال العبد).

- (أهل الثناء والمجد) نعم (أحق ما قال العبد).

(١) أخرجه مسلم (٤٧٧).

- (ذو الجلال والإكرام) نعم (أحق ما قال العبد).

كل ما ذُكِرَ من الأذكار هو (أحق ما قال العبد) لأنه إثبات الكمال لله ﷻ فهو حمد.

(وكلنا لك عبد) أي كلنا نشهد بذلك... والله المستعان.

الصيغة التاسعة

وإذا كان في صلاة الليل يقول: «**لربي الحمد لربي الحمد**» يكرر ذلك حتى كان قيامه نحوًا من ركوعه(١) الذي كان قريبًا من قيامه الأول، وكان قرأ فيه سورة البقرة.

تأمل ماذا يفعل الرسول ﷺ!!

كان يقول: (لربي الحمد لربي الحمد) يكرر ذلك (في القيام)، حتى كان قيامة نحو من ركوعه الذي كان قريبا من قيامه الأول [يعني قيامه الأول قرأ «الفاتحة» والقرآن - «سورة البقرة» - يقاربه الركوع، ويقاربه أيضًا ركن الرفع من الركوع] فلو كان القيام نصف ساعة، فالركوع نصف ساعة، كذلك الرفع من الركوع.

جرب مرة وقل: (لربي الحمد، لربي الحمد، لربي الحمد)، جرب واستمر وأنت في الليل وحاول أن تذكر بعض هذه المعاني: حمد الثناء والعبادة، ثم حمد النعمة والشكر، والنعم الظاهرة والباطنة.

---

(١) أخرجه النسائي (١٠٦٩)، وأحمد (٢٣٣٧٥) بلفظ: ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَكَانَ قِيَامُهُ نَحْوًا مِنْ رُكُوعِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: «**لِرَبِّيَ الْحَمْدُ لِرَبِّيَ الْحَمْدُ**».

حاول وسترى الثمرة إن شاء الله.

الصيغة العاشرة

«ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه مباركًا عليه كما يحب ربنا ويرضى»(١).

الزيادة هنا: **«مباركًا عليه كما يحب ربنا ويرضى»**.

س: ما الذي يحبه الله ﷻ؟

ج: يُحب أن يُعبد، يُحب أن يُثنى عليه، بأسمائه وصفاته.

س: ما معنى أن الله يحب أن يُحمد؟

ج: هل لله ﷻ شيء فيه نقص لا يحب عليه؟ هل ربنا ﷻ فيه نقص أو شر ينسب إليه حتى لا يحب عليه؟ الجواب: لا.

إذا فهو الكمال، والكمال محبوب؛ لأن الحمد كله لله، وكيف لا يحب ربنا الحمد؟!

فهذا هو الحق؛ أن الله ﷻ يحب نفسه يعني يحب الكمال كله. وهل يُحَبُّ إلا الكمال؟!

الكمال هو الحب الأصلي، فالله ﷻ يحب نفسه، لأن نفسه اتصفت

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٣)، والترمذي (٤٠٤)، والنسائي (٩٣١)، من حديث رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (٧٩٩) بلفظ: . . . فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: «**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ: «**مَنِ المُتَكَلِّمُ؟**». . . الحديث.

بكل كمال.

والله ﷻ ذو الجلال والإكرام، إذًا يحب جلاله وإكرامه أم لا؟ نعم يحب إكرامه، فمن يكرم إذًا إن لم يحب إكرامه؟

إذًا هنا مسألة (كما يحب ربنا):

نعم ربنا يحب؛ يحب الكمالات كلها، وأنت عبده، وخلقت:

- لكي تعرفه.

- فتعبده وتوحده.

- فتربح عليه أعظم الأرباح. لا تنسَ الثالثة (فتربح عليه أعظم الأرباح).

فحين تقول: خلقنا (لكي نعرفه فنحبه ونعبده) وتسكت! هل ربنا محتاج للعبادة؟ فلا تنس الثالثة؛ لأن في الحديث: «الشيطان جاثم على صدر ابن آدم فإن ذكر الله خنس، وإن غفل عن الله وسوس»[1]، ويقول لك: هل ربنا محتاج لعبادة الناس؟ هو خلقنا ليتعبنا، هل هو في حاجة للعبادة؟ قل له: لا؛ ليس له حاجة للعبادة فهو يحب صفاته، يحب نفسه، وهو ذو الجلال والإكرام، يحب أن يُكرِم، لذلك قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]، وما معنى يعبدون؟

أي: إلا ليعرفونِ، فيحبونِ، فيعبدونِ، والأهم للناس: (فيربحون على الله أعظم الأرباح).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٧٧٤)، وأبو داود في «الزهد» (٣٣٧) من قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

حين تعرف لماذا أنت خلقت تبكي لله، إن الله ﷻ الحنان المنان، ذو الجلال والإكرام، المعطي المانع، يحب أن يكرم، يحب أن يعطي، ولا بد أن يكرم وأن يعطي، ويحب أن يغفر، ولا بد من الذنوب، لو لم نذنب لذهب بنا وجاء بغيرنا يذنبون فيستغفرون.

تأمل العبادة هنا: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] عبادة الاستغفار، أو دعاء الاستغفار، فيغفر الله لهم.

معاني أذكار السجود

ننتقل إلى السجود وأذكار السجود:

نذكر كلام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أذكارُ السُّجود: وكان ﷺ يقول في هذا الركن أنواعًا من الأذكار والأدعية، تارةً هذا، وتارةً هذا:

الصيغة الأولى

«**سبحان ربي الأعلى**» (ثلاث مرات)[٢]. وكان - أحيانًا - يكررها أكثر من ذلك».

أكثر المسلمين الآن لا يعلم إلا (سبحان ربي الأعلى)، وهي تكفي، لكن تنويع الأذكار، وتنويع الصيغ يحرك القلوب، ويدخل على القلب من باب آخر، فلعلك تجد في صيغة تأثيرًا في القلب لم تجده في الصيغة الأولى؛ وهذا هو المطلوب.

وطبعًا سنعرض هل يمكن الجمع بين صيغتين أو ثلاثة في ركوع واحد أو في سجود واحد؟ وهذا الكلام فيه تحقيقات إن شاء الله نعرضها.

---

(١) «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٢/ ٧٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٢) من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

❍ ما معنى (سبحان ربي الأعلى)؟

شرحنا الأعلى من قبل؛ (أنواع العلو):

١- (علو الذات) الله تبارك وتعالى فوق عرشه، والعرش سقف المخلوقات، ومحيط بالمخلوقات، و(علو الذات) أعلى من كل شيء، الظاهر فليس فوقه شيء.

٢- (علو القهر) معناه الهيمنة والسيطرة، أي (الربوبية)، لا شيء يخرج من ملك الله أبدًا، ولا من ربوبية الله أبدًا، الكل مربوبٌ مملوك لله ﷻ. [فعلو القهر يعني علو الربوبية].

٣- و(علو القدر)، معناه إثبات الإلهية.

٤- ثم النوع الرابع؛ (علو التعالي): التعالي عن ماذا؟ عن الشريك، التعالي عن الولد، التعالي عن النقص، التعالي عن نسبة الشر إليه، التعالي عن كل العيوب، فهو السلام وهو القدوس.

كل هذا داخل في الأعلى، إذًا الأعلى اشتملت على كل شيء.

فالصيغة الأولى الثابتة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تذكر أنواع العلو:

- مرة تذكر (علو الذات) ليتجه قلبك إلى الله، ولا بد من آمم لقلبك حتى يؤمه، وحتى يقصده وحتى يتجه إليه. الله سبحانه وتعالى في السماء فوق عرشه... علو الذات يذكرك بهذا.

- ثم (علو القهر): الربوبية الكاملة، فلا تخاف ولا تعظم ولا تهاب أحدًا غيره أبدًا، فهو الأعلى قدرًا.

- ثم (علو التعالي)؛ هو الإله، تعالى عن الشريك، تعالى عن الولد، عن الند، عن الصاحبة، عن النقائص. . . وهكذا.

إذا (سبحان ربي الأعلى) ثلاث مرات تكفي لمن وعاها وتدبرها.

[وكان أحيانًا يكررها أكثر من ذلك، وبالغ في تكرارها مرة في صلاة الليل حتى كان سجوده قريبًا من قيامه، وكان قرأ فيه ثلاث سور من الطوال: البقرة والنساء وآل عمران، يتخللها دعاء واستغفار كما سبق في (صلاة الليل)].

وكذلك مر معنا من تكرار (لربي الحمد) وهي كـ (سبحان ربي الأعلى) لا تختلف.

سواء قال (لربي الحمد) أو (سبحان ربي الأعلى) هذه أحق ما قال العبد، وهذه أحق ما قال العبد؛

لأن (هذه حمد، وهذه حمد)، (هذه كمالات لله، وهذه كمالات لله)؛(هذه تنزيه للنقائص، وهذه تنزيه للنقائص). وهذا هو المطلوب.

وأنت حين تثبت الكمالات كلها في قلبك، لن تبقى كما أنت، ستدمع عيناك باستمرار، لن تستطيع أن تكبت دمعك، لو أثبت الكمالات لله في قلبك فعلًا، سيترتب عليها أن تكون عبدًا موحدًا لله ﷻ، أن تكون ربانيًّا؛ ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧٩]، ستجد نفسك وقد صرت ربانيًّا؛ لأن قلبك شرب هذه المعاني.

جرب أن تسجد وتكرر (سبحان ربي الأعلى) ساعة مثلًا. ثم تدعو بكل ما تشكو منه، انتهي من كل مشاكلك الدنيوية واطلبها من الله ﷻ؛

لتتفرغ للآخرة.

وللأسف الإنسان الضعيف مثلنا، يأتي عند قول (سبحان ربي الأعلى) بقلب غافل وباهت، لكن إن تذكر الدنيا والمشاكل، والوظيفة والعيال ينادي ويقول: يا رب، بخشوع، وحضور قلب.

أول ما يدعو للآخرة يتثاءب، وحين تأتي الدنيا يخشع.

فالله يوقظه بهذه المصائب، فاجعل عندك بعضًا من الحياء لله ﷻ، وادع خوفًا من النار وقل: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠١].

وكل نبتة نبتت في القلب من قراءة للفاتحة، من قراءة للقرآن، من المحامد، من الافتتاح، من الركوع، من (الله أكبر)، من الرفع من الركوع، من الهبوط إلى السجود، يريد الشيطان أن يحرق عليك هذه النبتة، ويريد أن يقطعك عن الله، مثل قطاع الطريق تمامًا.

الصيغة الثانية

«سبحان ربي الأعلى وبحمده»(١).

❍ ماذا تعني (وبحمده)؟

أنت حين تسبح تنزه الله ﷻ. كيف تنزه ﷻ؟ تذكر أسماء الله وصفاته ولا تصطحب محامد الله ﷻ؟!

الإمام الشافعي كان يقول: (وبحمدك سبحتك) بعد أن يقول:

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٠) بإسناد ضعيف.

(سبحان الله وبحمده)؛ فما معنى (وبحمدك سبحتك)؟

يعني يا رب إني أسبحك بقلب منشغل خاضع مخبت لك، يا رب ما حصل ذلك مني، وما جاءت هذه النعمة إليَّ، إلا منك وحدك.

وأقولها مستحضرًا قلبي، فاهمًا لها، معظمًا لك بها، أهابك بها، وأرجوك بها، وأخافك بها، وأستحي منك بها، كما حدث ذلك من قلبي. هذا الإنتاج لم يحدث إلا بحمدك ومنتك عليَّ. يا حنان يا منان.

فالصيغ كلها متداخلة مع بعضها كلها في النهاية تدور حول محور (الحمد).

(سبحان ربي الأعلى وبحمده):

أنت تسبح ربنا. تنزيه مستمر عن النقائص والعيوب وعن المثال. والتفاصيل هي المحامد:

انظر إلى كل محمدة وانفِ ما يناقضها.

تثبت العزة لله. يناقضها أنه يغلب. فتنفي أنه يغلب.

تثبت القدرة لله. يناقضها العجز. فتنفي العجز عن الله.

تثبت الكمال في العلم لله. يناقضه الجهل والنسيان. فتنفي الجهل عن الله؛ ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يُونس: الآية ٦١].

فمعنى (وبحمده): أي مصطحبًا محامده، والمحامد لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى.

الصيغة الثالثة

«سبوح قدوس رب الملائكة والروح»[(١)].

تم شرحها في الركوع، ونستعرضها سريعًا.

(سبوح)؛ أي يستحق أن يسبح، هذا ثابت لله ﷻ.

لأنه فعلًا بعيدٌ بعيدٌ بعيدٌ عن كل نقص. بعيدٌ بعدًا لا نهاية له. سبحانه وتعالى وعز وجل. فهو السبوح. ويستوجب منك أن تسبحه، ومن منة الله عليك أن يوفقك في تسبيحه.

(قدوس): هنا صفة إثبات. و(القدوس) لو جاءت منفردة فهي صفة نفي. لأنك تنزه الله ﷻ عن كل نقص، وعن كل عيب، وتثبت له الطهارة الكاملة، فتنفي بها ما يناقضها أو ما ينقضها، ذكرنا أن (القدوس) يعني الطهارة المطلقة.

إذًا (سبوح قدوس) مثل (ذو الجلال والإكرام).

(القدوس) هو الطاهر والكامل في الطهارة، فالتطهير رفع للدرجات؛ لأن الذي يليق بمقام القدوس أن ترفع درجتك أكثر وأكثر، فالقدوس هنا إثبات الكمالات لله، لطهارة الله ﷻ، ولجمال الله ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٧).

تكملة شرح أذكار السجود

أيها الإخوة الأعزاء:

نذكر كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في أذكار السجود؛ يقول ابن القيم في كتابه: «الصلاة وحكم تاركها»[(١)]:

«ثم يكبر ويخرُّ لله ساجدًا» ولقد علمنا أن التكبير يذكرك بأن الله عَزَّوَجَلَّ أكرم، ويذكرك بأن الله عَزَّوَجَلَّ أعظم، إذًا فرغبتك ورهبتك تكون لله، وكل رغبة وكل رهبة نشأت نتيجة لحاجات الدنيا يجب أن تضمحل وأن تتلاشى عند الصلاة، إذا ما قُرنت بالرغبة في كرم الله عَزَّوَجَلَّ، وبالرهبة من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وكبرياء الله، وبطش الله، وجبروت الله، وما إلى ذلك.

«غير رافع يديه؛ لأن اليدين تَنحطان للسجود كما ينحط الوجه، فهما ينحطان لعبوديتهما، فأغنى ذلك عن رفعهما، ولذلك لم يُشرع رفعهما عند رفع الرأس من السجود؛ لأنهما يُرفعان معه كما يُوضعان معه» يريد أن يقول إن الإنسان يرفع يديه عند الرفع من الركوع مثلًا، وعند تكبيرة الإحرام وما إلى ذلك، وكل هذه عبودية، أما هنا فاليدان لا ترفعان فانحطاطهما عبودية، فعبودية اليدين هنا عند الخرور إلى السجود أنهما تنحطان.

---

(١) (ص٢٠٩).

«وشُرِع السجود على أكمل الهيئة، وأبلغها في العبودية، وأعَمِّها لسائر الأعضاء» الآن ابن القيم سيتكلم عن الهيئة، وقد ذكرت سابقًا أن الهيئة في الركوع تُساعدك على الخضوع الشديد لله أو أن الهيئة في الركوع تساعدك على فهم معنى (سبحان ربي العظيم)، فلو ذكرت مثلًا أنك راكع لبشر منخفضًا وظهرك أفقي لحقرت من نفسك؛ كيف تركع لبشر؟! كيف تؤدي هذا لبشر؟! كيف تؤدي هذا لمخلوق؟! لكنَّه لله ﷻ.

إذ هذه الهيئة - هيئة الذل والخضوع - مع اللسان يعينان القلب على فهم بعض من عظمة الله ﷻ.

ثم يقول ابن القيم: «بحيث يأخذ كلُّ جزء من البدن بحظه من العبودية»، وهذا معلوم فإن الوجه يأخذ حظه من العبودية، واليدان، والركبتان، والقدمان كذلك.

[والسجود سر الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة، وما قبله من الأركان كالمقدمات له؛ فهو شِبْهُ طواف الزيارة في الحج، فإنه مقصود الحج، ومحل الدُّخول على الله وزيارته، وما قبله كالمقدمات له، ولهذا أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضلُ الأحوال له حال يكون فيها أقربَ إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقربَ إلى الإجابة.

ولما خلقَ الله سبحانه العبدَ من الأرض، كان جديرًا بألَّا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفسُ بالخروج عنه، فإن العبدَ لو تُرك لطبعه ودواعي نفسه، لتكبر وأشر وخرج عن أصله الذي خلق منه، ولوثب على حقِّ ربِّه من الكبرياء والعظمة فنازعه إياهما، وأمر بالسجود

خضوعًا لعظمة ربه وخشوعًا له وتذللًا بين يديه وانكسارًا له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل ردًّا له إلى حُكم العبودية، ويتدارك ما حصلَ له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتمَثَّل له حقيقة التراب الذي خلق منه وهو يضع أشرفَ شيء منه وأعلاه وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله، خضوعًا بين يدي ربه الأعلى وخشوعًا له وتذللًا لعظمته واستكانةً لعزته، وهذا غاية خشوع الظاهر فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدم واستعمله فيها ورده إليها ووعده بالإخراج منها، فهي أمه وأبوه وأصله وفصله، فضمته حيًّا على ظهرها وميتًا في بطنها، وجعلت له طهرًا ومسجدًا فأمر بالسجود؛ إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء، فيعفر وجهه في التراب استكانة وتواضعًا وخضوعًا وإلقاء باليدين.

وقال مسروق لسعيد بن جبير: «ما بقي شيءٌ يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في التراب له»[١]، وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوجهه قصدًا بل إذا اتفق له ذلك فعله، ولذلك سجد في الماء والطين[٢]، ولهذا كان

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦/ ٨٠)، وأحمد في «الزهد» (٢٠٣٢) بلفظ: يَا سَعِيدُ مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُرْغَبُ فِيهِ إِلَّا أَنْ نُعَفِّرَ وُجُوهَنَا فِي هَذَا التُّرَابِ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٦)، ومسلم (١١٦٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: اعْتَكَفْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ العَشْرَ الأَوْسَطَ مِنْ رَمَضَانَ، فَخَرَجَ صَبِيحَةَ عِشْرِينَ فَخَطَبَنَا، وَقَالَ: «**إِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، ثُمَّ أُنْسِيتُهَا - أَوْ نُسِّيتُهَا - فَالْتَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ فِي الوَتْرِ، وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنِّي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ، فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلْيَرْجِعْ**»، فَرَجَعْنَا وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً، فَجَاءَتْ سَحَابَةٌ فَمَطَرَتْ حَتَّى سَالَ سَقْفُ المَسْجِدِ، وَكَانَ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَسْجُدُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ، حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ فِي جَبْهَتِهِ.

من كمال السجود الواجب أنه يسجد على الأعضاء السبعة الوجه واليدين والركبتين وأطراف القدمين، فهذا فرضٌ أمر الله به رسول وبلغه الرسول لأمته[١].

ومن كماله الواجب أو المستحب مباشرة مصلَّاه بأديم وجهه واعتماده على الأرض بحيث ينالها ثقل رأسه وارتفاع أسافله على أعاليه، فهذا من تمام السجود ومن كماله أن يكون على هيئة يأخذ فيها كل عضو من البدن بحظه من الخضوع فَيُقِلُّ بطنه عن فخذيه وفخذيه عن ساقيه، ويجافي عضديه عن جنبيه ولا يفرشهما على الأرض ليستقل كل عضو منه بالعبودية.

ولذلك إذا رأى الشيطان ابن آدم ساجدًا لله اعتزل ناحية يبكي ويقول:

«يا ويله أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار»[٢]. ولذلك أثنى الله سبحانه على الذين يخرون ثم سماع كلامه، وذم من لا يقع ساجدًا عنده ولذلك كان قول من أوجبه قويًّا في الدليل، ولما علمت السحرة صدق موسى وكذب فرعون خروا سجدا لربهم فكانت تلك السجدة أول سعادتهم وغفرانَ ما أفنوا فيه أعمارهم من السحر.

ولذلك أخبر سبحانه عن سجود جميع المخلوقات له فقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٩)، ومسلم (٤٩٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أُمِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ، وَلَا يَكُفَّ شَعَرًا وَلَا ثَوْبًا: الجَبْهَةِ، وَاليَدَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَالرِّجْلَيْنِ.

(٢) أخرجه مسلم (٨١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ** - وَفِي رِوَايَةِ: **يَا وَيْلِي - أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ**».

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

فأخبر عن إيمانهم بعلوه وفوقيته وخضوعهم له بالسجود تعظيمًا وإجلالًا، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: الآية ١٨].

فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه وهو الذي أهانه الله بترك السجود له، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربّه حيث لم يسجد له، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: الآية ١٥].

ولما كانت العبودية غايةَ كمال الإنسان، وقربُه من الله بحسب نصيبه من عبوديته، وكانت الصلاة جامعةً لمتفرق العبودية متضمنةً لأقسامها كانت أفضل أعمال العبد ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه. وكان السجود أفضل أركانها الفعلية وسرها الذي شرعت لأجله وكان تكرره في الصلاة أكثر من تكرر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة وغايتها وشرع فعله بعد الركوع، فإن الركوع توطئة له ومقدمة بين يديه، وشرع فيه من الثناء على الله ما يناسبه وهو قول العبد: (سبحان ربي الأعلى). فهذا أفضل ما يقال فيه، ولم يرد عن النبي ﷺ أمره في السجود بغيره حيث قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وثمة كلام في صحة هذا الحديث أن سنده فيه ضعف[١]، ولكن صح «**وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم**»[٢] فالأولى فيه الدعاء وبعد ذلك التسبيح.

يقول ابن القيم: «ومن تركه عمدًا فصلاته باطلة عند كثير من العلماء منهم الإمام أحمد وغيره؛ لأنه لم يفعل ما أُمر به وكان وصفُ الرب بالعلو في هذه الحال في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحط إلى السُّفل على وجهه، فذكر عُلُوَّ ربه في حال سقوطه، وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه ونزَّه ربه عما لا يليق به مما يضاد عظمته وعلوه. ثم لما شرع السجود بوصف التكرار لم يكن بد من الفصل بين السجدتين».

كم ركوعًا في الركعة الواحدة؟ ركوع واحد، أما السجود فكم سجدةً؟ سجدتان.

فهو الركن الذي كرر مرتين، وكيف يحسب مرتين وأنت ساجد. إذًا لا بد من الفصل بين السجدتين.

«ففصل بينهما بركن مقصود شُرع فيه من الدعاء ما يليق به ويناسبه، وهو سؤال العبد المغفرة والرحمة والهداية والعافية والرزق، فإن هذه تتضمن جلب خير الدنيا والآخرة، ودفعَ شر الدنيا والآخرة.

فالرحمة تُحصل الخير، والمغفرة تقي الشر، والهداية تُوصل إلى هذا وهذا، والرزق إعطاءُ ما به قوامُ البدن من الطعام والشراب، وما به قوام

(١) ضعفه الألباني في «إرواء الغليل» (٢/ ٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الروح والقلب من العلم والإيمان، وجُعل جلوس الفصل محلًّا لهذا الدعاء لما تقدمه من رحمة الله والثناء عليه والخضوع له، فكان هذا وسيلةً للداعي ومقدمةً بين يدي حاجته».

السجدة الأولى مقدمة أو توسل للدعاء بين السجدتين هكذا يريد أن يقول ابن القيم فانتبه. ثم يقول: «فهذا الركن مقصودٌ الدعاءُ فيه فهو ركن وضع للرغبة وطلب العفو والمغفرة والرحمة؛ فإن العبد لما أتى بالقيام والحمد والثناء والمجد ثم أتى بالخضوع وتنزيه الرب وتعظيمه ثم عاد إلى الحمد والثناء ثم كمل ذلك بغاية التذلل والخضوع والاستكانة بقي سؤال حاجته واعتذاره وتنصله؛ فشرع له أن يتمثل في الخدمة فيقعد فعل العبد الذليل جاثيًا على ركبتيه كهيئة الملقي نفسه بين يدي سيده راغبًا راهبًا معتذرًا إليه مستعديًا إليه على نفسه الأمارة بالسوء».

تأمل هذه العبارة: «مستعديًا إليه على نفسه الأمارة بالسوء» أي: يا رب أعني على نفسي، الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول لمن سأله مرافقته في الجنة: «**أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**».

«ثم شرع له تكرير هذه العبودية مرة بعد مرة إلى إتمام الأربع، كما شُرع له تكرير الذكر مرة بعد مرة، لأنه أبلغُ في حصول المقصود وأدعى إلى الاستكانة والخضوع».

يريد أن يقول إن السجود يكرر مرة بعد مرة، والرفع يكرر مرة بعد مرة، والأذكار أيضًا تكرر مرة بعد مرة؛ لأنه أدعى للخضوع، تقول (سبحان ربي الأعلى) وتمر بك دون أن تستحضر المعاني أو أن تحضر قلبك فيها، ثم في المرة الثانية تقول (سبحان ربي الأعلى) فتنتبه لفعل

الشيطان بك في المرة الأولى وكيف أنه يريد أن يشوش على قلبك، فتجاهد نفسك وتكرر (سبحان ربي الأعلى)، فالتكرار أبلغ في تحصيل حضور القلب وخشوع القلب.

ثم يقول: «فلما أكمل ركوع الصلاة وسجودها وقراءتها وتسبيحها وتكبيرها، شُرع له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المتخشع المتذلل المستكين جاثيًا على ركبتيه، ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التحيات وأفضلها عوضًا عن تحية المخلوق للمخلوق، إذا واجههُ أو دخل عليه»

ما الفرق بين تحية المخلوق وتحية ملك الملوك؟

تحية ملوك الأرض أول ما تدخل عليه تُحَيِّيه وتدعو له، وهذه التحية لأجل أخذ المال. لكن بين يدي الخالق كررت الأذكار، كررت الركعات، كررت السجود، كررت أم الكتاب، كررت التكبير، كررت التسبيح والثناء والتحميد والتعظيم... وبعد كل هذا هذه الجلسة المخصوصة لقول (التحيات)، فلا تقول التحيات أول ما تدخل على الله؛ لأن هذا مع ملوك الأرض.

«فإنَّ الناس يحيون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يحيون بها قلوبهم، فبعضهم يقول: أنعم صباحًا، وبعضهم يقول: لك البقاء والنعمة، وبعضهم يقول: أطال الله بقاءك، وبعضهم يقول: تعيش ألف عام، وبعضهم يسجد للملوك، وبعضهم يسلم، فتحياتهم بينهم تتضمن ما يحبُّه المُحَيَّى من الأقوال والأفعال.

والمشركون يحيون أصنامهم، قال الحسن: كان أهل الجاهلية يتمسحون بأصنامهم ويقولون: لك الحياة الدائمة، فلما جاء الإسلام

أمروا أن يجعلوا أطيب تلك التحيات وأزكاها وأفضلها لله. ثم فالتحية هي تحية من العبد للحي الذي لا يموت، وهو سبحانه أولى بتلك التحيات من كل ما سواه؛ فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحق أحد هذه التحيات إلا الحي الباقي الذي لا يموت ولا يزول ملكه».

كلمة التحيات: جمع تَحِيَّة (تَفْعِلَة) من الحياة، فمن الذي له الحياة الحقيقية؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. أما غيره فحياته مدة زمنية مؤقتة. فالتحيات على أصولها هي لله سبحانه وتعالى وعز وجل؛ كما قال ابن القيم.

«وكذلك قوله (والصلوات) فإنه لا يستحق أحد الصلاة إلا الله عَزَّوَجَلَّ، والصلاة لغيره من أعظم الكفر والشرك به.

وكذلك قوله (والطيبات) هي صفة الموصوف المحذوف؛ أي: (الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده)، فهو طيبٌ وأفعاله طيبة وصفاته أطيبُ شيء وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه الطيب ولا يصدر عنه إلا طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، ولا يُقرَّب منه إلا طيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، وفعله طيب، والعمل الطيب يعرج إليه، فالطيبات كلها له ومضافة إليه وصادرة عنه ومنتهية إليه.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»(١)، وفي حديث رقية المريض الذي رواه أبو داود وغيره: «**أنت رب الطيبين**»(٢) ولا يجاوره من عباده إلا الطيبون، كما يقال لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد حكم سبحانه في شرعه وقدره أن الطيبات للطيبين، فإذا كان هو سبحانه الطيبَ على الإطلاق فالكلماتُ الطيبات، والأفعال الطيبات، والصفات الطيبات، والأسماء الطيبات كلها له سبحانه لا يستحقها أحد سواه، بل ما طابَ شيء قط إلا بطيبته سبحانه، فطيب كل ما سواه من آثار طيبته، ولا تصلحُ هذه التحية الطيبة إلا له، ولما كان السلام من أنواع التحية، وكان المسلم داعيًا لمن يحييه، وكان الله سبحانه هو الذي يُطلب منه السلام لعباده الذين اختصهم بعبوديته، وارتضاهم لنفسه، وشرع أن يُبدأ بأكرمهم عليه وأحبهم إليه وأقربهم منه منزلة في هذه التحية بالشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام، فشرع أن يكون خاتمة الصلاة، فدخل فيها بالتكبير والحمد والثناء والتمجيد وتوحيد الربوبية والإلهية، وختمها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

وشُرعت هذه التحية في وسط الصلاة إذا زادت على ركعتين تشبيهًا لها بجلسة الفصل بين السجدتين، وفيها مع الفصل راحة للمصلي لاستقباله الركعتين الآخرتين بنشاط وقوة، بخلاف ما إذا والى بين الركعات، ولهذا كان الأفضل في النفل مثنى مثنى، وإن تطوع بأربع جلس في وسطهن.

وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها فإن المصلي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الراغب الراهب يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه، فشرع له أمام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله، ثم يتبعها بالصَّلاة على من نالت أمته هذه النعمة على يده وسعادته، فكأن المصلي توسل إلى الله سبحانه بعبودتيه، ثم بالثناءِ عليه والشهادة له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة ثم الصلاة على رسوله ثم قيل

له تخير من الدعاء أحبَّه إليك، فذاك الحق الذي عليك وهذا الحق الذي لك.

وشرعت الصلاة على آله مع الصلاة عليه تكميلًا لقرة عينه بإكرام آله والصلاة عليهم، وأن يُصلي عليه وعلى آله، كما صَلَّى على أبيه إبراهيم وآله والأنبياء كلهم بعد إبراهيم من آله، ولذلك كان المطلوب لرسول الله ﷺ صلاة مثل الصلاة على إبراهيم وعلى جميع الأنبياء بعدَه وآله المؤمنين، فلهذا كانت هذه الصلاة أكمل ما يصلي على رسول الله ﷺ بها وأفضل.

فإذا أتى بها المصلي أمر أن يستعيذ بالله من مجامع الشر كله فإن الشر إما عذاب الآخرة وإما سببه فليس الشر إلا العذاب وأسبابه، والعذاب نوعان: عذاب في البرزخ، وعذاب في الآخرة، وأسبابه الفتنة؛ وهي نوعان: كبرى وصغرى، فالكبرى فتنة الدجال وفتنة الممات، والصغرى فتنة الحياة التي يمكن تداركها بالتوبة بخلاف فتنة الممات وفتنة الدجال، فإن المفتون فيهما لا يتداركها.

ثم شرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته، والدعاء في هذا المحل قبل السلام أفضل من الدعاء بعد السلام وأنفعُ للداعي، وهكذا كانت عامة أدعية النبي ﷺ كلها كانت في الصلاة من أولها إلى آخرها، فكان يدعو في الاستفتاح أنواعًا من الدعاء، وبعد الركوع وبعد رفع رأسه منه، وفي السجود وبين السجدتين وفي التشهد قبل التسليم، وعلَّم الصديق دعاء يدعو به في صلاته[1]، وعلَّم الحسن بن علي دعاء

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه: أَنَّهُ قَالَ =

يدعو به في قنوت الوتر[١].

وكان إذا دعا لقوم أو على قوم جعله في الصلاة بعد الركوع، ومن ذلك أن المصلي قبل سلامه في محل المناجاة والقربة بين يدي ربه، فسؤالُه في هذا الحال أقرب إلى الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يديه، وقد سئل النبي ﷺ أيُّ الدعاء أسمع؟ فقال: «**جَوْفَ اللَّيْلِ وَأَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ**»[٢].

ودبر الصلاة جزؤها الأخير كدبر الحيوان ودبر الحائط، وقد يراد بدبرها ما بعد انقضائها بقرينة تدل عليه كقوله: «**تُسَبِّحُونَ اللهَ وَتَحْمَدُونَهُ وَتُكَبِّرُونَهُ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ**»[٣]، فهنا دبرها الفراغ منها، وهذا

= لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥)، وابن ماجه (١١٧٨) قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ عَنْهُمَا: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ - وفي رواية: فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ**».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٩٩) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: «**جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ**».

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٣)، مسلم (٥٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ** =

نظير انقضاء الأجل، فإنه يراد له آخر المدة ولما يفرغ ويراد به فراغها وانتهاؤها... ثم ختمت بالتسليم»[(١)]. اهـ.

وسوف يتكلم بعد ذلك في أسطر قليلة عن التسليم، وينتهي كلام ابن القيم.

وأظنه واضحًا لمن حاول أن يجتهد ويفهم، والكلام جميل جدًّا وعبارة مختصرة من عالم جليل رَحِمَهُ اللَّهُ وجزاه الله عَنَّا خير الجزاء.

[تكملة شرح أذكار السجود]

الآن نكمل هذه الصيغ (أذكار السجود) لنشرع في التشهد إن شاء الله:

وهي مذكورة في كتاب الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صفة صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٢)].

الصيغة الرابعة

«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي».

هل تَرَكَتْ هذه الصيغة من الثناء والتحميد شيئًا؟! لا؛ فـ (سبحانك) تكفي، و(اللهم) تكفي في الإثبات، والإثبات معناه النفي، والنفي يؤدي

= وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**».

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (ص٢٠٩ - ٢١٧).

(٢) (٢/ ٧٦١).

إلى الإثبات أيضًا، هذا يتضمن هذا والثاني يتضمن الأول، و(ربنا وبحمدك) فيها ذكر كل شيء.

وإن كان الرسول ﷺ يقول (اللهم اغفر لي) ويكثر منها فكيف بك؟!

يقولها ويكررها ويجتهد في استحضار قلبه وخشوعه، فكيف الحال بنا وقد بلغت ذنوبنا عنان السماء؟!

الصيغة الخامسة

«اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، وأنت ربي، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، [فأحسن صوره]، وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين»(١).

(اللهم لك سجدت): ليس معناها سجدت لك ولغيرك، بل لك وحدك سجدت.

(وبك آمنت ولك أسلمت، وأنت ربي، سجد وجهي للذي خلقه وصوره): لا تستكبر فتقول هذا الوجه إني محافظ عليه، كيف أسجد به في التراب والطين!!

فمن الذي خلقه، ومن الذي صوره؟ الله سبحانه وتعالى، فعلى من تستكبر؟!

وفي زيادة: (فأحسن صوره).

(وشق سمعه وبصره): الوجه مليء بآلات الإحساس، وفيه من دلائل علم الله، وقدرة الله، وحكمة الله، ورحمة الله عز وجل الكثير. وتأمل

(١) أخرجه مسلم (٧٢٩) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كيف تغمض العينين فلا ترى شيئًا، وتفتح الجفون فترى كل شيء، فتذكر هذا الشق وتشكر النعمة، وأين كان الشق، كان وأنت في بطن أمك. فتذكر نعمة الله عليك وأنت في بطن أمك.

وشق السمع والبصر للجنين في بطن الأم، وهذا الشق من العلوم العظيمة التي ذكرها الرسول ﷺ.

فلو سددت فتحتي الأذن لم تسمع شيئًا، وتصور نفسك لو ولدت بغير هذا الشق، وتصور نفسك دون سمع، ولو كنت أصم فكيف يكون حالك، فتلك نعمة من الله ﷻ.

(فتبارك الله أحسن الخالقين): ذكرنا التبارك من قبل، وسنذكره مرة أخرى بوضوح في التشهد، وهو يجمع نوعي (الحمد)، تبارك: لأنه تفاعل من البركة، وصيغة المفاعلة فيها السعة والمبالغة، كتعالى من العلو، فإذا أردت أن تثبت سعة العلو لله ﷻ وأن تبالغ في علو الله فتقول (تعالى)، وكذلك التبارك تقول: (تبارك).

الصيغة السادسة

«اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره»[1].

من الممكن في السجود ألا تقول (سبحان ربي الأعلى) وتقول تلك الصيغة أو أي صيغة واردة، فكل هذه صيغ تجزئ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصيغة السابعة

«سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، أبوء بنعمتك علي، هذه يدي وما جنيت على نفسي»[(١)].

(سوادي) أي ظلي؛ ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرّعد: الآية ١٥]، وكما قال قاتل أبي جهل: «لا يفارق سوادي سواده حتى يموت منا الأعجل»[(٢)]. أي: الأعجل قدرًا.

فالسواد هو الظل، فإذا كان الظل قد سجد فهل يسجد الظل قبل أن تسجد أنت؟ فكأنها مبالغة في سجودك أنت لله سبحانه.

(آمن بك فؤادي) الفؤاد: هو الجزء الذي يفهم في القلب، الجزء الذي عليه الفكر والتدبر في القلب، وتلك الكلمة إذا تتبعتها في لسان العرب وفي كتاب الله وجدتها كلها بذلك المعنى، و(التَّفَؤُّدُ) هو (التَّوَقُّدُ)، والتوقد هنا بمعنى النشاط الذهني والمجهود الذهني الذي يبذل، والذي عليك أن تستعمله لله ﷻ.

والكفار لديهم أفئدة لكنها لم تغن عنهم شيئًا، وليس لديهم عقول، فالكافر لا عقل له، وذلك هو الفرق بين الفؤاد والعقل.

فالفؤاد هو النشاط الذهني الذي بالقلب، جزء التفكر، وهؤلاء

---

(١) أخرجه البزار (٥/ ٤٠٣)، ومحمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص١٨٢)، والحاكم (١٩٥٧). ورده الذهبي لكن له شواهد مذكورة في الأصل، وضعفه الألباني في «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٢/ ٧٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

الخاسرون لا يستعملونه إلا للدنيا، فالفؤاد هو الجزء المسؤول عن التفكر، أما اتخاذ القرار فذلك بالعقل؛ لأن العقل حين يأخذ القرار لا يأخذه بالتفكر فحسب بل بالتفكير والعاطفة والانقياد.

نأخذ مثالًا بأعظم أهل الأرض إيمانًا في وقته على الأقل، الذي سيخرج من المدينة ليلقى الدجال، فيطرحه الدجال أرضًا ويشقه نصفين بالمنشار، ويمشي بين شقيه ثم يقول له قم، فيلتحم بعضه ببعض مرة أخرى وينهض كما كان تمامًا، فيضحك الدجال منتشيًا ويقول له: هل آمنت بي الآن؟ فيرد عليه قائلًا: (ما ازددت فيك الآن إلا بصيرة، فأنت الدجال ولن تسلط علي بعدها)[1].

ما الذي جعله يستسلم هكذا؟ (عقله) الذي أخبره بهذا استسلامًا

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٢)، ومسلم (٢٩٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ - مَسَالِحُ الدَّجَّالِ - فَيَقُولُونَ لَهُ: أَيْنَ تَعْمِدُ؟ فَيَقُولُ: أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ، قَالَ: فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ، فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ، فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ، قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ، فَيَقُولُ: خُذُوهُ وَشُجُّوهُ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي؟ قَالَ: فَيَقُولُ: أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ، قَالَ: ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِي؟ فَيَقُولُ: مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، قَالَ: فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ، فَيُجْعَلُ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ**» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ**».

وانقيادًا للرسول ﷺ. أما الفؤاد فيقول لا مانع ما دام قتلني ثم أحياني أن يفعلها مرة أخرى. وهناك بحث طويل في مادة (الفؤاد والقلب والعقل).

(أبوء بنعمتك): المباءة: المنزل، أبوء في اللغة: ألتزم وأرجع وأقر. ولذلك اسمها (مباءة الرحم).

وقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: الآية ٢٦]، بوأنا: أي اخترنا له أفضل مكان في الأرض.

ومباءة الإبل: أي المكان الذي تستريح فيه الإبل.

(فأبوء بذنبي): أي أن الذنب متلبس بي تمامًا، وأنه فعلًا مِنِّي، ولا ينسب إلى الله أبدًا.

فتقول: (أبوء بنعمتك علي) أي أن نعمتك أحاطت بي.

فخطيئتي أحاطت بي، وفي المقابل نعمتك قد أحاطت بي.

وحين تحيط بك نعمة الله فما الذي ينبغي لك أن تقابل به هذه النعمة؟ الشكر لله.

(هذه يدي وما جنيت على نفسي) هي بمعنى (أبوء بذنبي) ولكن بصيغة أخرى.

الصيغة الثامنة

سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»(١).

سبق شرحها.

الصيغة التاسعة

«سبحانك [اللهم] وبحمدك لا إله إلا أنت»(٢).

سبق شرحها.

الصيغة العاشرة

«اللهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت»(٣).

هذا الذكر دعاء، وأنت في السجود مأمور بالاجتهاد في الدعاء لقوله ﷺ: **«وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم»**(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والترمذي في «الشمائل» (٣١٤)، والنسائي (١٠٤٩)، وأحمد (٢٣٩٨٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٥).

(٣) أخرجه النسائي (١١٢٤)، وابن أبي شيبة (٢٩٢٣٧)، وإسحاق بن راهويه (١٦٠١)، وأحمد (٢٥١٤٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
وأخرج مسلم (٤٨٦) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: **«اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»**.

(٤) أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الصيغة الحادية عشرة

«اللهم اجعل في قلبي نورًا [وفي لساني نورًا] واجعل في سمعي نورًا، واجعل في بصري نورًا، واجعل من تحتي نورًا، واجعل من فوقي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، واجعل أمامي نورًا، واجعل خلفي نورًا [واجعل في نفسي نورًا] وأعظم لي نورًا»[(١)].

الله هو نور السماوات والأرض، ودون ذلك النور نكون في ظلمات، وهذه الظلمات لا حصر لها.

مثلًا: الشاب في بداية المراهقة قد يغلبه شيطانه فيمارس أي شيء كان للتلذذ بالشهوة، فيُمَنِّيهِ ويوسوس له بوصف الجمال واللذة ويغريه بالشهوة، فهذه ظلمات.

أما النور فهو أن يجاهد نفسه في ذات الله سبحانه وتعالى وعز وجل، فيجاهد نفسه ويتصبر ويصوم فإنه له وِجَاء.

فتطلب من الله ﷻ أن يجعل في قلبك نورًا، وفي لسانك نورًا، وفي سمعك نورًا.

(وفي سمعي نورًا): فلو جعل في سمعك نورًا فبمجرد أن تسمع أحدًا يتكلم بما لا يجوز قلت هذا من شياطين الإنس، وعَلَيَّ أن أتجاهله فورًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٣].

أما من في سمعه ظلمة فإنه يرد الجهالة بجهالة، بل قد تقضي عليه هذه الظلمة كأن تنشب معركة فيقتل فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(وفي بصري نورًا): بصرك حين يُجْعَلُ به نورٌ لن تنظر إلى امرأة في الحرام، ولن تنظر إلى محرم أبدًا، وهكذا.

وكان الرسول ﷺ يدعو به ربه في صلاة الليل (في صلاة القيام).

احفظ هذه الصيغة وعليك بقيام الليل، وحين تدعو بتلك الصيغة حاول أن تبكي وتستدر الدمع، وتتفهم أنه لو كان النور بقلبك فلن تفهم شيئًا خطأ، سيكون لديك فرقان، فإذا ما استجاب لك الله في ذلك، فقد نجحت، ويتبقى لك أن يثبتك على ذلك؛ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦].

فالمطلوب حضور القلب عند الدعاء بتلك الصيغ؛ لأنك تعرف أنك تطلب الخير الذي كان يطلبه النبي ﷺ، واستجاب له الله فكان أعظمَ خلق الله؛ لأن الله ﷻ قد استجاب له مثل هذا الدعاء وغيره.

الصيغة الثانية عشرة

«[اللهم إني] أعوذ برضاك من سخطك، و[أعوذ] بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[١].

هذا الذكر لا بد أن يحفظ. وهي آخر صيغة ذكرها الشيخ الألباني.

(اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك) أنت ارتكبت كثيرًا من الذنوب التي توجب سخط الله عليك، فتقول له: يا رب؛ لك صفاتٌ كثيرة جدًّا من الممكن أن ترضى بها عني، أنا صاحب ذنوب وصاحب قذر، وأنت

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).

لك من صفات الرضا ما ترضى بها عني، فأنت العفو الغفار.

فالغفار: أي كثير المغفرة، يغفر الذنوب ولو كانت كثيرة.

والغفور: أي جيد المغفرة، أي يغفر الذنب ولو كان كبيرًا، فإن كانت ذنوبك كثيرة، أو ارتكبت ذنبًا كبيرًا، فهو الغفور وهو الغفار.

وفي النهاية تقول: (لا أُحصي ثناءً عليك) أي مهما قلت يا رب فلن أُحْصِيَ ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فأنا من خلال معرفتي القاصرة والتي هي كنقرة عصفور في بحر: (لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

الأذكار بين السجدتين

هما صيغتان ذكرهما الشيخ الألباني، قال:

«وكان ﷺ يقول في هذه الجلسة:

١ - «**اللهم** [وفي لفظٍ: **ربِّ**] **اغفر لي وارحمني**، [**واجبرني**]، [**وارفعني**]، **واهدني**، [**وعافني**]، **وارزقني**»[(١)].

وتارة يقول:

٢ - «**رب اغفر لي، اغفر لي**»)[(٢)(٣)].

هذا فحسب ما ورد فيما بين السجدتين، وأسهل شيء أن تقول: (رب اغفر لي)، لكن ترددها بإخلاص وبصدق.

(رب اغفر لي):

توحيدُ الطلب وتوحيد المطلوب؛ توحيد الطلب هو الصدق، وتوحيد المطلوب هو الإخلاص.

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٤)، وابن ماجه (٨٩٨)، وأحمد (٢٨٩٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٤)، والترمذي في «الشمائل» (٢٧٦)، والنسائي (١١٤٥)، وابن ماجه (٨٩٧)، وأحمد (٢٣٣٧٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٣/ ٨٠٩).

والمعنى واضح لا يحتاج إلى شرح، فأنت تردد بين السجدتين (رب اغفر لي، رب اغفر لي).

أو تقول: (رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني).

أو تقول: (اللهم - أو: ربِّ - اغفر لي، وارحمني، واجبرني، وارفعني، واهدني، وعافني، وارزقني).

س: هل نجمع بين الصيغ في ركن واحد؟

مثلًا: هل نذكر أكثر من صيغة في الركوع، أو الاستفتاح، أو التشهد؟

يقول الشيخ الألباني:

[هل يشرع الجمع بين الأذكار في ركوع واحد أم لا؟ اختلفوا في ذلك وتردد فيه ابن القيم في «الزاد»]

ولكن ما تردد فيه ابن القيم في «الزاد» جزمه في «جلاء الأفهام».

[وجزم النووي في «الأذكار» بالأول فقال: والأفضلُ أن يُجمع بين هذه الأذكار كلها إن تمكن، وكذا ينبغي أن يفعل في أذكار جميع الأبواب(١).

وتعقبه أبو الطيب صديق حسن خان في «نزل الأبرار» فقال: ويأتي مرة بهذه وبتلك أخرى، ولا أرى دليلًا على الجمع، وقد كان رسول الله ﷺ لا يجمعها في ركن واحد، بل يقول هذا مرة وهذا مرة، والاتباع خير من الابتداع.

---

(١) «الأذكار» (ص٥٣).

ويعقب الشيخ الألباني فيقول: [وهذا هو الحق إن شاء الله، لكن قد ثبت في السنة إطالة هذا الركن وغيره كما سيأتي بيانه حتى يكون قريبًا من القيام. إذا أراد المصلي الاقتداء به ﷺ في هذه السنة فلا يمكنه ذلك إلا على طريقة الجمع الذي ذهبَ إليه النووي، وقد رواه ابن النصر في «قيام الليل» عن ابن جريج عن عطاء، وإلا على طريقة التكرار المنصوص عليه في بعض تلك الأذكار وهذا أقرب إلى السنة][1].

فالشيخ الألباني يقول بصيغة واحدة ولكن يكررها، وهذا أقرب إلى السنة.

ونحن يهمنا أن نخشع لله ﷻ في صلاتنا، فلو تأثر شخص بصيغة معينة فإنه يكتفي بهذه الصيغة ويكررها، وآخر لا يجدُ نفسه مع تلك الصيغة، وعنده وقت في قيام الليل مثلًا فينتقل إلى صيغة أخرى، فوجد لها خشوعًا، فهنا عليه أن يستمسك بها، فالهدف في النهاية هو تحقيق الخشوع.

لكن النبي ﷺ لم يثبت عنه الجمع بين تلك الصيغ.

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر ستة أوجه دافع بها على عدم الجمع بين الصيغ ولا تجمع بين الصيغتين.

والشيخ الألباني قال: الأقرب إلى السنة ألا تجمع.

والشيخ صديق حسن خان قال: إن الرسول ﷺ ما لم يجمع فالاتباع خير من الابتداع.

---

(١) «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٢/ ٦٤٩ - ٦٥٠).

أما الإمام النووي فيحتج بمسألة أن السجود طويل جدًّا، ومن الممكن أن يتسرب الملل إليك، مثلًا: تقول: (سبحان ربي الأعلى) عشر مرات أو عشرين مرة، حتى أصبحت تألف الصيغة، فانتقل لصيغة أخرى، والمقصود في النهاية هو الخشوع، وذِكْرُ اللهِ لا يُحَرَّم، أما من يتمسك بالسنة من العلماء فصيغة واحدة تكفيه، وهذه الصيغة تستغرق قلبه، وكل مرة يقولها ويذكر الله بها قد يُفتح عليه بخشوع جديد وبمعنى جديد، أما نحن فما زلنا تحت الصفر.

صيغ التشهد

صيغ التشهد من كتاب «صفة الصَّلاة» للألباني:

نأخذ الآن صيغ التشهد كما ذكرها الشيخ الألباني في كتابه:

تشهد ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١- **تشهد ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: «عَلَّمني رسول الله ﷺ التشهد وَكَفِّي بين كَفَّيْهِ، كما يعلمُني السورة من القرآن: «**التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلامُ عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - [فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض]**[١] **- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**». وهو بين ظهرانينا، فلما قُبِض قلنا: السلام على النبي»[٢][٣].

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«(التحيات): أي الألفاظ التي تدل على السَّلام والملك والبقاء هي لله

(١) أخرجها البخاري (٦٢٣٠)، ومسلم (٤٠٢).

(٢) أخرجها ابن أبي شيبة (٢٩٨٦)، وأحمد (٣٩٣٥)، وأبو يعلى (٥٣٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٦٥)، ومسلم (٤٠٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى، و(الصَّلوات) هي الأدعية التي يراد بها تعظيم الله تعالى وهو مستحقها لا تليق بأحد سواه - في النهاية.

و(الطيبات): أي ما طاب من الكلام وحسن أن يثنى به على الله دون ما لا يليق بصفاته مما كان الملوك يُحَيَّوْنَ به. ونقل ذلك عن «الفتح».

أما (السلام): معناه التعويذ بالله والتحصين به، فإن السلام اسم له سبحانه تقديره: (الله عليك حفيظ وكفيل)، كما يقال: (الله معك) أي بالحفظ والمعونة واللطف»[(١)].

❍ **تشهد ابن مسعود** رضي الله عنه:

(التحيات لله، والصلوات والطيبات) ابن مسعود لا يكرر لفظ (لله) بعد الطيبات.

(السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، [فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض]، الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول إن العبد حين يقول: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فقد أصاب كل عبد صالح بالسلام.

(أشهد أن لا إله إلا الله) بلا (وحده لا شريك له).

قال ابن مسعود: نقول: «السلام عليك أيها النبي وهو بين ظهرانينا، فلما قُبِض قلنا: السَّلام على النبي».

---

(١) «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٣/ ٨٧٥).

❍ **مسألة: هل نقول: (السلام عليك أيها النبي)، أم: (السلام على النبي)؟**

للشيخ الألباني بحث قدمه لكي يثبت في السَّلام على النبي - عليه الصلاة والسلام - أن نقول: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) في محياه وفي مماته صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم.

وصيغة ابن مسعود جاءت في التشهد فحسب، أما صيغ الصلاة على النبي ﷺ فيذكرها الشيخ الألباني فيما بعد؛ فهنا الجزء الأول من التشهد.

تشهد ابن عباس رضي الله عنهما

٢- **تشهد ابن عباس** رضي الله عنهما: قال: «كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا [السورة من] القرآن، فكان يقول: «**التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، [ال]سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، [ال]سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله**»(١)، وفي رواية: «**عبده ورسوله**»(٢).

تشهد ابن عباس يقول: (التحيات المباركات)، ولم يقل: (التحيات لله)، فهذه الصيغة صحيحة وتلك صحيحة أيضًا، وهذه تجزئ وهذه تجزئ، وهذه ثابتة وهذه ثابتة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

تشهد ابن عمر رضي الله عنهما

٣- **تشهد ابن عمر** رضي الله عنهما: يقول: عن رسول الله ﷺ أنه قال في التشهد: «**التحيات لله، [و] الصلوات، [و] الطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله** - قال ابن عمر: زدت فيها: **وبركاته** - **السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله** - قال ابن عمر: وزدت فيها: **وحده لا شريك له - وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**»(١).

هنا في تشهد ابن عمر: (التحيات لله والصلوات والطيبات) وهو نفس تشهد ابن مسعود.

(السلام عليك أيها النبي ورحمة الله)؛ قال ابن عمر: «زدت فيها: وبركاته»: قال الشيخ الألباني وهو يتكلم عن هذه الزيادة: «هاتان الزيادتان ثابتتان في التشهد عن النبي ﷺ، ولم يزدها ابن عمر من عند نفسه، وحاشاه من ذلك، إنما أخذها عن غيره من الصحابة الذين رَوَوْهَا عنه ﷺ، فزادها هو على تشهده الذي سمعه من النبي - عليه الصلاة والسلام -».

(أشهد أن لا إله إلا الله)؛ قال ابن عمر: «وزدت فيها: وحده لا شريك له»: هذه الزيادة قال الشيخ الألباني عنها إنها ثابتة أيضًا عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولكن ابن عمر يقول: زدت فيها؛ لأنه استمع إلى غيره من الأصحاب ولم يسمعها هو بأذنيه من النبي ﷺ.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٩٧١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٥٧٠)، والدارقطني (١٣٢٩)، وضعفه الإمام أحمد بن حنبل وشعبة بن الحجاج، انظر: «الكامل في ضعفاء الرجال» (٢/ ٣٩١ - ٣٩٢).

تشهد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

٤- **تشهد أبي موسى الأشعري**: قال: قال رسول الله ﷺ: وإذا كان عند القعدة فليكن من أول قول أحدكم: «**التحيات الطيبات الصلوات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله [وحده لا شريك له]**(١)**، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، [سبع كلمات هن تحية الصلاة]**»(٢)(٣).

(التحيات الطيبات الصلوات لله): هنا ثلاث كلمات كلها يتبع بعضها بعضًا، وليس فيها (المباركات).

(وحده لا شريك له): إذًا فهي ثابتة عن الصحابي عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - فزادها ابن عمر لأنها ثابتة أصلًا عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وزادها لسماعه إياها من صحابي آخر.

تشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

٥- كان رضي الله عنه يعلم الناس التشهد وهو على المنبر فيقول: قولوا: «**التحيات لله، الزاكيات لله، الطيبات [لله] الصلوات لله، السلام**

---

(١) هذه الزيادة أخرجها النسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٣)، والدارقطني (١٣٣٢).

(٢) هذه الزيادة أخرجها ابن ماجه (٩٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٤٠٤) بلفظ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَنَا فَبَيَّنَ لَنَا سُنَّتَنَا وَعَلَّمَنَا صَلَاتَنَا. فَقَالَ: «**إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ... وَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْقَعْدَةِ فَلْيَكُنْ مِنْ أَوَّلِ قَوْلِ أَحَدِكُمْ: التَّحِيَّاتُ الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**».

عليك...» إلخ[١]، مثل تشهد ابن مسعود.

هذا هو أطول تشهد في الكلمات، وهذه هي التي تناسبنا، طبعا كلها صيغ صحيحة وكلها ثابتة عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لكن الإطالة وأنت مبتدئ أفضل لك، والإجمال لا ينفعك؛ فكيف تجمل وأنت لا تفهم شيئًا؟!

(التحيات لله): علمنا كيف يُحيِّي الناس ملوكهم، فأنت تجلس جلسة العبيد كي تأخذ الهدية والهدايا فتقول: (التحيات لله).

ثم (الزاكيات لله): وما معنى (الزاكيات)؟ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: الآية ١٠٣]؛ أي أن كل شيء في نماء وفي زيادة وفي تحسن وفي رُقِيٍّ وفي قبول عند الله، فالحسنة يترتب عليها حسنة (كلُّ عمَلٍ صالحٍ نامٍ يُضَاعَفُ عليه الأجر، ويُنَمَّى فيه الثَّواب، فهو لله).

(الطيبات لله): ابن القيم شرح (الطيبات) تفصيلًا والألباني أيضًا ذكرنا مقالته.

(الصلوات لله): نقلنا شرحها أيضًا من ابن القيم.

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٩٠ رقم ٥٣)، وابن وهب في «الجامع» (٤١١)، وعبد الرزاق (٣٠٦٧)، وابن أبي شيبة (٢٩٩٢)، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يُعَلِّمُ النَّاسَ التَّشَهُّدَ، يَقُولُ: قُولُوا: «**التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، الزَّاكِيَاتُ لِلَّهِ، الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**».

وفي رواية ابن وهب: الطَّيِّبَاتُ لِلَّهِ، الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ.

وفي رواية عبد الرزاق: الطَّيِّبَاتُ لِلَّهِ.

(أشهد أن لا إله إلا الله) بزيادة (وحده لا شريك له)؛ وماذا تفيد هذه الزيادة؟ تفيد التأكيد.

(أشهد ألا إله إلا الله): لا مألوه إلا الله، ولا يستحق أن يعبد إلا الله بما له من صفات يستحق بها أن يحب غاية الحب وبما له من صفات يستحق بها أن يخضع له بها غاية الخضوع، وتشهد بذلك وتؤكد فتقول: (وحده لا شريك له).

(وحده) أي لله فحسب، ثم تريد أن تؤكد (وحده) فتقول (لا شريك له)، هذا توكيد، ودائمًا الزيادة كما قلنا أفضل لحالنا، وطبعًا هذا لا يمنع أن تقول هذه مرة وهذه مرة حتى تُحَصِّلَ الخيرَ كُلَّهُ إن شاء الله.

ثانيًا: الصلاة على النبي ﷺ:

ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أتى بصيغ للصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام - في كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام»، وهي تقريبًا ثلاثون صيغة نقلها عن الأصحاب.

أولًا: حديث فضالة بن عبيد في الدعاء؛ قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن قال: حدثنا حيوة بن شريح قال: أخبرني حميد بن هانئ أن أبا علي عمرو بن مالك حدثه أنه سمع فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ قال: «سمعَ النبيُّ ﷺ رجلًا يَدْعُو في صلاتِهِ لمْ يحمدِ اللهَ ولم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ فقال النبيُّ ﷺ: «**عَجِلَ هَذَا**»، ثُمَّ دعاهُ فقال لهُ أوْ لغيرِهِ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بتَحْمِيدِ رَبِّهِ والثَّنَاءِ عليهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ**». رواه الإمام أحمد، وأبو داود وهذا لفظه، والترمذي، والنسائي وقال: حديث صحيح.

هذا الحديث شرح جلسة العبيد كما بَيَّنَ ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وذلك لأنه سيرد على هذا التساؤل: كيف تسلم على النبي ﷺ قبل أن تصلي عليه والآية تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٦]؟

ففي التشهد نقول: (السلام عليك أيها النبي) أولًا، ثم بعدها نقول: (اللهم صل على محمد)؟!

ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال إن حديث فضالة بن عبيد قد حل هذا الإشكال، فترتيبه كالآتي:

«فليبدأ بتحميد ربه، والثناء عليه، ثم ليصل على النبي - عليه الصلاة والسلام -»؛ لأن السلام على النبي - عليه الصلاة والسلام - والسَّلام على المؤمنين وعلى كل عباد الله الصالحين ما هو في النهاية إلا ثناء على الله عَزَّ وَجَلَّ، وتحميد لله عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ وَفَّقَ هؤلاء وأن أعطى هؤلاء، وأن سلمَهم من الشر وأن سلمَهم من الخذلان.

صيغ الصلاة على النبي ﷺ

صيغ الصلاة على النبي ﷺ من كتاب «صفة الصلاة»:

قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «صفة الصلاة»(١):

وكان ﷺ يُصلي على نفسه في التشهد الأول وغيره، وشرع ذلك لأمته حيث أمرهم بالصَّلاة عليه بعد السلام عليه، وعلمهم أنواعًا من صيغ الصلاة عليه ﷺ.

الصيغة الأولى

«اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى أهل بيته وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى أهل بيته وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(٢).

---

(١) (٣/ ٩٠٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣١٧٣)، وعبد الرزاق (٣١٠٣) ومن طريقه الطحاوي في «شرح المشكل» (٢٢٣٩) عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ. وأخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧) عن أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا** =

وهذا كان يدعو به هو نفسه ﷺ.

الصيغة الثانية

«اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على [إبراهيم وعلى] آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على [إبراهيم وعلى] آل إبراهيم إنك حميد مجيد»(١).

ما بين المعكوفين زيادة في روايات أخرى.

ابن تيمية وابن القيم قدما برهانًا طويلًا على أنه لم يرد حديث صحيح بذكر (إبراهيم وآل إبراهيم) معًا.

وقال الشيخ الألباني إنهما قد وَهِمَا في ذلك، وذكر الدليل على أن بعض الصيغ ذكرت: (على إبراهيم وعلى آل إبراهيم)، ومنها هذه الصيغة في روايةٍ.

يقول الألباني: «هاتان الزيادتان ثابتتان في رواية البخاري، والطحاوي، والبيهقي، وأحمد، وكذا النسائي(٢)، وجاءت أيضًا من طرق أخرى في بعض الصيغ الآتية - وهي الصيغة الثالثة والسابعة - فلا تغتر بقول ابن القيم في «جلاء الأفهام»(٣) - تبعا لشيخه ابن تيمية في

= **بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»**.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٠، ٤٧٩٧)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البخاري (٣٣٧٠)، والنسائي (١٢٨٨)، وأحمد (١٨١٣٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٢٣٥)، والبيهقي (٢٨٥٢).

(٣) (ص٢٩٢).

قال ابن حجر في «الفتح» (١١/ ١٥٩): وَغَفَلَ عَمَّا وَقَعَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» كَمَا =

«الفتاوى»[(١)].

الصيغة الثالثة

«اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم [وآل إبراهيم] إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على [إبراهيم و] آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[(٢)].

(آل إبراهيم) أثبتها في رواية أخرى، فإذا قلت (آل إبراهيم) فلن تكون مخطئًا، ولكن الكثرة الغالبة لا جمع بينهما؛ إما (إبراهيم)، وإما (آل إبراهيم).

الصيغة الرابعة

«اللهم صل على محمد [النبي الأمي] وعلى آل محمد، كما صليت على [آل] إبراهيم، وبارك على محمد [النبي الأمي] وعلى آل محمد، كما باركت على [آل] إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد»[(٣)].

= تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ فِي تَرْجَمَةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيسَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن أَبِي لَيْلَى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى بِلَفْظِ: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**».

(١) (٢٢/٤٥٦).

(٢) أخرجه النسائي (١٢٩٠)، وأحمد (١٣٩٦) من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه. في رواية النسائي: «**إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ**» في الموضعين، وفي رواية أحمد: «**إِبْرَاهِيمَ**» في الموضع الأول، و«**آلِ إِبْرَاهِيمَ**» في الثاني. وأخرجه النسائي (١٢٩١) بلفظ: «**إِبْرَاهِيمَ**» في الموضعين.

(٣) أخرجه مسلم (٤٠٥) من حديث أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه: «**قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى** =

هذه الصيغ مطلوب حفظها.

الصيغة الخامسة

«اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على [آل] إبراهيم وبارك على محمد [عبدك ورسولك] [وعلى آل محمد] كما باركت على إبراهيم [وعلى آل إبراهيم]»[(١)].

الصيغة السادسة

«اللهم صل على محمد و[على] أزواجه وذريته كما صليت على [آل] إبراهيم وبارك على محمد و[على] أزواجه وذريته كما باركت على [آل] إبراهيم إنك حميد مجيد»[(٢)].

= **مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»**.

وأخرجه أبو داود (٩٨١) بلفظ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ...**».

(١) أخرجه البخاري (٤٧٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**». وفي رواية: «**كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ**».

وأخرجه (٦٣٥٨) بلفظ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ**».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

الصيغة السابعة

«اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»(١).

قبل شرح هذه الصيغ نبين شيئًا واحدا؛ أنت الآن تطلب من الله ﷻ أن يصلي على النبي ﷺ وآله، كما صلى على إبراهيم وآله، يعني غاية ما هنالك أنك تجعل النبي ﷺ وآله كإبراهيم وآله. وهنا يتأتى سؤال: من الأفضل النبي ﷺ أم إبراهيم؟! طبعًا النبي ﷺ.

فكيف تطلب للنبي ﷺ أن يُصَلَّى عليه كإبراهيم وآل إبراهيم؟

في كتاب «جلاء الأفهام» أقوال طويلة جدًّا وخلاصة هذه الأقوال أن الصلاة التي تجعلها لإبراهيم وآل إبراهيم ولتكن مثلًا (ألف حسنة)، إذًا كأن الله أعطى إبراهيم وآل إبراهيم على وجه التمثيل (ألف حسنة)، فأنت تعطي النبي ﷺ وآله مثلهم (ألف حسنة).

وكم يأخذ إبراهيم من الألف؟ ثلاثمائة أو أربعمائة مثلًا، وآله يأخذون الباقي لأن آله هم إسماعيل وإسحاق ويعقوب وجميع الأنبياء إلى النبي ﷺ نفسه، ثم انظر إلى الألف التي يأخذها النبي وآله؛ هل كان في آل النبي أنبياء؟ ليس فيهم أنبياء، إذًا فالنبي ﷺ يأخذ ستمائة أو سبعمائة

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٨٢)، والبزار (١٤/ ٤٠٢، رقم ٨١٥٤)، والسراج في «حديثه» (٤١٢)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٢٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه ابن الأعرابي في «معجمه» (٨٠٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أو ثمانمائة من الألف والباقي لآل النبي.

فبذلك نجد أن النبي ﷺ أخذ مثلًا سبعمائة لكن إبراهيم أخذ مثلًا أربعمائة - وذلك على وجه التمثيل - فمن الأعلى؟ النبي - عليه الصلاة والسلام.

هذا من ناحية المعنى السهل البسيط استنادًا إلى أن آل إبراهيم أنبياء كثيرون. أما آل محمد مع عملقتهم ومع مكانتهم ليسوا بأنبياء فيأخذون ما يليق بهم، ويتبقى النصيب الأعظم للنبي ﷺ.

ما معنى الصلاة على النبي ﷺ؟

نأخذها كلمةً كلمةً، وكلُّ ذلك مبسوطٌ في كتاب «جلاء الأفهام في الصَّلاة والسلام على خير الأنام».

أولًا: كلمة (اللهم) والتي ذكرناها كثيرًا تعني: يا الله، ثم تثني عليه، وهذا هو حق الله ﷻ بما هو أهله، وتبدأ كل شيء بالثناء على الله وبتحميد الله فتقول: (اللهم) يا من لك الكمال كله، يا من لك الأسماء الحسنى، يا من لك نعوت الجلال وصفات الكمال والأفعال المشرفة؛ فهذا الثناء جامعٌ لله ﷻ في كلمة واحدة وهي: (اللهم).

ثم تطلب الصلاة؛ فتصلي على محمد وعلى آل محمد.

فما معنى الصلاة؟

في اللغة: بمعنى الدعاء والتبريك.

والمعنى الثاني: بمعنى العبادة، ولا فرق؛ لأن الصلاة ما هي إلا دعاء لله ﷻ من أولها إلى آخرها؛ (دعاء مسألة، ودعاء عبادة، ودعاء ثناء)، ولا

يَجْمُلُ منا ولا يحسن أبدًا أن ننسى معنى دعاء الله ﷻ بأسمائه الحسنى.

فالمصلي من أول التكبير وحتى التسليم هو داعٍ لله؛ ما بين دعاء المسألة، وما بين دعاء الثناء- والصلاة في معظمها ثناء كما بيَّناه- وما بين دعاء العبادة من ركوع وسجود وقيام، وجلسة العبيد التي هي للتشهد، وبين السجدتين، وما إلى ذلك.

ويقول ابن القيم: «فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة وهو الدعاء، والدعاء: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة فهو في صلاة حقيقة لا مجازًا ولا منقولة لكن خُص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها، كالدابة لأنها تدب على الأرض»(١).

۞ صلاة الله على العبد ومعناها:

وهو المطلوب هنا؛ لأنك تقول (اللهم صلِّ)، فتريد من الله ﷻ أن يصلي، ولكن كيف يصلي سبحانه وتعالى وعز وجل؟

أولًا: بالاتفاق: صلاة الله ﷻ على النبي ﷺ معناها الثناء من الله على النبي ﷺ وزيادةُ تشريف النبي ﷺ ورفعُ درجات ومقام النبي ﷺ ورفع ذكره في العالمين وفي الملأ الأعلى، وزيادةُ تقريبه وزيادةُ محبته، فأنت تطلب من الله أن يحب النبي أكثر، وأن يقربه منه أكثر وأن يثني عليه، وأن يزيده تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا بين الخلائق.

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص١٥٦).

لكن تقرأ لكثير من الشُرَّاح أن الصَّلاة بمعنى المغفرة، وأن الصَّلاة من الله بمعنى الرحمة، ولكن ابن القيم يلغي هذا الكلام، ويُبين ضعفه، وإنَّما الرحمة والمغفرة من آثار الصلاة على النبيِّ ﷺ فإذا صلى الله ﷻ على النبي ﷺ، فثمرة ذلك الرَّحمة والمغفرة؛ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: الآية ٢] فالرحمة نتيجة وثمرة، أما أن تقول إن الصلاة من الله ﷻ على النبي هي مغفرة ورحمة فلا.

الدليل على أن الصلاة من الله على العبد ليست بمعنى المغفرة والرحمة:

ذكر ابن القيم أربعةَ عشر دليلًا في الفرق بين الصَّلاة من الله ﷻ بمعنى الرحمة والمغفرة، والصَّلاة من الله ﷻ بمعنى الثناء[1].

الصلاة من الله ﷻ على عبده نوعان؛ عامة وخاصة:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣]، وهذه صلاةٌ عامة على المؤمنين؛ كما قال النبي ﷺ لامرأة: «**صلى الله عليك وعلى زوجك**»[2] بعد أن طلبت منه ذلك، فهذه اسمها صلاة عامة للمؤمنين؛ صلاة عامة من الله ﷻ.

أما الصلاة الخاصة فهي الصلاة على الأنبياء وعلى الرسل.

والآن ننظر إلى الأدلة التي تبين ضعف قول من فسر الصلاة من الله ﷻ بمعنى المغفرة وبمعنى الرحمة:

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص١٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٣٣)، وأحمد (١٥٢٨١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٨٤).

١- في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٧]. فَرَّقَ الله ﷻ في الذكر بين الصلاة والرحمة.

٢- يقول الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٥٦]، هل تفهم من ذلك أن صلاة الله وسعت كل شيء؟! بالطبع كلا؛ فهنا فرق بين الصلاة والرحمة.

٣- هل يجوز قول: اللهم صلِّ على فلان ابن فلان؟ اختلف السلف في جواز الصلاة على المؤمنين، ولكن قولك: اللهم ارحم فلانًا الموحد، فلم يختلفوا في ذلك بل اتفقوا على جوازه.

٤- لو قال المصلي: اللهم ارحم محمدًا وآلَ محمدٍ، فما الذي يفعله معه الناس؟ يغضبون عليه... كيف يرحم الله محمد وآل محمد؟! لكن لو قال: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد لصلى الناس معه، إذًا فثَمَّةَ فرقٌ.

٥- لا يقال عن الرجل المتصدق الذي يجد في قلبه رقة على الفقير أنه يصلي على الفقير، فلا يقال فلان صلى على فلان إذا تصدق عليه لرحمةٍ في قلبه، فهل أنت صليت عليه؟! لا؛ إنما أنت أعطيته صدقة ورحمته برحمة في قلبك. فهذا فرق بين الصلاة والرحمة.

٦- قد يجد الإنسان في قلبه رحمةً لمن يكرهه أو يبغضه إن أُصيب بحادث مثلًا ولكنه لا يصلي عليه.

٧- لا بد في الصلاة من كلام، أما الرحمة فتكون في القلب، ولا تكون بالكلام في أكثر الأحيان.

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزَاب: الآية ٥٦]،

فهنا جُمِعَ فعل الله ﷻ وفعل الملائكة في فعل واحد وهو ﴿يُصَلُّونَ﴾، وفرق بينه وبين الملائكة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ ولم يقل إنهم يصلون، لكنه جمعهم بعد ذلك في الفعل وهو الصلاة ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾.

إذًا فلا يجوز أن تكون هذه الصلاة هي الرحمة؛ لأن المعنى سيصير: (إن الله وملائكته يرحمون النبي، يا أيها الذين آمنوا ارحموه)!!

ومعنى الآية: فَصَلُّوا أنتم أيها المؤمنون فأنتم أولى بالصَّلاة عليه، وإذا كان الله وملائكته يصلون على النبي فكيف بحالكم أنتم وأنت تحتاجون إلى علم النبي ﷺ وإلى هدي النبي ﷺ وإلى شرح النبي ﷺ وإلى عمل النبي ﷺ فأنتم أحوج إليه، فمعنى الكلام: فصلُّوا أنتم أيضًا عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٦] هذا يتضمن الثناء على المُصَلِّي، ويتضمن سؤال الله ﷻ أن يصَلِّي، فأنت حين تصلي على النبي ﷺ فإنك تُثني عليه؛ فهل أنت تطلب من الله أن يصلي على الرسول من غير أن ترفع قدر الرسول ﷺ؟!

بالعكس فهذا الطلب يتضمن ثناءك على النبي ﷺ وتمجيدك للنبي، وفى الوقت نفسه يتضمن سؤالك من الله أن يصلي على النبي ﷺ؛ فهو يتضمن الأمرين الاثنين وذلك لا يكون في مسألة الرحمة.

٩- (الجزاء من جنس العمل)؛ وهذه قاعدةٌ كبيرة: يقول الرسول ﷺ: «**من يسَّر على مسلم يسر الله عليه حسابه، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه،**

ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة»(١).

وقال ﷺ: «**من سُئِلَ عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»(٢).

و«**من صلى على النبي ﷺ مرةً صلى الله عليه بها عشرًا**»(٣) ونظائره كثيرة.

إذًا الجزاء من جنس العمل، فعُلم بذلك من هذه القاعدة أن صلاة العبد على رسول الله ﷺ ليست رحمةً من العبد لتكون صلاة الله عليه من جنسها، وإنما هي ثناءٌ على الرسول ﷺ وإرادةٌ من الله أن يُعلي ذكره ويزيده تعظيمًا وتشريفًا والجزاء من جنس العمل، فمن أثنى على رسول الله ﷺ جزاه الله من جنس عمله بأن يُثني عليه ويزيد تشريفه وتكريمه، فأنت حين تصلي على النبي ﷺ وتطلب من الله ذلك فإن الله يصلي عليك بها عشرًا، فصح ارتباط الجزاء بالعمل ومشاكلته له ومناسبته له.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد (٧٥٧١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

١٠- إن قال أحد عن رسول الله: (رحمه الله) بَدَلَ (صلى الله عليه وسلم) لبادرت الأمة إلى الإنكار عليه ولعَدُّوْهُ مُبْتَدِعًا غَيْرَ موقرٍ للنبي ﷺ غير مصلٍّ عليه، ولا مثنٍ عليه بما يستحقه، و لا يستحق أن يصلي الله عليه بذلك عشر صلوات، ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك.

١١- أن الله ﷻ قال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النُّور: الآية ٦٣].

وهذا الكلام ليس والنبي ﷺ حيٌّ فحسب بل في مغيبه أيضًا؛ فأنت مثلًا تقول اللهم ارحم هذا، ثم تقول على النبي - عليه الصلاة والسلام: اللهم ارحم النبي! فهل من الممكن أن تساوي بين الأمرين. وهذا مما استخلصه ابن القيم.

١٢- أن هذه اللفظة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنى الرحمة أصلًا، والمعروف عند العرب من معناها إنما هو الدعاء والتبريك والثناء.

١٣- أنه يَسوغ بل يُستحب لكل واحد أن يسأل الله أن يرحمه فإن الله يحب أن يسأله عبده مغفرته ورحمته، فيقول: اللهم ارحمني، كما عَلَّم النبي ﷺ الداعِيَ أن يقول: «**اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، واهدني، وارزقني**» فلما حفظها قال: «**أما هذا فقد ملأ يديه من الخير**»(١).

ومعلومٌ أنه لا يَسوغ لأحدٍ أن يقولَ: (اللهم صل عليَّ)، بل الداعي بهذا معتدٍ في دعائه، والله لا يحب المعتدين، وفى هذا توضيح

(١) أخرجه أبو داود (٨٣٢)، وأحمد (١٩١١٠) من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﭭ، وفيه: «ثُمَّ أَدْبَرَ وَهُوَ مُمْسِكُ كَفَّيْهِ» بدلًا من: «فلما حفظها».

للاختلاف بين الصلاة والرحمة.

١٤- أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يَحسُن أن تقع فيها الصلاة، فمواضع استعمال الرحمة في حق الله وفي حق العباد لا يحسن أن تقع الصلاة في كثير منها، بل في أكثرها، فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة، والله أعلم.

فالكلام واضح ومن أراد التفصيل فليعد إلى كتاب «جلاء الأفهام» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسيجد القول الفصل فيه، وإنما هذه مجرد اختصارات ما استطعت إليه سبيلًا.

معنى اسمه ﷺ:

نجد وجود تقارب كبير في المعنى بين (محمد) و(أحمد).

فـ (محمد) صيغة تفضيل، يعنى محمود، ولكن محمود مرة ومرة ومرة فيسمى محمدًا، إذًا (محمد) تدل على التكثير؛ فـ (مُفعَّل) تكثير للمفعول الذي يقع عليه الفعل، و(مُفَعِّل) تكثير للذي يقع منه الفعل، والمقصود هنا التكثير للمفعول؛ أي للمحمود فيقع الحمد على النبي ﷺ مرة بعد مرة بعد مرة وعلى صفةٍ وأخرى وثالثة ورابعة، وهكذا.

فهو كثير المحامد التي يُحمد من أجلها بل ويحمده الخلق كثيرًا وكثيرًا وكثيرًا.

وهذا الاسم علمٌ عليه ﷺ، ولكنه يعود إلى صفةٍ اشتُقَّ منها؛ فهو (محمد) لأن له أخلاقًا عظيمة وسجايا كريمة فهو فعلًا يتصف بهذا.

وسنذكر شيئًا من صفة النبي ﷺ كما يحدثنا بها بعض الأصحاب،

ومن سجاياه، ومكارمه - عليه الصلاة والسلام .

فهو يُحمد على الجمال؛ جمال القلب وجمال الأخلاق، وعلى الشجاعة، وعلى الكرم، وعلى العلم، وعلى الوقار، وعلى السمت، نحمده على الحياء، وصفات كثيرة أخرى يُحمد عليها النبي - عليه الصلاة والسلام.

إذًا (محمد) معناها: كثير وقوع الحمد عليه، أو الذي له صفات محامد كثيرة يستحق أن يحمد عليها.

أما (أحمد) فمعناها: الذي يستحقُّ الحمد أفضل من غيره.

فـ(محمد) يستحق الحمد أكثر من غيره، أما (أحمد) فأفضل من غيره أي أن محامده أعلى من محامد عيسى عليه السلام، ومحامد إبراهيم عليه السلام.

(محمد) ذُكِرَ في التوراة وفي القرآن، أما (أحمد) فمذكور في الإنجيل فحسب، فكأن (أحمد) محاطٌ بين (محمد) في التوراة، و(محمد) في القرآن، فلماذا؟ لأن الناس سيغالون وسيبالغون في عيسى عليه السلام وسيتخذونه إله من دون الله، ولكن الأحمد منه هو النبي - عليه الصلاة والسلام - فجاء (أحمد) في الإنجيل ليبين لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أحمد من غيره؛ أي أعلى وأفضل بالمحامد التي يوصف بها.

أما الحمَّاد: فهو كثير الحمد، فالحمَّاد فاعل، حامد يحمد الله، والنبي صلى الله عليه وسلم هو سيد الحمَّادين؛ لأنه أكثر من يحمد الله.

فالاسمان (محمد) و(أحمد) واقعان على المفعول وهذا هو المختار وذلك أبلغ في مدحه صلى الله عليه وسلم.

[وتسميته بـ(أحمد) وقعت متأخرة عن تسميته في القرآن فعرف النبي

عند هذه الأمة باسم (محمد) الذي قد جمع خصال الخير التي يستحق أن يُحمد عليها حمدًا بعد حمدٍ وهكذا]. «جلاء الأفهام»(١).

بعض محامد النبي ﷺ:

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»(٢):

[وَمِمَّا يحمد عَلَيْهِ ﷺ مَا جبله الله عَلَيْهِ من مَكَارِم الْأَخْلَاق وكرائم الشيم، فَإِن من نظر فِي أخلاقه وشيمه ﷺ علم أَنَّهَا خير أَخْلَاق الْخلق وَأكْرم شمائل الْخلق، فَإِنَّهُ ﷺ كَانَ أعلم الْخلق وأعظمهم أَمَانَة وأصدقهم حَدِيثًا وأحلمهم وأجودهم وأسخاهم وأشدهم احْتِمَالًا وأعظمهم عفوًا ومغفرة، وَكَانَ لَا يزِيدهُ شدَّة الْجَهْل عَلَيْهِ إِلَّا حلمًا، كَمَا روى البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحه» عَن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما أنه قَالَ فِي صفة رَسُول الله ﷺ فِي التَّوْرَاة: «**مُحَمَّدُ عَبدِي ورسولي سميته المتوَكِّل، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غليظ، وَلَا صخاب بالأسواق وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيئَة وَلَكِن يعْفُو ويصفح، وَلنْ أقبضهُ حَتَّى أقيم بِهِ الْملَّة العوجاء بِأَن يَقُولُوا لَا إِلَه إِلَّا الله وأفتح بِهِ أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وَقُلُوبًا غلفًا**»(٣).

---

(١) (ص٢٠٠).

(٢) (ص١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٢٥) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: «أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا».

وأرحم الْخلق وأرأفهم بهم، وَأعظم الْخلق نفعًا لَهُم فِي دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله وَأَحْسَنهمْ تعبيرًا عَن الْمعَانِي الْكَثِيرَة بالألفاظ الوجيزة الدَّالَّة على المُرَاد، وأصبرهم فِي مَوَاطِن الصَّبْر، وأصدقهم فِي مَوَاطِن اللِّقَاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مُكَافَأَة على الْجَمِيل بأضعافه وأشدهم تواضعًا، وأعظمهم إيثارًا على نَفسه، وَأَشد الخلق ذبًّا عَن أَصْحَابه وحماية لهم ودفاعًا عنهم، وأقومهم بما يؤمر به، وأتركهم لما ينهى عنه، وأوصل الخلق لرحمه، قَالَ عَليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُول الله ﷺ أَجود النَّاس صَدرًا وأصدقهم لهجة وألينهم عَرِيكَة وَأكْرمهمْ عشرَة من رَآهُ بديهة هابه وَمن خالطه معرفَة أحبه» يَقُول نَاعِتَهُ: «لم أر قبله وَلَا بعده مثله ﷺ»[(١)]].

هذا الكلام له معنًى عظيم.

(كان أجود الناس صدرًا): أي صدره مليء بالخير كله، ملئ بالنور فلا يُثمر ولا ينتج ولا ينضح إلا بما فيه؛ وهو الخير والنور.

(وكان أصدقهم لهجةً): فلم يكذب أبدًا ولم يُجَرَّب عليه الكذب أبدًا لا في الرسالة ولا قبل الرسالة ﷺ.

(وألينهم عريكة): يعنى كان سهلًا لينًا قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، وجابرًا لقلب من سأله فلا يحرمه ولا يرده خائبًا.

ومعنى (أكرمهم عشرة): أي إن جلس معك يعاشرك وجدته الضحوك البسام، وجدته المرحب بك، لا يعبس في وجهك ولا يسمعك كلامًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِمُتَّصِلٍ.

يؤذيك ﷺ. ولا يؤاخذك بهفوات لسانك، أو بجفوة لسانك، أو بجفوة الطبع أحيانًا، ولا ينتبه إلى ذلك، وليس كما تجلس أنت وتؤاخذ أخاك على كل صغيرة وكبيرة، فالنبي ﷺ لم يكن كذلك، ولكنه كان أكرم الناس عشرةً، وهذا بعض خلق النبي كما ذكره ابن القيم.

(من رآه بديهةً هابه): وهذا من تعظيم النبي ﷺ فإن من ينظر إليه لا يستطيع أن يملأ عينيه من وجه النبي ﷺ كعمرو بن العاص، مهابةً له وحياءً منه(١)، لأنه كان رجلًا عظيمًا جدًّا، وترى ضوءًا شديدًا في وجه النبي ﷺ فتستحي أن تملأ عينيك منه.

(ومن خالطه معرفةً أحبه): أي إذا خالطته بعد معرفته أحببته.

(يقول نَاعِتَهُ): أي واصفه: (لم أر قبله ولا بعده مثله).

[قال الحسين رضي الله عنه: «سألت أبي عن صفة النبي ﷺ في جلسائه فقال: كان النبي ﷺ دائم البِشْرِ سهل الخلق لين الجانب ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه راجيه، ولا يخيب فيه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحدًا ولا يعيبه ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١) بلفظ: «وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ».

أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم ويقول إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام»][(١)].

يقول ابن القيم: [والمقصود أنه ﷺ سُمي محمدًا و أحمد لأنه يحمد أكثر من أن يحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره، فالاسمان واقعان على المفعول وهذا هو المختار، وذلك أبلغ في مدحه وأتم معنى، ولو أريد به معنى الفاعل لسمي الحماد وهو كثير الحمد كما سمي محمدًا وهو المحمود كثيرًا فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمدًا لربه، فلو كان اسمه باعتبار الفاعل لكان الأولى أن يُسمى حمَّادًا كما أن اسم أمته الحمَّادون.

وأيضًا فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى محمدًا وأحمد ﷺ فهو الذي يحمده أهل الدنيا

(١) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٣٥٢) بلفظ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمَ الْبِشْرِ، سَهْلَ الْخُلُقِ، لَيِّنَ الْجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ وَلَا فَحَّاشٍ، وَلَا عَيَّابٍ وَلَا مُشَاحٍ، يَتَغَافَلُ عَمَّا لَا يَشْتَهِي، وَلَا يُؤْيِسُ مِنْهُ رَاجِيهِ وَلَا يُخَيِّبُ فِيهِ، قَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ مِنْ ثَلَاثٍ: الْمِرَاءِ وَالْإِكْثَارِ وَمَا لَا يَعْنِيهِ، وَتَرَكَ النَّاسَ مِنْ ثَلَاثٍ: كَانَ لَا يَذُمُّ أَحَدًا وَلَا يَعِيبُهُ، وَلَا يَطْلُبُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا رَجَا ثَوَابَهُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، فَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا لَا يَتَنَازَعُونَ عِنْدَهُ الْحَدِيثَ، وَمَنْ تَكَلَّمَ عِنْدَهُ أَنْصَتُوا لَهُ حَتَّى يَفْرُغَ، حَدِيثُهُمْ عِنْدَهُ حَدِيثُ أَوَّلِهِمْ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِمَّا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ، وَيَصْبِرُ لِلْغَرِيبِ عَلَى الْجَفْوَةِ فِي مَنْطِقِهِ وَمَسْأَلَتِهِ حَتَّى إِنْ كَانَ أَصْحَابُهُ لَيَسْتَجْلِبُونَهُمْ وَيَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُمْ طَالِبَ حَاجَةٍ يَطْلُبُهَا فَأَرْفِدُوهُ، وَلَا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إِلَّا مِنْ مُكَافِئٍ وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَجُوزَ فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيٍ أَوْ قِيَامٍ.

وأهل الآخرة، ويحمده أهل السماء والأرض فلكثرة خصائله المحمودة التي تفوت عد العادين سمي باسمين من أسماء الحمد يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة. . .][(١)] والله تعالى أعلم.

فيكون بذلك معنى (اللهم صل على محمد): يا رب زد محمدًا تشريفًا عندك وتعظيمًا وقرِّبه إليك أكثر وأحبه أكثر، وأثني عليه بين الملأ الأعلى وأثني عليه في الأرض أيضًا بطريق أتباعه المخلصين، ووفق عبادك إلى الصلاة عليه، وهكذا. وكل هذا معناه أنك تُقرب النبي ﷺ أكثر من الوسيلة والفضيلة التي هي أعلى درجة في الجنة، والتي لا تكون إلا لعبدٍ والرسول ﷺ يرجو أن يكون هو ذاك العبد.

معنى (الآل) والأقوال المشهورة في ذلك وذكر الرأي الراجح:

فيها أربعة أقوال كما ذكر ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام»[(٢)]:

القول الأول: هم الذين حرمت عليهم الصدقة، وهذا هو القول الصحيح.

القول الثاني: أنهم هم أزواج النبي ﷺ وذريته خاصةً، يعني ليس كل من حُرم عليه الصدقة؛ إنما الأزواج والذرية فحسب.

القول الثالث: أنهم أتباعه.

القول الرابع: أنهم المتقون، والمقصود بهم (الأولياء).

ومعناها: من آل يؤُول إذا رجع، والمعنى أن هؤلاء يَؤُول أمرهم إلى

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص١٩٣).

(٢) (ص٢١٠).

النبي ﷺ فأنا وأنت من آل النبي على القول الثالث.

وابن القيم انتصر للقول الأول وهو أن (آل محمد) هم الذين حرمت عليهم الصدقة بما فيهم الأزواج والذرية، وهذا هو القول الأول والثاني.

أمَّا الثالث فضعيف، والرابع أيضًا ضعيف.

ولماذا القول الثالث ضعيف؟

الإجابة: لعامة أحاديث النبي ﷺ أو ألفاظ النبي ﷺ في الآل، أو استعمال النبي في الكلمة يثبت أنه المعنى الأول والثاني كما يقول ابن القيم، والصحيح هو القول الأول ويليه القول الثاني؛ لأن النبي ﷺ قد رفع الشبهة بقوله: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ**»(١)، وقوله: «**إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ**»(٢)، وقوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»(٣) وهذا لا يجوز أن يراد به عموم الأمة قطعًا، فأول ما حُمل عليه الآل في الصلاة؛ الآل المذكورون في سائر ألفاظ النبي ﷺ ولا يجوز العدول عن ذلك.

فيكون قولًا واحدًا بناءً على استعمال النبي ﷺ في سائر ألفاظه لمعنى الآل.

أما تنصيصه على الأزواج والذرية فلا يدل على اختصاص الآل بهم

(١) أخرجه مسلم (١٠٧٢) من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث رضي الله عنهما، بلفظ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ**».

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٢) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥)، ولفظ البخاري: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا**».

بل هو حجة على عدم الاختصاص بهم، وذلك لما روى أبو داود من حديث نعيم المجمر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصلاة على النبي ﷺ قال: «**من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل البيت كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد**»(١).

فجمع بين الأزواج والذرية والأهل، وإنما نص عليهم بتعيينهم ليبين أنهم حقيقون بالدخول في الآل، وأنهم ليسوا بخارجين منه، بل هم أحق من دخل فيه، وهذا كنظائره من عطف الخاص على العام، إلى آخره، ثم يستدل بأدلة أكثر ويزيد الأمر توضيحًا فيقول: [وأيضًا فإن الصَّلاة على النبي حقٌّ له ولآله دون سائر الأمة ولهذا تجب عليه وعلى آله عند الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره كما سيأتي، وإن كان عندهم في الآل اختلاف، ومن لا يوجبها فلا ريب أنه يستحبها عليه وعلى آله، ويكرهها أو لا يستحبها لسائر المؤمنين، أو لا يُجَوِّزُهَا على غير النبي ﷺ وآله، وأما من قال إن آل النبي في الصلاة هم كالأمة فقد أبعد غاية الإبعاد عن الصواب].

قال البيهقي بعد إيراده للحديث: «فكأنه ﷺ أفرد أزواجه وذريته بالذكر على وجه التأكيد ثم رجع إلى التعميم ليدخل فيها غير الأزواج والذرية من أهل بيته ﷺ وعليهم أجمعين».

وقال الحليمي: «وأما اسم أهل البيت فإنه للقرابة والأزواج معًا»(٢).

وأيضًا فإن النبي ﷺ شرع في التشهد السلام والصلاة، فشرع في

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٨٢)، والبيهقي (٢٨٦٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢/ ١٤٠).

السلام تسليم المصلي على الرسول ﷺ أولًا وعلى نفسه ثانيًا، وعلى سائر عباد الله الصالحين ثالثًا، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**فإذا قلتم ذلك فقد سلمتم على كل عبدٍ صالح في الأرض والسماء**»(١).

وأما الصلاة فلم يشرعها إلا عليه وعلى آله فحسب، فدل على أن آله هم أهله وأقاربه. وأيضًا فإن الله ﷻ أمرنا بالصلاة عليه بعد ذكر حقوقه وما خصه به دون أمته من حل نكاحه لمن تهب نفسها له، ومن تحريم نكاح أزواجه على الأمة بعده، ومن سائر ما ذُكر مع ذلك من حقوقه وتعظيمه وتوقيره وتبجيله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣].

ثم ذكر رفع الجناح عن أزواجه في تكليم آبائهن وأبنائهن ودخولهم عليهن وخلوتهم بهن، ثم عقب ذلك بما حق من حقوقه الأكيدة على أمته وهو أمرهم بصلاتهم عليه وسلامهم مستفتحًا ذلك الأمر بإخباره بأنه هو وملائكته يصلون عليه، فسأل الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ على أي صفةٍ يؤدون هذا الحق؟ فقال: «**قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد**»(٢). فالصلاة على آله هي من تمام الصلاة عليه وتوابعها؛ لأن ذلك مما تقر به عينه ويزيده الله به شرفًا وعلوًّا، ﷺ تسليمًا كثيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، بلفظ: «**فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٥، ٤٠٦).

قول غير راجح:

وأما من قال: إنهم الأتقياء، يعنى الأولياء من آل يؤُول إذا رجع. قال به علماء أيضًا، ولكنه كما قال ابن القيم أبعد غاية الإبعاد وإن كان لهم أدلة ولكنها واهية، وقد ظللت مدةً طويلةً أقول بأن معنى (صلِّ على محمد وعلى آل محمد) أنه في كل من اتبع محمدًا ﷺ أو العلماء أنفسهم؛ فحين يبارك الله في العلماء فقد بارك في محمد ﷺ فهم دعوته، ولكن النصوص جاءت صحيحة عن الرسول ﷺ في استعمال كلمة الآل في أنهم من حُرِّمَت عليهم الصدقة.

وأما الأتقياء: فهم المتقون، ومنهم من هو أفضل من آل النبي كأبي بكر؛ لأن النبي ﷺ سئل من أحب الناس إليك؟ قال: «**عائشة**» قالوا: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»(١).

فأبو بكر ليسَ من آل النبي ﷺ إنما هو من أولياء النبي - عليه الصلاة والسلام؛ ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤]، وغيرها، فالمتقون قد يكونون أفضل من الآل.

فلا تقل على آل محمد إنهم المتقون المخلصون، لا؛ فـ (آل محمد) هم من حرمت عليهم الصدقة، وذلك يتضمن الأزواج والذرية من آل جعفر، وآل عُقيل. وهناك كلام فيمن حرمت عليهم الصدقة وفيها خلاف. ولن ندخل في هذا الكلام، فليس عليك إلا أن تذكر المعاني

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) عن عَمْرو بْن العَاصِ ﵁، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السلاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**»، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «**أَبُوهَا**»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ**» فَعَدَّ رِجَالًا.

التي ذكرناها، فأنت حين تقول: يا رب صل عليهم، فهي بمعنى: يا رب ارفع ذكرهم عندك، وأَعْلِ ذكرهم عندك، وأكثر من الثناء عليهم عندك في الملأ الأعلى، واجعل لهم لسان صدقٍ في الآخرين، وفي الأمة كلها.

س: ما معنى الآل في الاشتقاق؟

مثلًا: حين تقول: ذهبت إلى آل سعيد، فهل هذا يتضمن سعيدًا أم لا يتضمنه؟ يتضمنه، وحين تقول: ذهبت إلى سعيد في بيته، فهو يتضمن آله أيضًا.

فقولك: (على إبراهيم) يتضمن صلاة الله على آل إبراهيم تبعًا له؛ لأن من صلاة الله على إبراهيم أن بارك في آله وأن صلَّى على آله، فهذه تبع للصلاة على إبراهيم، وهذا من كرم الله ﷻ ومن فضله على إبراهيم، ومن صلاة الله على إبراهيم أن وهب وجعل له ذرية من الأنبياء وجعل النبوة كلها في نسله إلى محمد - عليه الصلاة والسلام .

لكن إذا قلت: (كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) فهذا معناه أن آل إبراهيم لا يدخل فيها هنا إبراهيم؛ وهذا أيضًا بحث طويل ذكره ابن القيم فإن أردت التفصيل فارجع إليه.

وهذا تمامًا كما لو قلت (العليم) فهو يتضمن (الحكيم)، ولو قلت (الحكيم) تضمن (العليم)، أما لو قلت (العليم الحكيم) فهنا افترقا؛ لأنهما إن اجتمعا افترقا، وإن افترقا اجتمعا، ويختص هذا بمعانٍ ويختص الآخر بمعانٍ أخرى، مثل(الغفور الرحيم)، وهكذا.

وفي القرآن الكريم: (آل فرعون)، و(آل لوط) فـ (آل) مستعملة في كتاب الله ﷻ، ويبسط ابن القيم القاعدة ويقول: «وأما من زعم أن الآل

هم الأتباع فيقال: (لا ريب أن الأتباع يطلق عليهم لفظ الآل في بعض المواضع ولكن بقرينه»[(١)]، يعني أنت من الآل ولكن ليس الآل المذكورون في الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: الآية ٤٦]، فآل فرعون معروفون وهذه قرينة ولا يلزم من ذلك أنه حيث وقع لفظ الآل يراد به الأتباع لما ذكرنا من النصوص، وذكر ابن القيم أدلة كثيرة على ذلك.

أما أزواج النبي ﷺ فقد ذكر كلامًا طيبًا أيضًا عنها وعقد في ذلك فصلًا عظيمًا جدًّا، من هُنَّ، وما صفاتهن، وما حمدهن، كذلك ذكر معنى الذرية في الاشتقاق اللغوي، وذكر أيضًا شيئًا عن ذرية النبي – عليه الصلاة والسلام .

من إبراهيم عليه السلام وما مكانته:

هو خليل الله، ونحن نعلم وزنه وعظمته وقدره عند الله عز وجل؛ ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النّساء: الآية ١٢٥]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: الآية ١٢٠]، ويقول ابن القيم:

فـ(الأمة): هو القدوة والمعلم للخير، و(القانت): المطيع لله الملازم لطاعته.

و(الحنيف): المقبل على الله المعرض عما سواه، ومن فسر الحنيف بالمائل فلم يفسره بمعنى اللفظ وإنما فسره بلازم المعنى؛ فإن الحنف هو الإقبال ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى ويلزمه ميلها عن جهتها، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾

(١) «جلاء الأفهام» (ص٢٢٨).

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: الآية ٣٠] فحنيفًا هو حال مفردة لمضمون قوله ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم: الآية ٣٠].

يقول ابن القيم عن إبراهيم عليه السلام: [إبراهيم عليه السلام هو أبونا الثالث، وهو إمام الحنفاء ويسميه أهل الكتاب عمود العالم، وجميع أهل الملل متفقةٌ على تعظيمه وتوليه ومحبته، وكان خيرُ بنيه سيد ولد آدم محمد ﷺ يجله ويعظمه ويبجله ويحترمه، ففي «الصحيحين» من حديث المختار بن فلفل عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «جاء رجل إلى النبي فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله: «**ذاك إبراهيم**»(١)، وسماه شيخه كما تقدم، وثبت في «صحيح البخاري» من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي أنه قال: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا**» ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤]، «**وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم**»(٢).

وكان رسول الله أشبه الخلق بإبراهيم كما في «الصحيحين» عنه قال: «**رأيت إبراهيم فإذا أقرب الناس شبهًا به صاحبكم**» يعني نفسه ﷺ(٣)، وفي لفظٍ آخر: «**فانظروا إلى صاحبكم**»(٤).

وكان ﷺ يعوذ أولاد ابنته حسنًا وحسينًا بتعويذ إبراهيم لإسماعيل وإسحاق، ففي «صحيح البخاري» عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (١٦٧) من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٥٥)، ومسلم (١٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: كان النبي ﷺ يُعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق؛ أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عينٍ لامة**»(١).

وكان ﷺ أول من قرى الضيف، وأول من اختتن، وأول من رأى الشيب، فقال: «ما هذا يا رب؟» قال: «وقار»، قال: «ربِّ زدني وقارًا»(٢).

وتأمل ثناء الله سبحانه عليه في إكرام ضيفه من الملائكة حيث يقول سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: الآية ٢٤].

وقد شهد الله سبحانه بأنه وفَّى فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: الآية ٣٧] فقال ابن عباس: «أي وفَّى جميع شرائع الإسلام، ووفَّى ما أمر به من تبليغ الرسالة»، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤] فلما أتم ما أُمِرَ به من الكلمات جعله الله للخلائق يأتمون به، وكان ﷺ كما قيل: قلبه للرحمن، وولده للقربان، وبدنه للنيران، وماله للضيفان.

ولما اتخذه ربه خليلًا - والخُلة هي كمال المحبة، وهي مرتبة لا تقبل المشاركة والمزاحمة - وكان قد سأل ربه أن يهب له ولدًا صالحًا، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شُعبة من قلبه، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره، فامتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «جامع معمر بن راشد» (٢٠٢٤٥) من قول سعيد بن المسيب رحمه الله.

محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه وعزم على فعله وظهر سلطان الخُلة في الإقدام على ذبح الولد إيثارًا لمحبة خليله على محبته، فسح الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم؛ لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أُمر به، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مشقة، فنُسخ في حقه، فصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سُنَّة في أتباعه إلى يوم القيامة.

وإن إبراهيم عليه السلام هو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهل الباطل وكَسْرِ حُجَجِهِم، وقد ذكر الله سبحانه مناظرته في القرآن مع إمام المعطلين، ومناظرته مع قومه المشركين، وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة، وأقربها إلى الفهم وحصول العلم.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعَام: الآية ٨٣]، قال زيد بن أسلم وغيره: بالحجة والعلم[1]، ولما غُلب أعداء الله معه بالحجة، وظهرت حجته عليهم، وكسر أصنامهم، فكسر حججهم ومعبودهم، هموا بعقوبته وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين إذا غُلبوا وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة، كما قال فرعون لموسى وقد أقام عليه الحجة: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٩]، فأضرموا لإبراهيم النار وألقوه في المنجنيق، فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه، فإنه ما سافر سفرة أبرك ولا أعظم ولا أرفع لشأنه وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبريل بين السماء والأرض فقال: «يا إبراهيم ألك حاجة؟» قال: «أما إليك فلا».

(١) أخرجه أحمد (٤٤٩) قال: «بالعلم».

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣]، «قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار، فجعل الله سبحانه عليه النار بردًا وسلامًا».

وقد ثبت في «صحيح البخاري» من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: «**كانت تنفخ على إبراهيم**»(١).

وهو الذي بنى بيت الله وأذن في الناس بحجه، وكل من حجه واعتمره حصل لإبراهيم من مزيد ثواب الله وإكرام الله بعدد الحجاج والمعتمرين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: الآية ١٢٥]، فأمر نبيه ﷺ وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى تحقيقًا للاقتداء به وإحياءً لآثاره صلى الله على نبينا وعليه وسلم.

ومناقب هذا الإمام الأعظم والنبي الأكرم أجل من أن يحيط بها كتاب، وإن مد الله في العمر أفردنا كتابًا في ذلك يكون قطرة في بحر فضائله أو أقل، جعلنا الله ممن ائتمَّ به، ولا جعلنا ممن عدل عن ملته بمنه وكرمه.

وقد روى لنا عنه النبي ﷺ حديثًا وقع لنا متصل الرواية إليه، رويناه في كتاب الترمذي وغيره من حديث القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة**

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٩)، ومسلم (٢٢٣٧).

الماء وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن].

❍ **مسألة مشهورة ذكرها ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام»**(٢):

وهى أن النبيَّ ﷺ أفضل من إبراهيم فكيف طُلب له من الصلاة ما لإبراهيم مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه؟

جاء ابن القيم بوجوه كثيرة جدًّا وضعفها، ثم ذكر هذا الوجه وهو باختصار: أنك حين تقول: (كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم) فمِن آل إبراهيم النبيُّ ﷺ إذًا سيأخذ حظًّا من الصلاة على آل إبراهيم.

ومن أكبر حظًّا في الصلاة من آل إبراهيم؟ أليس أعظمهم النبي ﷺ فهو إذًا أكبر حظًّا في الصلاة من آل إبراهيم.

❍ **سؤال آخر:**

هنا سؤالٌ آخر أورده ابن القيم(٣) وهو:

لماذا في كل الصيغ تقول: (على محمد وعلى آل محمد)، أما عند إبراهيم فإما: (إبراهيم) وإما (آل إبراهيم)؟

باختصار؛ أن (محمد وآل محمد) في الطلب، أما (إبراهيم وآل إبراهيم) ففي الإخبار؛ هذا هو الفرق، وفي الطلب يستحب التفصيل والإلحاح في الدعاء، والإطالة في الكلام، فأنت تدعو الله ﷻ، أما في

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢).

(٢) (ص٢٧٨ - ٢٩١).

(٣) «جلاء الأفهام» (ص٢٩٧).

(إبراهيم) فهو ليس إلا إخبارًا والاختصار أولى.

ولذلك ابن القيم يُجيب فيقول:

[يبقى أن يقال لمَ جاء ذكر محمد وآل محمد بالاقتران دون الاقتصار على أحدهما في عامة الأحاديث وجاء الاقتصار على إبراهيم وآله في عامتها؟ فأقول: وجواب ذلك أن الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله ذُكرت في مقام الطلب والدعاء، وأما الصلاة على إبراهيم فإنما جاءت في مقام الخبر وذكر الواقع لأن قول: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد) جملة طلبية، وقول (كما صليت على إبراهيم) جملة خبرية، والجملة الطلبية إذا وقعت موقع الدعاء والسؤال كان بسطها وتطويلها أنسب من اختصارها وحذفها ولهذا يشرع تكرارها وإبداؤها وإعادتها فإنها دعاء والله يحب الملحين في الدعاء ولهذا تجد كثيرًا من أدعية النبي ﷺ فيها من بسط الألفاظ وذكر كل معنى بصريح لفظه دون الاكتفاء بدلالة اللفظ الآخر عليه ما يشهد لذلك، كقوله ﷺ في حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه مسلم في «صحيحه»: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت**»[1]، ومعلوم أنه لو قيل (اغفر لي كل ما صنعت كان أوجز)، ولكن ألفاظ الحديث في مقام الدعاء والتضرع وإظهار العبودية والافتقار واستحضار الأنواع التي يتوب العبد منها تفصيلًا أحسن وأبلغ من الإيجاز والاختصار، وهكذا، وأما الخبر فهو خبرٌ عن أمرٍ قد وقع وانقضى لا يحتمل الزيادة والنقصان فلم يكن في زيادة اللفظ فيه كبير فائدة، لا سيما

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ليس المقام مقام إيضاح وتفهيم للمخاطب ليحسن معه البسط والإطناب].

وذلك لأنك تخاطب الله تعالى ﷻ، وتطلب من الله ﷻ، فهل تقول له كما فعلت مع فلان أو هل تتذكر ابن فلان؟! فهذا لا يليق.

○ معنى البَرَكة:

البركة: هي النماء والزيادة، والتبريك: الدعاء بالنماء والزيادة، كما تقول: (وبارك لي فيما أعطيت)، وحقيقة البركة الثبوت واللزوم والاستقرار، من بَرَكَ البعير إذا استقر على الأرض، والمَبْرَك موضع الإبل، وكل شيء ثَبَت وأَقَامَ فقد بَرَكَ.

والبِرْكَة: هي كالحوض، ومعنى ذلك أن ما بها من الماء ثابت لا يتحرك؛ لا يمينًا ولا شمالًا، ولكن ثابت ومستقر إلى أن يأسن، فاسمها البِركة وذلك لإقامة الماء فيها كالحوض.

والقرآن أحق أن يسمى مباركًا من كل شيء لكثرة خيره ومنافعه ووجود البركة فيه.

تبارك: وزنها تفاعل، مثل تعالى وتعاظم وتقدس، فهو يدل على السعة والمبالغة، فهي على وزن تفاعل من العلو، وهذا بالنسبة لله، فكل الخير فيه، وصفاته كلها صفات كمال، والخير كله بيده، وإن أفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وخيرات لا شر فيها، فإذا كان العبد مباركًا لكثرة خيره ونفعه واتصال أسباب الخير فيه وحصول ما ينتفع به الناس منه فالله تبارك وتعالى أحق أن يكون متباركًا، وهذا ثناءٌ يُشعِرُ بالعظمة والرفعة والسعة فهو دليل على كثرة خير الله، ودوام خير الله، واجتماع صفات

الكمال في الله، وأن كل نفع في العالم كان أو يكون فمن نفعه وإحسانه سبحانه وتعالى وعز وجل.

فتباركه سبحانه صفةُ ذاتٍ له وصفة فعل، والذي يدل على ذلك أنه سبحانه أسند التبارك إلى اسمه كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرَّحمن: الآية ٧٨].

وبركة الاسم من بركة المسمى، فإذا كان الاسم قد تبارك فكيف بالمسمى سبحانه وتعالى وعز وجل؟

(تبارك اسمك وتعالى جدك) فإن بركة الاسم تابعة لبركة المسمى، وكذلك المعنى نفسه في ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ٧٤] وهو تابع لتسبيح المسمى.

يقول ابن القيم: «فتباركه سبحانه؛ دوام وجوده، وكثرة خيره ومجده وعلوه وعظمته وتقدسه ومجيء الخيرات كلها من عنده وتبريكه على من شاء من خلقه»[(١)].

فيكون بذلك قولنا: (وبارك على محمد وعلى آل محمد) متضمنًا إعطاء النبي ﷺ من الخير ولآله ما أعطاه لإبراهيم وآله.

ومعنى البركة في النهاية أن تنتشر دعوة النبي ﷺ؛ لأن كل من يتبع النبي ﷺ يكون للنبي ﷺ أجر كأجر من اتبعه فهذه هي البركة، فحين تسأل الله ﷻ أن يبارك على النبي ﷺ فأنت تعني أن يستمر الخير، وأن يزيد الأتباع، وأن تزداد الرقعة الإسلامية، وأن يُحكم بما أنزل الله، وأن يتبع المسلمون منهج الرسول ﷺ وأن ينتشر العلم والعمل، وهكذا.

(١) «جلاء الأفهام» (ص٣٠٨).

آخر التشهد (إنك حميدٌ مجيد):

(إنك حميدٌ مجيد) تطلبت للنبي ﷺ حمدًا ومجدًا؛ يعني تطلب له الثناء عليه والخير الواسع من كل ناحية، فيه وفي آله، وبعد ذلك في أتباعه، وهذا من البركة عليه ﷺ؛ أن يتبعه خلقٌ كثير، وبالتالي كل أحد من أتباعه يعمل خيرًا فسيكتب للنبي ﷺ وهذا من ضمن البركة.

وكما قال سعد بن عبادة: «اللهم هب لي حمدًا ومجدًا، لا مجد إلا بِفِعَالٍ، ولا فِعَالَ إلا بمال، اللهم لا يصلحني القليل ولا أصلح له، فهب لي من لدنك حمدًا ومجدًا»(١)، فأنت تطلب للنبي ﷺ حمدًا ومجدًا، فمن الذي يعطي الحمد والمجد؟ (الحميد والمجيد)، وذكر ذلك في القرآن في قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هُود: الآية ٧٣].

آل إبراهيم:

المقصود من قوله: (وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم) تَضَمُّنُ إعطائه من الخير ما أعطاه لآل إبراهيم وإدامته وثبوته له ومضاعفته له وزيادته، قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣]، وقال تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هُود: الآية ٧٣].

نذكر مناقب أهل بيت إبراهيم عليه السلام وهم الأنبياء. وكثير من الناس لا يعرفون قدر أهل بيت إبراهيم عليه السلام، فأهل بيت النبي إبراهيم جميعهم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٦١٩) بلفظ: «اللَّهُمَّ هَبْ لِي حَمْدًا، وَهَبْ لِي مَجْدًا، لَا مَجْدَ إِلَّا بِفِعَالٍ، وَلَا فِعَالَ إِلَّا بِمَالٍ، اللَّهُمَّ لَا يُصْلِحُنِي الْقَلِيلُ وَلَا أَصْلُحُ عَلَيْهِ».

أنبياء؛ وهم: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويونس، ويوسف، وهود، وكل أنبياء بني إسرائيل كذلك من نسل إبراهيم عليه السلام.

وهنا نجد ابن القيم يقول(١):

[وَلَا يَقُول الْقَائِل هؤلاء أنبياء بني إسرائيل لا تعلق لنا بهم بل يجب علينا احترامهم وتوقيرهم والإيمان بهم ومحبتهم وموالاتهم والثناء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولما كان هذا البيت المبارك المطهر أشرف بيوت العالم على الإطلاق خصهم الله سبحانه وتعالى منه بخصائص:

* **منها**: أنه جعل فيهم النبوة والكتاب فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

* **ومنها**: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

* **ومنها**: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين إبراهيم ومحمدًا عليهما السلام، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النِّساء: الآية ١٢٥]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»(٢) وهذا من خواص أهل البيت.

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص٣٠٩) قال: وَلَا يَقُول الْقَائِل هَؤُلَاءِ أَنْبيَاء بني إِسْرَائِيل لَا تعلق لنا بهم...

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**».

* **ومنها**: أنه سبحانه جعل صاحب هذا البيت إمامًا للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤].

* **ومنها**: أنه أُجْرِيَ على يديه بناء بيته الذي جعله قيامًا للناس وقبلةً لهم وحجًّا فكان ظهور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين.

* **ومنها**: أنه أمر عباده بأن يصلوا على أهل هذا البيت، كما صلى على أهل بيتهم وسلفهم وهم إبراهيم وآله وهذه خاصية لهم.

* **ومنها**: أنه أخرج منهم الأمتين المعظمتين اللتين لم تخرجا من أهل بيت غيرهم وهم أمة موسى وأمة محمد، وأمة محمد تمام سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله تعالى.

* **ومنها**: أن الله سبحانه أبقى عليهم لسان صدق وثناء حسنًا في العالم فلا يذكرون إلا بالثناء عليهم والصلاة والسلام عليهم، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٨ - ١١٠].

* **ومنها**: جعل أهل هذا البيت فرقانًا بين الناس فالسعداء أتباعهم ومحبوهم ومن تولاهم والأشقياء من أبغضهم وأعرض عنهم وعاداهم، فالجنة لهم ولأتباعهم، والنار لأعدائهم ومخالفيهم.

* **ومنها**: أنه سبحانه جعل ذكرهم مقرونًا بذكره فيقال إبراهيم خليل الله ورسول الله ونبي الله ومحمد رسول الله وخليل الله ونبي الله، وموسى كليم الله ورسول الله، قال تعالى لنبيه يذكره بنعمته عليه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: الآية ٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا ذُكرتُ

ذُكرتَ معي»[١]. فيقال لا إله إلا الله محمد رسول الله في كلمة الإسلام، وفي الأذان، وفي الخطب، وفي التشهدات وغير ذلك.

* **ومنها**: أنه سبحانه جعل خلاص خلقه من شقاء الدنيا والآخرة على أيدي أهل هذا البيت فلهم على الناس من النعم ما لا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها، ولهم المنن الجسام في رقاب الأولين والآخرين من أهل السعادة، والأيدي العظام عندهم التي يجازيهم الله ﷻ عليها.

* **ومنها**: أن كل ضرر ونفع وعمل صالح وطاعة لله تعالى حصلت في العالم فلهم من الأجر مثل أجور عامليها، فسبحان من يختص بفضله من يشاء من عباده.

* **ومنها**: أن الله ﷻ سد جميع الطرق بينه وبين العالمين وأغلق دونهم الأبواب فلم يفتح لأحدٍ قط من طريقهم وبابهم.

* **ومنها**: أنه سبحانه خصهم من العلم بما لم يخص به أهل بيت سواهم من العالمين، فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله وثوابه وعقابه وشرعه ومواقع رضاه وغضبه وملائكته ومخلوقاته منهم فسبحان من جمع لهم علمَ الأولين والآخرين.

* **ومنها**: أنه سبحانه خصهم من توحيده ومحبته وقربه والاختصاص به بما لم يختص به أهل بيتٍ سواهم.

* **ومنها**: أنه سبحانه مكنَّ لهم في الأرض واستخلفهم فيها وأطاع أهل الأرض لهم ما لم يحصل لغيرهم.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٣٨٠)، والطبري في «التفسير» (٢٤/ ٤٩٤ - ٤٩٥)، وابن حبان (٣٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ولم أعثر عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

* **ومنها**: أنه سبحانه أيدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه وأعدائهم بما لم يؤيد غيرهم.

* **ومنها**: أنه سبحانه مَحَا بهم من آثار أهل الضلال والشرك ومن الآثار التي يبغضها ويمقتها ما لم يمحه بسواهم.

* **ومنها**: أنه سبحانه غرس لهم من المحبة والإجلال والتعظيم في قلوب العالمين ما لم يغرسه لغيرهم.

* **ومنها**: أنه سبحانه جعل آثارهم في الأرض سببًا لبقاء العالم وحفظه فلا يزال العالم باقيًا ما بقيت آثارهم فإذا ذهب آثارهم من الأرض فذاك أوان خراب العالم، قال الله تعالى: ﴿**جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ**﴾ [المائدة: الآية ٩٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: «لو ترك الناس كلهم الحج لوقعت السماء على الأرض»(١)، وقال: «لو ترك الناس كلهم الحج لما نظروا»(٢).

وأخبر النبي أن في آخر الزمان يرفع الله بيته من الأرض(٣) وكلامه من المصاحف وصدور الرجال(٤)، فلا يبقى له في الأرض بيتٌ يحج ولا

---

(١) ذكره ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٥٨٤) وعزاه لأحمد في «المناسك».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٧٦)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٨١١، ٨٥٢، ٨٥٣).

(٣) أخرج البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ**».

(٤) أخرج البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا** =

كلام يتلى، فحينئذ يقرب خراب العالم، وهكذا الناس اليوم إنما قيامهم بقيام آثار نبيهم وشرائعه بينهم وقيام أمورهم وحصول مصالحهم واندفاع أنواع البلاء والشر عنهم بحسب ظهورها بينهم وقيامها، وهلاكهم وعنتهم وحلول البلاء والشر بهم عند تعطلها والإعراض عنها والتحاكم إلى غيرها واتخاذ سواها.

ومن تأمل تسليط الله سبحانه على من سلطه على البلاد والعباد من الأعداء علم أن ذلك بسبب تعطيلهم لدين نبيهم وسننه وشرائعه، فسلط الله عليهم من أهلكهم وانتقم منهم حتى أن البلاد التي لآثار الرسول وسننه وشرائعه فيها ظهور دفع عنها بحسب ظهور ذلك بينهم.

* ومن بركات أهل هذا البيت أنه سبحانه أظهر على أيديهم من بركات الدنيا والآخرة ما لم يظهره على يدي أهل بيت غيرهم.

* ومن بركاتهم وخصائصهم أن الله سبحانه أعطاهم من خصائصهم ما لم يعط غيرهم فمنهم من اتخذه خليلًا، ومنهم الذبيح، ومنهم من كلمه تكليمًا وقربه نجيًّا، ومنهم من آتاه شطر الحسن وجعله من أكرم الناس عليه، ومنهم من آتاه ملكًا لم يؤته أحدًا غيره، ومنهم من رفعه مكانًا عليًّا، ولما ذكر ﷻ هذا البيت وذريته أخبر أن كلهم فضله على العالمين.

* ومن خصائصهم وبركاتهم على أهل الأرض أن الله سبحانه رفع العذاب العام عن أهل الأرض بهم وببعثتهم وكانت عادته سبحانه في أمم الأنبياء قبلهم أنهم إذا كَذبوا أنبياءهم ورسلهم أهلكهم بعذاب يعمهم كما

= فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

فعل بقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط...].

معنى السلام وسر وروده في آخر التشهد ولماذا جاء مُعَرَّفًا؟

يقول ابن القيم في كتاب الصلاة:

[ثم خُتمت بالتسليم وجُعِلَ تحليلًا لها يخرج به المصلي منها كما يخرج بتحليل الحج منه وجُعل هذا التحليل دعاء الإمام لمن وراءه بالسلامة فيقول: (السلام عليكم)، التي هي أصل الخير وأساسه، فشرع لمن وراءه أن يتحلل بمثل ما تحلل به الإمام وفي ذلك دعاءٌ له وللمصلين معه بالسلام، ثم شرع ذلك لكل مصلٍّ وإن كان منفردًا، فلا أحسن من هذا التحليل للصلاة وكما أنه لا أحسن من كون التكبير تحريمًا لها فتحريمها تكبير الرب تعالى والجامع لإثبات كل كمال له وتنزيه عن كل نقص وعيب وإفراده وتخصيصه بذلك وتعظيمه وإجلاله، فالتكبير يتضمن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيئاتها، فالصلاة من أولها إلى آخرها تفصيل لمضمون (الله أكبر)، وأيُّ تحريم أحسن من هذا التحريم المتضمن الإحسان إلى إخوانه المؤمنين، فافتتحت بالإخلاص وختمت بالإحسان].

كلام ابن القيم من كتاب «بدائع الفوائد»:

في المسألة الثامنة والعشرين التي ذكرها ابن القيم في كتاب «بدائع الفوائد»[1] في شرح اسمه تعالى (السلام) يقول رَحِمَهُ اللهُ: [ما السر في كون السَّلام في آخر الصلاة؟ والثاني لِمَ كان مُعَرَّفًا؟

(١) (٢/ ٩٥).

والجواب: أما اختتام الصلاة به؛ فإنه قد جعل الله تعالى لكل عبادة تحليلًا منها، فالتحليل من الحج بالرمي وما بعده، وكذلك التحلل من الصوم بالفطر بعد الغروب.

فَجَعَلَ السلام تحليلًا من الصلاة كما قال النبي ﷺ: «**تحريمها التكبير وتحليلها التسليم**»(١)، فتحريمها هنا هو بابها الذي يُدخل منه إليها، وتحليلها بابها الذي يخرج به منها، فجعل التكبير باب الدخول والتسليم بابَ الخروج؛ لحكمة بديعة بالغة يفهمها من عقل عن الله، وألزمَ نفسه بتأمل محاسن هذا الدين العظيم، وسافر فكرهُ في استخراج حكمه وأسراره وبدائعه، وتغرَّب عن عالم العادة والإلف فلم يقنع بمجرد الأشباح حتى يعلم ما يقومُ بها من الأرواح، فإن الله تعالى لم يَشرع شيئًا سُدًى ولا خاليًا من حكمة بالغة، بل في طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التي تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه على ما وراءه فيسجد القلب خضوعًا وإذعانًا.

فنقول وبالله التوفيق، لمَّا كان المصلي قد تخلَّى عن الشواغل، وقطعَ جميع العلائق، وتطهر وأخذ زينته وتهيأ للدخول على الله، ومناجاته شُرع له أن يدخل عليه دخول العبيد على الملوك فيدخل بالتعظيم والإجلال، فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى وهو قول (الله أكبر) فإن في اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق في جانب المحذوف المجرور بمن ما لا يوجد في غيره، ولهذا كان الصواب أن غير هذا اللفظ لا يقوم مقامه ولا يؤدي معناه ولا تنعقد الصلاة إلا به. كما هو مذهب

(١) أخرجه أبو داود (٦١)، والترمذي (٣)، وابن ماجه (٢٧٥)، وأحمد (١٠٠٦) من حديث علي رضي الله عنه.

أهل المدينة وأهل الحديث، فجعل هذا اللفظ واستشعار معناه والمقصود باب الصلاة الذي يدخل العبد على ربه منه، فإنه إذا استشعر بقلبه أن (الله أكبر) من كل ما يخطر بالبال استحيا منه أن ينشغل قلبه في الصلاة بغير الله، فلا يكون موفيًا لمعنى (الله أكبر)، ولا مؤديًا لحق (الله أكبر)، ولا أتى البيت من بابه بل الباب عنه مسدود، إلا أن يكون منشغلًا بذلك الباب.

وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه، وما أحسن ما قال أبو الفرج بن الجوزي في بعض وعظه[(١)] يقول: حضورُ القلب أول منزل من منازل الصلاة، فإذا نزلته انتقلتَ إلى بادية المعنى، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة، فكان أولُ قِرَى الضيف اليقظة وكشف الحجاب لعين القلب، فكيف يطمع في دخول مكة من لا خرج إلى البادية، وقد انبعث قلبك في كل وادٍ، فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك، فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه فتدخل في الصلاة بغير قلب، والمقصود أنه قبيحٌ بالعبد أن يقول بلسانه (الله أكبر) وقد امتلأ قلبه بغير الله فهو قبلة قلبه في الصلاة ولعله لا يحضر بين يدي ربه في شيء منها، فلو قضى حق (الله أكبر) وأتى البيت من بابه لدخل وانصرف بأنواع التحف والخيرات فهذا الباب الذي يدخل منه المصلى وهو التحريم.

وأما الباب الذي يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماء الحسنى فيكون مفتتحًا لصلاته باسمه تبارك وتعالى، ومختتمًا لها باسمه،

(١) «المدهش» (ص٤٥٤).

فيكون ذاكرًا لاسم ربه أول الصلاة وآخرها، فأولها باسمه وآخرها باسمه، فدخل فيها باسمه وخرج منها باسمه، مع ما في اسم السلام من الخاصية والحكمة والمناسبة لانصراف المصلي من بين يدي الله تعالى، فإن المصلي ما دام في صلاته بين يدي ربه فهو في حماه، حيث لا يستطيع أحد أن يخفره بل هو في حمى من جميع الآفات والشرور، فإذا انصرف من بين يديه تبارك وتعالى ابتدرته الآفات والبلايا والمحن وتعرضت له من كل جانب وجاءه الشيطان بمصائده وجنده فهو متعرضٌ لأنواع البلايا والمحن، فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوبًا بالسلام لم يزل عليه حافظًا من الله إلى وقت الصلاة الأخرى، وكان من تمام النعمة عليه أن يكون انصرافه من بين يدي ربه بسلام يستصحبه ويدوم له ويبقى معه، فتدبر هذا السر الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره لكان كافيًا، فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان، والحمد في ذلك لله وحده، فكما أن المنعم به هو الله وحده فالمحمود عليه هو الله وحده وقد عُرف بهذا جواب السؤال الثاني وهو مجيء السلام هنا معرفًا ليكون دالًّا على اسمه تعالى (السلام).

وليكن هذا آخر الكلام في مسألة (السلام عليكم) فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلدًا ضخمًا، هذا ولم نتعرض فيها إلى المسائل المسطورة في الكتب من فروع السلام ومسائله فإنها مملوءة منها فمن أرادها فليأخذها من هناك والحمد لله رب العالمين].

(الحميد المجيد) من كتاب «جلاء الأفهام»[(١)]:

يقول: «فـ (**الحميدُ**): فعيل من الحمْدِ، وهو بمعنى محمود.

وأكثرُ ما يأتي فعيلًا في أسمائه تعالى بمعنى فاعل؛ كسميعٍ، وبصير، بمعنى مُبْصِر وهو هنا بمعنى الفاعل، وعليم، وقدير، وعليّ، وحكيم، وحليم، وهو كثيرٌ، وكذلك فعول؛ كغفور وشكور وصبور، وأمَّا **(الودود) ففيه قولان**:

أحدهما: أنه بمعنى: فاعل (وادّ) و هو الذي يحب أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين.

والثاني: أَنَّه بمعنى: مودود، وهو المحبوب الذي يستحق أَنْ يُحَب الحبَّ كلَّه، وأنْ يكون أحبَّ إلى العبد من سمعه وبصره وجميع محبوباته.

وأمَّا (الحميد): فلم يأت إلا بمعنى (المحمود)، وهو أبلغُ من (المحمود)؛ فإنَّ فعيلًا إذا عُدِل به عن مفعول دلَّ على أَنَّ تلك الصفةَ قد صارت مثلَ السجية والغريزة والخلق اللازم كما إذا قلت: فلان ظريف، أو شريف، أو كريم، ولهذا يكون هذا البناء غالبًا مِنْ فَعُل بوزن شَرُف، أو مجُدَ وهو المجيد، أو حَمُدَ وهو الحميد، وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة ككَبُر، وصَغُر، وحَسُن، ولَطُف، ونحوِ ذلك؛ ولهذا كان حبيب أبلغ من محبوب؛ لأنَّ الحبيب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحَب لأجلها؛ فهو حبيبٌ في نفسه وإنْ قُدِّر أَنَّ غيره لا يُحِبه؛ لعدم شعوره به، أو لمانعٍ منعه من حبِّه، وأمَّا المحبوب: فهو

(١) (ص٣١٥).

الذي تعلَّق به حُبُّ الْمُحِب؛ فصار محبوبًا بِحُبِّ الغير له، وأمَّا الحبيب فهو حبيب لذاته وصفاته سواء تعلَّق به حُبُّ الغير، أو لم يتعلق.

وهكذا الحميد والمحمود؛ فـ(الحميد) هو الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أَنْ يكون محمودًا، وإِنْ لم يحمده غيرُه؛ فهو حميدٌ في نفسه، والمحمود مَنْ تعلَّق به حمدُ الحامدين.

وهكذا المجيد والْمُمَجَّد والكبير والْمُكَبَّر والعظيم والْمُعَظَّم.

والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تُثنِ عليه لم تكن حامدًا له، وكذا من أثنيت عليه لغرضٍ ما ولم تحبه لم تكن حامدًا له حتى تكون مثنيًا عليه محبًّا له، وهذا الثناء والحب تبع للأسباب المقتضية له وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير، فإن هذه هي أسباب المحبة وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل كان الحمد والحب أتم وأعظم، والله سبحانه له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه ما، والإحسان كله له ومنه، فهو أحق بكل حمد وبكل حب من كل جهة فهو أهلٌ أن يُحب لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإحسانه ولكل ما صدر منه سبحانه وتعالى.

وأما المجد: فهو مستلزمٌ للعظمة والسعة والجلال كما يدل عليه موضوعه في اللغة، فلهو دالٌّ على صفات العظمة والجلال، والحمدُ يدل على صفات الإكرام، والله سبحانه وتعالى (ذو الجلال والإكرام)، وهذا معنى قول العبد: (لا إله إلا الله والله أكبر) فـ(لا إله إلا الله)؛ دالٌّ على ألوهيته وتفرده فيها فألوهيته تستلزم محبته التامة، و(الله أكبر) دالٌّ على مجده

وعظمته وذلك يستلزم تعظيمه وتمجيده وتكبيره، ولهذا يقرن سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيرًا كقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: الآية ٧٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: الآية ١١١]، فأمر بحمده وتكبيره،

وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: الآية ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: الآية ٢٧].

وفي «المسند» و«صحيح أبي حاتم» وغيره من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَلِظُّوا بِيَاذَا الجلال والإكرام**»[(١)] حديث صحيح، يعني: الزموها وتعلقوا بها، فالجلال والإكرام هو الحمد والمجد.

ونظير هذا قول سليمان عليه السلام: ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: الآية ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: الآية ١٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: الآية ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٤، ١٥].وهو كثير في القرآن.

وفي الحديث الصحيح؛ حديث دعاء الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم**»[(٢)]، فذكر هذين الاسمين (الحميد المجيد) عُقيب الصلاة على النبي وعلى آله مطابق لقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤، ٣٥٢٥) وضعفه. وأحمد (١٧٥٩٦)، والحاكم (١٨٣٦) من حديث ربيعة بن عامر.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هُود: الآية ٧٣]، ولما كانت الصلاة على النبي وهي ثناء الله تعالى عليه وتكريمه والتنويه به ورفع ذكره وزيادة حبه وتقريبه كما تقدم، كانت مشتملة على الحمد والمجد فكأن المصلي طلب من الله تعالى أن يزيد في حمده ومجده، فإن الصلاة عليه هي نوعُ حمدٍ له وتمجيد هذا حقيقتها فذكر في هذا المطلوب الاسمين المناسبين له وهما اسما (الحميد والمجيد)، وهذا كما تقدم أن الداعي يشرع له أن يختم دعاءه باسم من الأسماء الحسنى مناسب لمطلوبه أو يفتتح دعاءه به، وتقدم أن هذا من قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨٠].

قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: الآية ٣٥]، وقال الخليل وابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٨]،

وكان النبي يقول: «**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور**» مائة مرة في مجلسه(١).

وقال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقد سألته إن وافقت ليلة القدر ما أدعو به قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**»(٢).

وقال للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٤)، وأحمد (٤٧٢٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لي مغفرةً من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[١]، وهذا كثير قد ذكرناه في كتاب «الروح والنفس»، وما قاله الناس في قول المسيح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: الآية ١١٨]».

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
هل تريد أن تكون من المفلحين؟	٧
معنى إقامة الصلاة، وما الصلاة المكفِّرة؟	٨
النداء	١٠
الخشوع وكيف نحصل عليه	١١
طلب الخشوع من الله تعالى	١١
كيفية الحصول على الخشوع من الله تعالى	١٢
معنى الذنب ومصائبه الثلاث على العبد	١٢
قاعدة هامة: (تسلسل مصائب الدين)؛ اقطعها بالاستغفار والصلاة	١٣
الأسباب التي تؤدي إلى عدم الخشوع، وكيفية معالجتها	١٤
معنى الاستغفار وأثره في الخشوع	١٤
الصدقة وأثرها في الخشوع	١٥
تلخيص ما سبق	١٦
كيف الاستعداد؟	١٧
التوبة والاستغفار قبل الصلاة	١٨
غض البصر وأثره في الحصول على الخشوع	٢٠

الاستعداد للفريضة بالنافلة ٢٢
بين التكبير والتسليم ٢٢
الحق الذي خلقنا به (لماذا خُلقنا؟) ٢٣
الغاية من الخلق ٢٤
الصلاة مملكة الأسماء والصفات ٢٥
الله أكبر ٢٥
خمسة أمور عند بداية الصلاة ٢٨
العورة الباطنة والظاهرة ٢٨
التدريب ٣٠
حرب مع الشيطان ٣٠
الثالثة: القبلة ٣١
أدعية الاستفتاح ٣٢
أسباب انشغال الإنسان أثناء الصلاة ٣٢
كن صادقًا عند قولك: (الله أكبر) ٣٣
الاستعاذة ٣٥
افتتاحية من كتاب ابن القيم (الصلاة وحكم تاركها) ٣٧
معاني وحِكَم الوضوء والصلاة ٥٠
قيام الليل بداية الطريق العملي للخشوع في الصلاة ٥٠
ملخص ما سبق ٥١
حكمة الوضوء ٥٢
الفرق بين الدنس والرجس ٥٣
الحكمة من الوضوء (نظافة القلب من آثار الذنوب) ٥٤
لا بد أن تفهم أسرار الوضوء ٥٥

الوضوء عبادة لله تعالى باسمه القدوس ٥٦
لا بد من قيام الليل ٥٧
انظر إلى الوضوء وما حكمته؟ ٥٧
بعض أذكار الوضوء ٥٨
التقرب لله بالأعمال الصالحة ليرزقك الخشوع ٥٩
الصلاة مقابلة مع ملك الملوك ٦٠
تأمل من هذا المثال الفرق بين الركوع والسجود فـ(الركوع تعظيم، والسجود ذُلٌّ) ٦١
الخطوط الثلاثة (حركات البدن وأقوال اللسان وأقوال القلب الذي هو أهم شيء) ٦١
المعنى الهام لكلمة (الله أكبر) ٦٢
معنى: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) ٦٨
معنى الحمد ٧١
الاستعداد لسر الركعة ٧١
الغاية من الخلق ٧٣
الأعضاء الظاهرة وحظها من العبودية ٧٤
الفرق بين العظيم والأعلى ٧٥
جِلسة العبيد ٧٧
كلام للإمام الجليل الحافظ ابن رجب الحنبلي (كتاب الذل والانكسار) ٧٨
الفرق بين القلب والمضغة ٨٣
معنى الخشوع ٨٥
أنواع العباد في استحضار الخشوع في الصلاة ٨٨
طول الأمد ٩٢

معاني أدعية الاستفتاح ٩٥
حال الإنسان قبل الصلاة وأثناء الصلاة وبعد الصلاة ٩٦
محادثتُك أخَاك بالهاتف هل هي أهم عندك من محادثة الله ﷻ؟! . ٩٧
بعض أدعية الاستفتاح من كتاب (صفة صلاة النَّبي) ٩٨
الغاية من الخلق ٩٨
عبادة الله تعالى بأسمائه الحسنى ٩٩
الغاية التي تراد منك أن تعرف ربك، والصلاة ملحمة الأسماء لتعرف بها ربك ٩٩
حديث ذهاب العلم ١٠٠
الخشوع هو أول ما يرفع من العلم ١٠١
أدعية الاستفتاح ١٠٢
الصيغة الأولى ١٠٣
الذنوب تمنع الخشوع ١٠٣
دعاء الاستفتاح وعبادة الله تعالى باسمه القدوس ١٠٤
معنى الإسراف في الأمر وما معنى التنقية ١٠٨
أمثلة أخرى على الإسراف في الأمر ١٠٩
موقف موسى عليه السلام ١١٠
مثال آخر ١١٠
لماذا الثوب الأبيض؟ ١١١
الفرق بين الدنس والرجز ١١١
ليستجيب الله منك؛ افعل هذا ١١٢
المرحلة الثالثة والأخيرة ١١٢
الفرق بين الماء والثلج والبرد ١١٣

سبب وجود صيغ كثيرة للاستفتاح ١١٧

الصيغة الثانية ١١٧

الله ناظرٌ إليك ١١٩

معنى الفَطر لغةً واصطلاحًا ١٢٠

معنى حنيفًا لغةً واصطلاحًا ١٢٢

الشعائر والشرائع ١٢٣

الفتنة وأمثلة واقعية ١٢٤

الثبات في الفتن ١٢٦

(ومحياي لله) الصعود إلى القمة ١٢٨

وأنا أول المسلمين ١٣٠

الملك والعبد «اللَّهُمَّ أَنتَ الملِكُ» ١٣١

الربوبية والملك ١٣٢

كيفية دعاء الطلب ١٣٦

أهمية الثناء والتسبيح والتحميد والتمجيد ١٣٨

خطورة الأمر وأهمية الثناء والتسبيح والتحميد والتمجيد ١٣٨

أمثلة لما يقوله ويفعله النَّبي ﷺ في المقام المحمود ١٣٩

ماذا يفعل أهل الجنة ١٤٣

أمثلة لتسبيح الكون كله ١٤٤

بعض معاني التسبيح في القرآن ١٤٨

الحق الذي خلقنا من أجله ١٥٢

لماذا يرتكب الإنسان المعصية؟ ١٥٢

معنى التسبيح ١٥٣

الفرق بين التسبيح والتنزيه ١٥٧

خلاصة معنى التسبيح ١٥٨
أمثلة على توقف التسبيح والعياذ بالله تعالى ١٥٨
استنباط الحِكم من أفعال الله تعالى ١٦١
إسقاطات على حياتنا العملية ١٦٢
الجانب القدري ١٦٣
الجانب الشرعي ١٦٣
﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١﴾ [الصافات: ١٨١] ١٦٤
مثال واضح على سلام المرسلين (محمد عليه الصلاة والسلام) ١٦٦
معنى الحمد لغةً واصطلاحًا والفرق بينه وبين المدح ١٦٧
الخلاصة في معنى الحمد ١٦٨
معرفة الله تعالى ١٧٠
الكون كله صدر عن (الحق) ١٧١
الفرصة ما زالت أمامنا ١٧٢
الهدف من الصَّلاة ١٧٢
الفرق بين الحمد والمدح ١٧٨
الفرق بين الحمد والشكر ١٧٩
الفرق بين الحميد والمحمود ١٨٠
جاء إثبات الكمال لله في كتاب الله بطرق متعددة ومن أهمها ثلاثة ١٨٥
وإليك بعض الأمثلة الأخرى على قياس الأولى أو الترجيح والتفضيل ١٩٠
إثبات الكمال لله بالطرق الثلاثة من سورة العلق ١٩٣
الأكرم والكريم ١٩٧
الأعلى ١٩٩

صفات الله تعالى ٢٠٥
التذكير دائمًا بالهدف الذي خلقنا من أجله ٢٠٥
الصفات الثبوتية نوعان ٢٠٦
المقصود بصفات الله نوعان ٢٠٧
معنى: (ذو الجلال والإكرام) ٢٠٨
معنى: (حميدٌ مجيد) ٢٠٩
معنى: (غنيٌّ كريمٌ) ٢١٠
الغَنِيُّ الحَمِيدُ ٢١١
معنى: (لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ) ٢١٢
(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) ٢١٢
سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ ٢١٣
سُبْحَانَ اللهِ وَالحمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ ٢١٤
هل تعرف ما جُعل في الصلاة لمن لم يحفظ الفاتحة بعد ولا يعرف شيئًا من القرآن؟ ٢١٥
لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ٢١٥
تطبيق عمليٌّ من قصة سيدنا يونس عليه السلام ٢١٧
ما معنى: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)؟ ٢١٨
اللَّهُ أَكْبَرُ ٢٢٢
اسمه تعالى (المجِيدُ) ٢٢٦
المجيد في القرآن ٢٣٦
أسماء الله تعالى الحسنى ٢٣٩
أسماء الله الحسنى هي باب الخشوع في الصَّلاة ٢٣٩
اسم الله العظيم ٢٣٩

المعنى اللغوي لاسم الله (العظيم) ٢٤١
بعض استعمالات الكلمة ٢٤١
قاعدتان هامتان ٢٤٣
تكملة للعلاقة بين دراسة أسماء الله الحسنى والخشوع في الصلاة .. ٢٤٦
نتيجة خشوعك في الصلاة ٢٤٦
كلمة العظيم في القرآن لها معان متعددة ٢٤٩
اسم الله العظيم في القرآن ٢٥١
طرق إثبات الكمالات لله تعالى ٢٥٢
مثال من القرآن الكريم يوضح إثبات الكمالات لله تعالى ٢٥٣
مثال آخر خطير جدًّا ٢٥٤
اسم الله العظيم في آية الكرسي ٢٥٥
محاولة لتصور بعض من معاني اسم الله (العظيم) ٢٥٥
سورة الواقعة تتقلب في أقسام الربوبية ٢٦٤
سورة الواقعة بيان مفصل لأقسام ربوبية الله تعالى ٢٦٦
العظيم سبحانه وتعالى في السنة ٢٧٤
فأما السياق الجزائي ٢٧٥
اسم الله تعالى «العظيم» ٢٧٧
عتاب للناس لعزوفهم عن فهم معاني الخشوع ٢٧٨
دليلان على ربوبية الله تعالى ٢٧٨
اسم الله العظيم كما ذكرناه من قبل ٢٨٢
اقتران اسم الله تعالى العظيم باسمه تعالى العلي ٢٨٥
بعض مواضع ورود اسم الله تعالى (العظيم) في السُّنة ودلالته ٢٨٧
دعاء المريض واسم الله العظيم في الدعاء ٢٩٣

أدعية لتفريج الكروب واسم الله العظيم ٢٩٥
شرح دعاء يونس عليه السلام ٣٠١
الدعاء المستجاب ٣٠٢
فروق لطيفة جدًّا بين معاني أسماء الله الحسنى - نسأل الله تعالى من علمه ٣٠٦
الحمد ٣١٠
كلام نفيس من ابن القيم (معنى المثل الأعلى) ٣١٠
عرش آخر يستوي عليه بصفاته ٣١١
كيف يكون قلبك عرشًا آخر؟ ٣١٢
ما معنى الحمد؟ ٣١٣
كيف يكون حمد الله تعالى ملء السماوات والأرض وما بينهما؟ ... ٣١٥
أنواع الحمد ٣١٩
الرد على شبهة أن الله خير الماكرين ٣٢٠
أنواع مكر الله تعالى (كما ذكرها ابن القيم) ٣٢١
أمثلة من مكر الله تعالى بالمؤمنين ٣٢٥
من كتاب ابن القيم «طريق الهجرتين» ٣٣٠
والذي يَعْنينا الآن هو الذي ذكر عن نوعي الحمد ٣٤٥
معاني أدعية الاستفتاح ٣٥٢
أنواع العلو الأربعة ٣٥٣
الدلالات الثلاثة لأسماء الله تعالى ٣٥٩
الصيغة الثالثة ٣٦٤
أقسام الربوبية: (القدري الكوني، والتشريعي، والجزائي) ٣٦٤

أسباب تنوع صيغ الاستفتاح **٣٦٨**
ولكن ما معنى (الله)؟ **٣٧٠**
الفرق بين التسبيح والتسبيح بالحمد **٣٧١**
الصيغة الرابعة **٣٧٢**
الصيغة الخامسة **٣٧٤**
الصلاة سبب للخروج من الفتن **٣٧٧**
الصيغة السادسة **٣٨٠**
الصيغة السابعة **٣٨٢**
مراتب الناس في الصلاة **٣٨٥**
مراتب الناس في الصلاة من كلام ابن القيم **٣٨٥**
أنواع القلوب **٣٨٨**
الصيغة الثامنة **٣٩٠**
الصيغة التاسعة **٣٩٥**
معنى الحي القيوم **٤٠٢**
تكملة أدعية الاستفتاح **٤١٥**
الصيغة العاشرة من صيغ الاستفتاح **٤١٥**
الصيغة الحادية عشرة **٤٢٦**
الصيغة الثانية عشرة **٤٢٨**
أذكار الركوع **٤٣٨**
الصيغة الأولى **٤٤١**
الصيغة الثانية **٤٥٠**
الصيغة الثالثة **٤٥٢**

الصيغة الرابعة ٤٦٧
الصيغة الخامسة ٤٦٨
الصيغة السادسة ٤٧١
الصيغة السابعة والأخيرة ٤٧٣
مقدمة في معاني أذكار الرفع من الركوع ٤٧٤
شرح معاني أذكار الرفع من الركوع ٤٧٩
معنى (سمع الله لمن حمده) ٤٧٩
الصيغة الأولى ٤٨٥
الصيغة الثانية ٤٨٧
الصيغة الثالثة والرابعة ٤٨٨
الصيغة الخامسة والسادسة ٤٩١
الصيغة السابعة ٤٩٣
الصيغة الثامنة ٥٠١
الصيغة التاسعة ٥٠٢
الصيغة العاشرة ٥٠٣
معاني أذكار السجود ٥٠٦
الصيغة الأولى ٥٠٦
الصيغة الثانية ٥٠٩
الصيغة الثالثة ٥١١
تكملة شرح أذكار السجود ٥١٢
[تكملة شرح أذكار السجود] ٥٢٤
الصيغة الرابعة ٥٢٤

الصيغة الخامسة ٥٢٥
الصيغة السادسة ٥٢٦
الصيغة السابعة ٥٢٧
الصيغة الثامنة ٥٣٠
الصيغة التاسعة ٥٣٠
الصيغة العاشرة ٥٣٠
الصيغة الحادية عشرة ٥٣١
الصيغة الثانية عشرة ٥٣٢
الأذكار بين السجدتين ٥٣٤
صيغ التشهد ٥٣٨
صيغ التشهد من كتاب «صفة الصَّلاة» للألباني ٥٣٨
تشهد ابن مسعود رضي الله عنه ٥٣٨
تشهد ابن عباس رضي الله عنهما ٥٤٠
تشهد ابن عمر رضي الله عنهما ٥٤١
تشهد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ٥٤٢
تشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٥٤٢
ثانيًا: الصلاة على النبي ﷺ ٥٤٤
صيغ الصلاة على النبي ﷺ ٥٤٦
الصيغة الأولى ٥٤٦
الصيغة الثانية ٥٤٧
الصيغة الثالثة ٥٤٨
الصيغة الرابعة ٥٤٨

الصيغة الخامسة ٥٤٩
الصيغة السادسة ٥٤٩
الصيغة السابعة ٥٥٠
ما معنى الصلاة على النبي ﷺ؟ ٥٥١
صلاة الله على العبد ومعناها ٥٥٢
الصلاة من الله ﷻ على عبده نوعان؛ عامة وخاصة ٥٥٣
بعض محامد النبي ﷺ ٥٦٠
معنى السلام وسر وروده في آخر التشهد ولِماذا جاء مُعَرَّفًا؟ ٥٨٥
(الحميد المجيد) من كتاب «جلاء الأفهام» ٥٨٩
فهرس الموضوعات ٥٩٤